كلمة الوزارة

أ. الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

بغداد.. عاصمة للثقافة العربية

في شهر آذار الماضي، احتضنتنا بغداد لنحتفل بها عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠١٣م.

بغداد، تلك المدينة الغافية على ضفاف دجلة، المغرقة في عراقتها، الملتحفة بحزنها، المتعالية على آلامها. المدينة التي أرادها الخليفة أبو جعفر المنصور، ثاني الخلفاء العباسيين، عاصمة جديدة لدولته ومدينة لا نظير لها على وجه المعمورة، فاستشار منجّميّ قصره المعتَمَديْن فنظرا إلى السماء وتفرّسا في النجوم وأعلنا أن يوم ٢٣ كانون الثاني ٧٦٢م هو أكثر الأيام يمناً للبدء ببناء حاضرة الخلافة.

خطّ المعماريون دائرة كاملة ليكون قطرها حدود المدينة الجديدة، مقتدين بذلك بمبادئ الهندسة الإقليدية، فقد كان الخليفة مغرماً بإقليدس. خطّت الدائرة أولاً بالرماد ثم بحب القطن المنقوع بالزيت. ثم أضرم فيه النار ليرى الخليفة المنصور ما ستكون عليه حدود ما سمي المدينة المدوّرة، المركز الهندسي لعاصمته المستقبلية.

اطمأن قلب الخليفة فقال: «والله لأبنينّها، ثم أسكنها أيامَ حياتي، ويسكنها ولدي من بعدي، ثم لتكوننّ أعمرَ مدينة في الأرض».

وهكذا كانت «مدينة السلام» وهو الاسم الذي نُقش على المسكوكات العباسية والوثائق والكتب الرسمية.. وما «بغداد» سوى الاسم الذي لازمها وهو اسم فارسي للمدينة القديمة التي بنيت عليها.

في بغداد انصهرت التقاليد والثقافات من فارسية وسومرية وهندية وعربية ويونانية، فكانت ملتقى الجميع على تنوّع أصولهم ودياناتهم وعقائدهم وأعراقهم وثقافاتهم، يجمعهم منطق الانفتاح على الآخر والقدرة على التعايش والتثاقف. كانت بغداد ملتقى للتقاليد الفكرية السائدة آنذاك. انتقلت إليها التقانة الهندية في صناعة الورق من الكتان والقنب. وبينما كانت أوروبة لا تزال تدوّن كتبها وترسم خرائطها على جلود الحيوانات، بُني في بغداد أوّل مصنع للورق، وكان ذلك بحسب المراجع التاريخية في عام ٧٩٥م. ثم أُنشئ سوق الوراقين الشهير، مفخرة بغداد، الذي غصّ بمئات حوانيت بيع «صحف بغداد» تلك السلع الورقية الفاخرة التي ذاع صيتها في أصقاع الأرض.

كانت صناعة الورق هذه أحد العوامل المساعدة للنهوض بالمشروع الثقافي العظيم الذي نشر المخطوطات في أرجاء الإمبراطورية العباسية وخرج بها إلى ما وراء حدودها، فنشط تبادل العلوم والأفكار والمعارف.

أسواق الكتب في بغداد، رأينا أجمل نموذج عنها في شارع المتنبي، ملتقى المثقفين العراقيين، أدباء ورجال فكر، يؤمّونه ليرتادوا مقاهيه ويستزيدوا من مطبوعاته المعروضة في المتاجر وعلى الأرصفة، يحملون ما قرؤوه إليها ليبادلوه بعناوين أخرى استهوتهم، وهم من اعتادوا القراءة حتى غدت ملازمة لحياتهم وهواء يتنشقون نسماته لتنقي العقول والأجساد مما علق بها من عذابات الأيام وجورها.

وفي نهاية شارع المتنبي، ينتصب تمثال العظيم أبي الطيب المتنبي ممسكاً بيساره كتاباً يضمه إلى صدره، ومادّاً يمينه إلى الأفق بمحاذاة دجلة، فكأنه يقول:

أنا من نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ

وهناك، في أحد زوايا شارع المتنبي، احتضن مركز بغداد الثقافي بعمارته العباسية النموذجية وفي إحدى قاعاته الفسيحة معرض التراث العربي المادي الذي تجسّد صوراً بالغة التعبير، جميلة التظهير، أنيقة الإخراج... فجاورت صورُ تدمر والجامع الأموي مشاهد آثار حضارات سادت وكانت بلاد العرب موطنها وأرضها الخصبة.

لم يبق من بغداد العباسية الأولى اليومَ شيء، لكن كتب التاريخ والآثار الباقية تشي ببذخ الحياة فيها وبأنها، كما قال اليعقوبي بعد نحو قرن من وفاة الخليفة المنصور، «المدينة العظيمة التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها، سعةً وكبراً وعمارة، وكثرةَ مياه، وصحة وهواء (...) فليس عالمٌ أعلم من عالم أهلها، ولا أجدل من متكلمهم، ولا أعرب من نحويِّهم، ولا أمهر من متطبِّبهم، ولا أحذق من مغنيهم، ولا أشعر من شاعرهم.... ولا أفتك من ماجنهم».

تاريخ بغداد، بما عاشته من ألق وما عانته من كوارث وما كابدته من آلام، لخَصته أوبريت شعرية غنائية قُدِّمت في ثالث أيام افتتاح الاحتفالية، فكان أن تعانق فيها فصيح الكلام وعذب الألحان وبراعة الرقص التعبيري، ضمن توليفة إخراجية ومشهدية متطورة كانت محطَّ إعجاب جمهور تجمَّع غفيراً ليحتفل بافتتاح عاصمته عاصمة للثقافة العربية، ويفرحَ بعد أن عزَّ الفرح، ويتذكرَ ماضياً كان مفخرة، ويعتبرَ من دروسٍ كلفتهُ الكثير.

اختزلت الأوبريت مراحل بارزة من تاريخ البلاد، بكل ما فيها من عظمة وحضارة... وألم وظلم وتدمير وتشتت... فأحيت مشاهد للبابليين والآشوريين

والسومريين، ثم توقفت طويلاً عند العباسيين، قادة وبنائين وشعراء وفلاسفة ومترجمين. فرأينا وسمعنا كيف ولد مشروع «بيت الحكمة» وكيف أنجز ليربط فلسفة اليونان وحكمتهم بالمعارف الفارسية والعلوم الهندية. هذا المشروع الحضاري التنويري الذي أجريت لإنجازه أموال كثيرة من بيت المال، وسخّرت الدبلوماسية للحصول على أعمال لأفلاطون وأرسطو وأبقراط وجالينوس واقليدس، ونسخة لتحفة بطليموس في علم الفلك المجسطي.

استمتعنا برؤية وسماع الحلاّج وأبي نواس وزرياب والرصافي. كما عرّجنا على أسواق بغداد ومدارسها وجوامعها ومقاهيها ومجالسها الأدبية حيث كانت المحاضرات والمناظرات والمناقشات في طائفة واسعة من المسائل الدينية والعلمية والفلسفية المعاصرة. استمعنا لظرفائها، وأصغينا لعلمائها وفلاسفتها وشعرائها وفنانيها. أعدنا عبر هذا العمل الفني المتقن اكتشاف بغداد في زمن الفن والفكر والبناء والرخاء... ثم استذكرنا ما عانته من همجية المغول وما كابدته من خراب الحروب وظلم الاحتلال وقسوة القتل والحرق والهجرة.

أتراه قدرُ بغداد أن تعمّر وتزدهر لتهدم وينكل بها ؟

ولله درّ الجواهري الذي كان حاضراً في هذا العمل الفني بشخصه وزيّه وهيئته المميزة وشعره البليغ. أنشد أجمل ما قال في حب بغداد وأهلها وتاريخها.. فأعاد للذاكرة بيتاً قاله في دمشق الفيحاء، شقيقة بغداد الكبرى وشريكتها في السراء والضرّاء:

دمشق صبراً على البلوى فكم صُهِرتْ   سبائكُ الذهبِ الغالي فما احترقا

اليوم تعود بغداد لتولد من رحم الألم. تنهض كالعنقاء، تنفض عنها غبار الأحزان وتلبس ثوب عرس الثقافة... فهنيئاً لبغداد عرسها..

❁ ❁ ❁

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

العرب
أسسوا حضارة الغرب

«جوناثان ليونز» عمل محرراً ومراسلاً صحفياً لوكالة «رويترز» الإخبارية العالمية، أكثر من عشرين عاماً، في بعض البلدان العربية والإسلامية، وهو الآن يعيش في العاصمة الأمريكية «واشنطن» حيث يكمل أطروحته للدكتوراه في علم اجتماع الأديان، ويدرّس في أكثر من جامعة أمريكية، ويبدو أنّ تنقُّله في هذه المناطق الساخنة من العالم، الغنية بتراثها وحضارتها، جعله يؤلف كتابه المهم والمثير والمتألق الذي حمل عنوان «بيت الحكمة.. كيف أسس العرب لحضارة الغرب» يقدم فيه قصة مدهشة لما حققه العلماء العرب في العصور الوسطى من إنجازات متقدمة في العلم والفلسفة، وقصة الأوروبيين الجوّالين الذين نقلوا هذه المعرفة إلى الغرب.

في كتاب «بيت الحكمة» الذي نشر باللغة الإنكليزية عام ٢٠٠٩م، وترجم إلى لغات عدّة، وحقق انتشاراً كبيراً في مناطق كثيرة من العالم، يركز «جوناثان ليونز» على حال أوروبة بعد سقوط روما، وتحوّلها إلى مكان خلفي منعزل، عالم يزرع ليعيش، لا يقرأ ولا يكتب إلا قليلاً.. غارقاً في صراع عنيف.. في هذه الأثناء كانت الحضارة العربية تزدهر، وتبهر أولئك الأوروبيين المحظوظين الذين ألقوا نظرة خاطفة.. مجرد نظرة على التقدّم العلمي الآتي من دمشق وبغداد وأنطاكية ومدن بلاد فارس وآسيا الوسطى وبلاد الأندلس..

لقد كان الفلاسفة وعلماء الرياضيات والفلك العرب والمسلمون يدفعون أمامهم باضطراد وحيوية وازدهار حدود المعرفة، ويُحْيُون أعمال أرسطو وأفلاطون وسقراط.. وفي المكتبة التي أسسها الخليفة العباسي هارون الرشيد في بغداد وعرفت باسم «بيت الحكمة» عمل جيش كبير من العلماء بأمرٍ منه، ومن الخلفاء من بعده، وخاصة ابنه المأمون.. وبينما كانت أفضل مجموعات الكتب في أوروبة لا تتعدى بضع عشرات من المجلدات، كان «بيت الحكمة» العربي يفتخر باحتوائه على أربعمئة ألف مجلد.

في العصور الوسطى، في أوروبة، كان المرض والجوع يفتكان بالناس.. لم تكن الرعاية الطبية في الأغلب تزيد عن قراءة التعاويذ، وبتر الأطراف المصابة، وكان التعذيب هو الحكم الفصل في القضايا الجنائية، إضافة إلى غيره من أنواع التنكيل..

أمّا العلم فكان نادراً جدّاً.. كان التعليم يشتمل على حفظ نصوص قديمة عن علماء اللاهوت ضيّقي الأفق، الذين لم يكن لديهم فهم لأساسيات الرياضيات أو «التكنولوجيا» ولم يكن في استطاعتهم تحديد تاريخ أهم الأيام

عندهم، ولا رسم الحركات المنتظمة للشمس والقمر والكواكب، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن صناعة الورق، أو استخدام العدسات والمرايا، ولم يكن لديهم فكرة عن الإسطرلاب، سيد الآلات العلميّة آنذاك، وكانت ترعبهم الظواهر الطبيعية كخسوف القمر، أو التغيّر المفاجئ في الطقس، وكانوا يظنون ذلك سحراً أسود، وكانت الكنيسة تتصارع مع حكّام أوروبة اللادينيين على الحقوق والمزايا، وكان ثمة مفكرون دينيون يقولون بجواز استعمال العنف الديني ويسوغونه..

* * *

العصور الوسطى في المشرق العربي، كان أمرها يختلف.. لقد نجح العرب المسلمون في اقتفاء خُطا الإسكندر الأكبر، ووصلت جيوشهم وفتوحاتهم إلى الصين شرقاً وجبال «البيرنيه» غرباً، وتمّ استعادة الروابط القديمة بين المراكز التاريخية للحضارة على رقعة واسعة جداً، فأوجد هذا بوتقة نفسية لصهر التقاليد التي كانت قد أجبرتها الانقسامات السياسية على التباعد لقرون عدّة، وفي الأندلس ترسّخ هذا التقليد الفكري نفسه بعمق في عهد عبد الرحمن الداخل، الأمير الدمشقي، ومن أتى بعده..

عظمة التلاقي العربي الإسلامي، انعكس على التقاليد الفكرية والثقافية، ومن هذه النتائج، الحصول على تكنولوجيا الورق الصينية المدهشة، التي كانت عوناً هائلاً للمشروع الثقافي العالمي الذي كانت ملامحه الأولى قد بدأت تتشكل في البلاط العباسي.. جاء في الأثر العربي أنّ أسير حرب من معركة «تالاس» سنة ٧٥١م، والتي أحرزت فيها الجيوش العربية المسلمة نصراً حاسماً على جيوش سلالة «تانغ» جَلَب فن صناعة الورق إلى مدينة «سمرقند» بآسيا

الوسطى، فقد علَّم الأسير الصيني آسريه كيف ينتجون الورق من الكتّان والقنّب، وكانت النتيجة منتجاً رخيصاً ومرناً وملائماً لتدوين كل ضروب المعلومات، من الجداول الضريبية إلى قصائد الحب، ومن الكتابات الفلسفية إلى جداول النجوم، وسرعان ما أصبحت «سمرقند» المركز الرئيس لصناعة الورق، ثم ازدهر هذا الفن في سورية وشمال أفريقيا وبلاد الأندلس، وقد ورد ذكر أوّل مصنع للورق في بغداد سنة ٧٩٥م، وصار «سوق الورّاقين» لاحقاً الذي ضم مئات الحوانيت التي تبيع السلع الورقيّة الفاخرة، وكان ورق بغداد يقدّر عالياً في المنطقة، حتى إنّ بعض المصادر البيزنطية تسمي الورق «صحف بغداد» في ربط مباشر بينه وبين المدينة الواقعة على نهر دجلة..

في تلك الأثناء، كانت أوروبة لا تزال تعتمد في طباعة كتبها وخرائطها على جلود الحيوانات، التي كانت تُمط وتُكشط وتُجفف، وكانت تلك مهمة تتطلب دقّة وجهداً كبيرين، وكان رق «البرشمان» الناتج عنها ثقيلاً، يصعب التعامل معه وحفظه، وكانت صناعته مكلفة، أمّا الورق، فلم يكن يعاني من أيّ من هذه العيوب، وكانت سرعة توفيره، وسهولة استخدامه ونقله قد سرّعت إنتاج ونشر المخطوطات في أرجاء الإمبراطورية العربية كافة، وسمح هذا بدوره بالتبادل السريع والفعال للأفكار والمعارف، محفّزاً الطلب على إنتاج المزيد من الأعمال والبحوث والكتابات العلميّة والمعرفية.

كذلك غذّت صناعة الورق ثقافة الكتاب العميقة لدى العرب، وصارت أسواق الكتب والمتاجر المتخصصة سمة معتادة من سمات الحياة في المدن العربية الإسلامية.. وسرعان ما أنتجت رعاية النخبة المؤلفين وكتبهم مكتبات كبرى، فتح بعضها للعامة، وفيها حجرات قراءة وأدوات نسخ، وكان الأمويون

قد أنشؤوا في دمشق أوّل مكتبة عربية، تضم أعمالاً يونانية وسريانية في السيمياء والطب وعلوم أخرى، كذلك كان السلاطنة الفاطميون في مصر من كبار جامعي الكتب ورعاة «الأكاديميات» وكانت مكتبة المستنصرية ببغداد سنة ١٢٣٤م تضم ثمانين ألف كتاب هدية من مكتبة الخليفة..

لقد وضع الأمويون الأوائل في دمشق أساس البحث العلمي، وقد ركّزوا أوّل الأمر على مسائل الشريعة وممارسة الطب.. أمّا الخلفاء العباسيون فقد وسّعوا نطاق المعرفة ليشمل الدراسات الفلسفية والعلوم المُحكمة، وعلم النجوم، والقيام بترجمات كثيرة من اللغات الأجنبية إلى العربية، ومنها الأعمال القديمة لكبار العلماء الهنود والفرس واليونان.. ولاستيعاب ضخامة العمل المطلوب، أنشأ المنصور مكتبة ملكية على غرار تلك التي كانت لملوك الفرس العظام، واحتاج الأمر كذلك إلى حيّز للعمل والدعم الإداري والمساعدة المالية لجيش العلماء، الذين سيتولون هذه المهمّة العظيمة.. وكان هذا أصل ما بات يُعرف باسم «بيت الحكمة» التعبير المؤسسي الإمبراطوري الجامع للطموح الفكري العباسي الأوّل، الذي لعب دوراً مهمّاً في رعاية الأعمال الأدبية والفكرية والعلمية العربية الإسلامية.

لقد أجريت أرزاق كثيرة من بيت المال، لبيت الحكمة، ومشروعات الإغناء الثقافي والفكري المتصلة به، وحتى الدبلوماسية وابنة عمّها الحرب في بعض الأحيان، كانتا تسخّران لدفع عجلة المعرفة إلى الأمام، فغالباً ما كانت الوفود العربية إلى البلاط البيزنطي المنافس تنقل طلبات للحصول على نسخ المتون اليونانية النفيسة، ونجحت في الحصول على أعمال لأفلاطون وأرسطو، وأبقراط وجالينوس وأقليدس، وسرعان ما انتشرت بين العرب، ومن

ثم اللاتين، وقيل إنّ الحصول عليها كان أحد الشروط للصلح بين القوتين العظيمتين.. ولم يكن الخلفاء وعلماؤهم الرسميون وحدهم فقط وراء هذه الحملة، فقد بات هذا المسعى سمة ملتصقة بالمجتمع العربي الإسلامي في العصر العباسي، وحظي بدعم حماسي من النخبة الاجتماعية والسياسية، من علية الأمراء والتجار والضباط العسكريين.. وأصبح العلم وسواه من المساعي الفكرية، وسيلة أساسية للتقدم الاجتماعي، مما أسهم في تحطيم ما تبقى من الهرمية الاجتماعية التقليدية للعرب، وعزز كذلك تنافس العلماء ذوي الأصول المختلفة على الفوز بالرعاية، وهي ظاهرة ضمنت استمرار العمل العلمي والأدبي الرفيع قروناً، وكان يتقاضى أبرع المترجمين مبالغ ضخمة لقاء عملهم، وقد عرف عن أحدهم أنه كان يتقاضى وزن المخطوطة التي يترجمها ذهباً، أو يرتقي إلى منصب رفيع نظير عظمة منجزاته الفكرية.

على امتداد /١٥٠/ عاماً، ترجم العرب أكثر كتب العلم والفلسفة اليونانية، وحلّت العربية محل اليونانية كلغة عالمية للبحث العلمي، وغدا التعليم العالي، أكثر تنظيماً في أوائل القرن التاسع الميلادي، وكان في أغلب المدن العربية الإسلامية جامعة من نوع ما، مما فتح المجالات لتطور العلوم والمعارف في الرياضيات والفلسفة وعلم الفلك والطب والبصريات وغيرها من الفروع المعرفية، التي شكّلت بحق ما يمكن تسميته «العلم العربي» الذي تطور وازدهر بفضل الفكر الخلّاق الذي اعتمد على ما أضافه العلماء العرب إلى ما ترجم من الأدبيات العالمية، فقد ابتكروا مصطلحات علميّة جديدة مرنة، ورسّخوا مفهوم الجدل والمناظرة وطرائق المنطق والبيان، وقدموا

الشروحات التي أغنت العلم القديم ووضعته في متناول العالم المعاصر، مما كان حافزاً للتطور العلمي والفكري لدى العرب في مجالاته كافة.

علوم وآداب ومعارف العرب انتقلت إلى بلاد الأندلس منذ أن وطئت أقدام طارق بن زياد وجيوشه البر الأيبيري في ربيع عام ٧١١م، وتطورت مع عبور عبد الرحمن الداخل المضيق إلى أوروبة في خريف عام ٧٥٥م، وهنا برزت عبقرية عرب العصور الوسطى، التي تكمن في قدرتهم الفائقة على نقل الأفكار والفنون والعلوم والصنائع في المناطق التي يحلّون فيها، وصار أهل الأندلس في ظل الحكم العربي خبراء في تحويل وتجميع وتوزيع المياه للزراعة وعرفوا الساقية والناعورة والطاحونة المائية العربية، وتكررت عملية التداول من الشرق إلى الغرب شاملة كل شيء، من أحدث أنماط الموسيقا والملابس إلى الإقبال على الدراسات المتقدمة في علم النجوم والرياضيات والطب والفلسفة..

منذ تأسيسه، راح البلاط العربي في بلاد الأندلس يستورد الكتب، ويجذب إليه العلماء من الشرق، في محاولة مدروسة للتنافس مع العباسيين، وقد ترك الصراع الطويل بين الخليفة المأمون وأخيه على العرش العباسي في أوائل القرن التاسع الميلادي، عدداً من علماء وأطباء وشعراء البلاط مؤقتاً بلا رعاية أو أفق، وكان بعضهم أكثر من سعيد أن يذهب ويجرّب حظّه في الأندلس، ومن هؤلاء الموسيقي الشهير زرياب الذي قدم من بغداد في ظروف غامضة وحمل معه مجموعة أعمال تقدر بآلاف الأغاني، وسرعان ما جعلته موهبته وشهرته مرجع الأسلوب والذوق والثقافة الشعبية في قرطبة، وإليه يرجع الفضل جلّه في تعريف الناس المحليين بأسباب التأنق في المعيشة..

لقد انتشرت العلوم والإبداعات العربية الأندلسية في شتى أرجاء الأندلس وجنوب فرنسا، وازدهرت المكتبات العربية، وكان هناك ميدانان اثنان على الأقل فاق فيهما علماء الأندلس نظراءهم في الشرق.

الأوّل: وهو الأقرب إلى الأرض، علم الزراعة، وما اتصل به من فروع معرفية كعلم النبات، والصيدلة، وعلم الفلك، وعلم الأرصاد الجوية.

أمَا الثاني: الأقرب إلى السماء، فكان فلسفة أرسطو، وما اشتملت عليه من علم الكون، وما وراء الطبيعة، وأصول اللاهوت.

لقد أوجد العرب خلال قرون عدّة، فضاءات فسيحة جدّاً من القيم المشتركة، والمستقبل المشترك والفرص المشتركة.. لقد سعى العباسيون لشرعنة حكمهم بصفتهم الورثة الحقيقيين الجديرين لتراث اليونان وفارس والهند وبلاد ما بين النهرين، مطلقين مسعى لعله الأكثر طموحاً في التاريخ لجمع واستيعاب علوم العالم.. وفي بلاد الأندلس، أنتج منافسوهم الأمويون، ومن أتى بعدهم من أعظم الفلاسفة والعلماء العرب، مفكرين هزّت أعمالهم في يوم ما أسس أوروبة العصور الوسطى، وكانت الأندلس منصّة مهمة جداً لانتقال الأفكار و«التكنولوجيا» التي بدأت تتسرّب شيئاً فشيئاً إلى أوروبة الغربية ابتداءً من القرن العاشر الميلادي..

تحيَّة من القلب للكاتب الأمريكي «جوناثان ليونز» الذي قدّم للعالم قصة لم يروها أحد من قبل، عن «بيت الحكمة»، وحضارة العرب وعلومهم وأفكارهم التي نقلت الغرب من عصر التخلّف والظلام إلى عصر التقدّم والنور.

تضاريس الثقافة

د. أحمد عمران الزاوي ٭

منذ أواخر ثمانينيات القرن الفائت تغيرت نوعية الصفع الذي كان ينهال بها النظام الرأسمالي على النظام الشيوعي، كان أشد أنواع الصفع هو الصفع الإعلامي الذي كان يؤكد على أنَّ النظام ورث عن الجد الستاليني عنفه وإقصاء الفكر الآخر ويعيد إلى الذاكرة دوماً أن غوركي الأديب الإنساني ذاق من ظلم ستالين ما عجل بموته في عام ١٩٣٦م.

كان التغيير بتغير النظام الشيوعي الذي أعلن «غورباتشوف» عن وفاته في أميركا حيث أخلى موقعه لتخلو قيادة العالم للكف الأميركي والعقل الأميركي.

في بلادنا العربية، وقعت الثقافة والمثقفون فريسة سهلة للنظام الرأسمالي.

لقد انجذب مثقفنا إلى السلطة لأن في يدها الأرزاق والأموال.

منذ ذلك الوقت وقعت حرية الأديب تحت وطأة الموت السريري الذي لا يمكن الجزم فيما إذا كان المتمدد على السرير حياً فيرجى أو ميتاً فيُنعى.

إنَّ فقدان الكلمة لموقعها القيادي كارثة قومية.

فعندما ينزل الأديب إلى سوق المساومة ويدلل على أدبه عارضاً تبعيته إلى دافع

٭ أديب وباحث ومحام سوري.

السعر الأعلى.

عندما يتحكم اللجام بفكّي الكلمة فتتقدم وتتأخر، وتستقيم وتلتوي، وتجمد وتنصاع انسياقاً مع حركة اللجام.

عندها لا يقتصر الموت السريري على المثقف بل البلاد جميعها تدخل في أرذل العمر

تفتّحت أبواب العقل الغربي على مصاريعها وانطلقت من دون مكابح صناعةً وتجارةً وسياسةً واقتصاداً وثقافةً.

أمّا نحن فلم نغادر سن الطفولة العقلية ذلك السن الذي لا يزال يطوق عقولنا منذ الاستعمار التركي.

يلقي إلينا الغرب بسلال من حضارته فنبني بها وعليها أبنية حياتنا في الطعام والشراب، في اليقظة والمنام، في الإقامة والانتقال، في السلم والحرب.

لذلك التزم حبنا وبغضنا بتلك السلال.

فنحن نحب من نتلقى منه، ونكره من حجب سلاله عنا.

تلك كانت بداية الاستعمار الحديث.

انتداب. وصاية. استعمار. احتلال.

فالانتداب والوصاية: هما إشراف الكبير على الصغير ما دام دون سن البلوغ.

والاستعمار: هو إعمار ما ينبغي أن يعمَّر ويطوَّر.

أمّا الاحتلال: فهو النيِّر الذي لا يسقط إلا بعمل ثوري.

أرجو ألاَّ يُساء فهم قولي وألاَّ يزاود أحدٌ علي فقد امتلأت بحب أمتي ولن أنسى أبداً أنها أصلي وموئلي.

إن ما ألقى بنا في وحل الزمان، هو «كتمان المعرفة من العارف».

و«الصبر على جور الجائر» و«تدجين الفكر في مداجن الذل».

لقد اكتفت كثرتُنا باجترار التاريخ من دون اعتبار.

مثلما تفعل «أم الاجترار» مع رجيع بطنها، فهي رابضة في الحقل تمرُّ أمام سمعها وبصرها تغريد الطيور وصور الضوء والخضرة، ودندنة النحل وتهويم الفراش فلا يعلق شيء على دماغها الأملس.

وفي هذا الزمن الذي لا يتوقف فُرض علينا أن نسير سير الهرم وراء الشباب حتى غدونا مثل قطعة القماش تتجاذبها قوتان توشك أن تتمزق بينهما.

السلفية القديمة التي تحمل من العمر قروناً عديدة.

والحداثة التي تريدنا أن نكون كما يجب أن نكون.

ولو اقتصرت أمورنا علينا لاستطاعت -مع الزمن- جيناتنا الحضارية أن تدخلنا

في سوق الحضارة فلا نرى بعيون الآخرين ولا نسمع بآذانهم ولا نفكر بعقولهم نحن ومن سبقنا ومن سوف يأتي بعدنا ملزمون بالأزمنة التي تمر بنا.

وقد رأى علي -كرم الله وجهه- هذه الحقيقة فقال:

«لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فقد خلقوا لزمن غير زمنكم».

وما كان قوله إلا أخذاً من قول الله:

«تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»

(البقرة- ٢/١٣٤)

لا نذيع سراً ولا نعدو حدود الواقع إن قلنا: عقود القرن التاسع عشر الأخيرة والعقود الأولى من القرن العشرين خير من العقود التي تلت.

- فجمال الدين الأفغاني الذي توفي في ١٨٩٧م كان فيلسوفاً.
- وتلميذه الشيخ محمد عبده الذي توفي في عام ١٩٠٥م نُفي لأنه ناوأ الإنكليز.
- ومصطفى عبد الرازق الذي توفي في سنة ١٩٤٧م ألفَّ «تاريخ الفلسفة» و«مواهب الفارابي».
- والكواكبي الذي توفي في سنة ١٩٠٢م أنشأ جريدة الشهباء وألف «أم القرى» و«طبائع الاستبداد».
- وأحمد لطفي السيد الذي توفي في سنة ١٩٦٣م صاحب «الجريدة» وصاحب الكتب العديدة في القومية والفلسفة.
- وأحمد أمين، وقاسم أمين، ومصطفى كامل.
- وأمين الشُّميِّل، وشقيقه شبلي: الأول: صاحب جريدة الحقوق.

والثاني: طبيب وفيلسوف أنشأ مجلة الشفاء.

- وفرح أنطون صاحب مجلة الجامعة الذي توفي في سنة ١٩٢٢م.
- وجرجي زيدان صاحب مجلة الهلال ومؤلف «التمدن الإسلامي» و«تاريخ آداب اللغة العربية» والكثير من الروايات توفي في سنة ١٩١٤م.
- ويعقوب صَرُّوف وفارس نمر.
- وآل البستاني: (البطرسان، وسليمان، وعبد الله، ووديع، وفؤاد وأفرام)
- وآل اليازجي: (الشيخ ناصيف وولداه إبراهيم ووردة).
- وآل كرم: (نعمة الله، وأنطوان غطاس، وكرم ملحم، واليوسفان).

تلك القمم التي وضعت مواجعها في خدمة الأمة من دون تفريق طائفي أو شعوبي فكانوا دروعاً مانعة من دون تصدع اللغة واندثارها.

دافعوا عنها بمجلاتهم وصحفهم ومقالاتهم ومعاجمهم في سبيلها ووقفوا بفخر وصدق عند كل مجد حققته الأمة فكان الوقوف الطويل الصادق عند الثورة الإسلامية التي رفعت الأمة من الحضيض إلى القمة.

لقد تجاوزوا المحن الشعوبية والطائفية، فالتقت مراكبهم جميعاً في ميناء الأمة مثلما تلتقي الجداول في النهر فتختلط مياهها وتتجه جميعها بالاتجاه الواحد..

تساءل ويتساءل الكثيرون:

لماذا كان أمس الأمة أفضل من يومها؟

لماذا تصحّر الفكر؟

- لماذا لم تلد أرحام اللغة أمثال أولئك المجددين؟

إن كانت- كما يقولون - الحاجة أم الابتكار- فلماذا ونحن في أمس الحاجة- لم تتحرك فينا روح التطور والتجدد؟

هذه اللماذا؟ التي لا يزال سَوادُها مخيماً على أيامنا.

جوابها واحد وواضح و يسير هو بكل اختصار: «لأنّ العقل عندنا أسلم أمر القيادة إلى الغرائز والعواطف» ومنذ ذلك صرنا نسير في الزمن على خلاف الطبيعة.

ظل الواقع الطائفي المستبد قائماً طيلة الحكم التركي[1] فما شذَّ أحدٌ من المثقفين والسياسيين إلا أوغل النظام في إذلاله قتلاً أو نفياً أو تهميشاً.

في المؤتمر الذي عقد بباريس في سنة ١٩١٣م كان التيار اللامركزي هو الغالب على التيارات السياسية العربية الأخرى.

ذلك التيار كان ممثلاً بـ«حزب اللامركزية» «الذي كانت أقصى أهدافه التقدمية قيام اللامركزية أي تبقى المركزية والمرجعية في إستانبول فجميع الخطب- تقريباً- في ذلك المؤتمر، اتجهت نحو تقسيم البلاد العربية إلى ولايات ترتبط جميعها بنظام لا مركزي.

كانت مقررات لندن تتمطى..

وكانت فكرة التجمع اليهودي في فلسطين تنضج في قِدْرِ الظروف فالتفتيت اللامركزي وإن كان أول اهتزاز في الحكم التركي وإن كان لا يحقق أهداف المؤتمر اللندني والأهداف الصهيونية فهو خطوة أولى رأوا وجوب دعمها وتأييدها.

المقررات التي تلت ولدت من رحم مؤتمر لندن.

ف:

إن العصا من هذه العُصَيَّة

لا تلد الحية غير الحية

ونحن- وإن كنا بصدد الدَّوْر الثقافي- ملزمون بالإشارة إلى الأحداث السياسية التي وقعت فصارت أجزاء من تاريخ الأمة.

لأنّ السياسة، كانت على الدوام ترجمةً للمستوى الثقافي الذي بلغه الشعب فالثقافة «كتباً وكتابة». «خُطباً ومحاضرات». «شعراً

ونثراً وفلسفة» كانت الدموع الأولى التي تذرفها الأمة على الورق لتتحول بعد النضج السياسي إلى رصاص قاتل.

- الدعوة التي قطعها مكماهون إلى الشريف حسين، كانت قاطعة في تحديد الحق والواجب.
- حقه أن يصبح بمعونة بريطانيا ملكاً على الأمة.
- واجبه أن يساعد جيش بريطانيا في طرد الأتراك.

وقد صار الابتداء بالواجب فاشتركت جيوش الحسين في طرد الأتراك وكانت أقدام الجيش تنهال صفعاً على أقفاء الانكشاريين إلى ما وراء طوروس.

أما حق الحسين فقد ابتلعته السياسة البريطانية ولم يمض غير القليل حتى كانت أبرز طرفي معاهدة «سايكس بيكو» وعرابة «وعد بلفور» وحامية «الشراذم اليهودية القادمة من شتى أصقاع الأرض».

المصالح والمصالح فقط هي التي كتبت أحداث التاريخ بين الأمم وجسدتها في الجغرافيا وقبل أن يأخذ الاستغراب بالألباب نبادر على أن الارتباط بين «الإنتاج الثقافي» وتجسده في الواقع التاريخي والجغرافي قائم منذ القديم.

فتصرفات الأمم كانت ومازالت تبادل في المواقع والتأثير بين المثقف والسياسي.

- فإن سبق الفكر تأثرت به السياسة وهرولت وراءه.
- وإن سبقت السياسة تأثر بها وهرول وراءها وانبرى لدعمها.

من الخير للأمة أن يكون الفكر في المقدمة لأنه في انعكاس الحال تغدو هرولة الفكر وراء السياسة تبعية ونتاجه خدمياً نفعياً انتهازياً.

منذ أن تخلف الفكر واستقلت الأيدي الأمية بالقيادة بدأت تسقط علينا الصواعق السياسية وتبعثرنا. ففي بطن كل صاعقة جارحة من جوارح الأمة عاكف على هضمها بكل شهية.

من هنا:

من هذه الزاوية الحادة ما فتئت الأمة توجه نقدها إلى مثقفيها.

فالمثقفون العرب كانوا في الماضي أوّل من شعر بحاجة الأمة إلى الانطلاق من القيود وفي الظروف العبقرية كان التاريخ بين يدي المثقفين عجينة مطواعة ، طياً ولياً وصياغة.

قالت الأمة: مثقفو زماننا هم أحفاد عمالقة الثقافة الأسبقين.

فلماذا أصبحت الأدمغة ملساء لا تتأثر ولا تؤثر؟

لو تصدت أقلام المثقفين لعورات مقررات لندن لما تسنى لمعاهدة سايكس بيكو أن تكون، ولو فنّد المثقفون عناصر

الغدر في تلك المعاهدة لما صدر وعد بلفور، ولو فضحت أخطار الوعد لما قامت دولة إسرائيل في خاصرتنا.

ولو توضح للعرب أن الأسنان الصهيونية الضاحكة تخفي للعرب في سراديبها السم الناقع لما استطاعت إسرائيل أن تشن الحروب وأن تقتطع من جوارح الجسد العربي ما تشاء تحت سقف التطبيع.

تلك الصواعق المتتابعة التي غابت عنها الثقافة ارتبط لاحقها بما سبقه ارتباط النتائج بالمقدمات.

كنّا شعباً مميزاً بين شعوب الأرض - ففرقونا شعوباً، وألزموا كلاً منها باسم استخرجوه من إقليمه الجغرافي «الشعب المصري». «الشعب العراقي». «الشعب السوري». «الشعب اللبناني». «الشعب السعودي». «الشعب الجزائري». «الشعب الليبي». «الشعب التونسي». «الشعب اليمني».

حتى مجهريات الخليج أطلقوا على سكان كل منهما اسم «المسخ الجغرافي» الذي يتقوقعون فيه.

في كل هذه الأشتات، جيش خاص، ودستور خاص، وقوانين خاصة.

- ثورة أحمد عرابي ابتدأت بزخم عربي أصيل وانتهت بنفي عرابي وحلول الإنكليز في مصر.
- ثورة عمر المختار انتهت بالتبديد وإعدام القائد عمر بيد الطليان.
- ثورة الجزائر بعد أن تقاضت من الشعب الجزائري مليون شهيد تسير منذ الاستقلال متوكئة على العصا.
- مجابهة يوسف العظمة انتهت باستشهاده في ميسلون وتشتيت جيشه ودخول غورو إلى دمشق.
- والثورات السورية «ثورة الشيخ صالح العلي» و«ثورة هنانو» و«سلطان باشا الأطرش» و«مريود» وسواهم انطفأت جميعاً وبقي الاستعمار..

واليوم:

وقد خلت أقطارنا من الوجود العسكري الأجنبي، وتعيش الاستقلال يتساءل الجميع.

ما هو المصير؟ أين دور المثقف؟

فيجيب الواقع بكل جهارة:

استقلال: نعم، ولكن بالمفهوم الغربي.

استقلال كل إقليم عن سواه من الأقاليم الشقيقة في «السلم والحرب والسياسة والاقتصاد والثقافة والدستور والقوانين والأنظمة».(٢)

هذا النوع الدنيء من الاستقلال محمي بالحراب فالعين التي تتطلع إلى الوحدة يجب أن تُفقأ والشخص الذي يخطو على هذا الدرب خطوة واحدة يجب أن يُرديَه الرصاص.

وعلى الكراسي في أكثر الأقاليم يتربع أذناب الأجنبي ومزاريبه صار تثبيتهم عليها بالملصقات والبراغي.

يقول قارئ الأيام:

الذي يحزّ في النفس أن زخم الثوار الذين عرفتهم العقود الأولى في القرن السابق فقط خَفَت حتى لم يعد مسموعاً.

لقد حلّ محله نزيف أخلاقي قومي مستمر فصارت الحواشي متوناً وصارت المتون حواشي.

ولكن أين غاب المثقفون؟

حينما يكون الوضع القومي ميتاً، يحرك السياسيون قرائح الشعراء لإغداق الأوصاف البراقة على الهيكل المتداعي، وحينما يكون حياً ناريّ الحركة يشق النثر طريقه إلى الجمهور حاملاً دواء التخلف، وسداد الحاجات.

فالنبع الذي تتبثق منه «الفلسفة» و«العلوم الاجتماعية والرياضيات» و«التشريع» و«الفكر» في التحليق والسبر والغوص والمحاضرات والمناظرات ومجالس العلوم» هو النبع الثقافي الذي يستمد قوته في التدفق على النثر.

إذ لا يمكن التعبير عن تلك المفردات الأساسية لحياة كل مجتمع بالشعر.

لذلك قالوا:

- لا يكثر الشعر وقائلوه إلا حينما تتدنى الثقافة ويقف المدُّ العلمي.
- فموريتانيا ذات المليون شاعر تعيشُ التدني الثقافي والسياسي.

أنا لا أستطيع ألا أرى أن الشعر كان- وما زال- أرقى ما تصل إليه الروح ولكنه بحكم طبيعته وموقعه غير مكلف ولا مؤهل لصياغة النظريات الفلسفية والاجتماعية والتشريعية والعلمية وحتى النظريات السياسية.

فالتعبير عمّا تقدم يكون بالمذكرات والمؤلفات والمحاضرات وذلك لا يتم بالقصائد.

النثر يمشي على قدميه بين الناس لذلك يستطيع رؤية الأمور عياناً.

أمّا الشعر فلا يستطيع أن يتخلى عن جناحيه اللذين يحطان به دوماً على القمم فلا يرى ما في بطون الوديان والوهاد والمنخفضات.

غوته:

الذي تمنى نابليون أن يكون مثله فقال عنه: «هذا إنسان».

غوته: وضع «فاوست» و«آلام فرتر» بالنثر ولم يضعْهُما بالشعر.

الشاعر مثل الرياضي:

فمثلما ينحصر إيمان الرياضي بعضلاته ويقتصر نشاطه عليها.

ينحصر إيمان الشاعر بالخيال الذي لا تمسكه القيود.

والجامع بينهما بُعدُهما عن الثوابت التي تغطي الأرض.

ماذا يستفيد المجتمع من قول بيتهوفن: «الذبذبات التي يحملها الهواء هي أنفاس الله وهو يخاطب الإنسان والموسيقى لغة

اللّه ونحن الموسيقيون أقرب ما نكون إليه نسمع صوته ونقرأ شفتيه ونلد أبناء اللّه الذين يسبّحون بحمده».

ذلك خيال:

إن كان مقبولاً في عالم الأجنحة فهو غير مقبول في عالم الواقع.

هل كان في مستطاع بيتهوفن أن ينكر أنه مخلوق وموجود؟

فكونه مخلوقاً يعني ثمة خالق، وكونه موجوداً يعني ثمة موجد.

فلا يستطيع أي مخلوق أن يُحصيَ أنفاس خالقه وأن يقرأ شفتيه وأن يلد أولاده.

لذلك:

وُصف هذا النوع من القول بالشطح.

ووصف القرآن قائليه بأنهم «في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ» (الشعراء-٢٦/٢٢٥- ٢٢٦).

المثقف يثري الحضارة بالكتب والنظريات التي كثيراً ما صنعت مصائر الأمم.

أمّا الشاعر فغير مطلوب منه ذلك ولو طلب منه لطغى الخيال على العلم.

ليس بين الأديب الحقيقي وشعبه فواصل.

بل الملاحظ أن هذا التوحيد يزداد تماسكاً وتوهُّجاً في صدره حينما يكون الشعب تعيساً

وإذ قلنا «الأديب الحقيقي» فلأن الكون الشعبي يضم الكثيرين غير الحقيقيين.

إذ ليس كل ما يلمع ذهباً والسراب لن يتحول إلى ماء ولو احترقت الأحشاء.

الأديب الحقيقي هو رسول اجتماعي.

والرسول الاجتماعي يرفض أي لجام ويرفض أن يقدم ظهره للامتطاء أو أن يمتنع عن الصهيل الثوري لأنه يأخذ مؤونته من واقع الشعب فلا تذلل وتبعية لما مضى ولا تطوُّح مجهول إلى ما سوف يأتي لأن الله خلق لكل زمن أبناءه.(٣)

المنافقون يتصرفون بأسلوبين: أسلوب على الورق وأسلوب في الحياة.

فالأسلوب الورقي أعد لكي يراه الناس طافحاً بالهموم القومية وداعياً للنضال في سبيل الوحدة العربية.

أمّا أسلوب الحياة فهو «الذيلية» و«التبعية لأصحاب النفوذ».

كان هتاف الجماهير «بالروح بالدم نفديك يا عبد الناصر» يشق عنان الفضاء في مصر وحينما تداعى لم يُفدَ بدم ولا بروح.

كذلك تعالت الهتافات المماثلة أمام السادات ومبارك والقذافي وابن علي وعلي صالح وصدام وسواهم.

ولكن ذلك:

- لم يحم الأوّل من الرصاص الذي اخترق صدره.
- ولم يحم الثاني من السجن المؤبد.
- ولا الثالث من النهاية التعيسة.

- ولا الرابع والخامس من التشرد والاغتراب.

- ولا السادس من المشنقة التي أسقطت رأسه قبل جسده.

أبواق النفاق لم يخل منها زمان.

ومنافقو ما تأخر من الأزمنة هم أحفاد من تقدموا.

فما من فرق بين:

- جرير الذي قال لعبد الملك بن مروان:

ألستم خير من ركب المطايا

وأندى العالمين بطون راح

- وذلك الشاعر الذي خاطب الخليفة قائلاً:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهّار

فكأنما أنت النبي محمد

وكأنما أنصارك الأنصار

- وذلك الذي سبب قتل الأمويين بإنشاده الخليفة.

فضع السوط وارفع السيف حتى

لا ترى فوق ظهرها أمويا

- وتوفيق الحكيم الذي كان من أصدقاء عبد الناصر وجلسائه ولكنه وضع بعد وفاة عبد الناصر كتاب «عودة الوعي» تشفياً منه.

والآن:

فلنذكر بكلمات سريعة مجمل ما وقع على أمتنا من الحوادث منذ العقد الثاني من القرن العشرين ولنذكر ردود فعلنا عليها.

«سقط الكف التركي عن العنق العربية».

«وضعت معاهدة سايكس بيكو».

«صدر وعد بلفور». «انكشفت للعرب أكاذيب مكماهون». «التركيم اليهودي في فلسطين».

«استعمال جميع الوسائل لتهجير العرب».[4] «التحكم بالقناة والمضائق» «تجريد الجسد السوري من جوارحه، لبنان، فلسطين، شرقي الأردن، السنجق واللواء» حزمة من الكوارث تتالت علينا.

ثم كانت ثالثة الأثافي «قيام إسرائيل» ودعم وجودها وتفوقها وارتكاباتها المتكررة وحروبها ضدنا في سنة ١٩٤٨م و١٩٥٦م و١٩٦٧م و١٩٧٣م و١٩٨٢م و٢٠٠٦م و٢٠٠٧م.

ظروف أخطبوطية بدأت تلتف على أعناقنا منذ تسعة عقود وما تزال.

مانعة عنّا عمق التنفس وحريته.

معتقلات مضائق فكرية وسياسية وقومية والشعب باحث لاهث عمن يضع مخطط الإنقاذ.

مهمة صعبة استبعد الشعب عنها «الشاعر» و«المثقف التابع».

الأول: يؤمن بجناحيه أولاً.

والثاني: ألحق قلمه بالخدمة.

غير أن واجب الحق يحتم أن نفرق بين الاثنين.

فالشاعر يشترك مع الثوار يثير العواطف ويخلد الانتصارات وإنتاجه الذي- وإن

كان أعذبه أكذبه- مقبول في ثنائه على المنتصرين ولو اختلط الثناء بالمبالغة.

أمَّا من باع قلمه شعراً أم نثراً فلا خير فيه لأنه من زُناة الفكر القومي.

حتى الآن:

كانت ولا تزال- ردود فعلنا شعارات.

نحن ثوار: نعم ولكننا ثوار الشعارات.

شعارات لها دوي الرعد ولكن الخالي من الخير.

يتجمع المحاسيب والمزاريب والتابعون والعملاء والمنافقون ويرفعون على الأكتاف أبرزهم في التعبير عن النفاق فيلقي على المسامع خطاباً حروفه من النيران القومية فيصفق الجمهور وتعلو الهتافات ثم يذهبون بعد ذلك إلى مصالحهم الشخصية وكفاهم الله شر الجهاد.

هؤلاء:

- المجتمعون ومن تجمعوا له وأناطوا به مهمة الإنقاذ.
- الهتافون ومن هتفوا له.
- الذيليون والمؤخرات التي غرسوا فيها.
- التابعون ومن تبعوا له.

كلهم جماعة من الباعة.

أما الشاري فهو من ذوي النفوذ والثراء.

يعرض الباعة بضاعتهم فمنهم من يحظى بالسعر المرتفع ومنهم من يعود بالبخس.[٥]

أمَّا المخططون الملتزمون. وإن ظلوا- حتى هذه الأيام- نفراً قليلاً فالأمل معقود عليهم.

الهوامش

١- سقط السلطان عبد الحميد علي على يد «أتاتورك» في سنة ١٩٠٩م ولكن الاستعمار التركي لم يسقط في البلاد العربية حتى أواخر الحرب العالمية الأولى.

الشهداء الذين شنقهم الأتراك في ٦أيار بساحتي المرجة وبيروت.

٢- حتى الاستقلال الإقليمي الصغير يخضع الآن لعملية التفتيت الطائفي.

٣- قال علي (كرم الله وجهه): «لا تقسروا أبناءكم على أخلاقكم فقد خلقوا لزمن غير زمنكم».

٤- منذ أيام وفي أوائل الأول من عام ٢٠١٣م بدأت في إسرائيل حملة بترغيب الأسر الفلسطينية بالهجرة لقاء نصف مليون دولار لكل أسرة تترك الضفة الغربية لكي لا يبقى في فلسطين غير اليهود.

٥- البخس: هو القليل جاء في القرآن «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» (يوسف- ١٢/ ٢٠).

الأدب السوري بين ١٩٤٠-١٩٥٥م

قمر كيلاني ✿

من بدهيات القول: إنه لا يجوز في التاريخ عامة وفي تاريخ الأدب خاصة وضع حدود زمنية تبدأ بعام وتنتهي بعام آخر، فالقوى المحركة والدافعة لتيارات الأدب لايمكن أن تُحصر في مجرى طولاني إن أمكن حصر ضفافها عرضانياً، فالأدب جريان دائم مستمر يحمل معه مؤثرات سابقة تصل أحياناً إلى الينابيع الأولى والأصيلة. كما أن هناك ذاكرة للشعوب كما هي للأفراد قد تعود بهم إلى عهود سحيقة من دون أن يدروا لأنَّهم يحملونها كما يحملون خصائصهم. إنَّ الوقوف تحت مظلة زمنية معينة من دون النظر إلى ما قبلها أو التطلع إلى ما بعدها كثيراً ما يكون بعيداً عن الموضوعية، وبصورة أخص إذا حددنا البقعة بسنين معدودة لأننا بذلك نكون قد حددنا الرؤية ولو كنا نملك وجهات نظر متعددة أو قدرة على التحديد والتثبّت.

لعلَّ هذا ينسجم أكثر ما ينسجم مع تاريخ العرب الحديث الذي لم تنته الأسئلة حوله، ولم تتضح فيه نهائياً معالم الرؤية فما قولنا بالتاريخ الأدبي إذن؟ إنَّه مخاضات الثلاثينات أو أواخرها، وبالتالي الأربعينات لم تلد اتجاهات واضحة إلا في الخمسينات. وتفتّح الوعي السياسي والاجتماعي بعد

✿ أديبة وروائية وقاصة سورية راحلة، وجدت هذه الدراسة ضمن أوراقها الخاصة وتنشر لأوَّل مرة.

نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م لم يؤت ثماره إلا بعد عشرين عاماً ظهر في أوّل وحدة عربية بين قطرين هما مصر وسورية، وفي دعم ثورة الجزائر في رفع شعارات القومية من الخليج إلى المحيط، والدعوة إلى التضامن ضد أعداء الأمة العربية وأشكال الاستعمار الجديد عليها ومنها الصهيونية.

في هذا السياق التقريبي، إضافة إلى أنّه تجريبي محاولة لجعل معايير فترة ما ومقاييسها قادرة على أن تعود إلى ما قبل، وكذلك أن تنسحب إلى ما بعد تلك الفترة كماً وكيفاً. ولسنا هنا نستقصي حقائق وأرقاماً ومعلومات غاية في التحديد، ولا ندقق في عرض أسماء، وعناوين، وتواريخ بمقدار ما نهتم بالإطلالة العامة على الأدب السوري في تلك الحقبة أو ما يسمونها بالأجنبية «Panorama». إنّها إطلالة ثقافية يمكن أن تنتج معرفة لها صفة الشمول، واطلاعاً له ميزة التذكير بما تناثر وتبعثر من معلومات.

هذه المقالة البحثية عبارة عن نظرة شمولية عامة إلى واقع الأدب السوري في الحقبة التي قررناها. إنّه عرض تاريخي.. ولكن لابد من التأكيد أن هذه النظرة مهما توخّت العرض النزيه، والتزمت الحيادية والموضوعية لابدَّ أن تبنى على أحكام نقدية معينة لعلها أحكام على الواقع التاريخي بالدرجة الأولى وليست أحكاماً على الأشخاص.

إنَّ هذه الفترة بالذات التي اتسمت بالنضال الوطني ضد الاستعمار المحلي، وبالنضال القومي ضد الاستعمار العالمي والإمبريالي والصهيونية إنّما هي في الأدب تتسم بسمات البورجوازية وتطبع بطابعها.. والمقصود بها البورجوازية الصغيرة بالذات.

لقد كانت هذه الطبقات الاجتماعية أقرب الطبقات إلى الانتمائين السياسي والفكري، وبالتالي إلى خلق واقع أدبي معين، وإن هي استطاعت أن تستقطب عناصر أخرى فهذه العناصر كانت قليلة لم يكن لها أن تفعل وتحرك إلا بعد هذا التاريخ بالذات (أي بعد عام ١٩٥٥م).

والأدب السوري في تلك الفترة هو من نتاج تلك الفئة عموماً.. هذه التي استطاعت أن تتهابط إلى البنيات التحتية للمجتمع لتمتص آلامها، أو لتراها بأحوال ضعفها، وقهرها، واستغلالها لتصنفها ولو من الخارج على أقل تقدير إن لم يكن لها أن تعرف معاناتها وطموحاتها.

ولعلَّ النظرة الأولى لهذه الفترة توحي بأنه كان هناك مخاض ثوري حقيقي لكن الدارس يدرك أنّها انبثاقات صغيرة لا أكثر، وأن نصيب

الافتعال فيها كبير.. والأديب ماذا يفعل؟ يريد أن يفتح صدره لقضايا مجتمعه وأمته.. ويريد أن يجدد لاسيما وأن رياح الحضارة الغربية والثورات التحررية قد حملت له بعضاً مما كان للأدب من دور طليعي وفعّال إن لم نسمه في تلك الفترة نضالياً.

وإذا كان الأديب قد اطلع بنفسه على ثقافة الغرب أو عاشها، أو كان له انتماء أو شبهه سياسياً فلا شك أنه قد حاول أن يذهب بهذا الدور الذي رسمه لنفسه إلى مدى أبعد مما ذهب إليه غيره. هذا وفي الوقت ذاته لم يكن قادراً أن يتخلى عن الثقافة العربية التقليدية التي تعادل الأصالة والكلاسيكية كما لم يكن قادراً على التخلي عن جذوره اللغوية أو عن أي من معطيات الواقع الذي كان يبدو بسيطاً لكنه في الحقيقة كان بالغ التعقيد والتركيب.

وعلى الرغم من التخبطات والتناقضات ومآسي النظريات الفكرية والفلسفية التي تسربت كان الأديب عموماً يحاول أن يكون مثالياً من خلال الإنسان التوّاق إلى كل ما هو جيد وجديد.

يقول (صدقي إسماعيل)[1] في رواية (العصاة) على لسان أحد أبطاله (سامي): «لماذا نذهب إلى الجامعة وكل شيء يتعفن في هذه البلاد؟»، ويقول أيضاً: «قد آن أن تنبش الخفايا وتطرح في الساحات العامة لكي يرى المجتمع حقيقته المتعفنة».

هذا الواقع يجد الدارس نفسه منساقاً للتعامل معه محكوماً برباط من التاريخ حتى إننا أحياناً لا نجد أي انفصال بينهما، وكأن مَنْ يقرأ (أثراً) أدبياً في تلك الفترة يقرأ نشرة سياسية أو واقعة اجتماعية.

وهذا التعامل بحد ذاته ليس سهلاً.. يحتاج إلى دقة في تحديد الحوادث من حيث أهميتها تلك التي ولدت الأفكار أو الآثار الأدبية، وهو أيضاً من أجل الكشف بحاجة إلى ممارسة دراسة لا يمكن أن تتوافر من خلال أشخاص بعينهم أو آثار بعينها.

النثر ومشكلة اللغة والنقد:

من مستعاد القول: إنَّ النثر كان أسبق من الشعر إلى التحرر من القيود وفتح الأبواب أمام أجناس أدبية جديدة خاصة به.. ويبدو أن من مرحلة الكفاح الوطني وتفجير الكلمة خطبة، ومنشوراً، ومقالة سياسية وغير سياسية قد اختصرت المسافة، ووضعت النثر في مرحلة لم يستطع الشعر خلال ربع قرن من الزمن أو أكثر أن يصل إليها في تحرره من قيوده.

إن أيّ نص من النصوص منذ أوائل الأربعينيات لا يكاد يفترق أسلوباً عمّا يكتب

الآن.. ويبقى المضمون.. إنَّه شيء آخر. أمَّا النثر الذي نستطيع أن نقول عنه إنَّه النثر الفني فقد ظل يحتفظ بشيء من الأناقة اللفظية إن لم نقل تصنّعها وبالصور الزاهية الملونة التي يرسمها الكتّاب متأثرين بجبرانية وواقعية فيها الإحساس بالكلمة والصورة وجمال الصِّياغة.. وإذا وصلنا إلى اقتراب النثر من أرض الشعر فهذا ليس مما يضير بشيء.. بل هو من أهداف الشعر في الاقتراب من النثر أكثر من أهداف النثر. والموسيقى مطلوبة في الكلام إن شعراً وإن نثراً، والممجوج هو السجع والتكلف فيه.

في هذه الفترة إذاً.. نحن أمام نثر حر وأوَّل ألوانه هي المقالة.. لكن المشكلة هي اللغة التي تقود هذا النثر.. تسوده أو تتحكم فيه. ومنذ الصرخة الجريئة التي أطلقها (جبران خليل جبران): «لكم لغتكم ولي لغتي».. والأصداء تتردد.. ويبدو أنَّ الخوف من هذه الحرية ونتائجها قد بدأ في الثلاثينات عندما قال (شاكر الكرمي) في الرد على المتمردين على اللغة: «ذلك لأنهم متمردون يخطئون في اللغة فإذا نبهتهم إلى أخطائهم قالوا لك إننا متمردون، ويغلطون في قواعد الإعراب، فإذا كشفت أغاليطهم أجابوك بأنهم متمردون، ويحيدون عن قواعد البلاغة وأساليب البيان المقررة فإذا عاتبتهم قالوا لك إنَّنا متمردون».

فما هو ذلك التمرد العجيب الذي يجعل الأدب عبثاً محضاً وسخافة خالصة، ويخرج من عالم الفنون الرفيعة ذات القواعد المقررة والأصول المحكمة إلى فوضى شنعاء لا أول لها ولا آخر ولا حد ولا غاية؟!

يقولون إنَّنا متمردون على اللغة وقواعدها وعلوم البلاغة ومقرراتها.. إنَّنا قوم نتعلق بالمعنى ولا نبالي بالألفاظ وطرق صياغتها.

ولا مجال للدخول في معركة الأخذ والرد بين أنصار المحافظة على اللغة ومن ينادي بالتحرر مما نعرف ولا نعرف من قيودها.. لكن المهم أن نسجل أن تلك الدعوة كانت غامضة وبغير حدود واضحة، هجينة وتلعب بها أيد استعمارية خفية في نبذ الفصحى واعتماد العامية أو التخلي عن قواعد اللغة، وتسكين الحرف أو تحويل الشكل والحركة إلى حرف، إلى آخر ما هنالك..

وربما استطاعت هذه الدعوة أن تنفذ إلى ألوان من النثر كالقصة، والرواية، والمقالة بثوب الواقعية تارة، وابتغاء للسهولة تارة أخرى، فظهرت أعمال أدبية إمَّا بالعامية أو باللهجة المحلية، وإمَّا بحوار عامي أو محلي حتى لو كان هذا الحوار يستغرق قسماً كبيراً من هذا العمل. هنا نقول:

تكفينا الحجة الدامغة عن علاقة المسرح بالجمهور واضطراره إلى هذه اللهجات، أو العامي من اللغة حتى تفتح الأبواب للنثر بكل ألوانه وفنونه، فالمتمرد إذن يحمل إلى جانب الجهل باللغة والانصراف عن أصالتها أفكاراً تخريبية لقطع الجذور، وتسيُّب النثر وحبسه في إقليميات ضيقة، وبالتالي منع الأدب العربي من أن يكون عربياً حقاً.. ومن ثم عالمياً.

ومن اللغة نصل إلى النقد ذلك أن النقد في حينه كان ملازماً للغة، والنقد كان يعني بالدرجة الأولى نقد الأسلوب، والتفريق بين الأسلوب القديم والأسلوب الحديث.

يقول (جميل صليبا) عن النقّاد: «إذا كان هؤلاء قد أخذوا خلال هذا العهد ينسجون على منوال الأوروبيين في تحليلهم وتقويمهم فمرد ذلك إلى أنّهم حذقوا في الأدب العربي والأدب الغربي على السواء، والمقارنة بين ما وضعه الأساتذة الجدد وبين دراسات القدماء توضح الغامض في الأسلوب والنهج». (صليبا) الذي يمثل هذه الفترة يضع شروطاً أوّلها أنّه إذا أريد للأسلوب أن يتطور وفق الحديث أو النهج الأوروبي فما على الكتّاب -وبالتالي على النقّاد- إلا أن يكونوا ملمين بالقديم، متمكنين منه حتى يتاح لهم أو إن صح التعبير حتى يحق لهم أن يجددوا.

فالدعوة إذاً إلى التجديد (إن صح أن نسميها دعوة لأنّها تفسير لظاهرة) تشترط أن تبقى الجسور موصولة، وأن ينهل الجيل الحاضر ممن سبقه، وهي الدعوة نفسها التي لا تزال مغروسة منذ الرواد الأوائل، والتي يبدو أنَّ بعض النقّاد قد عادوا إلى إبراز قيمتها كالناقد (محي الدين صبحي).

ولابدَّ من العودة سريعاً إلى مفهوم النقد في تلك الفترة والذي يقسمه (صليبا) إلى: النقد البياني، والنقد التحليلي (فقد حاول بعض النقّاد السوريين ممن تكلف تدريس الأدب العربي أن ينقلوا النقد من طوره اللغوي والبياني إلى طوره التحليلي.. ودراساتهم وإن كانت متفاوتة في الجودة والإتقان إلا أنّها تعتمد بالدرجة الأولى على منهج علمي يجمع بين التاريخ والتفسير والنقد. المسألة -كما هو واضح- تعريف أولاً ثم وضع خطة عامة وشروط ثانياً. وهذا يكفي في اعتقادنا ليعتبر اعترافاً أو بداية لنقد مختلف عمّا كان في الماضي إن لم يطلق عليه اسم النقد الحديث فهو الذي يجمع بين التاريخ والتفسير والنقد، ولو أنَّ الكلمة الأخيرة (النقد) لا تزال غامضة أو معتمدة على أن تفسر ذاتها بذاتها.

ولعل المقصود بها النقد الذوقي، وذلك لأن النقد لم يكن يعني بأكثر من تحكيم الذوق للحكم على أثر ما.

أمَّا (سامي الكيالي) فهو يقول في تعليقه على كلمة لخليل مردم:

«إنَّ هذا الأدب الذي ألحت عليه العلل كان يتطلع إلى طبيبه الحاذق.. وكان المجمع العربي يضم الكثير من الأطباء ولكنهم كانوا يحاولون إنقاذ علته بطب ابن سينا لا بطب باستور مثلاً. أي كانت مهمته مقتصرة على صون اللغة وإنقاذها من الميوعة والعجمة. وقد أدى واجبه في هذا المضمار ولم يستطع أن يخطو خطوة في تطوير الأدب».

والإشارة هنا واضحة إلى ناحيتين:

١. الإلحاح على العلاقة بين الأسلوب واللغة.

٢. دور المجامع العلمية في هذا السبيل (ولا سبيل لها غيره) من جهة أخرى. وهذا الذي أشار إليه كثيرون غير (الكيالي) قبله كمحمد كرد علي، وبعده أو معاصر له كجميل صليبا الذي يلفت النظر في كتابه (اتجاهات النقد في سورية) أثناء عهد الاستقلال إلى أهمية المجمع العلمي العربي، وكذلك إلى إنشاء كلية الآداب في جامعة دمشق. ويلحق بها عناية الكتّاب بالقصة والرواية والترجمة، وكذلك اهتمام الشعراء بالمسرحيات.

والسؤال هو: هل إن هذا الإلحاق يفترض وجود هذه الأجناس الأدبية بمعزل عن أساليبها الجديدة وهدفها في تطوير اللغة؟ وهل المسرح الشعري كان آنذاك هو المسرح المعترف به على مستوى الجودة، أو ضمن نطاق الأدب؟

ويعود (سامي الكيالي) ليقول:

«كان لتطور الدراسات الأدبية وكثرة الاتصال بالغرب ومدارسه، وترجمة روائع كبار الأدباء، والرجوع بالأساليب إلى جزالتها المشرقة، ثم هذه البواعث القومية التي أثارت الأمة العربية فاستيقظت من غفوتها الطويلة، وما رافق نضال الوطن السوري من ثورات دامية أثارت الكتّاب والشعراء للتعبير عن نوازعهم والتفاعل مع الأحداث وتصويرها، كان لجميع هذه العوامل أثر في تطوير فكرة الأدب فتعددت منازعه، وتطورت أساليبه فلم يعد مقالة وقصيدة فحسب بل أدخل الكثير من آفاق الفكر، وأغوار النفس، ومجاهل العلم، وشتى ميادين الحياة».

رأي (الكيالي) شامل، ويفتح قنوات بين الأسلوب والمضمون (ولو بشكل عام وغير واضح)، لكن رأي (صليبا) أكثر دقة. وأشار (الكيالي) إلى أن الأدب لم يعد مقالة وقصيدة يوحي بفترة زمنية أقرب إلا إذا كان المقصود بالمقالة هي نفسها التي برزت أول عصر النهضة، وكان أبرز أنواعها المقالة السياسية.

أمّا الينابيع التي ألح عليها هؤلاء وغيرهم فهي:

الأدب العربي القديم، أدب الأمم الحية، الذات السورية، طبيعة الأرض، كفاح الشعب ونضاله في سبيل سيادته، وسيادة العرب وحرياتهم.

ويأتي منهج (شكري فيصل) وهو في فترة متأخرة ولا يزال في سير نحو النضج ليشير إلى وجوب الانتقال في النقد من الفردي إلى العام، ومن الجزئي إلى الكلي، وهذا ما دعا إليه علم النفس وعلوم حديثة أخرى، وبدأه المستشرقون في تناولهم للأدب العربي وجعلهم الأثر الأدبي جزءاً من صاحبه، وبالتالي جزءاً من عصر أو مرحلة ذات سمات معينة. ونستطيع القول إن جذور هذه النظرة عند (شكري فيصل)، أو أن أسباب تطبيقها على الأدب العربي بشكل خاص ما توصلوا إليه من أن شخصية العربي تهتم بالجزئيات قبل الكليات وتكتفي بالفردي، وقد لا تنتقل منه إلى العام، والأدب العربي كله ذاتي، والشعر فيه غنائي بهذا المعنى.

والنقد عند (شكري فيصل) يعتمد: العرض-النقد- التوجيه.

فالعرض هو تصوير كل نظرية كما هي.

والنقد إبراز محاسن كل نظرية وعيوبها من جهة صلتها بالأدب العربي وتساوقها معه.

وأمّا التوجيه فهو اتخاذ هذا النقد وسيلة لبناء مذهب جديد يجمع في سماته النظريات السابقة ويجتنب عيوبها. وهذا ما ذهب إليه (جبرائيل جبور) في التوفيق بين مناهج النقد الأصولي، والتاريخي، والسيكولوجي، والجمالي، والتأثري، والمثالي.

ويبقى فهم هذه المذاهب في تلك الفترة: كيف وإلى أي مدى يتطابق مع حقيقة المذهب وإمكانية توفيقه محلياً على الأدب العربي؟

وممن جمع في تلك الفترة بين التحليل والتركيب الأستاذ (شفيق جبري)، وله آراء تتعلق بالأسلوب: «الكلاسيكي هو الذي ثبت على الدهر حتى وصل إلينا سهلاً بسيطاً. ولا قيمة لثمرات القرائح إلا بطرافة أسلوبها، وجدة معناها، ولكن هذه الأساليب الجديدة سرعان ما تعتق كما تعتق الأزياء ولا يكتب لها البقاء إلا إذا كانت واضحة وبسيطة. إن بساطة الأسلوب وحدة في كثرة، أو كثرة في وحدة مثلها كمثل شعاع الشمس..».

وعلى هذا فالأساليب الجديدة بما فيها من التعقيد والغموض سريعة التغير لبعدها عن البلاغة ولا يبقى إلا الفن السهل البسيط، ولا يشترط الأفكار الجديدة بل جودة الصياغة لهذه الأفكار وحسن العرض، وهذا تأييد لرأي الجاحظ.

ومن هذا الباب آراء في الشعر والمقالة والقصة والرواية.

والمقالة نوعان: صحفية- ومقالة المجلات. الأولى وشروطها: البساطة، والسهولة، والاتصال بالموضوعات العامة. والثانية: أوسع مدخلاً، وأعمق تفكيراً. أمَّا القصة والرواية فالأدب الحديث مال إليهما من دون البلوغ إلى الغاية، وبعضها تبدو مجردة عن الفن.

وهكذا نرى أنه لم يفصل ليس بين الشكل والمضمون فقط بل بين الأسلوب والجنس الأدبي أيضاً. المهم أن تغييرات حصلت ولابد للنقاد والدارسين من أن يدلّوا عليها، ويضعوا إصبعهم على نقاط الضعف فيها، أو أن يشيروا إلى ماهية هذه المتحولات.

ونستطيع القول إن نقد القصة والرواية عموماً لم يحظ باهتمام في تلك الفترة كما حظي به الشعر إلا القليل مما كتبه (خليل هنداوي)، و(جميل سلطان)، وغيرهما.

وهكذا نرى أيضاً أنه لم يفصل بين الفكر والممارسة في ظروف قومية وعالمية جديدة، فالوطنية التحررية في العالم توافقت مع العالم العربي، ثم إن ظهور الأحزاب الوطنية المستندة إلى الشعب ساعدت على ذلك وجعلتها أكثر بأساً، وبقوة الجيوش الوطنية ظهر التغير الاجتماعي، وبدأت الأفكار الاشتراكية من خلال الأحزاب اليسارية والحركة النقابية، وبرزت فكرة الوحدة كحل بديل عن التجزئة، وتبعاً لكل هذا اختلفت الأساليب كما اختلفت المضامين.

(خلدون الشمعة) يرفض هذا التطابق بين التاريخ الاجتماعي والسياسي وبين تاريخ المخيلة المبدعة، ويقول: «إن هذا الإطار قد سيطر على المبتدعات الأدبية على اختلاف أجناسها والتي أصبحت تعامل على أساس تابع وممثل لهذا السياق إلى حد بلغ من الميكانيكية حداً يفترض أن الكاتب يرتبط سلفاً بنوع من السخرية التي ترغمه على ترداد ما هو شائع حيناً، وما هو متوقع منه في أحيان أخرى».

وهذا لم يكتف بتكريس المبتدعات الأدبية واعتبارها ردود فعل قاصرة على الأحداث، وإنما تعدى إلى وضع أعمال فنية كثيرة خارج نطاق الحركات والمذاهب الأدبية لمجرد أنها متمردة على الإيقاعية السائدة.

رأي له قيمته.. يميل إليه كثيرون، ويبدو استقصائياً حين تبدو أعمال أدبية كانت غايتها الجمالية والفنية فقط.. أو تلك التي اعتمدت أساليب جديدة من دون أن تحقق من ورائها أي هدف في المضمون قبل الأسلوب.

أجناس أدبية جديدة:

القصة:

انطلاقاً من الحدود التاريخية التي وضعناها للبحث نستطيع أن نقول إن (فؤاد الشايب) من الروّاد الأوائل لفن القصة في سورية، وكتابه (تاريخ جرح) الذي صدر عام ١٩٤٤م يُعَدّ أول مجموعة قصصية صدرت في سورية. هذا لا يعني أنه -هو أو غيره- لم يكتبوا قبل هذا التاريخ. فالشايب نفسه كتب بين أعوام ١٩٣٠- ١٩٤٠م عدة قصص من المجموعة نفسها مثل: (الشرق شرق)، و(أحلام يولاند)، إلخ..، وتمتاز هذه القصص بأنها (لقطات) سريعة ومركزة من المجتمع تحمل روح النقد والتحليل النفسي أو الاجتماعي، وتبتعد عن السردية وإن وقعت في كثير أو قليل من الوصف، يقول: «القصة كما أفهمها سيرة نفس لا حكاية حوادث.. هي (قطعة) من المحيط الذي أعيش فيه.. تعيش في نفسي وفي أعماق وعيي فإذا خرجت فإنها تظل تحمل بصمة الحياة التي عاشتها حيناً في طوية النفس».

أمَّا عن الرواية فهو- كما أورد (شاكر مصطفى)- إنَّ خير الروايات ما هو من الواقع المحلي إلى الصعيد الإنساني.

وهناك من الكتّاب القصصيين أيضاً: (علي خلقي)، (محمد النجار)، (إليان ديراني)، (نسيب الاختيار). وأكثر القصص لهؤلاء ولغيرهم في تلك الفترة كانت أقرب إلى الحكاية منها إلى مفهوم القصة الفنية، وتحاول بجرأة أن تتصدى لقضايا المجتمع، والحب، والجنس حتى إن نشر مجموعة قصصية لمحمد النجار كان في حد ذاته فضيحة لأنَّها تتحدث عن الحب والعلاقة بين الرجل والمرأة. ولقد هوجمت قصصه بمثل العنف الذي تهاجم به الفضائح حتى إن بعضاً من الشخصيات الثقافية في ذلك الحين تصدت للدفاع عنه كما يدافعون عن مجرم.

ولعلَّ السبب يعود إلى الكشف عن النماذج الشاذة في المجتمع، عن الأخطاء التي كان الناس في محاولة لطمسها لا الوقوف عندها وفتح الأعين لإصلاحها. والحقيقة أن معالجة القصص كانت سطحية، وأقرب إلى السذاجة مما دعا القصاصين أنفسهم إلى أن يعترفوا -كما قال (الاختيار)- بأن القاص في بلادنا يعوزه النضج التاريخي لتصوير العوامل الكامنة وراء الأشياء، وإنَّه لا يعكس المجتمع.. ولهذا لا يجد المجتمع نفسه في القاص السوري. ولابد أن نسجل تحفظاً في هذا المجال فلقد استطاع هؤلاء الكتّاب أنفسهم ومَنْ هم في جيلهم أن يلحقوا بالركب بعد الستينيات، وأن يعطوا

ما هو في حدود الالتزام لقضايا أمتهم ومجتمعهم، وللكادحين من أبناء الطبقات الفقيرة والمسحوقة، ولابدَّ أن نسجل بأمانة أيضاً أن هؤلاء بذروا الواقعية في القصة السورية وإن كانت أقرب إلى الوقائعية أو الريبورتاج الصحفي منها إلى الواقعية بمفهومها الصحيح، ولعل الحوار القريب من العامية أو المحلية يؤكدان ذلك.

وماذا عن الأدب النسائي -إن صح التعبير- في تلك الفترة؟ الملاحظ أن أقلاماً نسائية نشطت وبرزت إلى الوجود: (وداد سكاكيني)، و(ألفت الأدلبي)، وتليهما (سلمى الحفار)، وتواكبهما أسماء أخرى لسيدات برزن في مجال العمل النسائي أكثر من ميدان الأدب: عادلة بيهم الجزائري، قمر قزعون، نديمة المنقاري، نعيمة المغربي، وغيرهن.. كما تواكبهما أسماء لسيدات حاولن أن يكتبن بجرأة من مشاكل المرأة ومعاناتها في المجتمع أمام قضايا التحرر فسقطن وسقطت كتبهن كما هو الحال مع (روشن بدرخان) التي أصدرت عدة كتب منها (مذكرات معلمة). ونستطيع القول إن أغلب هذه القصص مستوحاة من المجتمع أو التاريخ.. فلوداد سكاكيني مجموعتان قصصيتان في ١٩٤٧م (مرايا الناس)، و(بين النيل والنخيل)، وقصة (أروى بنت الخطوب) وكلها ذات طابع تهذيبي أخلاقي من حيث المضمون، ونهج سردي من حيث الأسلوب. ونضيف إلى ذلك فيما يتعلق بقصص (ألفت الأدلبي) أنها حاولت انطلاقاً من الأرضية المحلية أن تقفز بقصصها إلى المستوى الشرقي (قصص شامية) على عكس (سلمى الحفار) التي تثقفت ثقافة غربية، وكتبت الشعر بالفرنسية فهي قد حاولت أن تجمع خيوط القصة والرواية العالميتين لتقدمها في نسيج سوري كما في (يوميات هالة)، و(عينان من إشبيلية) التي صدرت بعد هذا التاريخ الذي نعنيه. وهي تقول إنَّهما- أي القصة والرواية- أصعب ألوان الأدب لما يقتضيانه من ثقافة وفن. فهي لم تقل تجربة ولا معاناة.. ونستطيع أن نجد في قصصها أيضاً ظلالاً من التاريخ لاسيما القريب منه زمن الاستعمار الفرنسي أو الحكم العثماني.

وعودة إلى الروائيين.. تبدأ بمعروف الأرناؤوط لنتوقف عند (شكيب الجابري) على بعد الفارق بين الاثنين في الموضوعات، وفي تقنية القصة. (معروف الأرناؤوط) صاحب الرواية الضخمة (سيد قريش) التي تعتبر وسطاً بين الرواية التاريخية والأدبية وهي بأجزاء ثلاثة تحوي ما قبل وما بعد

الرسول عليه الصلاة والسلام. ومجموع الأجزاء الثلاثة أكثر من تسعين فصلاً، وفيها الكثير من الخيال الروائي والوصف إلى جانب السرد المفصل المطول.

أمَّا (شكيب الجابري) فقد كتب رواياته منذ مطلع الأربعينيات أو قبلها بقليل، وهي: (نهم) ١٩٣٧م، (قدر يلهو) ١٩٣٩م، (قوس قزح) ١٩٤٦م، والأخيرة (وداعاً أفاميا).

في الرواية الأولى جراًة، وقدرة روائية فاجأتا الجو السوري، وقالوا إنها أدب مكشوف. أما (قوس قزح)، و(قدر يلهو) وكلتاهما يُعدُّ بداية حقيقية للرواية السورية من حيث فنية القصة ولو أن المؤلف يفضل (قدر يلهو)، وتعتبر هذه الرواية سبقاً في الرؤية الثنائية أو الثلاثية أو الرباعية للحدث الروائي تلك التي رأينا شبيهاً لها فيما بعد في ثلاثية (لورانس دوريل)، وخط الابتكار في روايات الجابري كثير. ولولا أنه خلق لها أجواء غير عربية، وشخوصها غير عربية لعدت من أدب الفضائح على أقل تقدير في تلك الفترة. يقول (شاكر مصطفى): «إن الجابري خطا في روايته خطوة كبيرة نحو الواقعية، واتصل بعض الاتصال بالأرض». ولعله يقارنه بمن سبقه من الكتّاب الرومانسيين الذين جمح بهم الخيال وابتعدوا ما أرادوا عن واقع أحداثهم ومجتمعهم.

ولسنا هنا في صدد التعرض للرواية الثالثة (وداعاً يا أفاميا) لأنها صدرت بعد التاريخ الذي نعنى به، لكننا نقول إن فيها نفساً وطنياً يتمسك بالأرض والتاريخ. ومنذ الخمسينات بدأنا نسمع بجيل جديد من الشباب، أكثرهم قصاصون والقلة روائيون.

هذا الجيل الذي مايزال بعضه في الساحة الأدبية ومنهم: (حنا مينة)، (سعيد حورانية)، (زكريا تامر)، (إسكندر لوقا)، (جان ألكسان)، (عبد السلام العجيلي)، (حسيب كيالي)، (شوقي بغدادي)، (حيدر حيدر)، ومن النساء من جيلي: (كوليت خوري)، (غادة السمان). وعرفت القصة طريقها وظلت الرواية نسبياً في تجارب، وأخذ الأدباء السوريون ينطلقون عربياً وعالمياً. وهناك قصاصون وروائيون هم علامات على طريق القومية الاشتراكية (صدقي إسماعيل)، أو الثورية الوجودية (مطاع الصفدي)، أو الواقعية الاشتراكية (حنا مينة)، أو القومية الإنسانية (عبد السلام العجيلي).

وفي هذه الفترة لابد من الإشارة إلى القصة الهادفة التي كانت انعكاساً للقضية الفلسطينية كما في (التراب الحزين) لبديع حقي، وقصص لقدري العمر، وبعض من القصاصين الذين سبقت أسماؤهم.

هذه لمحة.. لمحة قصيرة جداً عن القصة وإذا أغفلنا أسماء أو تجاوزناها فذلك لأنَّ الغاية هي إعطاء فكرة عامة لا غير. وتجدر الإشارة إلى رابطة الكتّاب السوريين في الخمسينات وتخصيصها جائزة للقصة وما كان لها من أثر تشجيعي، وكذلك احتضان الصحافة والصحافة الأدبية للقصة وتخصيص زوايا لها مما ساعد على شيوع القصة وانتشارها.

المقالة والترجمة:

لم تكن المقالة في سورية في تلك الحقبة هي غيرها عمّا في البلاد العربية الأخرى أو في المهجر. المقالة التي تجاوزت بالطبع الصنعة اللفظية ورواسب الماضي لكنها ظلت تحتفظ بأناقة لغوية وحفاوة بالصورة والتي هي الشعرية غالباً، وكذلك بقوة الأسلوب ومحافظته على الأصالة. حتى المقالات التي كانت تنشر في الجرائد والمجلات كانت بحد ذاتها عبارة عن قطع أدبية وهي أصلاً لمن هم أدباء أكثر منهم صحفيين. وهذه وإن كانت تلقى اهتماماً ورواجاً إلا أن المقالة السياسية ظلت أطغى وأشد إثارة للاهتمام حتى إن (افتتاحيات) الصحف آنذاك كالأيام، والقبس، وألف باء كانت تخلق ضجة يتناقلها الناس ويعيدون قراءتها كما لو أنها من روائع الكلم.. ولا نستطيع أن نجرد هذه المقالة من قوتها البلاغية لنجعلها فقط ذات تأثير سياسي لأنه في الواقع كان لها تميزها في صدق التعبير، وقوة الحجة في المناقشة، والجرأة على طرح الأفكار.

أما تلك التي كانت تتبع طرقاً انتقادية وفكاهية هزلية فقد كان تأثيرها من نوع خاص.. تجرح وتداوي، وتغتصب البسمة التي تمسح الدمعة، ويجعلها بعض الدارسين الباحثين أساساً من أسس المقالة في سورية تماماً كما هي من عوامل التغيير الاجتماعي والسياسي وكثيرون لم يكونوا لينسون كتّاب مقالات بأسمائهم.. ولا مقالات بعينها. وحتى نكون منصفين لن نورد أياً من هذه الأسماء أو العناوين حتى إن أهملنا غيرها لا نكون مسيئين.

أمَّا الأقلام النسائية فيبدو أنَّها كانت أكثر ميلاً إلى المقالة، فمنذ (مريانا مراش) صاحبة مجلة (العروس) ومروراً بـ (ماري عجمي)، و(وداد سكاكيني)، و(ألفت الأدلبي)، و(سلمى الحفار)، (وهاتان الأخيرتان هنا ندر أن كتبتا المقالة)، نجد أن المقالة المطرزة بأنامل المرأة كانت تلقى اهتماماً خاصاً من جماهير القراء وخاصة في بداية الخمسينيات بعد دخول المرأة إلى الجامعة، وظهور بعض الأقلام النسائية كريادة أكثر منها ظاهرة. ومن هنا

استطاعت المرأة أن تطرح بعض مشاكلها الخاصة وبعض المشاكل الاجتماعية العامة التي تتعلق بالتحرر وفك القيود عن المرأة، وتصحيح علاقاتها بالرجل. ولعلَّ بعضاً من هذه الأسماء قد انطفأ لكن ذاكرة سورية لاتزال تحفظها. أمَّا التي استمرت فهي التي أثبتت قدرتها على العطاء.

وإذا نظرنا إلى الكتب التي صدرت والتي كانت عبارة عن مقالات فإننا نجدها قليلة بالقياس إلى مصر مثلاً، ولكننا نستطيع أن نعد أسماء منهم أدباء، ومنهم باحثون، ودارسون، ونقّاد، وأساتذة جامعات: (جميل صليبا، شفيق جبري، إبراهيم الكيلاني، شاكر مصطفى، سامي الكيالي، خليل الهنداوي، قدري العمر..). وبعض من هذه المقالات هي عبارة عن محاضرات يمكن أن يفيد منها الطلاب، كما تفيد منها الجماهير.

ومن الجسر الذي يصل المقالة بالترجمة نصل إلى أنه كما ترجمت المقالات السياسية وغير السياسية إلى الصحف والمجلات (عن الفرنسية، والإنكليزية على وجه الخصوص) كذلك ترجمت المقالات في مجموعات خاصة بها استطاعت أن تفتح نوافذ على آفاق جديدة أدبية وفكرية وحضارية تعرَّف من خلالها السوريون على ما يدور في العالم من غير طريق مصر التي كانت تستقطب كل المترجمات، وهي إنَّما تقدمها بركاكة أحياناً، وبروح تجارية أحياناً أخرى. وبما أنه قد برز الاهتمام بالمسرح على الساحة الأدبية فقد ترجم الكثير من المقالات، وكذلك في السينما ونقدها والتعليق عليها.

والسؤال: هل كان السوريون مستعيرين للأفكار من خلال المترجمات أم كانوا في عملية اصطفاء وانتقاء ومن ثم تأثر؟

الحقيقة هي أنهم كانوا مصطفين ومنتقين وبالتالي متأثرين، واستطاعوا من خلال هذا التفاعل أن يشقوا الطريق أمام قوافل الفكر الأجنبي لكنهم لم يسمحوا لها بأن تغزو أو أن تقيم. ولما وجدوا أن لابد من مترجمات من جهة الشرق فتحوا الأبواب أمام الترجمة عن الدول الاشتراكية وخاصة عن الروسية.

ومن هنا نصل إلى ترجمات الكتب التي تنوعت وتعددت ثم تكاثرت وكان لها في تلك الفترة تأثير أي تأثير فقد ترجمت الكتب العلمية، والفكرية، والفلسفية حتى تلك التي كان لها احتياج في المدارس والجامعات.

وظهر الاهتمام بالأدب والشعر والرواية خاصة، وبرزت أسماء مترجمين: (عادل العوا، جميل صليبا، إبراهيم الكيلاني، بديع الكسم، سامي الدهان)، وفي المسرح: (رفيق الصبان)، وفي الأدب حصراً (سامي

الدروبي) وهو يعتبر علماً من أعلام الترجمة في سورية ترك أكثر من عشرين كتاباً عن الأدب الروسي نهج فيها منهجاً معيناً، وفناً خاصاً في تفهم روح النص المنقول مع المحافظة عليه أمانة ودقة.

ولم تقدم حركة الترجمة مَنْ نقل عن الأدب الروسي للتعريف به أساساً (فؤاد وسهيل أيوب)، ولا عن الأدب الأمريكي المعاصر، أو عن الكتب ذات الثقافة الحقيقية والطابع المعاصر كتلك التي ترجمت عن (ديل كارينجي)، و(مارك توين)، وغيرهما، أو تلك التي تحدثت عن الحضارة وهمومها والمعاصرة في خطوطها الأولية علماً وفكراً، إضافة إلى مترجمات لمشاهير مثل (كالدويل، وشتاينبك، وهمنغواي، ورايت، وستاو)، وغيرهم.

خاتمة:

في نهاية هذه الإطلالة على تاريخ الأدب في هذه الحقبة الزمنية المحددة لابد من الإشارة.. ومن الإشادة. الإشارة إلى بعض المعوقات التي وقفت في وجه حركة الأدب ومنعها من أن تأخذ مسارها في قوة دفع وتقدم. والإشادة ببعض العوامل التي كان لها دور إيجابي وفعّال.

من المعوقات:

١. الأوضاع الاقتصادية والسياسية السيئة التي كانت تمر بها البلاد من قبل الجلاء ومن بعده أثناء تواتر الانقلابات العسكرية، وحملات القمع والاضطهاد التي كانت تقع على المثقفين والأدباء والمفكرين، وربما على أساتذة الجامعات، وعلى مَنْ يشتغلون بأمور الكتابة والصحافة عموماً.

٢. خروج سورية بعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م وقد تحولت إلى خط مواجهة أوّل مع العدو يقتضي منها الاهتمام بموقعها عسكرياً وتحصين هذا الموقع، وبناء الجيش بناءً يقدر أن يصمد في وجه العدو مما استنزف قدراتها المادية نسبياً، إضافة إلى مشكلة اللاجئين، والهموم المتفاقمة من المأساة الفلسطينية.

٣. عدم وجود دور للنشر والطبع والتوزيع، أو نواد وجامعات بشكل كاف لتستقطب حركة الأدب والفكر. ونستطيع القول إنصافاً للحقيقة والتاريخ بأن جامعة دمشق التي تأسست بعد الجلاء مباشرة (١٩٤٦م) استطاعت بسرعة فائقة أن تتسلم دوراً ريادياً، وأن يكون لها أثرها المندمج مع الأهداف القومية والتقدمية التي تجلت بالأحزاب، ثم الإقرار بدور

النوادي الخاصة والروابط الأدبية التي كان يشرف عليها المثقفون والأدباء أنفسهم فقد استطاعت أن تكون عامل تفتح وازدهار، وأن تنعش الجو الثقافي والأدبي. وكذلك لابد من ذكر دور المجمع العلمي العربي الذي على الرغم من كل ما يعانيه من صعوبات استطاع أن يحقق شيئاً في حملة التعريب ووضع المصطلحات والاهتمام بالتراث.

أمّا الإشادة فهي أولاً وقبل كل شيء بالصحافة ودورها الإيجابي والجيد، فالصحف على قلتها وأنها تمول من رؤوس أموال صغيرة، والمجلات على ندرتها استطاعت جميعاً أن تحقق خطوات على طريق الأدب.

فالقائمون عليها أدباء وشعراء من المرموقين والبارزين، والمواد التي تنشر هي لأفضل الأقلام إضافة إلى القضايا الأدبية الجدية والهامة التي كانت تطرحها فتثير بها نقاشاً وجدلاً شديدين حتى في الصحف والمجلات نفسها مما أغنى الحركة الأدبية ودفعها إلى الأمام. ولن نسمي هذه الصحف والمجلات حتى لا نكون مجحفين فيما لو أغفلنا سواها. وقد نمر فيما نمر عليه بالدوريات، والنشرات، والمطبوعات الأدبية والانتقادية التي كانت تصدر في الجامعة، أو ضمن حلقات الشباب التقدميين والحزبيين ومن ثم توزع.

وكذلك نمر بالإذاعة التي كانت تهتم اهتماماً ملحوظاً بالمواد الأدبية، والقصص، والمسرحيات، والشعر خاصة. حتى إن عدداً كبيراً من المسرحيين يعترف بأنه مدين للإذاعة بالتشجيع وعقد الصلة مع الجماهير. حتى إن البرامج التي تهتم بالشعر ظلت في إذاعة دمشق حتى الآن.

وأخيراً نقول:

إنَّ سورية كانت رائدة.. وكان لها أدبها المتميز في تلك الفترة، وخطواتها الصحيحة نحو النقد المعاصر والتجديد في الشعر وكذلك في القصة والرواية والمسرحية، لكن الظروف الموضوعية لم تجعلها فاعلة ومؤثرة بمقدار ما كانت منفعلة ومتأثرة ولم تترك لها أن تأخذ خطاً شمولياً باتجاه عربي أو عالمي.

• • •

الهوامش

١- صدقي إسماعيل في الثلاثية، ومطاع الصفدي في (ثائر محترف) أرّخا أدبياً لهذه الفترة على بعد الفارق بينهما في الطرح، وأسلوب المعالجة فكراً ومنهجاً قصصياً.

المراجع

١- جميل صليبا- الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث -١٩٥٨م.
٢- جميل صليبا . اتجاهات النقد الحديث في سورية- ١٩٦٩م.
٣- سامي الكيالي- نظرات في التاريخ والنقد والأدب- القاهرة ، ١٩٢٧م.
٤- جلال فاروق الشريف- بعض قضايا الفكر العربي المعاصر- اتحاد الكتّاب العرب- ١٩٧٤م.
٥- نبيل سليمان- مساهمة في نقد النقد الأدبي- دار الطليعة- ١٩٨٣م.
٦- خلدون الشمعة- المنهج والمصطلح -اتحاد الكتّاب العرب-١٩٧٧م.

لمحة عن الموسيقا في سورية

صميم الشريف ✪

عثر في المكان المعروف اليوم باسم ماري «تل حريري» على الفرات الأوسط على نتف من أناشيد وقصائد غنائية هي من أقدم ماهو معروف في التراث الثقافي الإنساني، وتتطابق مع أقدم لوحة موسيقية آكادية وجدت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وعلى جوقات من الموسيقيين منحوتة على القدور وعلى آثار تدل على مدرسة لتعليم الموسيقى يبرهن على عمق اهتمام الإنسان السوري بالغناء والموسيقى من عهد السومريين، وحتى اليوم، أي منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، كذلك الأمر بالنسبة للكنعانيين في أوغاريت على الساحل السوري، إذ كشفت الدراسات للآثار والمدونات الموسيقية، في الرقم التي تكشفت عن تلك الحضارات من قبل المهتمين في العالم توصلت إلى أن السلم الموسيقي والنغمات التي ظهرت في أوغاريت مدونة حسب سلم فيثاغورث بالذات ولكنه مدون قبل فيثاغورث بـ ١٢٠٠ سنة، ونتيجة لدراسة أنشودة العبادة الحورية التي عثر عليها، وشغلت باحثي الآثار والموسيقى، انتهت إلى القول بمنطق الأوغاريتيين، إلى أن العلاقة بين الدين والموسيقى مختلفة تماماً عن منطق السومريين الذين نحو نحواً أكثر سمواً، فالأوغاريتيون انتهوا إلى أن الآلهة شبيهة بالإنسان، فهي تأكل وتمرح وتتزوج، ولكنها لا تموت.

✪ وجدتُ هذه الدراسة المختصرة للباحث الموسيقي والأديب الراحل صميم الشريف ضمن أوراقه، ونظراً لأهميتها ننشرها تحية وتقديراً لأبحاثه ودراساته المهمة. رئيس التحرير

والإنسان الأوغاريتي إذا أراد شيئاً من الآلهة، كان يلجأ إلى الموسيقى باعتبارها محبوبة الآلهة، الأمر الذي يعني بأن دخول الموسيقى إلى الدين كان شيئاً نفعياً من أجل الحصول على ما يريده من الآلهة. وكانت الكنارة أكثر الآلات الموسيقية المستعملة، وهي آلة شبيهة بالقيثارة، وكان يصنع بعضها من الذهب والفضة، ومحفور عليها تماثيل رائعة، ويطلقون عليها أسماء، ويصفونها على أنها محبوبة الآلهة..

و«الكنارة» عبارة عن مستطيل خشبي فيه علبة رنين في الأسفل، وتشتمل على سبعة أوتار، وهناك أنواع منها بعضها بأحد عشر وتراً وأخرى بخمسة عشر وتراً. وقد استعمل الأوغاريتيون الكنعانيون إضافة إلى الكنارة، الناي، والعود، والصنوج.

كانت «الحيرة» أوّل مدينة عربية في الجاهلية يظهر فيها من الآلات الموسيقية غير العود: الجنك والطنبور، وكانت بلاد الشام قد استوطنها العرب الأنباط الذين امتد نفوذهم حتى «تدمر» إلى أن قضى «تراجان» عام ١٠٦ ميلادية على دولتهم، فانتقلت الزعامة إلى تدمر التي قضى عليها الرومان عام ٢٧٢م، وبعد سقوط تدمر، بسط الغساسنة القادمون من الجنوب، نفوذهم على الدولة النبطية بمباركة أباطرة بيزنطة، وكان الغساسنة يستقدمون إلى بلاطهم الموسيقيين والمغنين والمغنيات من مكة والحيرة وبيزنطة، وقد وصف الشاعر حسان بن ثابت الذي حضر ليلة طرب من ليالي بلاط الملك الغساني جبلة بن الأيهم الذي حكم مابين عام ٦٢٣ وعام ٦٣٧ مما شاهده:

«لقد رأيت عشر قيان، خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة، أهداهن إليه «أياس بن قبيصة».

هذا الأمر يؤكد أن العرب في ديار الشام عرفوا الموسيقى والغناء والآلات الموسيقية في جاهليتهم، وأنَّهم تأثروا بموسيقى الحضارات التي سبقتهم كالحضارة المصرية والآشورية، واليونانية والفارسية، وأنهم أخذوا من الموسيقى الفارسية واليونانية والبيزنطية ما يلائم موسيقاهم وغناءهم النابع من بيئتهم وأسلوب حياتهم، واستخدموا من الآلات الموسيقية: العود، المزهر، المزمار - الناي - والطنبور، والقضيب، وهو آلة من آلات النقر والإيقاع وضبط الوزن- الصنوج

الصغيرة، والمربع – القيثارة – آلة وترية ذات صدر مسطح مربع الشكل – والدف والطبل اللذين كانا من آلات الأسرة المفضلة.

تراجعت صناعة الموسيقى تراجعاً ملموساً في صدر الإسلام والعهد الراشدي (٦٢٢– ٦٦١ م) وإن ظل بعض أعلام الغناء والعزف من مثل: الميلاء، وسائب خاثر، وطويس، الذي يعد أول مغن في الإسلام يمارسون الغناء والعزف، كذلك مارسه عدد آخر من المغنين الذين عاشوا في عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية.

شهدت صناعة الموسيقى والغناء – في العصر الأموي (٦٦١ – ٧٥٠م) ازدهاراً كبيراً منذ تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولغاية سقوط الدولة الأموية في عهد مروان بن محمد (٧٤٤ – ٧٥٠م) وفي العهد الأموي مال عرب الحجاز للألحان الفارسية التي كان يتغنى بها الأسرى الفرس الذين جيء بهم من العراق لتشييد الأبنية في مكة، وأول موسيقي استفاد من هذه الألحان ونسخها أو نقلها وغناها بالعربية /ابن مسجح/ الذي لم يكتف بذلك، فرحل إلى بلاد الشام فأخذ من موسيقييها أنواع الغناء وأساليب الضرب، وطرح منها ما استهجنه بذوقه العربي، وأبقى منها ما يلائم الموسيقى والغناء العربيين، وكذلك فعل بعده تلميذه (ابن محرز). وعندما تولى «بشر بن مروان» –أخو الخليفة عبد الملك بن مروان– ولاية الكوفة خلفاً «لخالد بن عبد الله القسري» الذي كان قد أصدر أمراً بتحريم الغناء والموسيقى، ألغى هذا الأمر واستدعى (حنين الحيري) –من بني الحارث– وكان من أشهر المغنين فأكرمه ورفع من شأنه، وكان الخلفاء الأمويون يغدقون الهبات على كبار الموسيقيين حتى إن /سليمان بن عبد الملك/ قدم جوائز تبلغ عشرين ألف قطعة من الفضة لمباراة بين الموسيقيين في مكة، وجعل الوليد الثاني الجائزة الأولى في مباريات الغناء ثلاثمئة ألف قطعة من الفضة، وقصارى القول إنَّ الموسيقى في العصر الأموي لقيت التأييد غير العلني، إذ كان الولاة يخشون أن ينسب إليهم عدم التدين، ولم ينس المسلمون المتشددون أن يضعوا الموسيقى بين آثام الأمويين. التقدم الذي تحقق للموسيقى، إنَّما تحقق بسبب احتكاك الثقافة الإغريقية بالثقافة العربية الذي نجم عنه تشكيل صياغة جديدة للموسيقى زاده ألقاً تأثير الآلات الموسيقية

المستعملة في بلاد فارس، ومن المحتمل استخدامهم للسلم الفيثاغورثي الذي سبق لعرب الحيرة وغسان استخدامه قبل الإسلام، حيث ظل عرب الحجاز محتفظين بالسلم القديم «الطنبور الميزاني»، حتى عهد يزيد الأول عندما بدأت الموسيقى بعد غياب طويل في صدر الإسلام والعهد الراشدي تظهر ظهوراً واضحاً في المدينة، ويتألف السلم الفيثاغورثي من خمسة أبعاد، كل بعد من هذه الأبعاد درجة صوتية كاملة، وبعدين آخرين كل منهما «ليما» والليما أربع كومات –والكوما– La comme – هي الوحدة الصوتية، وكل تسع كومات تساوي درجة صوتية كاملة وعلى هذا الأساس فإنَّ السلم الفيثاغورثي يتألف من ٥ درجات X 9 كوما + ٢ ليما X 4 كوما =٥٣ كوما (كوما – وحدة صوتية). أشهر الموسيقيين في العهد الأموي عدا «ابن مسجح» و«ابن محرز»، ابن سريج، ومعبد، وابن عائشة ويونس الكاتب ومالك الطائي وحكم الوادي الذي احتفظ بمكانته لدى العباسيين أيضا. وكانت جميلة وسلامة القس، وحبابة وسلامة الزرقاء من أبرز مغنيات العصر الأموي. وفي هذا العصر وضع أوّل كتاب للموسيقى العربية وعنوانه «كتاب النغم» ليونس الكاتب. وكان هذا الكتاب مرجعاً هاماً «للأصفهاني» في كتابه «الأغاني».

إبان ضعف الدولة العباسية، واستقلال الولاة في ولاياتهم عن الدولة العباسية، استولى بنو حمدان بين عامي ٩٢٩ و٩٤٤م على شمالي الجزيرة والشام، ورفعوا من شأن حكمهم بأن جعلوا الموصل وحلب مركزين عظيمين من مراكز الحياة الثقافية، وكان سيف الدولة الحمداني ٩٤٤ م– ٩٦٧ شاعراً بليغاً، اجتمع في بلاطه في حلب الشاعر العظيم أبو الطيب المتنبي، والموسيقي الفيلسوف أبو نصر محمد بن محمد طرخان الشهير بالفارابي (٨٧٤ م–٩٥٠ م) الذي كان على دراية كبيرة بعلوم اليونان، وموسيقياً ضليعا يجيد العزف بالعود.

ألف الفارابي كتباً عدة منها: «الموسيقي الكبير» «كلام في الموسيقى»، «في إحصاء العلوم» عرض فيه أيضاً للموسيقى. تضمنت هذه الكتب دراسات مستفيضة عن طبيعة الأصوات وتوافقها، وأنواع الأنغام والأوزان والإيقاعات والآلات الموسيقية والسلم الموسيقي والدساتين وما إليها، وفكر مثل الكندي الذي سبقه بإضافة الوتر الخامس

للعود وسماه نظريا «الحاد» تمييزاً له عن «الزير» ولكنه لم يطبقه بسبب المعتقدات السائدة، وإليه ينسب ابتكار آلة قانون.

دخلت الموسيقى العربية التي عرفت أوج ازدهارها في العصر العباسي على امتداد رقعة الإمبراطورية، دور الانحطاط والاضمحلال في زمن السلاجقة والدولة الأيوبية والمماليك (١٠٥٨ - ١٢٥٠م) ولا يخفى ما كان للاحتلال العثماني لبلاد الشام (١٥١٦م) والبلاد العربية الأخرى من أثر بالغ في صبغ الموسيقى العربية بالطابع التركي، الأمر الذي ضاعت معه معالم الموسيقى العربية الأصيلة.

وقد اهتم سلاطين آل عثمان بالموسيقى فكانوا يحتفظون في قصورهم بموسيقيين ومغنيين ممتازين جلهم من الفرس واليونان والأتراك والبيزنطيين، وقد ازدهرت موسيقاهم حتى أثرت تأثيراً قوياً في موسيقات شعوب البلقان والبلاد العربية التي كانت خاضعة لهم ومنها بلاد الشام، وكانت النظريات والعلوم الموسيقية المطبقة هي النظريات نفسها المطبقة في البلاد العربية وفارس، وقد تأثرت بلاد الشام بالفتلة المولوية التي جاء بها المتصوف جلال الرومي (١٢٠١- ١٢٧٣م) الذي عاش في قونية، وقام أتباعه بنشر مذهبه الذي يقوم على الموسيقى والغناء في جميع البلاد العربية، وفي كتابه (المثنوي، المأنوي) عرض ضاف لهذا النوع من التصوف الذي ازدهر في حلب ودمشق، حتى صار جميع المشتغلين بالموسيقى من أصحاب الطريقة المولوية، إلى أن جاء السلطان سليم الثالث، وكان موسيقياً موهوباً، فشجع الموسيقيين وأخرجهم من تكايا المولوية إلى قصره قبل أن ينطلقوا في مجال الموسيقى والغناء الدنيوي، ولتخبو فتلة المولوية في البلاد العربية شيئاً فشيئاً حتى غدت في أيامنا هذه واحدة من الفنون الفولكلورية الأخاذة.

الموسيقيون الذين نبغوا وعزفت مؤلفاتهم في بلاد الشام وغيرها السلطان سليم الثالث، يوسف باشا، عثمان الطنبوري، حاجي عرفي بيك، طاتيوس، أمّا المنشدون من المتصوفة فقد اشتهر منهم محمد بن السيد عبد القادر الشريف (١٦٨٨- ١٧٥٦م) من الحلقة القادرية، ومحمد بن كوجك علي الحلبي (١٦٩٤ - ١٧٧٣م) الذي كان بواباً بالباب السلطاني وعلى معرفة واسعة بالموسيقى، نظم ولحن موشحات عدة، ومحمد

أبـو الوفـا (١٦٨٩- ١٧٧٣م) الـذي تلقى علوم الموسيقى عن أبيه مصطفى أبي الوفا، ومصـطفى بن أبي بكر الحريري الرفاعي (١٧٦٥ - ١٨٥٣م)، أخـذ علوم الموسـيقى عن الشـيخ عبد القادر بن إسكندر المصري وترأس إنشاد الذكر في جامع العاشورية في حلب، ثم عين رئيسـاً للإنشـاد في الزاوية الهلالية، ومن ألحانه الشـهيرة موشـح من مقام السيكاه.

مازال يرشف من خمر الطلا قمر

حتى غدا ثملاً مافيه من رمق

هذا ما وصلنا عن بعض أعلام المنشدين السـوريين في القرن الثامن عشـر، أمّا في القرن التاسـع عشـر، فقد قامت الحياة الموسـيقية في بلاد الشام على فن الموشحة العريق الذي بلـغ الأوج على أيدي الفنانين الحلبيين، وعلى فن الأغنية الشـعبية الذي كان يسـتقي مادتـه مـن الحيـاة اليومية، حتى أضـحى بعد أن جمع وهذب من تراث الشعب الفولكلوري، وتبوأ فن الدور المصري المكانة اللائقـة به إلى جانب فنـون الغناء الأخرى، أمّا بالنسـبة للموسيقى الآلية فقد سادت صيغ الموسيقى الشرقية، (الفارسية- التركية) في التأليف.

وإلى جانب الحياة الموسـيقية الدنيوية، ازدهرت حيـاة أخرى فنيـة دينية، قوامها الفرق المتصّـوفة، التي يرجع إليها الفضل في الحفـاظ علـى الموسـيقى الشرقية من الضياع، وهذه الفرق وقفت حلقات أذكارها على التغني بالذات الإلهية والمدائح النبوية وفنانو وشـيوخ هـذه الفرق من المنشـدين الذين كانوا في غالبيتهم من أتباع الشـاذلية والمولوية والقادرية والرفاعية والنقشبندية وغيرهـا، من مثـل الموسـيقي أحمد عقيل (١٨١٣ - ١٩٠٣م) الذي تلقى الموسيقى على يدي أبيه حتى صـار مشهوراً ليغدو المنشد البارز في حلقات الذكر. سافر إلى الآستانة، وتعرف علـى فناني الأتـراك الكبار وأخذ عنهم، ومـزج ما أخذ بالموسـيقى العربية. التقى في حلب بالحامولي والمنيلاوي وسلامة الحجازي. لحن العقيل عدداً لايسـتهان به من الموشحات، وإليه يرجع الفضل في ضبط ضروب وأوزان رقص السـماح الذي ابتكره / عقيـل المنبجي /، والشـيخ محمد الوراق (١٨٢٨-١٩١٠م) ومحمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي (١٨٤٧- ١٩٠٨م) ومحمد سـلمو الشاذلي (١٨٥٦ - ١٩١٠م) وصالح الجذبة (١٨٥٨- ١٩٢٢م) وغيرهم.

وكما حافظت المذاهب الصوفية على التراث الموسيقى العربي الشرقي، حافظت الكنائس الشرقية بطقوسها وترانيمها على الموسيقى السريانية والبيزنطية، وتقدمت الكنيسة الكاثوليكية عليها عندما أباحت استعمال بعض الآلات الموسيقية مثل البيانو والأورغ في طقوسها وترانيمها، فكان لهذه الكنائس دورها الفاعل هي الأخرى في حماية موروثها الموسيقي، فظهر أنطوان الشوا الكبير الذي عزف على آلة (الفيولا Viola-) أمام إبراهيم باشا الذي حرر بلاد الشام من العثمانيين، وإلياس الشوا عازفاً قديراً بالقانون، وابنه عبود بالعود ثم حفيد أنطوان الشوا الكبير، أنطون الشوا وولداه سامي وفاضل بالكمان الذين يعود إليهم الفضل في إدخال آلة الكمان الغربية على التخت الشرقي في بلاد الشام ومصر وصولاً إلى المغرب العربي، وفي زمن إبراهيم باشا ولدت الموشحات والقدود التي تنسب لحلب على يدي الشاعر الحمصي أمين الجندي (١٧٦٤ - ١٨٣٧م)، وجذبت دمشق إليها خيرة المبدعين العرب والسوريين فاتخذوها مقراً لإقامتهم لأنها كانت المنبر الثقافي والفني الأول في بلاد الشام، وكان العلامة ميخائيل مشاقة (١٨٠٠- ١٨٨٨م) الشهير بالدمشقي الذي ولد في بلدة «رشميا» اللبنانية من أوائل الوافدين إليها، وأوائل المشتغلين في الموسيقى، فإلى جانب براعته عزفاً بالعود وضع كتابه القيم «الرسالة الشهابية في الألحان الموسيقية العربية» الذي يعد مرجعا هاما للباحثين.

كما أنَّ أوّل مطرب عرفته الأوساط الدمشقية هو، أحمد عبد الله السفرجلاني (١٨١٨- ١٩١٠م) الملقب بالدرويش، وكان من المتصوفة يقيم الأذكار والأدوار في الجامع الأموي، فيما يعرف بالمشهد السفرجلاني ويجيد قرض الشعر والعزف بالعود والتلحين والغناء، غنى التوشيحات والموشحات، وأبدع ما نظم ولحن وغنى، هذا الموشح:

غصن بان قد تبدى في علاه البدر بان
أخجل الأغصان تيها وسبا الحور الحسان
قلت يا محبوب واصل واعطف فالصبر فان
ذاب قلبي من جفاه هكذا قدر فكان

وكان يعقد في بيته أسبوعياً جلسات سمر موسيقية يؤمها بعض الهواة، منهم أحمد أبو خليل القباني (١٨٣٣- ١٩٠٣م) الذي ظهر بمسرحه ثم بمسرحه الغنائي كظاهرة فريدة

في التمثيل والموسيقى والغناء، في زمن كان المجتمع الدمشقي ينظر فيه نظرة استهجان وازدراء لأهل الفن عامة من موسيقيين ومطربين وممثلين ومصورين، بسبب المعتقد الديني واجتهادات رجل الدين.

في هذا الجو المتزمت بزغ نجم القباني ممثلاً ومطرباً وراقصاً للسماح ومخرجاً مسرحياً، وقد شجعه الولاة العثمانيون الذين تعاقبوا على ولاية دمشق، ولاسيما الوالي المتنور مدحة باشا في عمله، فباع بعض أملاكه وأراضيه وابتنى مسرحا خاصا به في خان الجمرك، وبدأ التمثيل فيه عام ١٨٧٨م ولكن هذا المسرح لم يعش سوى سنة واحدة وأحد عشر شهراً. إذ استطاع الشيخ سعيد الغبرا ومن والاه من رجال الدين أثناء زيارتهم للباب العالي في إسطنبول، استصدار أمر بإغلاق المسرح ومنع القباني من التمثيل، ولم يكتفوا بذلك. إذ ألبوا عليه الغوغاء وضعاف النفوس في خطبهم في الجوامع، فهاجم هؤلاء المسرح ونهبوه قبل أن يدمروه.

أدرك القباني أن مجتمع دمشق المحافظ والتردي الثقافي والفكري آنذاك هو وراء ما حدث فرحل إلى مصر ليضع فنه منذ عام ١٨٨٤م، في خدمة المسرح، واشتغل مع فرقته فور وصوله إلى الإسكندرية في مسرحي قهوة الدانوب وزيزينيا، فقدم أربعين عرضاً مسرحياً، شارك في بعضها غناء، المطرب عبدو الحامولي، وكما افتتحت الفرقة نشاطها في الإسكندرية برواية «أنس الجليس» افتتحت بها أيضاً موسمها المسرحي عام ١٨٨٥م في دار الأوبرا المصرية في القاهرة. وتشمل عروض المسرح القباني عادة إضافة للمسرحية، فصلا ضاحكا ورقص السماح ووصلة غنائية.

سافر القباني الذي حقق نجاحات مذهلة في الإسكندرية والقاهرة وبعض الأقاليم، مع فرقته إلى شيكاغو عام ١٨٩٢م، ليشارك في عروض معرض شيكاغو الفنية، ليعود منها ظافراً ليتابع نشاطه في المسرح الذي بناه على الأرض التي منحه إياها الخديوي توفيق في العتبة الخضراء، ولكنه لم يهنأ به، إذ بينما كان في إحدى جولاته المسرحية في المنيا، بلغه نبأ احتراق مسرحه بفعل فاعل، وكان غارقاً في الديون، فباع كل ما يملك وقفل راجعاً إلى دمشق حزيناً مهموماً من دون أن ييأس، وقرر أن يلبي دعوة أحمد عزت باشا العابد في إسطنبول فشد رحاله

إليها، وتمكن خلال السنة التي أمضاها فيها، الحصول على إذن يسمح له بممارسة التمثيل، فعاد إلى دمشق التي تفشى فيها الطاعون، وكله أمل في أن ينهض بمسرحه من جديد، ولكن الوباء كان أسرع من آماله فقضى نحبه فيه.

بلغ عدد المسرحيات الغنائية التي حوت ألحانه وألحان غيره ثماني مسرحيات، وبلغ عدد الموشحات التي أنشدت فيها مئة موشح وموشح من أشهرها للقباني: ما احتيالي، برزت مشمس الكمال، يا من لعبت به شموله، وبالذي أسكر من عرف اللمى.

كذلك اشتهرت من الأغاني لحنها أو نسبت إليه: يا طيرة طيري يا حمامة، يا مال الشام، وصيد العصاري.

كانت فرقة القباني تضم بين صفوفها النخبة الدمشقية من المنشدين والمغنين والعازفين وراقصي السماح والممثلين. منهم من سار مع القباني في دمشق ومصر، ومنهم من فضل البقاء في دمشق بعد الدمار الذي لحق بمسرحه.

من هؤلاء: عبد الله أبو حرب (١٨٣٦ – ١٩٠٨)، من أبرز تلامذة القباني، أخذ عن والده المقامات والإيقاعات وأتقن الإنشاد في حلقات الأذكار حتى صار رئيس المنشدين، واشتهر ضارباً للإيقاع، ومنشداً للقصائد الصوفية والموشحات. التحق بفرقة القباني وتولى فيها رئاسة فرقة المنشدين، ثم فرقة السماح. وعندما نكب القباني بمسرحه وعزم على السفر إلى مصر، فضل البقاء في دمشق لأسباب خاصة به، توفي عبد الله أبو حرب من دون أن يترك أثراً يرجع إليه في فنه.

حسين الساعاتي (١٨٥٨ – ١٩٣٣) ولد في بلدة الرشيد في مصر، اسمه الحقيقي حسين بن أحمد عثمان الورنلي. زار دمشق سياحة وتجارة عام ١٨٧٥، ومكث فيها أربع سنوات يتعاطى بيع الساعات وتصليحها، فلقب بالساعاتي. تعلم العزف بالقانون على محمود الكحال فبرع فيه، اتصل بالقباني وأخذ عنه علم المقامات والأوزان وضروب الموشحات والتمثيل، وصار خلال زمن قصير من أعمدة الفرقة، مطرباً وعازفاً وممثلاً، سافر مع القباني إلى مصر. وشيكاغو، وعاد معه إلى دمشق حيث توفي فيها.

بديع محسن الجدا (١٨٧٩ -؟) ولد في أسرة موسيقية، أبوه محسن الجدا مغن بارع، عمل في الفرق الموسيقية المختلفة مغنياً

وضارب إيقاع، وأخوه شكري الجدا، عازف ماهر بالقانون وهو الذي علمه العزف بالعود، أخذ فن الموشحات عن عبد الله السفرجلاني، اتصل بالقباني أثناء زيارته لدمشق، فاستمع إليه وإلى أبيه قبل أن يضمهما إلى فرقته، وسافرا معه إلى مصر واشتغلا في مسرحه مدة ثلاث سنوات، ثم انفصل بديع الجدا عن القباني، واشتغل زمناً في مسرحي أبي العلاء والشيخ إدريس قبل أن يعود إلى دمشق حيث توفي فيها.

أمين الأصيل (١٨٦٠- ١٩٣٥م) فنان أصيل أوفى الفنانين الذين اشتغلوا مع القباني، أخذ عنه الغناء ورقص السماح والتمثيل، ورافقه إلى مصر وشيكاغو، وظل مخلصاً له، وبعد وفاة القباني، هجر الفن، وعمل مختاراً لحي مئذنة الشحم إلى أن توفاه الله.

الفراغ الفني الذي أحدثه رحيل القباني وفرقته إلى مصر، شغلته حلقة الشيخ العلامة عبد الرزاق البيطار التي أبلت بلاءً طيباً لغاية العقد الثاني من القرن العشرين في الأذكار والإنشاد الديني والموشحات وبعض ألوان الغناء الغزلي المحتشم، ويعد حسين شاشيط (١٨٦٠- ١٩١٧م) الذي رباه الشيخ البيطار وعلمه أصول الإنشاد والمقامات والأوزان والضروب من أبرع المغنين آنذاك، صوته الجميل دفعه للغناء في مجالس الأنس والطرب، مال لفن المطرب المصري يوسف المنيلاوي، فاقتدى به، وسافر إلى مصر للتعرف به، وغنى معه في إحدى حفلاته قصيدة مطلعها:

خذوا فؤادي أسيرا في محبتكم
يا سائرين وفيكم قوة المقل

زار مصر ثانية مرافقا أستاذه البيطار، وغنى بحضوره أمام الخديوي توفيق فحاز الرضى والإعجاب، أصيب بعد عودته إلى دمشق بالحمى التيفية وقضى نحبه فيها.

الشيخ جميل الإدلبي (١٨٧٨- ١٩١٧م) أخذ علوم الدين من الشيخ عارف المنير، وأحكام التجويد على الشيخ محمد سليم الحلواني، وعلوم الموسيقى وطرق الإنشاد على الشيخ البيطار، أراد أن يعمق ثقافته الموسيقية، فاحتك بالفنانين فحفظ عنهم كماً وفيراً من الموشحات والأدوار والأغاني الدارجة آنذاك، مال لأسلوب يوسف المنيلاوي في الغناء فأجاده. من أجمل ما غنى قصيدة مطلعها:

تقضى زمان لعبت به
بروح الحسان ذوات الحَوَرْ

فمالت على وهمت به
غراما يذيب الفؤاد الحجر

سافر إلى مصر ليسجل بعض ألحانه على أسطوانات، فلم يوفق بسبب العراقيل التي افتعلها المطرب عبد الحي حلمي، خال المطرب صالح عبد الحي، فعاد إلى دمشق أصيب وهو في شرخ الشباب بالحمى التيفية وقضى فيها مثل صديقه حسين شاشيط.

ساهمت إلى جانب هؤلاء وغيرهم، جهود فردية في الموسيقى الآلية، فألف عمر الجراح (١٨٥٣- ١٩٢١م) - عازف قانون وعود - فرقته الموسيقية من إخوته حمزة بالقانون ومحمد بالكمان وإبراهيم بالعود، ومن ضارب الإيقاع بديع محسن الجدا والمطرب عبد الله أبي حرب، وظهر سلوم انجليل (١٨٤٥ - ١٩١٨م) أستاذاً ومرجعاً في الموسيقى وعازفاً بارعاً بالقانون. ومثله جرجي الراهبة (١٨٧٥- ١٩٢٠م) الذي برع عزفا بالعود والقانون، واشتغل زمنا في فرقة أولاد كزبر. وخالد البرنجكجي (١٨٢٠- ١٩٠١م) وهو عازف قانون الذي تمكن بمهارته في العزف من احتلال مكانة مرموقة في الفرقة السلطانية في إسطنبول الخاصة بالسلطان عبد العزيز. وإضافة إلى هذا فإن الفرق التركية والمصرية التي كانت تزور سورية، نقلت بعض فنونها الموسيقية والغنائية مثل: السماعيات والبشارف واللونغه، وفن الدور المصري، واحتكاك الفنانين السوريين بغيرهم من الأتراك والمصريين والعراقيين ساعد في انتشار ألوان الغناء الأخرى التي زاحمت فن الموشحات على مكانته، فبرز فن الموال البغدادي والآخر المصري والطقطوقة بفضل المطربين العراقيين والمصريين ولاسيما سلامة حجازي ويوسف المنيلاوي اللذين دأبا زيارة سورية وإقامة الحفلات في مدنها المختلفة.

في أواخر القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، شهدت القاهرة غزواً مركزاً قوامه مشاهير الممثلين والموسيقيين ومن هؤلاء الموسيقار كميل شامبير (١٨٩٢- ١٩٣٤م) الذي فشل في فرض آلة البيانو في بلاد الشام وتمكن من ذلك في مصر، وتوفيق الصباغ (١٨٩٢- ١٩٦٦م) الذي لم يستطع التعايش مع الوسط الفني الذي وجد نفسه فيه، فعاد عام ١٩٢٣م إلى مسقط رأسه حلب، وجميل عويس (١٨٩٠- ١٩٤٨م) الذي دون مؤلفات سيد درويش وترأس فرقة محمد عبد الوهاب مدة عشر سنوات.

هكذا كانت باختصار أحوال الموسيقى والغناء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي التي مهدت لانطلاقة النهضة الموسيقية في سورية عامة ودمشق وحلب خاصة، وكان الموسيقيون المحترفون والهواة على حد سواء تائهين لايجمعهم جامع ولا يجدون زادهم الفني إلا في التكايا والزوايا الصوفية، إلى أن بادر شفيق شبيب (١٨٩٧-١٩٨٢م) مع عدد من رفاقه الموسيقيين في أوائل عام ١٩١٤م، بتأسيس أوّل ناد للموسيقى باسم النادي الموسيقي الشرقي.

واتخذوا مقراً له في زقاق المغسلة في سوق ساروجة، وقد اضطر لأن يغلق أبوابه عام ١٩١٩م بسبب الاضطرابات التي اندلعت في دمشق، وكان هذا النادي باكورة مرحلة الأندية الموسيقية التي افتتحت في سورية وارتقت بالموسيقى والغناء، وهذه الأندية هيمن عليها منذ تأسيسها ظل أحمد أبي خليل القباني، فجمع أكثرها بين الموسيقى والتمثيل، وإليها يرجع الفضل الأكبر في النهضة الموسيقية الحديثة، لأنها رعت المواهب وشجعتها وساعدتها فنيا ومعنوياً ومادياً، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

أرسى الروّاد عربة الموسيقا والغناء طوال النصف الأوّل من القرن العشرين على ما جاء به الأسلاف في فن الموشح والقصيدة والأغنية الشعبية، وما ورثوه من التركة العثمانية في التأليف الموسيقي من سماعيات وبشارف ولونغا وما إليها من دون أن يضيفوا جديداً، ورسخوا التقاليد المتبعة في الأداء وأضفوا المزيد من الجمال على أنواع الغناء المتداول، واتباع القوالب في التأليف الموسيقي البحث بالأسلوب نفسه الذي ورثوه عن الأتراك العثمانيين.

أمّا ورثة الرواد الذين احتكوا بموسيقا الأقطار العربية، وبموسيقا الغرب التي وفدت إلى البلاد مع الاستعمار الفرنسي، فإن أغلبهم تأثر بأساليب المدرسة المصرية في التأليف والتلحين والغناء، عدا قلة سارت على خطا الروّاد، وأخرى مزجت -كما فعل المصريون- ما استنبطته من الموسيقا الغربية من ألحان وإيقاعات راقصة شاعت وانتشرت منذ سني الثلاثينيات واستمرت في تصاعدها وتفاعلها إلى سني ما بعد الاستقلال.

وعلى الرغم من ضعف وسائل الاتصال السمعية والمرئية (الحاكي والإسطوانات،

الإذاعات، السينما) فإن هذه الوسائل استطاعت عن طريق السيطرة المصرية عليها التأثير من وراء أعلام الموسيقا والغناء على الموسيقيين العرب في سورية سيطرة تكاد تكون تامة، اللهم إلا من بعض الملحنين المطربين الذين كان لنشأتهم وبيئتهم التأثير الكبير عليهم، فكانت ألحانهم وأغانيهم صدى لبيئتهم وبلدهم منهم «رفيق شكري» ومحمد عبد الكريم ومصطفى هلال وغيرهم..

والأغنية السورية في سني الثلاثينيات والأربعينيات كانت تفتقر إلى ناظم أغنية متمرس ومحترف، بخلاف الأغنية الانتقادية /مونولوغ/ والنشيد اللذين برع فيهما عدد كبير من الزجالين والشعراء.

والشعر العربي الذي لم ينظم بهدف التلحين والغناء كان محط أنظار الملحنين فاختاروا منه عيونه الصوفية والغزلية فلحنوه وغنوه على الرغم من صعوبة تلحينه بحراً وقافية لعدم التزامه في التلحين بقالب معين، إلى أن ابتدع القصبجي والسنباطي ومحمد عبد الوهاب قوالب فنية غير ملزمة في التلحين،وهي التي أخذ بها أغلب الملحنين منذ الأربعينيات.

الشعر الذي استهوى الملحنين السوريين منذ أواخر القرن الماضي ولغاية الأربعينيات كان للمشاهير من الشعراء الغابرين من مثل: ابن زيدون، الشريف الرضي، البوصيري، الأحوص، وأبو الحسن الحصري الفهري القيرواني صاحب قصيدة «ياليل الصب متى غده» وهو غير صاحب كتاب «زهر الآداب أبو الحسن إسحق الحصري.

كذلك استهواهم شعر الشعراء المعاصرين من مثل: أحمد شوقي والأخطل الصغير، حافظ إبراهيم، وعمر أبي ريشة فلحنوا بعضاً منه.

ومنذ سني الأربعينيات اهتم الملحنون السوريون بشعر الشعراء السوريين فأولوه عنايتهم ولحنوا وغنوا منه مايصلح للتلحين والغناء، وأيضاً ماكان يجود به الشعراء عليهم مما كانوا ينظمونه خصيصاً لهذا الغرض.

أشهر الشعراء السوريين الذين احتلوا مكانة مرموقة في الوطن العربي، ونظموا قصائدهم بهدف غير موسيقي، ومنهم الغزير في إنتاجه القوي في شعره وفكره ومنحاه القومي والإنساني، ومنهم المقل الذي غلبت عليه هواية الشعر فسار به شوطا وقصر عنه أشواطاً حتى ابتلعته الحياة اليومية بأعبائها.

الشعراء الأعلام الذين وجد شعرهم طريقه إلى الملحنين هم: عمر أبو ريشة، بدوي الجبل، سليم الزركلي، عدنان مردم بك، بدر الدين الحامد، وجيه البارودي، نزار قباني، د.عبد السلام العجيلي، عارف تامر، حسيب كيالي، نوفل إلياس، مدحة

عكاشـ، د.عزت الطباع، عبـد الله يوركي حـلاق، كمال فوزي الشرابـي، عبد الجبار الكيالي، نهاد طرزي، زهير ميرزا وغيرهم.

أمّا شعراء الأغنية الزجلية، فالتزموا في عطائهم بقوالب الطقطوقة والأغنية الشعبية الدارجة والموشحات التي ابتدعها الأندلسيون والتي ابتدعت أصلاً من أجل الغناء، بالأوزان المتعـارف عليهـا في النظم والأخـرى التي جـاؤوا بهـا، وإذا كانت الأغنية السياسـية والانتقاديـة والاجتماعية والوطنية القومية، عرفت أعلاماً من الشـعراء الشعبيين الذين نظموهـا ولحنوهـا وغنوها مـن مثل: عبد الغني الشيخ، سـلامة الأغواني، علي دياب، عبـد الله المدرسـ، رفيق الأفيوني وحاتم نصري وغيرهم، فإنّ الأغنية الدارجة عرفت عدداً كبيراً من شعراء الأغنية الذين مارسوا النظـم في كل قوالب الأغنيـة عدا المونولوغ الرومانسي الذي لم يكتب فيه سوى قلة.

وأشـهر ناظمي الأغنية العربية السورية الذين لم يرتقوا في مبناها ومعناها ومضمونها إلى مستوى كتاب الأغنية في العراق ومصرهم: عمـر حلبي، مسـلم برازي، أحمـد مأمون، حمدي شاكر، رسلان نوري، أنور البابا، عزت الحضري، صـلاح جبنخجي، إبراهيم كريم، محمد فريد راضـي، محمد خير السروجي، توفيق فكرت الحبش، توفيق العطري، صلاح النقشبندي، سعيد الحاج وغيرهم.

أكثر هؤلاء الذين أتينا على ذكرهم كانوا من الهواة، ولم يستمروا وأعطوا ما أعطوا في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات، أمّا الذين اسـتمروا فهم قلة يأتـي في مقدمتهم عمر حلبي وصلاح النقشـبندي، ومسلم البرازي وهذا الأخير أقلع عن النظم منذ اسـتقر في السعودية في مستهل الستينيات.

أمّا كتـاب الأغنية الذين مارسـوا هذا الفن منذ الخمسينيات والذي يزيد عددهم على الخمسين كاتباً، لم يبدع منهم سوى قلة على الرغم من غزارة إنتاجهم منهم: عيسى أيوب وحسـين حمزة وأحمـد قنوع وفوزي المغربي وأنطوان مبيض.

قــرن التحــولات المتســارعة

د.خير الدين عبد الرحمن *

إنّهـا دورة متجــددة، يجذب مسـارها الإنسـان فتجده يلهث ساعياً إلى سبر أغوار المجهول وإدراك كنهـه. وكلّما أفلح أو كاد، تجده يتنفس الصعداء راضياً، ثم يعود ليبدأ من جديد! ليس ثمة أي مجهول أشـد غواية واجتذابـاً لنزوع المرء إلى المعرفة والاقتراب من استكشـاف شـيء مـن الغيـب الذي لا يعلمه إلا الله، وهذا ما لا سبيل إليه بغير مشـيئة الله الذي يطلع من شـاء من عباده على مـا يشـاء. وليس ثمـة أي غيب أكثر غياباً عن وعينا وإدراكنا من مسـتقبل يتوق المرء بفطرته وغريزته إلى التمايز بكشـف مـا يحمله أو الإحاطة بمـا قد يتيحه. كان السـحرة والمنجمون والعرّافون والدجّالون وذوو البصـيرة النافـذة والذكاء الخارق في البداية مقصـد المتلهفين إلى اسـتعجال ما يأتي به الغد، أو استشراف بعض ما فيه، أو استحضـار غائب من ماض وحاضر، إنساناً أو فعـلاً أو مادة، من قـراءة كف أو فنجان أو رمل أو أوراق اللعب، إلى مسـاءلة النجوم وسوى ذلك.

اختلـف الأمر شـيئاً فشـيئاً، بدرجات متفاوتة وتسارع متباين ما بين عصر وعصر، وما بين إنسان وإنسان، وبات القليل مما جاد الخالق عالم الغيب به عبر الرسـل والأنبياء

* كاتب وباحث وسفير سابق.

من أخبار قادم الدنيا والآخرة ونواميسهما مقصداً ومرجعاً في آن.

تلا ذلك ما يستطيع المجتهدون وأولو العلم استنباطه أو تخيله أو توقعه، فكانت تأتي الأيام بما تحمله مؤكدة بعضه ومخيبة توقع بعضه الآخر. وسواء اخترنا التوقع، وهو تعبير نفضله على مصطلح التنبؤ السائد، توقعاً كلياً وفق منطق استنباطي، أو توقعاً وفق منطق احتمالي، أو سوى ذلك من الأساليب التي أفرزتها مدارس ومذاهب الدراسات المستقبلية الحديثة عموماً، بما فيها الدراسات العسكرية، فإنَّ التوقع هو أحد أهم أهداف البحث العلمي في شتى المجالات. تتعزز هذه الأهمية بحسن اختيار القواعد والقوانين الملائمة التي يستند إليها الباحث وفقاً لما يتطلب مجال بحثه، سواء كانت كلية أو نظرية أو إحصائية أو منطقية أو علمية أو تجريبية، وسواء فسّرت الظواهر والأحداث والتطورات تفسيراً وصفياً أو تأويلياً.

إنَّ التوقع الموضوعي في حدود ما يسمح الخالق به، ومع الإدراك الدائم لمدلول قوله عز وجلّ ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، هو نشاط عقلي يختص بالمعرفة العلمية أساساً، لا بالشعوذة أو ادعاء قراءة الغيب، من دون إلغاء دور المعرفة (الميتافيزيقية) عبر الحدس -الذي هو تزاوج الموهبة والخبرة- والذي يسد ثغرات ومواطن قصور يعانيها العلم في فهم ديمومة الحياة وتفسير بعض نواميسها واستكناه بعض أسرارها.

يتلمس علم المستقبل، أو يتخيل، أحداث الزمن الآتي محدداً مدى احتمال وقوعها، ويظل خارج دائرة العلوم البحتة التي تعطي نتائج يقينية. هو علم يدور حول مفاهيم مثل التخطيط طويل المدى وتحليل المعلومات والنبوءات والإسقاط والقياس والاستشراف. بالتالي، يتم التعامل مع الاحتمالات من خلال ترجيحات مدروسة تتيح الاستعداد بخيارات ملائمة واتخاذ قرارات أكثر صواباً، من دون جزم بحتمية الأحداث أو التطورات المتوقعة، وبتعامل محدد معها. كما أن المستقبل لا يحمل في طياته اتجاهاً خطياً أحادياً Uni-liner غير قابل للارتداد والانتكاس.

وهنا نلفت النظر إلى أنَّ تلمس المستقبل، أو التحليل المستقبلي Prospective analysis يختلف عن التنبؤ، أو التوقع، بتحرره النسبي من قيد أسلوب فني معين أو منهجية ضيقة، وبامتداد فترته الزمنية بحيث إنها قد تغطي عدة عقود.

كما أن من المهم التنبه إلى أنه ما من أسلوب أو أنموذج أو نهج محايد تماماً، فحتى التكنولوجيا ليست وسيطاً محايداً،

وسواء أكانت النماذج طبيعية Physical Models أو رياضية Mathematical فهي تجريد للواقع يعزل الظواهر المدروسة. والإشارة مفيدة هنا إلى أن التحليل السياسي ينتبه عموماً لدور التلمس المحقق لذاته، أي تلمس تطور أو حدث مستقبلي ربما لا تكون لوقوعه مبررات أو أسس، لكن الإعلان المسبق عنه يساعد على تحقيقه وتحويله إلى واقع.

من هنا ننطلق في محاولة رصد ما نرجح أن تتجه إليه أحوال عالمنا في العقود القادمة من تحولات وتطورات، مع تلمس ما يشكل مفاجآت منها في عصرنا الذي وصفه بريان ماتيمور، عالم المستقبليات البارز، بأنه عصر الابتكارات الفريدة التي تحول الخيال إلى حقيقة.

لقد استسلم فلاسفة ومفكرون كبار في عصرنا، وبدؤوا ينشرون أفكاراً متشائمة تدفع للاكتئاب بعدما راحت أنماط الحياة تتغير فعلاً بمعدلات متسارعة، إلى درجة جعلت الفرد يشعر بأنّ جوهر وجوده ككائن بشري في الدنيا يتعرض للتهديد وبعدما بات الدفق المعرفي يفرض مزيداً من التخصص الدقيق مع تسارع تقادم المعارف المتخصصة.

لقد تواكب التقدم العلمي والتقني والانفجارات المعرفية غير المحصنة بما يكفي من عدالة وحماية أخلاقية وقيمية مع تدهور مستوى معيشة نحو ثلث سكان العالم ممن سقطوا إلى تخوم خط الفقر أو ما دونه في السنوات الثلاث الأخيرة، بعد انهيار الطبقة الوسطى على نحو دفع إلى إعادة تكوين ثنائي للمجتمعات يتمثل بطبقة صغيرة جداً فاحشة الثراء والنفوذ، وطبقة أخرى ضخمة جداً متفاوتة في مستوى الفقر، من دون طبقة ثالثة توازنهما وتستطيع امتصاص تناقضاتهما[٣] اشتد نشاط الهجرة من البلدان المتخلفة والفقيرة إلى شمال أمريكا وغرب أوروبة، بما أفرز تحولات ثقافية ومجتمعية وسلوكية واقتصادية ضمرت معها فكرة القومية وتزايد عدد الدول الفاشلة في العالم التي جرى تقديرها في العام ٢٠٠٥م بستين دولة[٤].

لم يكن البروفيسور مايك ديفيز وحيداً عندما تجرأ على القول بأن كوكب الأرض بأسره قد تحول إلى كوكب العشوائيات[٥]، فقد تحدثت أوساط كثيرة عن هذا التحول الخطير. لقد أصبح سكان العشوائيات التي باتت تضم ملايين الناس في كل واحدة من المدن الكبرى في العالم يشكلون طبقة ثورية تبتكر أساليب غير نمطية لحياتهم وتعاملهم. لقد تجاوز عدد سكان مئة مليون عشوائية في العالم حالياً المليار ونصف المليار من البشر، وينتظر أن يزيد هذا العدد في

العام ٢٠٣٥م على ملياري نسمة[1]. إنَّهم وقود بشري لإشعال ثورات قادمة.

وليس عارضاً أن يتهم وزير خارجية أستراليا السابق غاريث إيفانز سياسيي الغرب خاصة، ومقلديهم في العالم عامة، عندما اكتشف بعد سنوات من عمله في دهاليز المجتمع المدني العالمي من الحقائق المريرة ما أثار غضبه الهائل على هؤلاء السياسيين فقال: إنَّه اكتشف في السياسيين، وخاصة منهم الذين يصنعون السياسة الخارجية، خطايا متعددة من مشتقات الخطيئة العظمى التي هي النفاق، كازدواجية المعايير والتذبذب الأخلاقي وقول شيء وفعل شيء آخر. وقال إيفانز إنَّ خطيئة النفاق هي الأبرز والأخطر والعن الكبائر في قائمة خطايا عالم السياسيين ذائعة الصيت: الشهوة والشره والجشع والبلادة والغيظ والاستكبار.

لعلَّ مثل هؤلاء القيِّمين على عالم اليوم هم أهداف ثورات الفقراء القادمة.

دعونا نتمعن في بعض ما ورد في تقرير مجلس الاستخبارات الوطني الأمريكي عن رؤيته للعالم في سنة ٢٠٢٠م، أي بعد سبع سنوات من الآن. فقد توقع التقرير الذي نشرته Asia Times في عددها لكانون الثاني سنة ٢٠٠٥م «غليان القدر المعادي لأمريكا في العالم الإسلامي... بحيث يبقى الإسلام السياسي قوة فعّالة تتصدى للولايات المتحدة... بحيث يشترك الإسلاميون مع القوميين في القتال ضد الولايات المتحدة»، بل وتوقع التقرير في واحد من أربعة مشاهد مستقبلية (سيناريوهات) وضعها لمستقبل العالم في العام ٢٠٢٠م قيام دولة الخلافة الإسلامية التي تتحدى نمط الحياة الغربي، والأمريكي تحديداً، الذي تسعى العولمة إلى فرض قيمه ومبادئه وعاداته وسلوكه ليكون نمط حياة العالم كله. لا تخفى دوافع الحقد التاريخي الكامن في التحريض الذي ينجم عن مثل هذا التوقع الذي جاء متزامناً مع احتلال أفغانستان والعراق وانهيار الكثير من فعالية مقاومة العالم الإسلامي الذي رضخت معظم حكوماته للعصا الأمريكية الطاغية آنذاك.

نظرة إلى أمسنا القريب المؤسس للغد:

ننظر أوَّلاً خلفنا إلى بداية القرن الحادي والعشرين فتبرز في الذاكرة أحداث كبرى تؤسس للقادم من العقود.. من أبرز تلك الأحداث احتلال عسكري أمريكي - أوروبي لأفغانستان، بعد غزو جاء في ظاهره رداً على عملية تدمير مركز التجارة العالمي يوم

٢٠٠١/٩/١١م في نيويورك إثر مهاجمتهما بطائرتي ركاب مخطوفتين، وتدمير جزء من مبنى وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن بانقضاض ما قيل أنها طائرة ثالثة، جرى تشكيك متواتر بشأنها، بينما فشل هجوم بطائرة أخرى قيل أن هدفه كان إمّا البيت الأبيض مقر الرئيس الأمريكي، أو مقر الكونغرس، في واشنطن فقد أسقطتها بركابها صواريخ طائرات حربية أمريكية تصدت لها.

تكرر الغزو مستهدفاً العراق أيضاً، ليجدد سقوطها على أيدي التتار بقيادة هولاكو، بذريعة الشك بحيازته أسلحة دمار شامل تهدد الكيان الصهيوني. لكن وقائع واعترافات عدّة سرعان ما أكدت أن ذلك الاحتلال كان مبرمجاً قبل أكثر من عقدين من السنوات ضمن خطة مفصلة وضعتها وزارة الدفاع الأمريكية لخوض حرب في منطقة الخليج تحقق السيطرة على نفط المنطقة، وعلى خطوط إمدادات النفط والغاز من آسيا الوسطى والخليج إلى أوروبة. لقد سعى الاحتلال الأمريكي إلى تدمير العراق مجتمعاً وكياناً وقيماً وانتماء واقتصاداً وقدرة صناعية وعلمية وعسكرية، في سياق مشروع لتغيير منطقتنا وإعادة تشكيل وصياغة قيم أمتنا وثقافتها وعقيدتها، وتسليم قيادتها للكيان الصهيوني، وصولاً إلى هيمنة عسكرية أمريكية على العالم الإسلامي، ومن ثم على العالم بأسره لتكرس هيمنتها الاقتصادية والسياسية.

لقد جاهر المحافظون الجدد بتبني هذا المشروع. لكن المقاومة الضارية ضد قوات الاحتلال وأدواته المحلية أفشلت هذا المشروع إلى حد كبير، على الرغم من مذابح ارتكبتها قوات الاحتلال بمشاركة مؤكدة من أجهزة مخابراتية وقوات خاصة إسرائيلية، ورسالة بعثوها إلى ما وراء العراق بإعدام الرئيس العراقي صدام حسين فجر أوّل أيام عيد الأضحى بعد رفضه عرض وزير الدفاع الأمريكي آنذاك، دونالد رامسفيلد، بنقله إلى بلد آخر مقابل تنازل سياسي منه.

كانت رسالة بالغة القسوة هدفها امتهان العرب والمسلمين عامة، وإرهاب العالم الثالث بأسره، رسالة لا يخفي جوهرها زعم الاحتلال أن هدفه هو حرية الشعب العراقي(!) ونقله إلى حكم ديمقراطي. ولعلَّ الشعوب العربية قد استوعبت محنة سقوط العراق تحت الاحتلال الأمريكي المدمر فقررت استباق تكرار المحنة في أقطار أخرى، وهكذا تلاحقت موجات شعبية تتصدى لعملية تدجين أمتنا وقتل انتمائها وفاعليتها مما كاد يهدد وجودها ذاته، أسست لها

المقاومة العراقية وكذلك المقاومة اللبنانية التي أرغمت قوات الاحتلال الصهيونية على انسحاب ذليل غير مشروط من جنوب لبنان يوم ٢٥/٥/٢٠٠٠م، وانتفاضة الأقصى في فلسطين التي هددت الاحتلال تهديداً جاداً فجابهتها شراسة العدو الصهيوني ورعاته وتواطؤ بعض أطراف النظام الرسمي العربي، وكذلك المقاومة الفلسطينية الصلبة في غزة، مما أسهم في التأسيس لطرد الهيمنة الأمريكية من منطقتنا.

أراد المحافظون الجدد الصهاينة انطلاقاً من غزو أفغانستان والعراق ونشر القواعد العسكرية والمخابراتية الأمريكية في الخليج العربي وآسيا الوسطى والجمهوريات السوفييتية السابقة تكريس أمركة العالم متسترين بالعولمة. لكن النهوض الديمقراطي نجح في دحر الهيمنة الأمريكية والأنظمة الموالية لها في معظم بلدان أمريكا اللاتينية، ثم جاء الحراك الشعبي العربي، فاشتدت مشاعر العداء والكراهية لسياسات الولايات المتحدة على امتداد العالم، على نحو أسهم في أفول إمبراطوريتها كما أفل الاستعمار الأوروبي من قبل.

هذا ما كان قد توقعه زبيغنو بريجنسكي وسكوكروفت، مستشارا الأمن القومي الأمريكي السابقان، وكذلك خبراء ومفكرون كثر، مثلما توقعا تنامي العملاقين الصيني والهندي وتجدد طموح روسيا الجديدة[٧]. كرر بريجنسكي نفسه هذا التوقع ومعه وزراء الخارجية السابقون جيمس بيكر وهنري كيسنجر ومادلين أولبرايت وجورج شولتز ومئات الخبراء في مشروع (برينستون) لإستراتيجية القرن الحادي والعشرين الذي تمَّ وضعه بإشراف ماري سلوتر عميدة كلية وودرو ويلسون للشؤون الدولية والعامة في جامعة برينستون الأمريكية[٨]. وإذ يجاهر قادة أمريكيون كثر بأنَّ بلادهم تخوض حرباً ضد الإسلام، مثل هنري كيسنجر الذي قال في المؤتمر السنوي لغرفة التجارة الدولية سنة ١٩٩٠م: «الجبهة الجديدة التي على الغرب مواجهتها هي العالم العربي الإسلامي، باعتبار هذا العالم هو العدو الجديد للغرب»، فإن سعي رسميين أمريكيين آخرين إلى إنكار هذا بدا باهتاً وغير مقنع إزاء وقائع وأدلة دامغة على تجذر هذا العداء. بل لا تزال هناك مادة في المنهج الرسمي لتدريس الضباط والجنود الأمريكيين عنوانها (نحن في حرب مع الإسلام) تؤكد أن هذه الحرب مستمرة ومعتمدة استراتيجياً.

تحولات الدول وأدوات الصراع:

ابتكر البروفيسور فيليب بوبيت، مستشار الرئيس كلينتون السابق لشؤون الأمن

القومي وأستاذ القانون الدولي في جامعتي كولومبيا وتكساس، نظرية تمثل حلاً وسطاً بين مقاربتين متناقضتين، تجزم أولاهما بأنّ عصر الدول قد انتهى وأنّ مفهوم الدولة بدأ يسحب من التداول، وتجزم الثانية بأنّ مفهوم الشركة أو السوق هو البديل الذي تنتشر هيمنته بتسارع كبير على عالم اليوم. فقد أطلق بوبيت مفهوم الدولة / السوق[9] (نتمعن هنا في قول الإستراتيجي الفرنسي البروفيسور بوركهارت: «نحن ندخل الآن في مرحلة تاريخية لم تعد السلطة فيها مسألة عسكرية وإنّما مسألة اقتصادية، أو لنقل مسألة متزايدة الاقتصادية.

إنّ قواعد الصراع قد تحولت من أرضية إلى أخرى؛ تحولت من العنف المادي إلى العنف الاقتصادي، بحيث إنّ أولويات السعر والقيم المالية سوف تكون سيدة الساحة»[10]. بهذا ندرك على نحو أفضل مغزى دراسة بعنوان (القيادة) للجنرال الأمريكي ديفيد برايس[11] تضمنت رؤية مستقبلية لأوضاع ومهام الجيش الأمريكي في العام ٢٠٢٥م. قالت هذه الدراسة: «إنّ بنية القوات المسلحة هي نتيجة قرارات تتحكم بها الأمور المالية، ويتخذها مدنيون وقيادات عسكرية. هذا كان في الماضي والحاضر لكن الظروف التي توجد في العام ٢٠٢٥م سوف تكون مختلفة. ما سوف يتغير على أي حال هو تركيز القادة العسكريين.

إنّ تركيزهم يستهدف اليوم تحقيق مكاسب بسيطة على حساب ممارسات تجارية جيدة. لكن عليهم أن يكونوا في المستقبل رجال أعمال على مستوى عالمي. يتطلب التخطيط للقوات المسلحة وضع كل البدائل والخيارات في الاعتبار، بما فيها تلك غير العسكرية. إنّ المبادلات التجارية التي يجب القيام بها لمضاعفة البنية سوف تكون موضع تحدٍ- على الأقل مثل القائمة حالياً. سوف يحتاج كبار القادة إلى فهم آلية الميزانية ومعرفة التكاليف وتحليل الأنظمة المالية. إنّ الضباط الذين يتقنون تخطيط القوة ولديهم الخبرة في الشؤون المالية سوف يكونون جاهزين للعمل كصانعي قرار رئيسيين. أمّا أولئك الضباط الذين لا تتوافر لديهم هذه المهارات فسوف تتم إحالتهم للقيام بأعمال أدنى».

ومضى الجنرال برايس يقول في موضع آخر من دراسته: «تحمل ظروف القيادة في القرن الحادي والعشرين تحدياً كبيراً في ثناياها. سيرتدي قادتنا العسكريون في العام ٢٠٢٥م ثياباً أنيقة، ويخططون لمهام غير تقليدية وينفذونها.

سيقودون غالباً قوات غير أمريكية، بحيث تكون القيادة لهم، أمَّا باقي جيوش العالم فعليها الانقياد والعمل كمرتزقة أجانب. سوف يستعين قادتنا العسكريون بالتقنية المتطورة لتنفيذ سريع التنظيم، كما يتخذون قرارات ذات بنية عسكرية بعيدة المدى اعتماداً على تحليلات مالية دقيقة تتعلق بالتكلفة والفائدة..».

على جانب آخر، لقد دعّم انكشاف الحدود وانهيارها أمام ثورة التواصل والاتصال والمعلوماتية الدراسات الأمنية وتطبيقاتها. وازدادت حدة القلق المواكب للخوف من الهيمنة والاستلاب والتهجين وحتى اضمحلال بعض المجتمعات مع ازدياد تطور تلك الثورة وتقدم وسائلها، ومع جائحة أنماط سلوك وقيم ترتدي غلالة العالمية، لكنها تشير في جوهرها وفاعليتها ومآلها إلى غلبة نموذج محدد هو نمط أنتجته الثقافة الغربية تدعمه هيمنة اقتصادية وسياسية وتقنية ذات آلة عسكرية باطشة عابرة للمحيطات.

لكن ما فشل المشروع الإمبراطوري الأمريكي في تحاشيه هو رد فعل شعوب كثيرة أدركت أن عليها السعي إلى صنع مستقبلها بنفسها ومحاولة التحكم بتشكيله، انتقالاً من موقع المفعول به إلى موقع الفاعل.

استوقفتنا (نبوءة) هامة لزبيغنو بريجنسكي، وإن بدت لبعض الناس أقرب إلى تحذير أو تخوف منها إلى النبوءة. لقد عمل بريجنسكي بجد ودهاء على تقويض الاتحاد السوفييتي ومعسكره. وما إن تمَّ هذا حتى أطلق بريجنسكي مقولة بالغة الإيحاء والخطورة في كتابه المشار إليه، لم يلتفت كثيرون إليها في غمرة ما ساد العالم آنذاك من ذهول وأحزان واحتفالات وأحلام وأوهام. فقد قال إنَّ «الشيوعية كظاهرة فلسفية تكاد توحي بأنها لم تولد للقرن العشرين، بل للقرن الحادي والعشرين! وتابع يقول: مع الخواء الروحي وانعدام الضوابط الميتافيزيقية، لنا أن نتخيل تمثال كارل ماركس وقد انتصب مكان تمثال الحرية في نيويورك»!

هل يرتبط الانهيار المالي الأمريكي بهذا التخيل الذي أطلقه بريجنسكي؟

وما هو سر اختيار كارل ماركس أكبر مفكري الألفية الميلادية الثانية في استفتاء أجرته هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)؟

بل ما هو سر الإقبال الشديد على مؤلفات كارل ماركس والكتب الباحثة في الماركسية في الغرب وفي مناطق كثيرة من العالم، بعد إعراض شبه تام عنها في السنوات العشرين الماضية؟!

أليست ذروة تمازج الملهاة بالمأساة بعد سقوط الأنظمة الشيوعية في شرق أوروبة كسقوط أوراق الخريف، من دون أن يدافع عنها حتى سدنتها، بحيث توهم نقيضها الرأسمالي أنها ساعة انتصاره النهائي، وإذ بشيوعية الصين تنجو من السقوط بولوجها عالم حرية السوق والرأسمالية وتكاد تتبوأ عرشه، محتفظة بعنوانها الشيوعي من دون جوهره ومضمونه وقوالبه؟ كيف نترجم توقع بريجنسكي من انهيار لقلعة الرأسمالية في الولايات المتحدة -وحتى تحولها إلى الماركسية - وهو نفسه الذي هندس في الشهر الأخير لعمله في إدارة الرئيس كارتر عملية حشد وتعزيز وتسليح تنظيمات المجاهدين المسلمين لمقاومة التدخل العسكري السوفييتي في أفغانستان، مما أسهم كثيراً في انهيار الاتحاد السوفييتي ومعسكره!

ولكن على الرغم من بدء انحسار موجة الأمركة المتسترة بالعولمة، ماتزال تيارات وقوى في الغرب تعمل على ضمور الثقافات الأولوية والأقليات العرقية والثقافية بدمجها في المجتمعات الأوسع، بدعوى أنَّ «هناك حدوداً للتسامح مع الأقليات التي تتعارض معتقداتها مع قوانين وتقاليد الأغلبية»[١٢] ويشتد تأثير هذا التوجه مع تلاحق موجات الرفض والتمرد التي تفجرها الأجيال الجديدة، وفشل المسعى الأمريكي لفرض نمط قيمي وثقافي واحد Monoculture على كوكبنا.

نتذكر هنا ما قرره روجيه غارودي إذ قال: «انحطاط الثقافة الذي يلعب دوراً منظماً في حياة المجتمع الأمريكي إنَّما ينحدر من طبيعة تاريخ الولايات المتحدة»[١٣]. بيّن غارودي أنَّ الولايات المتحدة تنظيم إنتاجي تضبط عمله العقلية التكنولوجية والتجارية نفسها، حيث يشترك فيها المنتج والمستهلك في غاية واحدة هي النمو الكمي للرفاه، أمَّا الهوية الشخصية الثقافية والروحية أو الدينية فهي مسألة خاصة وفردية بشكل حازم، لا شأن لها في آلية عمل هذا التنظيم ولا تتدخل فيه. مع ذلك، وجدنا توجهاً جارفاً شديد الفعالية لفرض النمط الثقافي والقيمي الأمريكي الهجين على العالم بأسره، بل وشن حروب ثقافية وعقائدية، كالحرب على الإسلام.

عجلت هذه السياسات في انهيار الدور الإمبراطوري الابتزازي والمتغطرس الذي صنعته الولايات المتحدة لنفسها. أكد نعوم تشومسكي هذا بدوره قائلاً: «بات العالم اليوم على فراش الموت نتيجة السياسات الأمريكية التي تشبه سلوك عصابات المافيا

في هروبها من حكم القانون حفاظاً على مصالحها الأنانية الجشعة الخاصة وإذ تعمل الإدارة الأمريكية المحافظة وفق مبدأ هو (أنت حر لتفعل ما تريد ما دمت تفعل ما نريده منك) فالإرهاب الدولي هو التعريف الرسمي للنظام السياسي الأمريكي الحالي».

خلافاً لنبوءة بريجنسكي كان المفكر الفرنسي البارز أندريه مالرو (١٩٠٦-١٩٧٦م) قد توقع بقوة في أواخر حياته، متململاً من خلفيته الماسونية، أن يكون القرن الحادي والعشرون محكوماً بالدين.

اهتم مفكرون أوروبيون وأوساط صهيونية خاصة ومؤسسات كنسية كذلك بظاهرة تنامت منذ تلك النبوءة، هي ازدياد العزوف عن ارتياد الكنائس في أوروبة، في مقابل ازدياد أعداد معتنقي الإسلام في أوروبة، مما لم تقتصر وقائعه الراهنة على كون المسلمين يشكلون الديانة الثانية عددياً في فرنسا وبلدان أوروبية عدّة، وإنَّما لا بفعل المهاجرين المسلمين القادمين من تركيا وشمال أفريقيا وأنحائها الأخرى، بل بفعل تحول مئات آلاف أبناء أوروبة الأصليين إلى الإسلام.

كذلك هو ما تشهده الولايات المتحدة منذ أعلن قادتها شن الحرب ضد الإسلام والمسلمين. لقد ذهب كثير من المفكرين والخبراء ومؤسسات الدراسات وعلماء المستقبل في الولايات المتحدة وأوروبة إلى ترجيح أن يصبح الإسلام الدين الأول والقوة الفاعلة الرئيسة في أوروبة قبل انتصاف القرن الحادي والعشرين، ثم في العالم بأسره.

الأحوال السكانية المرتقبة في العالم:

بلغ عدد سكان العالم في العام ٢٠٠٠م ستة مليارات نسمة، منهم خمسة مليارات يقطنون المدن، بحيث أخذت الأرياف تحتضر، ومثلها الزراعة، ثم تجاوز العدد مع نهاية العام ٢٠١١م سبعة مليارات نسمة، مواكباً لتفجر أزمات معيشية وسياسية واقتصادية عنيفة. كان اكتمال المليار الأول من البشر في العام ١٨٠٠م قد احتاج إلى عشرة آلاف سنة، بينما اكتمل المليار الثاني بعد مئة وثلاثين سنة، والثالث بعد ثلاثين سنة، والرابع بعد أربع عشرة سنة، والخامس بعد ثلاث عشرة سنة والسادس بعد اثنتي عشرة سنة. ولكل منَّا أن يستخلص النتائج!

بات من أبرز تحولات عالمنا الراهنة والمرتقبة تفاقم الأزمات المعيشية وتلاحق الثورات متعددة الوسائل والأشكال بعدما توالدت عوامل الإحباط والصراع والتفجير في شتى المجتمعات، وأبرزها انتشار الفقر

على نحو مروّع في زمن كان المأمول أن يشهد تعميم الرفاه، إذ تتصاعد نسبة البشر الذين اكتظت بهم تخوم خط الفقر وما تحته.

وهكذا حذر كثيرون من انفجار ثورات الفقراء على امتداد العالم، إذ إنَّ هناك الآن مثلاً ثلاثة أشخاص يملكون ثروات مجموعها أكبر مما تمتلكه معاً ٤٧ دولة فقيرة. وهناك ٤٧٥ من أغنى الأغنياء يسيطرون على أموال أكثر مما يتوافر لدى نصف البشرية مجتمعة.

هذه الحقائق قد تقود إلى انفجار اجتماعي عالمي كبير في وقت غير بعيد، بقيادة مليار ونصف مليار إنسان جائع ليس لديهم ما يخسرونه سوى قيودهم(١٤).

من المتوقع أن يلامس العالم بأسره الخط الأحمر مع ارتفاع عدد سكانه إلى تسعة مليارات نسمة. أكد خبراء أن تقديرات كفاية الحد الأعلى لإجمالي الغذاء المتاح حيازته وإنتاجه في كوكب الأرض لا تفي باحتياجات إطعام ما يزيد عن هذا العدد من البشر كحد أقصى، أي تسعة مليارات نسمة، إن تمَّ توزيع هذا الغذاء بعدالة ودونما هدر أو إسراف.

وبالتالي سوف يكون توفير طعام لما يتجاوز هذا الرقم معضلة لا سبيلاً منظوراً إلى حلها، مما جعل أسعار المواد الغذائية في العالم تتضاعف مراراً وبتسارع شديد متفاقم. ولعلَّ المعضلة الأشد تعقيداً هي توفير المياه، في ظل نضوب متزايد لمصادر المياه العذبة السطحية والجوفية. وإذا بدا جليد المنطقتين القطبيتين الشمالية والجنوبية مصدراً واعداً إذ إنهما أضخم مصدر للمياه العذبة التي تشكل أقل من ثلاثة في المئة من مجموع مياه كوكبنا، فسوف تكون من أبرز مشاكل القرن الحالي مسألة نقل المياه من هناك ومسألة تجددها والآثار البيئية والاقتصادية الناجمة عن هذا الذوبان، وخاصة ارتفاع مستوى مياه البحار بما يهدد مدناً ساحلية عدّة بالغرق، على نحو ما يهدد عشرة آلاف جزيرة تشكل جمهورية المالديف الإسلامية اليوم.

قد يبدو من السهل أحياناً اقتراح حلول، لكن تطبيقها شديد التعقيد. يفتقر مليار ومئتا مليون إنسان في عالمنا اليوم إلى ماء نظيف للشرب، بينما يستهلك المزارع في الدول الغنية ثلاثمئة لتر من الماء لإنتاج لتر واحد من الحليب.

من المفارقات عندنا أنَّ بلدان شبه الجزيرة العربية أفقر مناطق العالم في مصادر الماء، وأكثرها استهلاكاً له. ولئن شكلت محطات تحلية ماء البحر حلاً مؤقتاً ساعدت الطفرة النفطية في توفير الماء، فهذا

حل مكلف طارئ ومحفوف بالمخاطر تتآكل تجهيزاته سريعاً ويزيد ملوحة بحار لا تصب فيها أنهار، بل قليل من سيول أمطار نادرة.

إنّ عدد سكان أفريقيا مثلاً هو مليار نسمة حالياً، يعاني نحو ربعهم المجاعة أو سوء التغذية على الرغم من الإمكانات الزراعية الهائلة لأفريقيا عامة، المهددة بجائحة التصحر. وسيقفز هذا العدد قبل نهاية القرن الحالي إلى ثلاثة مليارات وستمئة مليون نسمة، بحيث تتجاوز نسبة المهددين بالمجاعة أو سوء التغذية من بينهم الثلثين في ظل معدلات التنمية المتوقعة. ولا تقل أخطار آثار الأمراض والفقر والجفاف وأنظمة مستبدة ومشاكل اجتماعية أخرى في كثير من المجتمعات الأفريقية عن خطر المجاعة وسوء التغذية.

لا يقتصر الأمر على تفاقم أمراض ونتائج سلبية أخرى نتيجة الفقر، وإنّما تنتشر أمراض معروفة وأخرى مستحدثة وتتوالد في أوساط الأغنياء والطبقة الوسطى المتآكلة أيضاً نتيجة النمطين الإنتاجي والاستهلاكي السائدين.

يتوقع الخبراء مثلاً ارتفاع نسبة المصابين بشتى أنواع السرطان بنسبة ٧٥٪ في غضون سنوات قليلة.

أمّا أكثر دول العالم سكاناً، أي الصين، فينتظر أن ينقص عدد سكانها من قرابة مليار ونصف المليار حالياً إلى تسعمئة وخمسين مليون مع انتهاء القرن، إذ يحوّل التشدد في تطبيق قانون السماح بمولود واحد فقط لكل عائلة المجتمع الصيني إلى مجتمع شائخ يتجه نحو الانكماش عددياً. لكن انطلاقة التنمية الاقتصادية الصينية تتابع نجاحها الكبير وصولاً إلى توقع أن يحتل الاقتصاد الصيني المركز الأوّل في العالم مع نهاية العام ٢٠١٥م بدلاً من الاقتصاد الأمريكي المتأزم.

نشير هنا إلى دراسة إحصائية للعالم توماس روتر[١٥] عنوانها (الصين تقود العالم نحو الابتكار في العام ٢٠٢٠م) تؤكد أنَّ الصين هي ثاني منتج للبحث العلمي في العالم بعد الولايات المتحدة حالياً، وهي تتقدم بسرعة للتفوق عليها اعتماداً على ذاتها، بعكس الولايات المتحدة التي تعتمد تاريخياً في هذا الصدد على استقطاب نوابغ الخريجين الأجانب بالغواية أو حتى الإرغام، كما أنَّ الصين تتصدر حالياً الدول القادرة على خوض الحرب الإلكترونية، وهي الأولى من بين مئة وعشرين دولة تركز على تطوير أساليب استخدام الإنترنت سلاحاً في الصراعات الدولية وفقاً لتقرير شركة

مكافي البريطانية لأمن الشبكات الإلكترونية الصادر يوم ٢٠٠٧/١٢/٢٩م. كما نشير إلى أن آسيا قد تفوقت اعتباراً من العام ٢٠٠٨م في الإنفاق على البحث العلمي على الولايات المتحدة وأوروبة.

اعتبر جوزف ستيفانز تحسين مستوى حياة ربع سكان العالم، أي سكان الصين، ونجاح معجزتهم الاقتصادية بمثابة «أهم وأخطر تحول في التاريخ الحديث».[١٦] أمّا روسيا فيتسارع تقلص سكانها بحيث تنبأ بول كيندي مثلاً وكثيرون سواه لمجتمعها بالاندفاع نحو الانقراض. لكننا نتوقع أن يعالج هذا الخطر بتحول روسيا إلى دولة جاذبة للمهاجرين من الصين والهند وبلدان أخرى، حماية للذات واستجابة لاحتياجات بقاء الدولة وتطورها، خاصة وأنّ ثرواتها الطبيعية الهائلة المتجددة من ناحية واستعادتها توازنها وكثيراً من مقومات التقدم والقوة بعد معاناتها عقب انهيار الاتحاد السوفييتي، بحيث فرضت نفسها مجدداً قوة كبرى فاعلة. تعاني دول أخرى كألمانيا وفرنسا واليابان ضموراً في نموها السكاني تعالجه أساساً بقبول المهاجرين على مضض. في المقابل، تواصل مجتمعات الولايات المتحدة وبريطانيا والدنمارك وأستراليا نموها العددي، لكن تفاقم أزمات بعضها الاقتصادية يشكل عامل طرد سكاني.

مفاجآت التكنولوجيا:

ماذا تحمل المرحلة الجديدة من التكنولوجيا فائقة التطور لعالمنا؟ أجاب أشهر فلاسفة فرنسا المعاصرين موريس دو غانديلاك بكثير من التشاؤم على هذا السؤال، في حوار له مع وكالة أورينت برس[١٧] فقال: «إياكم أن ترجموا القرن العشرين بالحجارة، لأنَّ المشهد سيكون لامعقولاً في القرن الحالي. أجل.. إنّنا سنصبح رعايا الكمبيوتر». كان هذا تكراراً لما شدد عليه دو غانديلاك في كتابه (رحلة القرن: ذكريات تسعة عقود)، وقد حدد نقطة البدء لتسارع الانهيار فقال: «كلنا قتلنا في هيروشيما، ولم تعد العبقرية هي التي تدفعنا في اتجاه الآخر وإنّما الخوف..» ثم أردف قائلاً: «في هذه الحضارة التي تبيح أرواحنا مجاناً للسوق، لا يعدو كل واحد منا كونه معولاً في منجم.... الثقافة الحديثة تعزلنا بطريقة أو بأخرى عن الحياة.. إنّنا نخرج من القرن العشرين كما لو أنّنا نخرج من الحياة»! وقال أيضاً: «شيء يدعو إلى السخرية حين نتحدث عن آلية لضبط غرائزية السوق، فثمة حرب هائلة تحدث،

لا تبادل للسلع، وإنما من دون مبالغة على الإطلاق، صراع بين الديناصورات..». كما حذر ألكسندر ستيل Alexander Stille في كتابه «مستقبل الماضي[18] The Future of the Past» من تهديد عصر المعلومات المتزايد والمتصاعد بتدمير التراث الثقافي للمجتمعات. هذا نموذج من قلق مفكري الحضارة الغربية التي تحتكر مجتمعاتها ٩٧٪ من الموارد المخصصة للإنتاج التكنولوجي تاركة لمئة وثمانين دولة نامية وساعية إلى النمو في عالمنا ٣٪ فقط من تلك الموارد مجسدة التصحر الإنساني المتوالد من رحم حضارة اتخذت من العجل الذهبي إلهاً[19].

وهكذا، كلما وعدتنا التكنولوجيا الحديثة بما يتفوق حتى على تهويمات الخيال من مستجدات الابتكارات، تضطرب منظومات فكرية ومجتمعية وقيمية وسلوكية للمجتمعات البشرية بنسب متفاوتة نتيجة تسارع تدفق هذه المستجدات.

ويتفاقم القلق واللايقين، وحتى الرعب، لدى من يحاولون التحرر من الانبهار الفوري والدهشة الآنية والصدمة إزاء كل جديد. صار تسارع دفق ابتكارات جديدة تبتلع ما سبقها أو تقذفه إلى حاوية النفايات قبل أن يتآلف معه الإنسان ويهضمه، أفراداً ومجتمعات، يزيد لهاث البشر للحاق بمسيرة التقدم التقني وإفرازاتها المباشرة وغير المباشرة، ويفرز من الآثار العميقة ما يزعزع قواعد الحياة الفردية والعائلية والمجتمعية والثقافية ويهز جذورها في أحيان كثيرة.. يعدنا الخبراء بأن تقوم الروبوتات خلال العقد المقبل من القرن الحالي بكل الأعمال التي يقوم بها البشر حالياً، بما في ذلك حضانة الأطفال ورعايتهم والعناية بهم أثناء غياب الأهل.

أبرز حقول التطور التقني التي تمس معيشة البشر وتفرز وهماً متعاظماً وإبهاراً هائلاً لديهم في المستقبل القريب هي تسخير الطاقة النووية الآمنة، وتخفيض تكاليف استغلال الطاقة الشمسية، وتخزين ثاني أكسيد الكربون الناتج عن حرق الوقود الحفري بوسائل آمنة، ثم ضخه إلى مواقع تخزين دائمة تحت الأرض مثل حقول النفط القديمة المهجورة، وتوفير أنظمة الطاقة النظيفة من مصادر نباتية أو سواها، وتوفير الأدوية واللقاحات الفاعلة بأسعار ملائمة، وتحسين أساليب الري وتخفيض تكاليفه، وتطوير أساليب تقنية استزراع الأسماك، وإنتاج المحاصيل المقاومة للجفاف ودرجات الحرارة العالية، وابتكار سيارات اقتصادية في استهلاك الوقود مع التركيز على تقليص

السيارات التقليدية والانتقال إلى تعميم سيارات طائرة يستطيع سائقها الإقلاع بها عند الحاجة تخلصاً من الازدحام الأرضي أو سعياً إلى انتقال أسرع بالطيران، كذلك سوف تحل طائرات ضخمة بلا طيارين تطير غالباً بقوة الطاقة الشمسية الكثير من مشاكل الشحن البري بأن تحل بالتدريج محل السيارات الشاحنة وقطارات البضائع، وحتى محل الشحن البحري، وطائرات صغيرة بلا طيارين لإيصال البضائع للمستهلكين[٢٠].

وعموماً يمضي تطوير وتعميم الروبتة والأتمتة والإلكترونيات والثقافة الرقمية، وانتشار التعليم الافتراضي virtual أو الإلكتروني عن بعد، والتركيز على أبحاث وعلوم النانو بحيث يتم تصميم وهندسة الأشياء على مقياس أصغر مما تستطيع أن تراه العين بآلاف المرات، وحيث يصعب توقع سلوك المواد المعتادة، مما يقلب عالمنا رأساً على عقب.. فالتكنولوجيا متناهية الصغر تمنحنا سيطرة متزايدة على العالم المادي، وتوفر فرصاً لا نهاية لها لتحسين التقنيات الموجودة حالياً وإنتاج تقنيات جديدة. فمن تصنيع مواد أكثر قوة وأخف وزناً وصناعة حاسبات آلية خارقة القوة وبالغة الصغر، إلى تنمية مصادر جديدة للطاقة المتجددة وابتكار علاجات مصممة حسب الطلب.

كما يزداد التوجه إلى تركيز أكبر على علوم البحار والفضاء واستكشافهما، وعلى أبحاث وتطبيقات التطوير الذهني والذكاء الاصطناعي والطاقة البديلة والسيبرنيتية cybernetics، وتطوير وسائل التواصل على كل صعيد.. كما ينتظر التوسع في إقامة مساكن ومدن ذكية، بل وانتشار تطبيق ما سُبق لليابان إقامته قبل سنوات من مستوطنات وناطحات سحاب فوق قاع البحر، بكل المنشآت الإنتاجية والتسويقية والترفيهية والتعليمية والثقافية والعلاجية والرياضية وسائر التجهيزات التي تضمن لسكانها التهوية والتدفئة والإضاءة بأشعة الشمس المنقولة إلى قاع البحر والتنقل والتواصل والأمان، وكل متطلبات عيش مستقبل رغيد تحت مياه البحر، توفيراً لمساحات أرضية لأغراض الزراعة.

كما تمضي برامج تخليق الحياة الاصطناعية synthetic life بعد اكتمال وضع خريطة الجينيوم البشري، وبعد نجاح فريق هاملتون سميث من معهد فينتر في إنتاج أنواع من البكتريا من مواد جامدة غير عضوية، بما شكل دفعاً لعلم الحياة الاصطناعية (البيولوجيا الصناعية) التي عرّفها لانغتون بعلم دراسة الأنساق التي تبنيها يد الإنسان وتكشف عن تصرفات

تتميز بها الأنساق الطبيعية الحية، بهدف تخليق الحياة في حامل أو سند آخر غير السند الطبيعي، أي بناء نماذج شبيهة بالنماذج الحية سلوكاً وأداء عبر محاكاة بنماذج حاسوبية وروبوتات وكيمياء حيوية.

من ناحية أخرى، يتوقع العلماء انقراض نصف الفصائل الحيوانية المعروفة في كوكبنا قبل انتصاف هذا القرن، وتتسارع وتائر نمو أنواع نباتية كثيرة تسببت تطبيقات الهندسة الوراثية وارتفاع حرارة الأرض ونقص الأكسجين فبات هذا النمو أسرع من المعدلات الطبيعية بثمانية أضعاف حتى الآن، وسوف يتواصل على الرغم من مخاطره على صحة البشر لمقابلة الحاجة إلى توفير غذاء تسعة مليارات إنسان بعد سنوات برفع الإنتاج الغذائي الزراعي بنسبة ٧٠٪. كما سوف يؤدي تفاقم تلوث الهواء والتربة والمياه السطحية والجوفية، وتعاظم تركيز ثاني أكسيد الفحم في طبقات الجو إلى زيادة شدة ومعدلات العواصف والأمطار وارتفاع معدلات الحرارة والتصحر ومزيد من الأمراض التي تصيب شتى الكائنات الحية. سوف يستمر صعود نمط إنتاج المعرفة وما يصوغه من اقتصاد رمزي يستند إلى مرتكزات ومنتجات الثورة التكنولوجية والمعلوماتية في الحاسبات والهندسة الوراثية والفضاء. تؤسس هذه المستجدات لسياسات تميل إلى العنف لقيامها على بناءات اقتصادية صغيرة ومحدودة فاعلة إنتاجياً، وقادرة على مراكمة الثروة، بل تسمح بوجود المنتج الفردي الأكثر معرفة لكن الأقل تنظيماً، بما يقرّب بناها الاجتماعية من تلك التي سادت الحقبة التقليدية التي قامت على نوع من التباعد أو العزلة أو الفردية قبل الحديثة، قياساً إلى الفردية الحديثة أو الناضجة التي أنتجتها التنظيمات الكبرى للمجتمع الصناعي الذي نهض على الثورتين الصناعيتين الأولى والثانية منذ القرن الثامن عشر وحتى سبعينيات القرن العشرين، وذلك على منوال التنظيمات المهنية، والنقابية والمؤسسية، وصولاً إلى تلك الحزبية على المستوى السياسي المباشر. ذلك أنّ الهياكل الإنتاجية المحدودة وما تفرزه من بناءات اجتماعية مجزأة، وأحياناً مفردة، تعمل على استحضار واستثارة المكونات الأولية في تركيب الهوية الإنسانية كالمشاعر الدينية، والانتماءات العرقية، والنزعات القومية العنصرية.

من ناحية أخرى، تحدث البروفيسور جون بيرجس عن نهاية المهنة The end of career، ومضى الاقتصادي جيريمي ريفكين مدى أبعد متحدثاً عن نهاية العمل

The end of work، بعد تزايد دور وأهمية الاقتصاد غير المادي Intangible المعتمد على القدرات الذهنية والتفكير النظري، أو قوة العقل Brain power، بحيث تتأثر وظيفة العمل وترتيباته بقوة بالتكنولوجيا الذهنية Intellectual Tech. في ظل دفق اختراعات وابتكارات تلغي الحدود والقيود والمسافات على كل صعيد.

ردّ الاقتصادي تشارلز جولدفينجر مؤكداً أن هذا الدفق يؤدي دائماً إلى زيادة فرص العمل، لا إلى إلغائها.

لقد تفاقم اللايقين uncertainty ليصبح ملمحاً رئيساً لإنسان المستقبل الزاخر بالغموض والتعقيدات والالتباس والتناقضات والمفاجآت، كما قال لودفيغ فون ميزس Ludwig Von Mises، وخاصة بعد تلاحق انقلابات جذرية في النظم الاجتماعية التي تتآكل أشكالها التقليدية المتوارثة وتتراجع أنماط قيمها وأنساق تفكيرها بسرعة هائلة أمام مستجدات العلم وطغيان المادة.

لقد انتقلنا من عصر السرعة إلى عصر فرط السرعة، وبالتالي زاد معدل المخاطرة في سعي المجتمع نحو التقدم والنمو، وبات المستقبل كما جزم عالم الاجتماع البريطاني أنطوني جيدنز Anthony Giddens لمجتمع المخاطر Risk Society، بل وبات التردد في تنظيم المجتمع على أساس تقبل المخاطر والتصدي لها يودي بالمجتمع ويدفعه إلى الشلل والجمود والسلبية والسقوط، وفقاً لعالم الاجتماع الأمريكي فرانك فوريدي Frank Furedi))[٢١]. وقد فاقم التأزم أن تسارع التقدم التكنولوجي والبيوتكنولوجي قد أدى إلى تمزيق نسيج التاريخ البشري، حتى وجدنا من يتوقعون (ما بعد البشر) أو (ما وراء البشر)!.[٢٢]

مستقبل أزمة الغذاء:

من حقائق عصرنا الراهن المدوية، مهما جرت محاولات طمسها، أن مليازي شخص يعانون من المجاعة وسوء التغذية في العالم، ويشكل الأطفال نصفهم، ويزداد عدد الجائعين بعشرة ملايين سنوياً.

قال الرئيس جنوب الأفريقي السابق (أمبيكي) أنّ العالم قد أصبح اليوم يشبه جزيرة أغنياء تحيط بها بحار من الفقراء، كوكب سكانه فقراء. هواؤه ملوث، أحياؤه عشوائيات، وبعد فترة قصيرة، عاشت مدن جنوب أفريقيا التي عرفت سنيناً من الهدوء والانتعاش الاقتصادي موجات عنف ونهب في أواخر شهر أيار ٢٠٠٨م ضد المستثمرين والعمال الأجانب، وخاصة

من زمبابوي ومالاوي وموزمبيق المجاورة.

هذه بداية انفجارات توقعها كثيرون، مثل باتريك بيرنيت وفيروز مانجي في كتابهما المعنون «من تجارة الرق إلى التجارة الحرة: كيف تقوض التجارة الديمقراطية والعدالة في أفريقيا»[٢٣]. إلى أي مصير يساق ستة مليارات من البشر يعيشون على كوكبنا، وهل يستمر ناهبو معظم ثروات عالمنا في محاولة تنفيذ حلم مجنون أسماه منظروهم (المليار الذهبي) الذي يحتكر الرفاه.

يفتعل البعض أزمة الغذاء بمضاعفة أسعار المنتجات الزراعية الرئيسة عدة مرات لتسويق الأغذية المعدلة جينياً (البيو-تكنولوجية). إنَّها حفنة ضئيلة من شركات الصيدلة والطب والكيماويات الأمريكية أساساً، على رأسها مؤسسة (مونسانتو) العملاقة، التي تعمل منذ سنوات على خطين: الأوّل، احتكار بيع كل أنواع البذور في العالم. والثاني، نقل كل الزراعات على كوكب الأرض من مرحلة البذور الطبيعية (والمجرّبة منذ آلاف السنين) إلى مرحلة البذور المعدّلة جينياً، على الرغم من أنّ الأطعمة الجينية لم تخضع للاختبارات الكافية، ولم تبرأ بعد من تهمة التسبب في أمراض خطيرة كالسرطان، والحساسية الحادة، وأمراض الجهاز الهضمي. فالبذور البيوتكنولوجية تتضمن جينات فيروسات معدلة تستخدم لمقاومة كل من الأعشاب الضارة والحشرات. لكن هذه الفيروسات قد تتطور فجأة لتقضي على كل المزروعات بدل أن تحميها. إنَّها بذور عاقر يطلق عليها في العالم الثالث اسم تكنولوجيا التصفية، لأنَّها لا تنتج بذوراً أخرى، مما يجبر المزارعين على إعادة شراء البذور التي تحتكرها شركات عالمية كل عام.

سوف تحول الشركات عالمنا برمته، عبر الأطعمة المعدّلة، إلى مختبر عضوي واحد عملاق، وهي بدأت تسيطر بسرعة على كل ما يتعلق بإنتاج الطعام وتصنيعه وتطويره وتسويقه. وحين تنجز الشركات هذا الانقلاب التاريخي، ستصبح أقوى قطاع في الاقتصاد العالمي، فيبدو أمامها حينئذ لوبي شركات النفط الأمريكي والمجمع الصناعي-العسكري فائقا القوة حالياً مجرد دكان صغير ملحق بسوقها الكبير[٢٤].

علق رومانو برودي، رئيس وزراء إيطاليا السابق على أزمة الغذاء في العالم التي تفاقمت مع مطلع العام ٢٠٠٨م، بقوله: «يحتاج إطعام الناس لحوماً لمساحة زراعية تفوق بخمس مرات تلك المساحة التي نحتاجها لإطعام الناس حبوباً..»[٢٥]. فهل هذا حل للعالم كله أم هو لمجتمعات شمال أمريكا وأوروبة المتخمة؟ وكان عالم الاقتصاد

الأمريكي ليندون لاروش قد أنذر العالم من انهيار النظام النقدي الدولي وشخّص الداء كما أنه وصف العلاج منذ عشرين عاماً برؤية نادرة من استشراف المستقبل واستباق الأزمات، وأصبح اليوم مرجعاً أمريكياً ودولياً للخبراء والساسة ليتخذوا القرارات الجذرية، والتأسيس لنظام اقتصادي وإستراتيجي عالمي يعوض (بريتن وودز) ويقوم على العدل والأمن والتعاون بين أمريكا والصين وروسيا والهند، ومد شبكات الطرق والجسور والاتصالات وإسناد التواصل بين الأمم إلى فلسفة حضارية مختلفة بإنهاء الاستغلال والنهب ثم حل الأزمات الكبرى بالاحتكام للقانون الدولي وأولها أزمة الشرق الأوسط بالكف عن الدعم الجنوني لسياسات إسرائيل لأنها تهدد الأمن والسلام العالميين وتتحول إلى بؤرة عنف وحصار وعقاب جمعي وقتل وإبادة عرقية كما جرى في غزة مثلاً.

نقف عند ليندون لاروش، وهو من أنصار سيادة الأمم على ثرواتها وخياراتها وعدو لدود للاقتصاد المؤسس على الربا وتجارة الأوهام وإحلال الفرضيات محل الواقع الملموس، ومقاوم بلا هوادة لتلاعبات المضاربين لأنه ما فتئ يدعو لاقتصاد عالمي يقوم على الإنتاج الفعلي للثروة والتشغيل والعدل والرفاه والتكنولوجيا والتجارة، ومكافحة استبداد وإمبريالية المصارف والشركات عابرة القارات التي تتحكم في رقاب البشرية وتنتعش من الحروب وتمول من الاتجار بالمخدرات[٣٦].

لقد قفز العجز التجاري الأمريكي بين العامين ١٩٩٠ و٢٠٠٠م من ١٠٠ إلى ٤٥٠ مليار دولار. في بداية القرن الحادي والعشرين، لم يعد في وسع الولايات المتحدة الأمريكية أن تعيش مما تنتج، وشيئاً فشيئاً تفاقم هذا العجز، وانفجرت الفقاعة العقارية، وانكشفت آلاف الشركات والمصارف، وصار الاعتماد الأمريكي يتعاظم على استقطاب وابتزاز الإيداعات والاستثمارات من كل أنحاء العالم لسد حاجات المجتمع الأمريكي المعيشية، لا مجرد مستلزمات رفاه يتم ابتزازها من عرق مليارات البشر في العالم الثالث خاصة.

في هذه الأثناء، بينما اهتمت الولايات المتحدة بشن حروب نشرت مزيداً من الدمار والموت والآلام والعذاب في فلسطين وأفغانستان والعراق والسودان والصومال سعياً إلى وهم إمبراطوري بأمركة العالم وصهينته، كانت دول أخرى تتقدم في مجالات الصحة والتعليم والتنمية الاقتصادية والاجتماعية وتتحرر من أسر الاعتماد على

الولايات المتحدة الأمريكية التي صارت تعتمد أكثر فأكثر على أموال ومنتجات وجهود باقي دول العالم.

حاول ملفن توفلر، الكاتب الأمريكي راصد المتغيرات العالمية الكبرى والمتنبئ لها، أن يقلل من خطورة الأزمة الكبرى التي بدأت تتفاقم في الولايات المتحدة، معتبراً أنها مجرد مرحلة في دورة اقتصادية عادية، وأنَّ الاقتصادَ الأمريكي منذ القرن التاسع عشر يمر بدورات محسوبة يعم فيها أولاً الازدهار العظيم في الصناعة، ثم في العقار، وبعده في أسواق التجزئة، ثم في القروض المالية المسفوحة على أقدام الشركات الكبرى، ثم مشاكل الديون والرهون، ثم الذعر العظيم، الكساد، لكن الأمور تعود إلى اعتدال فانطلاق وازدهار جديد. غير أنَّ أصوات مفكرين كثر علت مؤكدة أن الولايات المتحدة بدأت الانكفاء والأفول، بل النهاية..

نجد في الوسط بين هذين الرأيين فرنسيس فوكوياما، بعدما هجر عصبة المحافظين الجدد الصهاينة، وتخلى معتذراً عن نظريته المتعجلة التي زعمت نهاية التاريخ عند النموذج الأمريكي. فقد باتت أفكاره أكثر دقة واتزاناً، كما في مقالته (النمو الاقتصادي وحده لا يضمن استقرار العالم) التي أكدت أنه «مهما يكن، فإنه ليس في وسع النمو الاقتصادي وحده أن يؤمن استقرار العالم، تماماً مثلما عجزت العولمة الاقتصادية السابقة لعام ١٩١٤م عن الحيلولة دون اندلاع الحرب العالمية الأولى. بيد أنَّ هناك أسباباً معقولة تحمل المرء على الاعتقاد بمغالاتنا في تقدير المخاطر على الاستقرار العالمي..»[٣٧].

لا ينسجم اطمئنان فوكوياما مع وقائع صارخة لها تفاعلاتها وتأثيراتها العميقة: فمعدل الدخل السنوي للمواطن الأفغاني مثلاً الذي يعيش ٧٠٪ من شعبه تحت خط الفقر والاحتلال الأمريكي معاً أقل من ثلاثمئة دولار.. وبالتالي يعمل الأفغاني سنة كاملة مقابل معدل أجر يوم واحد لفرد في دولة غنية. هذا وضع لا يستقر العالم معه أبداً. ولعل هذا ما جعل فوكوياما نفسه يقول بعد نحو سنة ونصف: «لقد سقطت ماركة الولايات المتحدة وشركائها».[٣٨]

تحولات في التعامل النقدي والتجاري:

تتوالى مفاعيل وآثار التحدي الذي مارسه في بونيس أيريس عاصمة الأرجنتين ستة من رؤساء دول أميركا اللاتينية ضد الهيمنة الأمريكية والذين اجتمعوا يوم ١٠ /١٢/٢٠٠٧م في العاصمة الأرجنتينية

بونيس أيريس وأعلنوا رسمياً قيام مؤسسة مالية جديدة باسم (بنك الجنوب) الذي دعا إليه هوغو شافيز رئيس فنزويلا منذ العام ٢٠٠٤م تمتد وتتفاعل.

فالبنك الجديد بدأ برأسمال سبعة بلايين دولار وشاركت فيه فنزويلا والبرازيل وبوليفيا والإكوادور والأرجنتين والأوروغواي وباراغواي، مهمته تمويل مشاريع إنمائية لتحرير أميركا اللاتينية من قيود التبعية المالية، ومن سطوة وهيمنة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي اللذين تلقيا بهذا أكبر صفعة منذ قيامهما سنة ١٩٤٤م كركيزتين أساسيتين للنظام الدولي الذي فرضته الولايات المتحدة الأميركية تجسيداً لهيمنتها العالمية عقب الحرب العالمية الثانية.

ولئن جاءت منظمة التجارة العالمية سنة ١٩٩٥م استكمالاً لأسس الهيمنة الإمبراطورية للولايات المتحدة على دول الجنوب الفقيرة، ومنعاً لمنافسة اقتصادية من دول الشمال الغنية، فقد توالت إخفاقات هذه المنظمة وصولاً إلى تلقي الولايات المتحدة صفعة أشد وقعاً بتخلي الصين واليابان عن استخدام الدولار واليورو في تعاملاتهما التجارية والمالية، واعتمادهما اليوان (العملة الصينية) أداة تبادل تجاري ومالي اعتباراً من يوم الجمعة ٢٠١٢/٥/٣١م. يسهم هذا في تعجيل إنهاء دور الدولار العالمي الذي أتاح للولايات المتحدة إغراق العالم بأوراقها النقدية وبأرقام وهمية في مقابل استيرادها البترول ومواداً أولية وإستراتيجية ومصنوعات رخيصة ويداً عاملة وعقولاً متفوقة من شتى أنحاء العالم، مما يزيد من عوامل إخفاق النظام الاقتصادي الأمريكي القائم عملياً على قاعدة «استهلك حتى تهلك»!

توقعات اقتصادية:

كتب بول كنيدي مذكراً بأنَّ التاريخ يحفل بالعديد من الاتفاقيات والمعاهدات- ربما تكون معاهدة فرساي ١٩١٩م أكثرها من حيث سوء الشهرة - التي أخفقت في فهم الطريقة التي تعمل بها الألواح التكوينية التي تقوم على نحو تدريجي وبطيء بتغيير شكل قشرة الأرض)... وألحّ كنيدي على أنَّ الدور الخاص الذي يلعبه الدولار الأميركي باعتباره العملة العالمية السائدة (في نظر الناس فقط) يجب أن يتغير بما يتفق مع التغير الحاصل في الظروف العالمية المحيطة (دائمة التغير بطبيعتها)... الموضوع لا يتعلق فحسب بتغيير العملات السائدة، وإنَّما يتعلق بجذب الدولار إلى الأسفل قريباً، ومعه قدرة الولايات المتحدة على التأثير والرمي بثقلها

في مناطق مختلفة في العالم على الأقل العالم الاقتصادي.

هناك شخصيات صينية بارزة تتحدث عن هذا الأمر منذ فترة من الوقت، وهناك مشاعر روسية قوية تقف وراء هذه الفكرة أيضاً. وسيكون من الصعوبة بمكان تخيل أنَّ القادة الأوروبيين من ذوي النزعات القومية القوية، لن يكونوا راغبين في بلورة هذا الأمر على أرض الواقع..

إنَّ تقليص الدور الراسخ للدولار باعتباره عملة الاحتياطي، هو إجراء سيأتي حتماً طال الزمن أم قصر.... تمتلك الولايات المتحدة ما يناهز خمس الدخل المحلي الإجمالي للعالم، و٧٥٪ من احتياطي عملاته القابلة للتداول. وبالنسبة للأميركيين المؤمنين بتفوق بلادهم، فإنَّ ذلك يعد دليلاً إضافياً على قوتها. أما بالنسبة للمحللين الأكثر وعياً، فإن ذلك يُعد اختلالاً خطيراً في التوازن، خصوصاً باعتماد واشنطن على الأجانب لتغطية عجز هائل في ميزانياتها.

الموضوع التالي الحساس هو توازن القوة على قمة صندوق النقد الدولي من الناحية العملية يتفق الجميع على ضرورة إعطاء الصندوق قدراً من الموارد أكبر بكثير مما هو متاح له حالياً. ولكن السؤال هو: كم يجب أن يكون مقدار هذه الزيادة؟... الجميع يتطلعون إلى أكبر دولة مالكة لاحتياطيات العملات في العالم وهي الصين كي تقدم مساهمة كبيرة. لكن الصينيين يتساءلون وراء الكواليس، عن السبب الذي يدعوهم للتحول إلى ممول كبير لمؤسسة لم ينضموا إليها إلا مؤخراً، وتعرف بانحيازها من حيث الثقافة وطريقة الإدارة للمنظومة الرأسمالية العالمية؟... ولماذا يفترض أن يظل توزيع المناصب في الصندوق القائم على أساس اتفاقية بريتون وودز قائماً لفترة طويلة قادمة على الرغم من أن نصيب الصين في أموال الصندوق، أصبح خلال عقد واحد فقط أكبر من نصيب البنك الدولي؟ أليس من التناقض أن تستمر أوروبة برئاسة الصندوق؟.. تحت هذا كله، فإن الألواح التكوينية الموجودة في باطن الأرض، والتي تمثل (البنية التحتية) التي كان ماركس دائم التخوف منها لاتزال تواصل حركتها مبتعدة عن الغرب ومتجهة نحو الأجزاء الأخرى الناجحة في العالم. وليس من شك أن هذه التحولات ستؤثر على المؤسسات التي نشأت بموجب اتفاقية بريتون وودز، وعلى مكانة الدولار في أسواق العملات العالمية، وعلى محاولة الاتحاد الأوروبي المستمرة، والتي لم تكلل بالنجاح المنشود للتحول إلى لاعب رئيس في الشؤون العالمية، قبل أن تزيحه الصين

والهند جانباً - وهو ما سينطبق أيضاً على مركز الولايات المتحدة باعتبارها تمثل الدولة المحورية في العالم[29].

وصف العالم الهندي أمارتيا صن الوضع قبل ذلك ببراعة إذ قال: «العصر الراهن لا تعوزه الأحداث المروعة والمثيرة للاشمئزاز، ولكن استمرار حالة الجوع واسعة النطاق في عالم يتوافر فيه قدر غير مسبوق من الرخاء، يعد من أسوأ تلك الأحداث. المجاعات تداهم الكثير من البلدان بقسوة.. وإن ما يجعل هذا الجوع المستشري أكثر مأساة أو تراجيديا هو طريقتنا في قبوله والتسامح معه وكأنه جزء من طبيعة العالم الحديث..». وقد لخص ساراماجو راهن عالمنا ببلاغة شديدة بعدما تجاوز التصنيفات التي استقرت عقوداً، من يمين ويسار ووسط وليبراليين ومحافظين، فكتب في سياق حديثه عن تلاحق حركات التمرد على العولمة وانتشار الديمقراطية الإلكترونية، بموازاة الحكومة الإلكترونية والمواطن الإلكتروني قائلاً: «تحولت الديمقراطية إلى حكومة الأغنياء»[31].

طبيعي أن يؤدي هذا الوضع بالضرورة إلى تلاحق ثورات الفقراء. إنَّ احتلال المال قمة سلم التقييم المجتمعي وجعل مراكمته غاية الحياة الكبرى، لا وسيلة للإنتاج والتمية الهادفة إلى سعادة المجتمع وتقدمه، يقلب المجتمع بأسره إلى بورصة تباع القيم فيها وتشترى، وتمتهن الثقافة، وتهون الأخلاق، ويحول الإنسان مرغماً إلى مسنن في آلة الفساد والإفساد والنهب والاحتيال، أو يدفعه إلى خلاص بالانتحار عندما لا يبقى لديه حتى بطن يشد عليه الحزام، كما بات حال مليارين من الناس في عالم اليوم. إنه مناخ يفجر ثورات.

• • •

الهوامش

1- Geoffrey Garrett, Globalization`s Missing Middle, Foreign Affairs,Dec.2004

٢- Foreign Policy ،٨،٩،٢٠٠٥، انظر أيضاً كتاب البروفيسور ريتشارد سينت Richard Sennett أستاذ علم الاجتماع في مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية المعنون The Hidden Injuries of Class.

3- Planet of slums New Left Review , March/April 2004.

4- The Free World of Slums, Culture,23.9. 2004.

5- Brzezinski & Scowcroft, America and the World, Basic Books,2008 .

٦- جاكسون ديل، واشنطن بوست، ٢٠٠٦/٢/١م.

7- Philip Bobitt, Terror and Consent,,2008

٨- مقابلة، مجلة استراتيجيا، بيروت، العدد ٩٧، مارس/ آذار ١٩٩٠م، ص١٠-١١.

9- Gen. David Y. Paris, Leadership, Joint Force Quarterly, Autumn1996.

١٠- جون لويد John Lloyd، نهاية التعددية الثقافية، نيوستيتمان، لندن، ٢٠٠٢/٢/٢٧م.

١١- روجيه غارودي، الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، تر مروان حموي، دار الكاتب، دمشق، ١٩٩٨م، ص٣٧.

١٢- سعد محيو، الخليج، ٦/٩/ ٢٠٠٧م.

13-Thomas Reuter, Break News, November 2010.

14-The Guardian, London 21.4.2006.

١٥- الاتحاد، أبو ظبي، ٢٤/ ٣/ ٢٠٠٠م، ص٢١.

١٦- دار نشر لاربيكا، تشرين الثاني ٢٠٠٢م.

١٧- د. خير الدين عبد الرحمن، المليار الذهبي والعجل الذهبي: وحدة المنطلق والمآل، الرافد، الشارقة، أيلول ٢٠٠٠م، ص ٦٧.

18-outlook, The Futurist ,September /October, 2008

١٩- د. أحمد أبو زيد، مستقبليات، ص٥٦-٥٩.

٢٠- المرجع السابق، ص٤١-٤٤.

٢١- صادر سنة ٢٠٠٧م عن دار فاهمو.

٢٢- سعد محيو، الخليج ٢٠٠٨/٤/٢٤م.

٢٣- كريستيان سينس مونيتور ٢٠٠٨/٤/٣٠م.

٢٤ أحمد القديدي، الشرق، الدوحة، ٢٠٠٩/٢/٢٥م.

٢٥- واشنطن بوست ولوس أنجلوس تايمز ٢٠٠٧/٢/٥م.

٢٦- Newsweek 8.10.2008 وكذلك Le Mond ،Paris 8.10.2008

٢٧- هيرالد تريبيون ٢٠٠٩/٤/١٤م، وكذلك: د.أحمد القديدي، المصارف الإسلامية تقتحم أوروبة، الشرق، ٢٠٠٨/١٢/١٠م.

٢٨- أماراتيا صن، التنمية حرية، عالم المعرفة، الكويت، أيار٢٠٠٤م، ص٢٤٥.

29-Le Mond Diplomatique, Paris ,Aout 2004.

تربيــة الإبــداع

د. هــزوان الــوز ✿

منذ مئــة عام ونيّف نشــر «غالتون» كتابه: (العبقريــة الوراثيــة)[1] وفيــه المحاولة الأولى للقيام بدراســة تجريبية للقدرات الإنســانية، وكأنّهــا نظــرت إلى الرجال النابغــين، لا كنوع مســتقل من الجنــس البشري، بــل باعتبارهم يُشــكّلون النهاية العليا من سلم توزّع البشر. مع ذلك، فقد كان الســبّاق لوضع المبادئ الأساسية لقياس القدرات العقلية هو «تشارلز سبيرمان» في لنــدن، و«ألفرد بينــه» في باريس. وذلك في العقد الأوّل من القرن الماضي.

وعلى الرغم من أنَّ «غالتون» كان ينظر إلى القدرة باعتبارها مواهب متنوعة، تقترن بها الدافعية القوية، فإنَّ «ســبيرمان»[2] بالغ في التركيــز علــى الأهمية الفائقــة لعامل الذكاء العام في أنــواع الإنجاز كافة، ونظر كلاهما إلى الوراثة، لا إلى البيئة، باعتبارها مصدر العظمة ومنشأها.

لقــد كان المجتمع، حــين كتب «غالتون» ما كتبــه، قليل الاهتمام برعايــة ثرواته أو زيادتها من الرجال والنســاء ذوي القدرات البارزة. وما كان يأسر اهتمام الناس هو حياة ومحن الفنانــين العظام والكتّــاب والعلماء والزعماء.

راح التعليم في أوروبة منذ البدايات الأولى لمجتمــع الرفاه التكنولوجي يتوســع توســعاً هائلاً نطاقاً وفعالية، ومنــذ الحرب العالمية الثانية بخاصة أصبح تأمين فرص التعلم أحد الأهداف بغض النظر عن الثروة أو الطبقة.

✿ ناقد وباحث ووزير التربية.

إلا أنَّ التعليم ما يزال نخبوياً حتى الآن، بمعنى أنه يتمايز طبقاً للقدرات والإنجازات التي يكشف عنها الطلاب فعلياً. إننا بكلمة أخرى، ما نزال نفترض أنَّ الموهبة الحقيقية ستشق طريقها من دون حاجة لأي تشجيع خاص، بل لعلَّ العبقري المبدع ينجح أكثر إذا ما واجهته المصاعب والعراقيل.

لذا يجد الأوروبيون بعض الصعوبة في فهم كل هذا الضجيج المثار في الولايات المتحدة الأمريكية حول «الطفل الموهوب»، لكن وعلى الرغم من ذلك فقد بدأ التربويون الأوروبيون، شأنهم في ذلك شأن نظرائهم الأمريكيين، يعنون بصورة متزايدة فيما إذا كانت أساليب التعليم الحالية، والاختبارات والفحوص، في المدارس والجامعات، تثبط التفكير التلقائي المستقل لدى أولئك الأطفال أو الطلاب، الذين قد يُقدّمون في المستقبل مساهمات إبداعية في دنيا الفنون والعلوم، أو التكنولوجيا.

الإبداع:

يُعرَّف الإبداع في اللغة بدلالات لغوية عدّة، بَدَعَ الشيء يُبدعه بَدْعاً: أنشأه وبدأه، والبديع: الشيء الذي يكون أولاً، وأبدعتُ الشيء اخترعته لا على مثالٍ سابق. ومن هذه المعاني اللغوية يتبيّن أنَّ الإبداع هو الاختراع والابتكار على وجه لم يسبق إليه أحد، ومنه قوله تعالى: «بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»: أي خالقها على غير مثالٍ سابق.

يقول أحد المفكّرين: (الإبداع: أنْ ترى ما لا يراه الآخرون، أو أنْ ترى المألوف بطريقة غير مألوفة)، ويقول آخر: (هو تنظيم الأفكار وظهورها في بناءٍ جديد انطلاقاً من عناصر موجودة.. إنه الطاقة المدهشة لفهم واقعين منفصلين، والعمل على انتزاع ومضة من وضعهما جنباً إلى جنب، فهو طاقة عقلية هائلة، فطرية في أساسها، اجتماعية في نمائها، مجتمعيّة إنسانية في انتمائها).

وهناك من عرَّف الإبداع على أنّه حالة عقلية بشرية تنحو لإيجاد أفكار أو طرق ووسائل غاية في الجدّة والتفرّد؛ بحيث تُشكّل إضافةً حقيقيةً لمجموع النتّاج الإنساني، كما تكون ذات فائدة حقيقية على أرض الواقع إذا كان الموضوع يرتبط بموضوع تطبيقي، أو أنْ يُشكّل تعبيراً جديداً وأسلوباً جديداً عن حالة ثقافية أو اجتماعية أو أدبية إذا كان الموضوع فلسفياً نقدياً، أو أنْ يُشكّل تعبيراً ضمن شكلٍ جديدٍ وأسلوب جديد عن العواطف والمشاعر الإنسانية إذا كان الموضوع يتعلّق بالنتاج الأدبي وأشكاله. ويُمكن تعريفه بأنّه إنتاج عقلي جديد ومفيد وأصيل ومقبول اجتماعياً، ويحل مشكلة ما حلاً منطقياً.

يتكشّف الإنسان عن سوية سلوكية أرفع بكثير من أنْ يستطيع أي مخلوق آخر بلوغها. فذاكرته أكثر اتساعاً وشمولاً. ومن خلال ذاكرته هذه، وكذلك من خلال ابتكار الكلام والكتابة؛ أصبح بإمكانه أنْ يستفيد من تراكم خبرات الماضي.

وهكذا فإنَّ معظم أهدافه الآن لا تتحقّق بالعمل الجسدي بقدر ما تتحقّق بالعمل الذهني، كما أنَّ تحصيل المعرفة بات في الوقت الحاضر أحد أهدافه الكبرى. إنه يتعلّم من خلال البحث عن العلاقات بين الحقائق، كما يتعرّف على القوانين الشاملة وكيف يربط الجزئيات بها، وبذلك يكتسب المقدرة على المحاكمة العقلية، ويغدو بإمكانه أنْ يُبرهن على أنّ «سقراط» لكونه إنساناً، لا بدَّ أنْ يكون فانياً.

يقول «ي. و سينوت» إنَّ المحيط الداخلي للإنسان أغنى بكثير من محيط أي مخلوق آخر، ومع تطور المجتمع فقد غدا محيطه الخارجي أكثر تعقيداً أيضاً. وقد عملت جميع هذه التباينات، وكذلك الاختلافات البيئية الأبسط على الصعيد الجنيني والغريزي، على تعديل أهداف نظامه ونهجه المعيشي، لذا فإنَّ هناك ما يُبرّر التفسير القائل بأنَّ الحياة الذهنية، على غناها وتعقيدها، ما هي إلا السعي لتحقيق مختلف الأهداف المتبادلة وفق نمط منظّم.

كما أنَّ الوعي المتعلّق غالباً بالعقل ومفاهيمه، هو بحدِّ ذاته مشكلة، على الرغم من أنه لا يعنينا هذا على ما أعتقد. أمَّا الهدف المحدّد عن عمدٍ ووعي، وكذلك الرغبة، والتفكير، فكلها عبارة عن اختبار ذاتي لأهداف سلوكية تُحدَّد ضمن النهج الحياتي الذي نُحاول أنْ نتطابق معه حياتنا باستمرار.[٣]

عملية الإبداع:

لقد أولى علماء النفس ودارسو عملية الإبداع، هذه المسألة الكثير من تفكيرهم وبحثهم، وعلى ما يبدو فإنَّ هناك طريقتين متبعتين، أولاهما استنتاجيه أساساً، أي الإبداع عن طريق الهجوم الجبهي المباشر، وتتكوّن من تجميع أكبر عددٍ ممكنٍ من الحقائق والأفكار، ومن ثم البحث بكل عناية ودقة عن علاقات غير معروفة حتى ذلك الحين تربط بينها. وهذه على ما يبدو هي الطريقة التي كان يستخدمها «أديسون» مثلاً، أثناء القيام باختراعاته، و«آينشتاين» أثناء تطويره لنظرياته. غير أنه يُمكننا التأكيد أنَّ هذه الطريقة ليست الطريقة الوحيدة التي تجري وفقاً لها، بصورة عامة، المراحل الأولى على الأقل في الإبداع، سواء في ميدان العلوم أو ميدان الفنون.

فالأمرُ الأكثر شيوعاً هو أنْ تنشأ فكرةٌ جديدةٌ بصورة تلقائية تقريباً في الذهن، وغالباً ما تبدو وكأنها انبثقت من العدم، وفي وقتٍ قد يكون فيه فكر المرء منصرفاً إلى شيءٍ آخر مغاير تماماً. والمثال الشهير عن هذه الحالة هو أحد التجليات الشهيرة في الرياضيات الذي لمع في ذهن «هنري بوانكاريه»،(٤) فقد ظل أياماً عدّة منشغلاً بمسألة الدالات، من دون أنْ يتوصّل إلى نتيجة. وفي إحدى الليالي، وبعد أنْ شرب قهوة وبات غير قادرٍ على النوم، تواردت أفكارٌ إلى ذهنه، كما يقول، على شكل حشود محتشدة تتصادم أحياناً، وتتشابك أحياناً أخرى، لتؤلف أخيراً تركيبات ثابتة معيّنة، وبعد فترة وجيزة، وبينما كان يقوم برحلة جيولوجية خالي الذهن من أية أفكار عن الرياضيات. خطرت له فكرة، وهو يضع قدمه على سلم الباص، وهي أنَّ التحويلات التي استخدمها تُماثل تلك المستخدمة في الهندسة غير الإقليدية، فكان ذلك تجلّياً عظيماً.

وغالباً ما يُذكر مثالٌ آخر عن التوصل إلى حل مشكلة علمية من دون جهدٍ مركّزٍ واعٍ، ألا وهو برهان «أوتو لووي»(٥) عن الوسيط الكيماوي للسيّالة العصبية. فقد ظهر له هذا بوضوح في منام، لم يستطع تذكّر تفاصيله حين استيقظ إنما ولحسن الحظ عاد الحلم في الليلة التالية مرةً ثانية، وهذه المرة، وقبل أنْ يعود للنوم ثانيةً. سجّله كاملاً، وفي اليوم التالي أجرى في المختبر تجربةً حاسمةً أثبت فيها صحة الحل الذي رآه في المنام.

كذلك قرأ عشاق «هاوسمان»(٦) مقالة له بعنوان: (اسم الشعر وطبيعته)، يُصوّر فيها كيف تخطر له أشعاره أكثر الأحيان: (بينما أنا أمشي، وأنا لا أفكّر بشيءٍ محدّد، بل أتطلع فقط بالأشياء التي حولي، متتبعاً مسيرة الفصول، هناك قد يخطر على بالي، وبدفعة من الانفعال المفاجئ، بيتٌ أو بيتان من الشعر، وأحياناً مقطعٌ بأكمله مباشرةً. تصحبه، ولا تسبقه، فكرة غامضة عن القصيدة التي يُفترض أنْ يُشكّل هذا البيت أو المقطع جزءاً منها. بعدئذٍ يحدث عادةً، نوع من الهدأة التي تمتد ساعةً أو حوالى الساعة، ثم يبدأ الينبوع بالتدفق ثانيةً).

إنّ كثيراً من الشعراء يمرون بتجارب كهذه. وقد روى «روبرت فروست»(٧) لأحد أصدقائه تجربةً من تجاربه في هذا المجال. ففي إحدى الأمسيات الشتائية، فتح الشاعر باب بيته الخارجي، وراح يتمشّى في ظلمة الليل المثلج ليستنشق الهواء، وفي تلك اللحظة خطرت له كامل قصيدته: (التوقف بجانب

الغابات في أمسية مثلجة). وقد استمرَّ في ذهنه النمط الغريب لتواتر قوافيها منتقلاً إلى أبياتها الشعرية التي راح يُدوِّنها، حتى اضطُر، لكي يُنهي القصيدة، إلى أنْ يقطع التواتر برباعية ختامية.

التفكير الإبداعي:

يُعدُّ التفكير من الظواهر النمائية التي تتطور عبر مراحل العمر المختلفة، كما يُعدُّ التفكير من أكثر الموضوعات التي تختلف حولها الرؤى وتتعدّد أبعادها وتشابكاتها، والتي تعكس تعقّد العقل البشري وتعقّد عملياته، إنَّ ما يُميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات قدرته على التفكير، فمن خلال رحلته الطويلة الشاقة من العصور البدائية إلى عصور الحضارة، استطاع أنْ يواجه مشكلات لا حدود لها. هذه المشكلات تزداد صعوبةً وتعقيداً بتطور المجتمع وتغيّراته السريعة.

إنَّ التقدّم الحضاري الذي نلمسه في مختلف جوانب حياتنا المعاصرة إنما يعود إلى تطور ونتاج تفكير أجيال متعاقبة من الجنس البشري (داوُد، ١٩٨٨م).[٨]

ويرى الوقفي أنَّ عملية التفكير تمرُّ بمراحل تشبه الدائرة لذا أطلق عليها (الدائرة الفكرية)، حيث إنَّ التفكير الإنساني ينجز خمس مهام أو وظائف رئيسة هي: وصف، تفسير، تقرير، تخطيط، تنفيذ. وتظهر هذه الوظائف كما لو أنها متصلة بعضها ببعض، فالفكر يبدأ فعالياته الفكرية بوصف للمعلومة أو المنبه الذي يستقبله الدماغ، ويبدأ الإنسان بالتوسع بهذه المعلومة وتفسيرها بأنْ يُضيف لها مما في ذاكرته من خبرات ومعارف لإلقاء المزيد من الأضواء عليها، وتبيّن أسبابها، أو التنبؤ بنتائجها، وينتقل الفكر بعد ذلك إلى تقرير ما يجب فعله تجاه هذه المعلومة، فيضع خطةً لتنفيذ العمل وتوجيهه، وقد يتخذ قراراً بشأن منبه جديد (الوقفي، ١٩٩٨م).[٩]

ولقد أشار العديد من علماء النفس مثل «شيرر» و«جولدشتاين» إلى أنَّ تفكير الإنسان متنوع وعريض الحدود، ويُمكن عن طريقة التفكير أنْ يُحدّد الفرد نوع التعليم الذي اكتسبه بخبرته من العالم. (فائق، ١٩٦٦م).[١٠]

ويُمثل التفكير نوعاً معقداً من أنواع السلوك البشري، والذي يأتي ترتيبه في أعلى مستويات النشاط العقلي. وإنّه عملية معرفية تتميّز باستخدام الرموز لتنوب عن الأشياء والأشخاص والحوادث (عدس وتوفيق، ١٩٩٨م).[١١]

ويُعدُّ التفكير من حاجات الإنسان الأساسية، وله علاقة بالمجتمع، حيث يتعيّن على الإنسان أنْ يُفكّر ويتخذ قرارات سليمةً تُمكّنه من التكيّف مع المجتمع الذي يعيش فيه، ومن هنا يعتقد أنَّ قرار تعليم التفكير يُعدُّ قراراً سياسياً، فالمجتمعات المتقدمة تغرس في أبنائها صفة الثقة بالنفس والاعتماد عليها، وتؤهلهم لاتخاذ قرارات سليمة، وتمنحهم الفرصة الكافية للنظر فيها، لذلك فإنَّ حُسن إدارة شؤون المجتمع تتطلّب إعداد جيل من المفكّرين الذين يحسنون تصريف أمور الأفراد على أسس قوية من الوعي والفهم، ويتطور التفكير عند الأفراد بتأثير عوامل البيئة والوراثة، وقد استخدم الباحثون أوصافاً عديدة للتمييز بين نوع وآخر من أنواع التفكير، وربما كان تعدّد أوصاف التفكير وتسمياته أحد الشواهد على مدى اهتمام الباحثين بدراسة التفكير وفك رموزه، منذ بدأت المحاولات الجادة لقياس الذكاء بعد منتصف القرن التاسع عشر.

ومما لاشك فيه أنَّ للبيئة أثراً كبيراً على أفراد المجتمع، فهي تملي عليهم أنماطاً سلوكية معيّنة، ولذا يرى «ستيرتبيرغ» (١٩٩٧م)[١٢] أنَّ بعض الثقافات تؤدي إلى أساليب تفكير معينة من دون غيرها، وهذا ما أكدته نتائج الدراسات التي قارنت بين أساليب التفكير في أقطار مختلفة. إذ أكدت دراسة «هونج» و«سيسكو» (١٩٩٤م) تفوّق الطلبة الصينيين في أسلوب التفكير العملي على الطلبة الأمريكيين.[١٣]

التفكير والعملية الإبداعية:

في كتاب «جيزلين» (١٩٥٢م) (العملية الإبداعية)،[١٤] وكذلك في كتاب «هتشينسون» (١٩٤٩م): (كيف تُفكّر إبداعياً؟). وصف لحالات إبداعية كثيرة على أنَّ هذا النوع من الإبداع ليس بالشائع، وإنْ يكن بالتأكيد، ليس بالنادر. فهو موجود لدى كل أصناف الرجال والنساء الذين تواجههم حاجة ماسة، وأحياناً رغبة شديدة عارمة، لأن يكسبوا رؤية جديدة للحقيقة أو الجمال، أو يجلّوا مسألةً علمية، أو يُخرجوا للوجود لوحة من أصبغة زيت وقماش، أو يُدوّنوا قصيدةً في كلمات.

يقول «ي. و سينوت»: (إذن، ما الذي يُمكننا أنْ نعتبره الأساس البيولوجي للإبداع؟ حسب اعتقادي، هذا هو ببساطة: الحياة ذاتها هي المسؤولة عن الإبداع وهي السيرورة الخلاّقة، وذلك بفضل خاصتها المنظّمة، المشكّلة للأنماط، والباحثة المنقّبة، وهي الخاصة الأكثر تميّزاً من خواصها جميعاً، فالحياة في الكائنات الحية الأدنى

من الإنسان، وكذلك في بنيته الجسدية، مقيدة بقاعدة مادية جامدة نسبياً ومحافظة في مجال التركيب الوراثي للفرد، وهذا أمرٌ ضروري إذا كان ينبغي لعالم الأحياء ألا يختلط وتُصيبه الفوضى.

لكن حين تُطبّق هذه الخاصة التنظيمية ذاتها على السلوك، تكون نتائجها أكثر تنوعاً بكثير، وحين تعمل في مجال الدماغ الإنساني، ببلايينه الكثيرة من الخلايا العصبية، والعدد الذي لا يُحصى من نقاط الاشتباك فيه، وكذلك بكل تعقيداته البالغة، فإنَّ احتمالات الأنماط الذهنية الجديدة لديه تكون محدودة تقريباً، وقد وصف «جيرارد» (١٩٤٦م) هذا الوضع وصفاً جيداً في مقالته: (الأساس البيولوجي للخيال)، إذ قال: (بفضل آليات متنوعة كثيراً، تعمل إذاً، أعدادٌ كبيرة من الخلايا العصبية، والدماغ كوحدة كُبرى، بصورة مشتركة معاً.

إذ لا تجتمع خليتان أو بليون خلية لكل منها مساهماتها المستقلة وحسب، بل تُشكّل كل منها جزءاً من نمط ديناميكي متغيّر يقوم به الكل، وهذه هي «الأوركسترا» التي تعزف أفكار الحقيقة والجمال، والتي تُبدع الخيال.. وياله من أساس جميل لصنع كليات جديدة، أو إعادة تركيب للمادة الحسية بأشكالٍ جديدة!).

إذن، هذا هو الميدان الذي يعمل فيه الخيال المبدع، سواء أكان في العقل الباطن أم في العقل غير الباطن. ويُمكننا القول إنَّ الخيال هو وبكل بساطة، الخاصة التكوينية الأساسية للحياة، وإنه ينشأ أصلاً في المستوى الأعلى هذا من قاعدة مادية صلبة، ثم يتحرّر كي يُعبّر عن ذاته بالإبداع الرفيع. وقد تتخذ المادة الخاصة بهذه التعبيرات، وهذه النماذج والأنماط الجديدة، أشكالاً عديدةً، أصبغة وألواناً على قماش اللوحات، نوتات موسيقية، كلمات، قصائدَ، أو مجرد أفكار فقط، إلا أنَّ الإبداع يُمكن أنْ يظهر في علاقات الناس وشؤونهم، وكما يعتقد «ي. و سيفوت»: (ينبغي أنْ يوجد المنبع الأساس للإبداع في هذه القدرة الإبداعية المتأصّلة في الحياة).

نحو نظرية للإبداع:

يعتقد الباحث والمفكّر: «س.ر. روجرز» بأنَّ ثمة حاجة اجتماعية ماسة إلى السلوك الخلاّق الذي يسلكه الأفراد المبدعون. وهذا ما يُبرّر وضع نظرية تجريبية للإبداع تتناول طبيعة العمل الإبداعي، والشروط التي يجري وفقاً لها، وأسلوب رعايته بصورة ناجعة. فنظرية كهذه قد تُفيد كحافز ودليل لأية دراسات وأبحاث في هذا الميدان.

لعلّ كثيراً من النقد الخطير الذي يوجّه لثقافتنا واتجاهاتها يُمكن أنْ نُلخّصه بعبارة: (نقص الإبداع). وفيما يأتي أمثلة على ذلك:

١- يغلب علينا في التعليم أنْ نُخرّج أفراداً خاضعين مطابقين للنماذج العامة، أفراداً اكتمل تعليمهم، أكثر مما نُخرّج مفكّرين أصليين مبدعين.

٢- في النشاطات التي نقوم بها خلال فراغنا، تسود بصورة طاغية التسلية السلبية، والأعمال المنظّمة بصرامة، في حين لا يُترك للنشاطات الإبداعية إلا أقل المجالات.

٣- الوفرة الكبيرة من التقنيين، في ميدان العلوم بينما عدد الذين يُمكن أنْ يضعوا فرضيات ونظريات مثمرة ضئيلٌ بالحقيقة.

٤- بقاء الإبداع في مجال الصناعة حكراً على القلّة (المدير، المصمّم، رئيس دائرة الأبحاث)، في حين أنَّ حياة الكثرة الغالبة هي حياةٌ خاليةٌ من أي عملٍ خلّاقٍ مبدع.

٥- النمطيّة والتقليد في حياة الفرد والأسرة. فالملابس التي نرتدي، والطعام الذي نأكل، والكتب التي نقرأ، والأفكار التي نحمل، كلها تُسيطر عليها نزعة شديدة نحو الامتثال والخضوع، نحو التطابق مع الأنموذج العام. وأنْ يكون المرء متفرّداً أو مختلفاً يجعل الآخرين يشعرون بأنه «خطر».

ويتداخل مفهوم الإبداع مع مفاهيم كانت وما تزال سائدة في الأوساط العلمية والثقافية، كالعبقرية والابتكار والموهبة. ويُشير إلى هذا الباحث الأستاذ «حسن هادي» أحد أدباء وكتّاب العراق إلى أنَّ من الباحثين من يُميّز بين هذه المفاهيم، ومنهم من لا يضع حدوداً واضحة لكل منها، على اعتبار أنَّ جميع هذه المفاهيم تُمثّل أنماطاً تفوق النمط العادي في الشخصية، وقد جاء (مؤتمر الإبداع والمبدعون والتربية) والذي نظّمه المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في سورية. في رحاب جامعة حلب، وشارك فيه ثمانيةٌ وأربعون باحثاً من ثلاث عشرة دولة، في الفترة من ٢٩ تشرين الثاني إلى الأوّل من كانون الأوّل عام ٢٠٠٤م، حيث ساهم هذا المؤتمر الهام في إلقاء الضوء العلمي على محاور جديدة بالنقاش والإثراء، خاصةً وأنه تناول العديد من الجوانب المتعلّقة بالأدب والفن، في مختلف فروعهما، والعلوم الأخرى بكل أبعادها التربوية والثقافية والابتكاريه. مثل: التربية الإبداعية، وتعليم التفكير، والاستنباط

والبحث العلمي، والإبداع والتوجيه الأسري والمدرسي، والإبداع وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والفئات الخاصة من الموهوبين والمبدعين، والاتجاهات والدراسة الحديثة في الموهبة والإبداع. إضافةً إلى عروض قيّمة لتجارب عربية وعالمية في الكشف عن الموهوبين ورعايتهم، ثم أخيراً دور الجامعات، ومراكز البحوث، والمؤسسات التربوية، ووسائل الإعلام، والمؤسسات الخاصة، في رعاية الموهوبين المبدعين.

إنَّ دراسة الإبداع تعود إلى ما كان يتميّز به الفلاسفة الإغريق وعلى رأسهم «أرسطو»، غير أنَّ دراساتهم كانت استقرائية ووفق طبيعة المنهج الفلسفي السائد آنذاك.

إنَّ العملية الإبداعية تُشبه إلى حد كبير عملية نمو الجنين، من تكوين بدائي بسيط، إلى تكوين متكامل حتى الولادة.

وهكذا فإنَّ معظم الأعمال الفنية والأدبية والعلمية تبدو وكأنَّ فكرتها الأساسية في غاية البساطة، عبّر عنها الإنسان من خلال ما اكتسبه من مهارات وخبرات ثقافية أدت إلى حالات من الإلهام والإبداع.

مبدعون من ذوي الاحتياجات الخاصة:

ظهر الكثير من المبدعين، والذين كانوا من ذوي الاحتياجات الخاصة، من أمثال: «بيتهوفن» و«موزارت» في الموسيقى، و«آينشتاين» في الرياضيات، و«هيلين كلير» كموسوعة إبداعية ابتكاريه، على الرغم من تعرّضها للعديد من الإصابات الخلقية، وغيرهم ممن فقدوا البصر والسمع، من الشعراء والأدباء والعلماء أمثال: «طه حسين»، و«ماكسويل»، و«برانديت»، وقد وجدتُ أنَّ من المفيد في هذا السياق تقديم الوثيقة النادرة التالية التي وجدت من بين الأوراق والرسائل التي خلّفها الموسيقي الكبير «موزارت».

(عندما أكون أنا ذاتي تماماً، إذا جاز التعبير، وحيداً تماماً، رائع المزاج، مسافراً في عربة مثلاً، أو سائراً بعد وجبة جيدة، أو أرقاً جافاني النوم، فإنَّ أفكاري تفيض، وفي مثل هذه المناسبات بالذات، على أفضل نحو وأغزر شكل. لكن من أين يأتي وكيف؟

أمرٌ لا أعلمه أبداً.

كما لا يسعني أنْ أفرضها فرضاً أبداً.

إنني أحتفظ في ذاكرتي بتلك المسرات التي تُبهجني، وأعتاد، كما يُمكن القول، على الترنّم بها لنفسي، وإذا ما تابعتُ السير بهذا المنحى، سرعان ما يخطر لي كيف يُمكنني أنْ أحول هذه الومضة الصغيرة من لحن، أو تلك الجملة الموسيقية إلى شيءٍ ذي فائدة، كأن أصنع لوناً جيداً من الألحان المتمازجة

منها، أو بكلمة أخرى أحولها وبصورة مقبولة إلى قواعد لحن مصاحب، وأطبقها على مختلف الآلات تبعاً لخصائصها..

إنَّ هذا كله يُلهب نفسي، وإنْ لم أكن قلقاً مضطرباً فإنَّ الموضوع الذي يشغلني يكبر من ذاته، ويغدو منهجاً محدّد المعالم. وعلى الرغم من أنَّ المعزوفة قد تكون طويلةً؛ إلا أنها تحضر في ذهني بشكلها التام والمنجز تقريباً، بحيث يُمكنني أنْ أقوم بنظرة واحدة بعملية مسح عام عليها، مثلما تمسح بنظرة واحدة منك لوحة ساحرة. إنني لا أسمع في خيالي أجزاءها بالتتالي، بل أسمعها كلها دفعةً واحدة، إذا جاز التعبير. فأية متعة!! إنه شيءٌ لا يُمكنني البوح به. فهذا الابتكار كله، هذا الإنتاج جميعه يتم في حلم بهيج مفعم بالحياة).

الفلسفة وتحفيز الذات!!

إنَّ الإبداع التربوي يعني تحفيز الذات وتحرّرها من الأوهام والمشاغل التي يمتلكها الكاتب الذي يُفكّر بشكلٍ أو بلغة تسمو بها أفكاره للفهم والمعرفة والتجارب التي يحتاج إليها المجتمع. والإبداع كما رسمه العديد من أصحاب التجارب والابتكارات سيظل نسيج عبقرية فذّة قادرة على البقاء وتحقيق الأصالة والعمل الإبداعي.

لقد ذكر مرَّة المفكر الفرنسي «جان بول سارتر» أنَّ العملية الإبداعية يجب أنْ تخرج عن الاعتصام في أبراج الورق، إلى عالم يبحث عن العوامل والمشاهد والتجارب، ونحن في عالم المتغيّرات. وتأتي العولمة يومياً بأشياء جديدة تقلب حياتنا رأساً على عقب، وهذه هي مسيرة الحياة عبر الفضائيات المكثفة التي غزت المدن والقرى والأرياف بلا حدود، مما جعل عالم الاختراع موجوداً على مدار الساعة.

وعلى الرغم من الاختلاف الذي زاد في المنتديات العلمية عمّا إذا كانت، العلوم والتكنولوجيا هي الأساس في الإبداع الإنساني؟ أم أنَّ الفنون هي التي تمثل الجانب المهم في الأصالة؟! ثمة أسئلة دارت حول ذلك، وعلى الرغم من الاختلاف إلا أنَّ الحصيلة بين الحوار والنقاش كان هدفها التواصل والإفادة، وتقديم آراء يستفيد منها العقل العربي.

• • •

الهوامش والمراجع

١- «فرانسيس غالتون» (١٨٢٢ - ١٩١١م)، عالم إنجليزي رياضي في العصر الفيكتوري. منح في عام(١٩٠٩م) لقب الفارس، وأصبح مشهوراً بفضل أبحاثه في علم الأرصاد الجوية والوراثة وعلة الإنسان. أمضى خمس سنوات في السودان وناميبيا في دراسة عن سكان تلك المناطق.

٢- «تشارلز إدوارد سيبرمان» (١٠أيلول ١٨٦٣م- ١٧ أيلول ١٩٤٥م)، عالم نفس إنجليزي له أيضاً مساهمات في علم الإحصاء، حيث كان من روّاد التحليل العاملي (بالإنجليزية: factor analysis).

٣- الحياة وقدرتها الإبداعية، «ي. و سينوت»، من كتاب (الإبداع) ترجمة الدكتور عبد الكريم ناصيف، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق (١٩٨١م).

٤- «جوليس هنري بوانكاريه» (بالفرنسية: Jules Henri Poincaré) (١٨٥٤- ١٩١٢م) المعروف باسم «هنري بوانكاريه»، أحد أعظم العلماء الفرنسيين في مجال الرياضيات والفيزياء النظرية، كما كان من فلاسفة العلوم. عادة ما يوصف «بوانكاريه» بأنه آخر العلماء الشموليين (بعد غاوس)، والذي كان قادراً على فهم مختلف فروع الرياضيات والمساهمة فيها. كان لبوانكاريه مساهمات أساسية في مجال الرياضيات التطبيقية والبحتة، والرياضيات الفيزيائية، وميكانيك الأجرام السماوية.

كما يرجع الفضل إليه في صياغة حدسية «بوانكاريه» والتي تُعدُّ من أشهر المسائل الرياضية. ومن خلال أبحاثه في المسائل التي تحتوي على ثلاثة أجسام، كان «بوانكاريه» أوّل شخص يكتشف نظاماً عشوائياً محدّداً، والذي قاد إلى تأسيس ما يعرف اليوم بنظرية الشواش.

٥- (Otto-Loewi) (١٨٧٣-١٩٦١): UHGL عالم ألماني شهير، ولد في «فرانكفورت» حصل على شهادة الدكتوراه الطبية من جامعة «ستر أسبورغ».

٦- «ألفرد إدوارد هاوسمان»: (١٨٥٩- ١٩٣٦م) هو شاعر إنكليزي. تأثر في كتابته بدراسته الكلاسيكية. جمع بين الكلاسيكية في أسلوب شعره، والرومانسية في مضمون هذا الشعر، تأثر به كثير من الشعراء، وخاصة في نبرة اليأس الطاغية على تفكيره، والظاهرة في أدب ما بين الحربين العالميتين. ظهرت له دواوين عدة، منها مجموعة قصائده التي ظهرت (١٩٢٢م)، والأخرى التي ظهرت (١٩٤٠م).

٧- «روبرت فروست» (١٨٧٤ - ١٩٦٣م)، شاعر أمريكي يُعتبر في نظر الكثيرين كواحد من أهم الشعراء باللغة الإنجليزية. إذ حاز خلال حياته على أربع جوائز «بوليتسار». شارك «فروست» في مراسم تنصيب الرئيس «جون ف. كينيدي». يُعرف «فروست» بأسلوبه البسيط والمباشر، وبأوصافه المثيرة للمشاعر لمناظر «نيو إنجلند» شمال شرق الولايات المتحدة. ومن أشعاره الأكثر شهرة «الطريق التي لم تختر»، و«إصلاح جدار».

٨- الدكتور عزيز حنّا داوّد: كاتب وباحث عراقي معاصر في مجالات التربية وعلم النفس والسلوك. من أشهر كتبه (مناهج البحث في العلوم السلوكية)، (ومناهج البحث التربوي).

٩- الوقفي من أهم الباحثين العرب المعاصرين.

١٠- من كتاب «نظريات التعليم» الصادر عن سلسلة عالم المعرفة، ترجمة الدكتور «علي حسين حجحاج».

١١- الدكتور: «عبد الرحمن عدس» أستاذ متخصّص في التربية، عمل في الجامعة الأردنية، له أبحاث ودراسات مهمة. يُلقب برائد دراســات علم النفس والتقييم التربوي في الأردن ووضـــع مع الأستاذ محي الدين توفيق كتاب: «علم النفس التربوي».

١٢- «روبرت ســتيرنبرج» ولد في نيوجيرســي أواخر عام (١٩٤٩م). حصــل على بكالوريوس في علم النفس من جامعة yale عام (١٩٧٢م) حصل على دكتوراه في علم النفس من جامعة Stanford عام (١٩٧٥م). مُنح خمس شــهادات دكتوراه فخرية من خمس جامعات أوروبية ما بين أعوام (١٩٩٤-٢٠٠٤م)، وحصــل على إحــدى وعشرين جائزة ولقباً علمياً. بلغ مجموع منشــوراته العلمية منفرداً ومع آخرين (٩٥٠) بحثاً وكتاباً وورقة علمية.

عمل ويعمل محرراً، ورئيس تحرير، ومستشــاراً، وعضـــو هيئة تحرير لخمس وثلاثين مجلة علمية، تناولت بحوثه ودراساته المجالات الآتية: الذكاء، الإبداع، أنماط التفكير، صعوبات التعلم، الوظائف العقلية العليا، الحب والكراهية، القيادية. وله نظريات معروفة في الذكاء والإبداع والموهبة.

١٣- أوضـــحت نتائج الدراســة التي قام بها (huang& Sisco) عام (١٩٩٤م) على عينة مكونة من٧٥ طالباً صــينياً، و٧٥ طالباً أمريكياً من الجنســين من طلاب الجامعة، باســتخدام مقياس (هاريسون وبرامسون) لأساليب التفكير. أنَّ الطلبة الصينيين أكثر واقعية من الطلبة الأمريكيين. وأنَّ الطلاب الصينيين والطالبات الأمريكيات أكثر استخداماً لأسلوب التفكير المثالي من الطالبات الصينيات والطلاب الأمريكيين. وأنَّ طلاب العلوم الاجتماعية والإنسانية أكثر استخداماً لأسلوب التفكير المثالي، وأنَّ طلاب الهندسة والعلوم الطبيعية أكثر استخداماً لأسلوب التفكير التحليلي، كما توجد فروق جوهرية في أسلوب التفكير بين الجنسين.

١٤- يرى الباحث المعروف «جيزلين» أنَّ عملية الإبداع عملية تغيير في تنظيم الحياة الشخصية للفرد، من أشهر مؤلفاته كتاب: «العملية الإبداعية».

المدونات وعصر المواطن الإعلامي

د. تركي صقر ✿

ما كان مصطلح المواطن الإعلامي المنبثق من واقع الإعلام المجتمعي يطفى على جميع مفردات الإعلام التقليدي لولا دخول التطور المتسارع للثورة الرقمية الموجة الثالثة التي قلبت المفاهيم السابقة عن التواصل والاتصال متجاوزة ما كان يقال قبل سنوات قليلة من أن العالم أصبح قرية صغيرة حيث أضحى هذا الكلام غير دقيق لأننا نستطيع القول أننا أصبحنا في الغرفة ذاتها قريبين أكثر مما نتصور فما يحدث في العالم اليوم من تطور تكنولوجي متسارع جعلنا نتشارك بإرادتنا أو رغماً عنّا المعلومات نفسها والاتجاهات ذاتها وتعرفنا على الثقافات واللغات المختلفة مما انعكس على طريقة تفكيرنا وأدائنا الثقافي والاجتماعي..

وما من شك أن الشبكة العنكبوتية «الإنترنت» خلقت فضاءً إلكترونياً لم يعد بمقدور أحد أن يعيش خارجه وأتاح هذا الفضاء المجال لنشوء الإعلام البديل أو الإعلام الجديد الذي يقوم على فكرة اللامركزية وكسر احتكار المعلومة وإلغاء إمكانية عدم انسياب المعلومات ووصولها إلى الجميع في وقت واحد وبالقدر الذي يرغبه أي من هذا الجميع وأدى ذلك إلى ظهور الإعلام المجتمعي والمقصود به استخدام

✿ كاتب وإعلامي وسفير سابق.

المواطن للوسائل التي يستخدمها الصحفي المتمرس كالكاميرات الرقمية وآلات تسجيل الصوت ومقاطع الفيديو والكتابة الأدبية في التعبير عن رأيه أو الإخبار عن المخالفات التي تمارس بحقه أو بحق أبناء حيه أو منطقته أو شعبه أو للتسويق لنفسه ولإمكانياته..

على هذا النحو يبدو المواطن الإعلامي الحجر الأساس فيما يسمى الإعلام المجتمعي الذي أضحى يشكل نافذة مهمة للمواطن لتخطي معاناته من الاضطهاد والقمع على مستوى التعبير وحرية الرأي الممارس عليه من قبل السلطة المتحكمة بوسائل الإعلام وخاصة التقليدية منها فوجد هذا المواطن في الإعلام الجديد ضالته المنشودة في التعبير عن ذاته وإمكاناته المكبوتة وإيصال رأيه إلى المراجع المختصة من دون حاجز أو بواب وجاء ذلك كله بفضل تطور وسائل الاتصال وظهور الشبكة العنكبوتية التي تعتبر من أهم الوسائل التي ساهمت في تطور المجتمعات الغربية وجعلت من المواطن عيناً على ما يدور في أروقة الساسة وصناع القرار لتنهي عهد احتكار الخبر والمعلومة واقتصارها على الماكينات الإعلامية الموجهة معلنة عن انطلاق عصر صحافة المواطن أو الإعلام الشعبي أو المجتمعي..

وإذا كان المواطن الإعلامي هو الحجر الأساس في الإعلام المجتمعي فإن المكون الأهم في أداء هذا المواطن وحضوره الفعال في الفضاء الرقمي يتمثل في قدرته على التدوين الإلكتروني وهنا يلزمنا الوقوف عند ظاهرة المدونات التي أضحت تلعب دوراً بالغ الأهمية في تأثيرات الشبكة العنكبوتية على مستوى الأفراد والمجتمعات والحكومات وإحداث المتغيرات على الصعيد المحلي والدولي.. فالمدونات وشبكات التواصل الاجتماعي تعتبران إحدى أهم الوسائل التي تساعدنا في التواصل مع الناس من مختلف أصقاع الأرض حيث إنها نادراً ما تعاني من الحجب من قبل الحكومات الغربية وتتوافر فيها المرونة والسهولة في الإدارة إضافة إلى تكلفتها المجانية مما يزيل عائق المادة ويفتح الباب أمام الإبداع كما يسهل متابعتها من خلال الأجهزة الإلكترونية الحديثة التي نمتلكها ونتعامل معها يومياً كالهواتف الذكية فضلاً عن أجهزة الحاسوب المتصلة بالإنترنت، وتوافر هذه المواقع خاصية مهمة جداً وهي التفاعلية العالية فيصبح بإمكان الجميع المشاركة والإضافة والتعديل وإثراء الحوار بالآراء المختلفة والمتوافقة على حد سواء..

والسؤال الهام في هذا المجال يتجلى في معرفة ماهية المدونات الرقمية ونشأتها وعوامل تقدمها المتسارع في عالم الإنترنت إلى درجة اعتبارها الظاهرة الأبرز في عالم التواصل اليوم.. وصولاً إلى التوقف على واقع المدونات العربية وآفاقها؟؟؟

١- المفهوم والمصطلح

إن المدونة، في أبسط تعريفاتها، هي صفحة عنكبوتية تشتمل على تدوينات posts مختصرة ومرتبة زمنياً. وبصورة تفصيلية، وبذلك تعتبر المدونة تطبيقاً من تطبيقات الإنترنت، يعمل من خلال نظام لإدارة المحتوى، وهو في أبسط صوره عبارة عن صفحة عنكبوتية تظهر عليها تدوينات (مدخلات) مؤرخة ومرتبة ترتيباً زمنياً تصاعدياً، تصاحبها آلية لأرشفة المدخلات القديمة، ويكون لكل مدخل منها عنوان إلكتروني URL دائم لا يتغير منذ لحظة نشره على الشبكة، بحيث يمكن للمستفيد الرجوع إلى تدوينة معينة في وقت لاحق عندما لا تعد متاحة في الصفحة الأولى للمدونة...

من ناحية ثانية نرى أن المدونة باللغة الإنكليزية هي: نحت من كلمتي Web log بمعنى سجل الشبكة، ويُطلق عليها اختصاراً blog، ومنها مصدر التدوين blogging وهو عملية إنشاء المدونة والنشر فيها، والمدونون أو البلوجرز bloggers هم الأشخاص الذين يقومون بالتدوين، ثم إن مجال أو عالم المدونات blogsphere يمثل العالم المترابط من المدونات المتاحة على الإنترنت والتي يمكن الوصول إليها من خلال محركات البحث أو من خلال كشافات المدونات blog indexes...

وحقيقة الأمر أنه بالإمكان ترجمة blog بمعنى السجل، أو المكتوب، أو الصحيفة، إلا أن «مدونة» هي التعريب الأكثر قبولاً وانتشاراً لهذه الكلمة حتى الآن، كما لا تزال تستخدم أيضاً الصيغة المأخوذة من الإنجليزية، حيث تُعرف بـ(بلوج) في مصر، و(بلوق) في دول الخليج العربي، و(بلوغ) في بلاد الشام. كما يُطلق على المداخلة أو المدخل أو الإسهام الواحد فيها: تدوينة، وهو ما يقابل post في الإنجليزية..

يتضح مما سبق أن المدونات هي أحد أساليب النشر والاتصال الحديثة على الشبكة العنكبوتية، وتمثل مزيجاً من المذكرات اليومية (في البيئة الورقية) والموقع العنكبوتي والتجمع الإلكتروني online community (في البيئة العنكبوتية).

ولعلَّ من أسباب شهرتها وسرعة انتشارها، تميزها بالتفاعلية، والوصول المباشر من قبل المستفيدين إليها، وتشكيل التجمعات الإلكترونية بين محرريها والمستفيدين منها، وذلك بصورة أكثر فعالية من غيرها من وسائل الاتصال الأخرى مثل البريد الإلكتروني والقوائم البريدية. هذا فضلاً عن توافرها على سجل أرشيفي للمواد المتاحة بها، يتم الوصول إليه بصورة أكثر سهولة ويسراً من غيرها من الأساليب..

ونستطيع القول إن المدونة أقرب ما تكون إلى الصحيفة الإلكترونية، مع الفرق بأن المواد المنشورة في المدونة توضع في ترتيب زمني تصاعدي بحيث تكون المعلومات الأكثر حداثة هي أولى المعلومات التي يطالعها المستفيد.

ولأن المدونة تتخذ شكل اليوميات diaries، ولأنَّ المواد المنشورة بها تكون مؤرخة تأريخاً يومياً، فإنه يمكن ببساطة إرجاع ذلك النمط الإلكتروني من الكتابة إلى أشكاله التراثية الأصيلة في تراثنا وأدبنا العربي، من كتب اليوميات والحوادث أو الوقائع التاريخية ... إلخ؛ خاصة أن فن كتابة اليوميات التقليدية بدأ وانتشر بسبب الحروب وهو ما حدث أيضا مع المدونات الإلكترونية..

٢- نشأة المدونات:

في العودة إلى الوراء قليلاً نرى أن الصحافة التقليدية تربعت على عرش السلطة الرابعة لعدة قرون، وهو العرش الذي منح لها لكونها حلقة الوصل بين السلطات الثلاث وبين جماهير الشعب، حيث برزت كسلطة تحاسب وتراقب السلطات الأخرى كأنها عين للشعوب عليها.. ومع ازدياد تأثير الصحافة ودورها في تشكيل الرأي العام للشعوب، بدأ أصحاب النفوذ السياسي والمالي بتطويع هذه السلطة لخدمة أجنداتهم الخاصة. وبدل أن يكون الإعلام حارساً لمصالح الشعوب ورقيباً عليها، تحول إلى أداة يتحكم به من يدفع أكثر ليصبح أداة لتضليل الشعوب بدل تنويرها. لتتوارى الأصوات الشريفة في الصحافة بين الصفحات الداخلية، ويصبح الصوت السائد الذي يحتل صدر الصحف وعناوينها الرئيسية هو صوت صانع القرار الرأسمالي أو السياسي.

ولكن التغيير الجذري أخذ طريقه عندما ظهر الإنترنت حيث بدأت تتشكل على السطح ملامح وسائل إعلامية جديدة غير تقليدية لا مركزية.. ولا يمكن التحكم فيها أو توجيهها.

ومع نضوج هذه الوسائل بدأ على الإنترنت ما يسمى التدوين. وهو الشكل الإعلامي غير التقليدي الأكثر تجرداً عن التبعية. حيث تمثل المدونة رأي مالكها ولا أحد غيره، ولا يمكن أن يُفرض على من يدون ما يجب عليه كتابته وما لا يجب أن يكتب.

وازداد تأثير المدونات في الغرب سنة بعد سنة، ليتعاظم هذا التأثير في الغرب لدرجة أن كثيراً من المحللين يؤكدون أن أحد أهم أسباب فوز باراك أوباما في الانتخابات الأمريكية الأخيرة هو الإعلام الجديد وعلى رأسه التدوين، وتزداد أهمية التدوين في عالمنا العربي بسبب الوضع السيئ الذي يعيشه الإعلام بشكل عام، والتقييد الكبير الذي يتعرض له، حيث يندر أن يخرج رأي الوسائل الإعلامية الرئيسية عن رغبة الحكومات وأباطرة المال..

إذن، كان لقب السلطة الرابعة منح للصحافة لأنها تراقب أداء السلطات الثلاثة الأخرى وتنقله للشعوب. فإن التدوين هو السلطة الخامسة التي ستراقب السلطات الأربعة مجتمعة، وتكرس الشفافية الحقيقية وتحاسب المخطئ من دون مجاملة أو أجندات خفية...

وللتذكير نقول إنه عندما كان يتم لقاء رؤساء التحرير والصحفيون المشاهير.. كان يتم سؤالهم عن رحلتهم في الصحافة، وكيف استطاعوا أن يصلوا لهذه المكانة.. هذه الرحلة قد تطول وتقصر.. أمّا صحفيو الإعلام الجديد.. وعلى رأسهم المدونين.. فرحلتهم قصيرة جداً.. وهي لا تزيد عن اتخاذ قرار... ولا يفصل من يريد أن يدخل لهذا العالم إلا فأرة ولوحة مفاتيح... ليصل صوته لكل العالم..!!

٣- انتشار المدونات وشيوعها:

على الرغم من أن المدونات نشأت حوالي منتصف تسعينيات القرن العشرين، وعلى الرغم من أن المصطلح blog تمّ صكه عام ١٩٩٧م، إلا أن ظاهرة المدونات لم تنتشر على الشبكة العنكبوتية إلا بعد عام ١٩٩٩م حيث بدأت خدمات الاستضافة في السماح للمستفيدين بإنشاء المدونات الخاصة بهم بصورة سريعة وسهلة نسبياً..

لقد أصبحت المدونات ظاهرة عامة بانضمام العديد من مستفيدي الإنترنت إلى صفوف المدونين وقرائها. وتطور الأمر، كما رأى أحد الباحثين إلى أن أصبح عام ٢٠٠٥م هو عام المدونات..

ويقدر مشروع «بيو للإنترنت والحياة الأمريكية»، زيادة عدد الأمريكيين الذين يقرؤون المدونات بنسبة ٥٨٪ عام ٢٠٠٤م، ليصل العدد الكلي إلى حوالى ٣٢ مليون قارئ، ويفيد «مشروع الامتياز في الصحافة» التابع لجامعة كولومبيا في مدينة نيويورك، أن معظم هؤلاء يتابعون المدونات من أجل الحصول على المعلومات ومتابعة الأخبار.. كما أفادت إحدى الدراسات الحديثة أن حوالى ١١٪ من المستهلكين على الخط المباشر online consumers يقرؤون المدونات بصفة شهرية على الأقل، وأن هذا العدد آخذ في الازدياد بسرعة.

وفيما يتصل بعدد المدونات المتاحة على العنكبوتية، تقوم شركتا Technorati وBlogPulse بتكشيف ما يزيد عن ٢٠ مليون مدونة. وسجلت الشركة الأولى في سبتمبر عام ٢٠٠٥م أن عدد المدونات يتضاعف تقريباً مرة كل خمسة شهور، بينما تضيف شركة Intelliseek BlogPulse إلى محرك البحث الخاص بها حوالى ٥٠,٠٠٠ مدونة يومياً. ويتضح من المؤشرات السابقة أن عدد المدونات وتأثيرها سوف يستمران في الازدياد.

٤- لماذا المدونات؟؟؟

والسؤال الذي يطرحه الكثيرون لماذا المدونات وما الحاجة إليها؟؟

يمكن الإشارة إلى أن المدونات، بصفة عامة، هي مواقع على الإنترنت خاصة بالأشخاص أو المؤسسات، تتضمن تعليقات وآراء وأخبار، وغالباً ما تتضمن روابط فائقة links إلى معلومات متاحة على مواقع أخرى على الشبكة.

وقد أثبتت المدونات وجودها وجدواها كإحدى الخدمات الحديثة على الشبكة، لسهولة إنشائها ونشرها وتحديثها، فضلا عن إتاحتها لفرصة التفاعل مع المستفيدين منها في كل مادة من المواد المنشورة بها.

ومن وجهة نظر معدي المدونات، فإن المدونات تنشأ لأجل النشر المهني، أو الشخصي، أو لمجرد توفير المعلومات.

أمّا من وجهة نظر المستفيدين، فإنه تتم الإفادة من المدونات، لأجل تلك الاحتياجات الشخصية أو المهنية، ولمحافظة المدونات على حداثة معلوماتها باستمرار، وكذلك لخلوها من الرسائل المزعجة spam التي يمكن أن تتسلل إلى أساليب الاتصال الأخرى على الشبكة..

وفيما تتخذ بعض المدونات شكل المذكرات الشخصية، تركز أخرى على

موضوعات تخصصية محددة. وتتنوع موضوعات المدونات بين المجالات السياسية والعسكرية والإعلامية والأدبية والتقنية، ... إلخ، كما أنها قد تركز على موضوعات دقيقة للغاية تصل إلى التطريز وإصلاح السيارات.

ويرى البعض أن الشهرة والانتشار اللذين حظيت بهما المدونات إنّما تعود إلى المدونات السياسية والعسكرية، والدور الذي لعبته في الخطاب العام على مستوى السياسة والإعلام؛ للدرجة التي يُشار بها إلى الحرب الأمريكية على فيتنام بأنها أوّل حرب تُنقل على التلفاز، والحرب الغشوم على كل من أفغانستان والعراق بأنها أوّل الحروب التي تصور في المدونات..

وفيما يتصل بالإعلام، يرى بعضهم أن المدونات بدأت تحدث أثراً في الحياة العامة في الولايات المتحدة على عدة أصعدة، سياسية واجتماعية وإعلامية، وذلك عبر نشرها لتقارير حول أخطاء القادة السياسيين، ومن جهة أخرى بسبب اختلاف الطريقة التي يقوم بها المراسلون بكتابة تقاريرهم. ومن ثم فإن محرري المدونات bloggers أضحوا مؤثرين على نحو متزايد لدرجة أنه يتم النظر إليهم الآن على أنهم جزء مهم من وسائل الإعلام الرئيسة.

وازداد من ثم حضور المدونات وباتت شكلاً إعلامياً يقف جنباً إلى جنب مع التلفاز والإذاعة والصحف والسيارة. ومن ثم أيضاً، لم يكن من الغريب مطالبة أحد الخبراء في مجال المدونات بمعاملة المدونين بوصفهم صحفيين..

من ناحية أخرى، وفي عالم الأعمال التجارية، أصبحت المدونات وسيلة فعالة تفيد منها الشركات والمؤسسات للترويج لمنتجاتها أو لأفكارها الداعية لها. وثمة إشارات إلى أن المدونات تستخدم الآن لبيع المنتجات بمعدلات غير مسبوقة، وعلى سبيل المثال تفيد صاحبة شركة «خبراء تسويق المؤلفين» Author Marketing Experts في مدينة سان دييجو، أنَّ المدونات كانت أعظم تأثيراً بالنسبة لها من وسائل الإعلان التقليدية المطبوعة من حيث تأثيرها على مبيعات الكتب..

٥- واقع المدونات العربية وآفاقها:

ترتبط المدونات العربية في فضاء الإعلام الرقمي بواقع الإنترنت العربي في مجالاته الثلاثة المعروفة وهي: الاستعمال والبرمجة والتصفح.. تقول نشرة موقع إحصاءات الإنترنت العالمية internet world stats عن استعمال الإنترنت العربي خلال

عام ٢٠١٢م. إنه وصلت نسبة مستخدمي الإنترنت في الشرق الأوسط إلى ٣,٨٪ (يونيو ٢٠١٢) من مجموع المستخدمين على الصعيد العالمي، وعدد المتحدثين بالعربية ١,٥٪. في حين وصل انتشار العربية بين مستعملي الإنترنت: ٤٠٪.

وقد احتلت العربية المرتبة السابعة (في السنة الماضية كانت الثامنة) ضمن أعلى عشر لغات استعمالا في العالم بعد الإنجليزية والصينية والإسبانية واليابانية والبرتغالية والألمانية، وقبل كل من الفرنسية والروسية والكورية. ومن المتوقع أن تصل إلى المرتبة الرابعة في سنة ٢٠١٥م. ومن ثم، فقد نمت العربية بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠١٢م بنسبة:٢٥٠١ ٪..

هذه الصورة الزاهية التي يقدمها الموقع تثبت مؤشرات أكدتها العديد من التقارير المقاربة لعلاقة العربية بالإنترنت. فقد سبق لتقرير المعرفة العربي عام ٢٠٠٩م أن اعتبر زيادة مستخدمي اللغة العربية الأعلى بين مجموع اللغات العشر الأولى على الشبكة العنكبوتية، حيث بلغ معدل الزيادة العربية ٢٠٦٪ خلال الفترة من عام ٢٠٠٠- ٢٠٠٨م، أي نحو ٦٠ مليون شخص. وعدد مستخدمي العربية ٤,١٪ من إجمالي مستخدمي الإنترنت في العالم.

ومن حيث الزيادة في العقد الأخير فهو الأعلى بين اللغات العشر الأولى. وفيما يتعلق بالمحتوى العربي فهو لم يتغير بشكل كبير، حيث ظل محافظا على ندرته التي أشار إليها تقرير لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا «الإسكوا» قبل مدة طويلة حيث لا يتعدى ٣ بالمئة من إجمالي المحتوى العالمي.

ويكشف هذا التطور الكمي والنوعي في مؤشرات ازدياد استعمال الإنترنت وجود قوة دافعة للغة الضاد تفرض وجودها عالميا سواء بوساطة المشاريع المؤسسية (مثل مؤسسة الفكر العربي أو مشروع تعريب ويكيبيديا) أو المبادرات الخاصة (مثل تغريدات التي قام بها بعض الشباب الجامعيين). أو تشكيل مجموعات كبيرة على شبكات التواصل الاجتماعي.. وفي كل الأحوال فإن محاولات حصار العربية في أوطانها باسم الخصوصية أو معاداة العصرنة لم يلغ انتشارها المدوي وتنامي التواصل بها على مختلف الشبكات التواصلية ورسوخها في عالم الإنترنت ونرى بوضوح في الصورة المرسومة من طرف الإحصاءات تراجع اللغة الفرنسية ونرى في الوقت نفسه العربية في تصاعد مما سيسقط لا محالة وهم الربط الجدلي بين لغة المستعمر والحداثة..

ما من شك أن هذا يشكل تقدماً ملحوظا للإنترنت العربي واللغة العربية بشكل خاص.. ولكن هذه اللوحة الزاهية تصطدم بحقيقة أنَّ ولوج العرب عالم النت ما زال متدنياً بالمقارنة بعدد الناطقين باللسان العربي. حيث لا يتجاوز مستعملو الإنترنت في الشرق الأوسط (وشمال أفريقيا) حوالى ٩٠ مليوناً وهو ما يطرح إشكاليات حقيقية حول قدرة هذه الشعوب على دخول مجتمع المعرفة على الرغم من أن قوة العربية مازالت المعبر عنها عالميا من خلال الاحتفاء بيومها الكوني ووجودها الفعلي في دواليب المنظمات العالمية غير أن المفارقة الغريبة تكمن في أنه لايوجد تعبير عنها بشكل فعلي على الشبكة العنكبوتية..

وتعود أسباب قلة استعمال الإنترنت عربيا على الرغم من تناميه مقارنة بالسنوات السابقة وبلغات دول متقدمة إلى عدة أمور جعلت عملية تبادل المعلومات عملية صعبة منها:

١- التكلفة العالية للاتصال.
٢- ضعف البنية التحتية للاتصالات.
٣- عدم معرفة استخدام الحاسب الآلي.
٤- سيطرة اللغة الإنجليزية على الإنترنت في محتواه وتطبيقاته مما جعل استفادة المستخدم العربي الذي لا يجيد اللغة الإنجليزية من الإنترنت محدودة جداً..

وإذا عدنا إلى التقارير السابقة (مثل تقرير مجتمع المعرفة) نرى أنه يشير إلى أن المحتوى الرقمي للعربية يقتصر على مجالات محدودة غالبا ما تكون بعيدة عن مجالات التنمية الثقافية والاجتماعية. كما أنَّ الصفحات العربية في النت متدنية حيث لا تتجاوز الواحد بالألف أي ٤٠ مليون صفحة من ٤٠ مليار صفحة عالميا. ويبدو هذا ضئيلاً جداً إذا علمنا أنَّ عدد مستخدمي (الفيس بوك) يزيد على مليار مستخدم، ليكون ثالث أكبر بلد في العالم، علماً أن ٢٣ بالمئة منهم يفتحون حسابهم على (الفيس بوك) أكثر من خمس مرات في اليوم. وهناك مليون موقع اندمجت (بالفيس بوك). وهناك موقع يوتيوب وهو ثاني أكبر محرك بحث في العالم، تُحمَّل عليه ٧٢ ساعة من أشرطة الفيديو كل دقيقة. وإلى جانب هذه، فإن منصات مثل لينكدإن LinkedIn وإنستاغرام Instagram وموسوعة ويكيبيديا، إلخ، تكتسب مكانة متعاظمة.

إزاء هذه الإحصاءات المذهلة، لا يملك المرء إلا أن يقول «مرحبا بعالم الثورة الرقمية».

والواقع أنه من الصعب لدى متابعة أخبار العالم اليوم أن نتجاهل تأثير وسائل التواصل الاجتماعي، بوصفها منطلقاً للتغيير الذي يشكل المواطن قوته المحركة. فالأشخاص لا يحصلون على الأخبار من وسائل التواصل الاجتماعي فحسب، بل إنَّ وسائل التواصل الاجتماعي هي الخبر..

لقد تحول مواطنو اليوم إلى مواطنين إعلاميين. وبتوافر أدوات تكنولوجية سهلة في متناول اليد، يتاح للمواطنين الرقميين التحرك.

ويواصل المواطنون الرقميون التأثير في السياسة والحكومات في اللحظات الفاصلة. لكن تأثير المواطنين الرقميين مساوٍ لتأثير قنوات آنية للتعبير والاتصال إن لم يكن أكبر، في عمل الحكومات وتوفير الخدمات العامة. قصتهم قد لا تُروى على المدونات السياسية، أو نشرات الأخبار المسائية، أو كتب التاريخ، لكن المواطن الإعلامي أو الرقمي سيغير أعمال الحكومة اليومية إلى الأبد.

إنّ المختلف في المواطنين الرقميين هو الطريقة التي يطلقون ويفرضون بها ديناميكيات علاقة المواطن بالحكومة، بصورة لم يُعهد لها نظير من قبل. يعود هذا إلى أن المواطنين الرقميين يستطيعون أن يملوا التوقعات على الحكومة، وأن يطلقوا مدى من التأييد القوي بحيث تكون ضرورة الرد بديهية.

وعلى أساس ذلك تجد الحكومات عدة حقائق أساسية برزت أمامها ويجب التوقف عندها..

الحقيقة الأولى -«الوقت ثمين»- الوقت هو أثمن عملة في العالم الرقمي، ويمكن للمواطنين الرقميين أن يمارسوا تأثيرهم بسرعة الضوء، وأن يتوقعوا من الحكومة أن تفعل الشيء نفسه. في العام ٢٠١١م، احتج آلاف الشبان في إسبانيا على تفشي البطالة والإجراءات التقشفية والفساد السياسي. وكانت الحركة بدأت بتجمع خاطف في بورتا ديل سول في مدريد، لكنها سرعان ما انتشرت، وتأثرت نسبة المشاركة في الانتخابات التي جرت بعد أيام قليلة تأثراً كبيراً بما حدث. ومُني الحزب الاشتراكي الحاكم بأقسى هزيمة يتكبدها منذ نحو ٣٠ عاماً.

الحقيقة الثانية -«لتكن الحكومة حيث يكون الشعب». فالمواطنون الرقميون يستوطنون وسائل التواصل الاجتماعي. وعلى الحكومات أن تكون هناك أيضاً للتواصل معهم.. فلقد تحولت وسائل التواصل الاجتماعي ببطء لتكوّن الاتجاه العام، وعلى الحكومات إعداد كوادر تتقن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي للتفاعل مع الشعب، واستخدامها كمصادر للاطلاع على ردود أفعال المواطنين.

الحقيقة الثالثة - «الحكومات أخذت تنفتح» - بدأت الحكومات في البلدان المتطورة تفتح ببطء ما لديها من معلومات وعمليات ووسائل توصيل، لتمكين أشكال جديدة من مشاركة المواطنين وعلاقة «الحكومة بالمواطن». وهي خطوة تدرك العلاقة التكافلية بين وسائل التواصل الاجتماعي وشفافية الحكم. ودمجت بريطانيا والدنمارك على سبيل المثال كماً من البيانات العامة في مكان واحد، كي يشارك المواطنون في عمليات صنع القرار. ويتمثل التحدي المطروح هنا بإدارة التواصل مع المواطنين على نحو فاعل، من خلال قضية ذات صلة هي الطريقة المثلى لاستخدام التكنولوجيات الجديدة في مبادرات الحكومة باستخدام تكنولوجيا المعلومات..

الخلاصة:

ونخلص إلى سؤال يتردد كل يوم على لسان الجميع.. ما هو مصير الإعلام التقليدي؟؟

أي إن السؤال الأكثر إثارة للاهتمام اليوم هو هل حلت وسائل التواصل الاجتماعي محل وسائل الإعلام التقليدية، بوصفها الشكل الرئيس لبث الأخبار والتواصل مع الناس والتسويق؟ قد تكون الإجابة هي بالنفي إلى حد كبير.. فحتى الآن يمكن القول إن وسائل الإعلام التقليدية، متمثلة بالتلفزيون والصحيفة والكلمة المطبوعة، ما زالت تعتبر شكلاً معتبراً لفهم العالم كما يحدث، لأن لوسائل الإعلام التقليدية سمعة في صقل المحتوى وتحريره قبل بثه، كي تضفي عليه قدراً أكبر من الصدقية والمعالجة المتوازنة، بدلاً من الفورات العاطفية التي ترتبط بالنصوص الفردية على وسائل التواصل الاجتماعي.

ويبدو أن تصنيف وسائل الإعلام قضية مطروحة، لكنها أصبحت عندي مسألة نوعية واحتراف مهني. فإنَّ الأخبار والمضامين التي ينتجها الصحافيون بمهنية تتفوق عادة على المدونات. لكن مع ثورة الإنترنت، تحدث تغيرات كبيرة كل يوم، وستستمر في الحدوث. ويتعذر الآن الفصل بين وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام التقليدية. وعليها الآن أن تتعلم التعايش مع بعضها البعض، فهي تؤلف منظومة كبيرة واحدة متشابكة لا تنتهي، وتُسجَّل عبر الزمن بوساطة محركات البحث. وفي الواقع، نظراً للبيئة الإعلامية المنتشرة اليوم، ضربة واحدة في أي من هذه المضامير يمكن أن تطلق ضربات متتالية في مضامير أخرى. وعندما تكون الحملة الخبرية ذات مضمون جوهري، فإنَّها عادة ما تأتي دافقة. والأذكياء من العاملين في

مجال التواصل يفهمون ذلك.

إن تقييم أي شكل من أشكال الإعلام بوسطه العام وتأثيره المباشر ليس عملية مجدية. وكما قال سيث غودن، فإنه «لا يهم إذا نالت وسائل الإعلام ذات التوجه الاجتماعي واحداً بالمئة من الاهتمام الذي كانت تأمل فيه، إذا كان هذا الواحد بالمئة هو المنشود».

إنَّ انزواء المسؤول الحكومي وتجاهله ما يجري أو اتباعه وسائل تقليدية لمواجهة هذا العالم الجديد لم يعد مجدياً بعد أن وصلت النيران إلى الزاوية التي يتحصن فيها، وعليه فإنَّ على المجتمع العربي أن يعتبر الاستثمار في الإعلام الجديد وحيازة الأسبقية في إدارته مسألة سيادة وأمن إعلامي

ندعو هنا الشباب العربي إلى الاستفادة من هذه الخدمات والميزات التي تقدمها مجاناً الثورة الرقمية وذلك في خلق قنوات للتحاور والتواصل بينه وبين الشباب في كل بقاع الأرض لنعكس دوراً حضارياً مهماً ولنزيل صورة قاتمة وسيئة عن العرب والمسلمين تتشكل بفعل ماكينات إعلامية موجهة لا تذكر عنا سوى أقبح الأشياء التي يقوم بها بعضهم ليعمموها على الكل فتلتصق بنا وتشوه سمعة أمتنا وأجيالها..

المصادر

١- الشباب العربي وثقافة التدوين، خالد شرقاوي.. فلسطين.
٢- التدوين.. السلطة الخامسة، مدونة عصام الزامل.
٣- فدون: مبادرة عربية لكسر حاجز الخوف، غيداء حمودة.. الغد الأردنية.
٤- المدونات الإلكترونية: مصدر جديد للمعلومات، د.عصام منصور.. مجلة دراسات المعلومات، العدد٥، مايو، ٢٠٠٩م.
٥- المدونات الإلكترونية والمشاركة السياسية، فاطمة الزهراء عبد الفتاح.. القاهرة، دار العالم العربي.
٦- المدونات العربية على شبكة الإنترنت، إعداد: دشن بن محمد القحطاني، الرياض.
٧- المدونات الإلكترونية العربية: الفرص، الرهانات والتحديات، إدريس لكريني، منبر الحرية.
٨- عبد الرحمن فراج، «المدونات الإلكترونية مع مدونات المكتبات والمكتبيين»، مجلة المعلوماتية، العدد٤.
٩- وميض إحسان. «الصحف الإلكترونية تهدد عرش صاحبة الجلالة»، مجلة تواصل، العدد الثامن.
١٠- فضيل الأمين وسالي فرحات. «مستقبل البلوغر وصحافة المستقبل»، مجلة هاي (أكتوبر)، ٢٠٠٦م.

الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية

د. محمد ياسر زكور ✿

مخطوط كتاب الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية لجمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني

تعدُّ المخطوطات العلمية العربية، التي ألفها العلماء العرب والمسلمون، لبنة من لبنات صرح الحضارة الإنسانية في جميع فروع المعرفة العلمية.

لا نقبل بأن يكون هدف الكشف عن إسهامات العلماء العرب والمسلمين - في مجال العلوم- التفاخر بما قدمه أجدادنا، وأن تكون تلك الإسهامات منارة وحافزاً للأجيال الصاعدة على طريق التقدم والازدهار فقط، وإنما نريد أن نبين دورنا الحضاري في تاريخ الإنسانية، ذلك الدور الذي أهمله وتغافل عنه عدد من مؤرخي العلوم الغربيين، وتعمدوا «تهميش» مساهمات العلماء العرب المسلمين في مؤلفاتهم لأسباب عديدة.

ترافق تطور علم الطب في العصور الإسلامية مع تطور الحضارة العربية/ الإسلامية، فبدأ الأطباء العرب باختيار المؤلفات الرئيسة وترجموها واستوعبوها، ثم انتقلوا إلى مرحلة التأليف والإبداع والأصالة، ثم مرّ علم الطب بمرحلة لاحقة وهامة، ألا وهي مرحلة تعميم الطب

✿ باحث في تاريخ العلوم الطبية.

وانتشاره بين عموم الناس، ويُصنف كتاب الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية لجمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني (٨٣٣هـ/١٤٢٩م- ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م) ضمن تلك المرحلة، التي لا تقل أهمية -في حياة حضارتنا- عن المراحل السابقة، وذلك لانتقال العلم من الخاصة إلى العامة، واستفاد الناس من تطبيقات الإنجازات الفكرية التي قدمها الأطباء العرب.

ينتمي مؤلف المخطوطة جمال الدين المارديني إلى عائلة اشتهرت بالعلم والمعرفة، وضع أفرادها مؤلفات في الفلك والرياضيات وعلم الميقات...، وكانت نسخ مؤلفاتهم بالمئات في المكتبات العربية والأجنبية- حتى اليوم- لانتشارها الواسع وتداولها بين الناس.

أمَّا مخطوطة الرسالة الشهابية.. فكانت من المخطوطات الطبية الهامة والمتداولة فبلغ عدد نسخها - بحسب علمنا- ثماني عشرة نسخة موزعة على المكتبات العالمية، وتطرقت لموضوعات عديدة ومتنوعة وعامة تهم الإنسان العادي في صحته وسقمه، وأوردها مؤلفها وفق منهج علمي مبسط وواضح.

وإنني، بحمد الله، أعتبر ما توصلت إليه بالبحث الشاق والمضني، عملاً أعتز به، للوصول إلى حقيقة أنَّ كتاب «الرسالة الشهابية في الصناعة الطبّية» ينسب إلى مؤلفه المغمور جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني الذي عاش في القرن التاسع الهجري، فمن هو هذا المؤلف.

ترجمة المؤلف

إن المعلومات الواردة عن جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني ضئيلة جداً، حيث لم أجد له ذكراً في أي من كتب التراجم القديمة والحديثة، سوى ما كتبه السخاوي في «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»، وبشكل مقتضب، فيقول عنه: «محمد بن إبراهيم بن الجَمال عبد الله بن خليل ابن يوسف بن عبد الله المحب المارداني[١] الأزهري الشافعي المؤذن، حفيد الجمال[٢] المشهور وأخو عبد الرحمن الماضيين،[٣] ممن سمع على شيخنا[٤] وغيره، ودار على الشيوخ وحضر دروس العلاء القلقشندي،[٥] ثم ترك وأقبل على شأنه مع فضيلته في الميقات ونحوه بحيث أقرأ،[٦] وقد سافر في بعض التجاريد[٧] ثم رجع وهو متضعّف، فدام كذلك مدة. ومات في ثالث عشر صفر سنة ست وثمانين ومولده سنة ثلاث وثلاثين وثمانمئة، رحمه الله وعفا عنه».[٨]

كما ذكره من المؤرخين المتأخرين، الباباني في «إيضاح المكنون» في ذكره لأسماء الكتب في حرف (ش): «الشهابية: رسالة في الطب لجمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني المتوفى سنة..»[٩]

نشأته: لا شك أن جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني (أو المارداني) الذي ولد وترعرع في مصر، نشأ في بيئة أهلها ذوو تقوى وصلاح وأهل علم.

فأبوه إبراهيم بن الجمال عبد الله بن خليل بن يوسف المارديني الأزهري، ولد سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، وتوفي سنة (٨٧٠هـ/١٤٦٥م)، وكان مؤقتاً، له ولدان: عبد الرحمن الأصغر، والمحب محمد صاحب الترجمة، وقد ثكل أصغر ولديه (أي عبد الرحمن) قبل أن يتوفى.[١٠]

وأخوه عبد الرحمن بن إبراهيم بن الجمال عبد الله بن خليل بن يوسف التقي المارداني (أو المارديني) الأصل الأزهري المؤذن، ولد في سنة (٨٤٣هـ/١٤٣٩م)، وسمع مع أخيه الكثير وكان ساكناً. مات سنة (٨٦٩هـ/١٤٦٤م).[١١]

وجدّه عبد الله بن خليل بن يوسف بن عبد الله الجمال المارداني (أو المارديني)، وهو أيضاً جد سبط المارديني محمد بن محمد لأمه فاطمة، وفي ذلك يكون جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني ابن خال سبط المارديني محمد بن محمد.

كان الجد عبد الله بن خليل عارفاً بالميقات والهيئة، فكان مؤقتاً في جامع المارداني بالقاهرة، وانتهت إليه رئاسة علم الميقات في زمانه، وحل الزيج[١٢] وترجمه، توفي سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٦م). له من التآليف: غاية الانتفاع بالبخش الذي في طرف قوس الارتفاع. رسالة مختصرة في العمل بالربع المجيّب. رسالة في ربع الدستور وتعريف رسومه. الدر المنثور في العمل بربع الدستور. شرح التبصرة للمروزي في الهيئة. الشبكة. قصيدة، العمل بربع الشجارية (آلة رصد). الورقات أو رسالة في العمل بربع الدائرة الموضوعة فيه المقنطرات.[١٣]

وابن عمّته سبط المارديني؛ محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد البدر الغزال، الدمشقي الأصل القاهري الشافعي، سبط الجمال عبد الله المارداني (أو المارديني، وهو الأصح)، أمه فاطمة ويُعرف بالمارديني، ولد سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٢م) في القاهرة، وتوفي سنة (٩١٢هـ/١٥٠٦م). اشتهر في الحساب والفرائض والعربية والفقه والميقات، وأُسندت إليه وظيفة المؤقت في الجامع الماراداني.

له العشرات من المؤلفات في شروحات بعض كتب الرياضيات والفلك والميقات. منها: **«اللمعة المارديية في شرح الياسمينية»** في الجبر. **«تحفة الأحباب في علم الحساب»**. وغيرها كثير. ونسبت إليه **«الرسالة الشهابية في الصناعة الطبيّة»** وهذا خطأ سنوضحه لاحقاً.[١٤]

شيوخه: يتبين مما ذكره محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٨٣١- ٩٠٢هـ/١٤٢٧-١٤٩٦م)، المؤرخ المصري، الذي عاصر جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني، بأنه أخذ علومه عن عدة شيوخ، وذكر منهم شيخ السخاوي؛ وهو ابن حجر العسقلاني الذي يعتبر من أهم شيوخه،[١٥] والعلاء القلقشندي.

- **ابن حجر العسقلاني** (٧٧٣- ٨٥٢ هـ/١٣٧١-١٤٤٨م): شيخ الإسلام، حافظ العصر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي ابن أحمد الشهير بابن حجر، من أئمة العلم والتاريخ والحديث، له العديد من المؤلفات، منها: «الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة»، وغيره.[١٦]

- **العلاء القلقشندي** (٧٨٨- ٨٥٦هـ/١٣٨٦-١٤٥٢م): علي بن أحمد بن إسماعيل ابن علي، العلاء أبو الفتوح، ابن القطب القرشي، القلقشندي الأصل، القاهري، برع في الفقه والأصول والعربية والمعاني والبيان والقراءات، وشارك في عدة علوم، تصدر للإفتاء والتدريس والأشغال، وانتفع به الطلبة.[١٧]

منزلته العلمية ومآثره: نستخلص من نشأة جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني أنه كان يتمتع بمنزلة علمية رفيعة، لما نهله من أهل العلم في الفقه والحديث والعربية والميقات، وهذا ما جعله يُقدم على تأليف كتاب في الطب، مع أنه لم يكن طبيباً، أو ممن مارسوا مهنة الطب، لكنه صنّف هذا الكتاب مما تعلّمه، وجمعه من الأطباء القدماء، والمشهور من المتأخرين، وهو كتاب «الرسالة الشهابية في الصناعة الطبيّة»، ولعله الكتاب الوحيد الذي كتبه.

هذا الكتاب الذي له من الأهمية والدرجة الرفيعة، بحيث تداوله الناس كثيراً، وأصبح له نسخ خطية عدة موزّعة في مكتبات عربية وأجنبية، وتعدّ هذه النسخ، التي استطعنا معرفتها، حوالى ١٨ نسخة، فهذا دليل على أهمية ذلك الكتاب، التي سوف نتحدث عنها لاحقاً.

توصيف الكتاب

يتألف المخطوط من ثمانين باباً، في حوالى ٥٠ ورقة، وسطيّاً.

الباب الأول: في حفظ الصحة؛ وفيه فصل في الأهوية، وفصل في الرياضة، وفصل في تدبير المأكول، وفصل في الأمزجة، وفصل في تدبير المشروب، وفصل في تدبير النوم واليقظة، وفصل في تدبير الجماع، وتدبير الفصول، والسواك، والتطيب، والملابس، والمجالسة.

بقية الأبواب يتحدث فيها عن الأمراض كافة من الرأس إلى القدم، بتعريف مختصر،

ثم المعالجة أيضاً بشكل مختصر وسهل مبسط.

الباب السابع والسبعون: تحدث فيه حول معرفة العلامات الدالّة على صحة المريض وفي معرفة العلامات المنذرة بالموت وذلك ليعرف الأول فيداوى، والثاني فيترك.

الباب الثامن والسبعون: في معرفة مسائل يُمتحن بها من ادعى صناعة الطب وهي عشرون مسألة وجوابها.

الباب التاسع والسبعون: في ذكر بعض أغذية وأدوية وتعريف نفعها وضررها ودفع مضارّها.

الباب الثمانون: في علاج الأظافير والداحس وتشقق اليدين والرجلين. وهو خاتمة الكتاب.

أهميّة الكتاب التاريخية والعلمية

إنّ أهمية هذا الكتاب تنبع من كونه كتاباً يشبه خاليا الكتب الطبية التي ندعوها دليل الطبيب في المعالجة Guide lines. كما يمكننا القول أيضاً بأنه وضع لمعالجة الحالات البسيطة التي يمكن أن يعالجها غير الطبيب، حيث ترك في أكثر من مرة العلاج للأطباء.

ومما يشير إلى أهمية الكتاب هو انتشاره بشكل واسع وتعدد نسخه الكثيرة كما ذكرنا.

أما محتواه فلا يقل أهمية عن كتب الطب الأخرى عند العرب، حتى إن غيره من المؤلفين قد اقتبس منه كثيراً من الفقرات والمعالجات؛ فهذا إبراهيم بن عبد الرحمن الأزرق (توفي بعد ٨٩٠هـ/١٤٨٥م) في كتابه «تسهيل المنافع في الطب والحكمة» نراه يستخدم أقوالاً من كتاب الرسالة للمارديني في عدة أماكن؛ منها على سبيل المثال لاالحصر ما جاء في الصفحة السابعة قوله: «وقال المارديني في الرسالة: اعلم أن الطبيب لا يلزمه إبقاء الشباب على حاله..» وقال في الصفحة ١٦٠ أيضاً: «قال الماردينى أمّا بياض الأظفار وهو برصها فهو ينفعه أن يضمد بدقيق حنطة..» وفي الصفحة ١٦٩ في باب الجدري والحصبة، يقول: «قال الماردينى في الرسالة: اعلم أن هذه العلة تعمّ جميع الناس ولا يسلم..»، وغيرها.[١٨]

أمّا من حيث الأهمية العلمية لما يحتويه؛ فنرى أنه أفرد الباب الأوّل لأمور الصحة العامة، وحفظ الصحة: فيتحدث فيه في البداية عن صحة البيئة وأفضل الأماكن للسكن. كما يتحدث عن أصول مزاولة التمارين الرياضية وأوقاتها وكيفيتها، وفيه نرى أنه فضّل الرياضة على استخدام الأدوية لمنع تراكم المخلفات الغذائية، كما أكّد على دور الرياضة في الوقاية من الأمراض النفسية بتحسين المزاج، وأشار

فيه إلى ما ندعوه حالياً المعالجة الفيزيائية بتحريك العضلات من دون جهد وذلك بركوب الخيل.

وتحدّث في هذا الباب أيضاً عن أنواع المآكل والمشروبات المفضلة لكل سن وكل وقت وكل مزاج، وما ينفع ويضر منها، حيث وضع تعليمات أصول تناول الغذاء، وترتيبه، ودفع مضاره. ونحن في وقتنا هذا نفتقر إلى تعليمات كهذه.

وضع فيه أصول النوم واليقظة وأوقاتها المناسبة والأوضاع الأكثر صحة للإنسان، وأوضح الأمور النفسية وانعكاساتها على الناحية الصحية للإنسان.

أفرد في الباب الأوّل أيضاً فصلاً لأصول المعاشرة الزوجية والوضعيات الصحية للجماع، وضرر الوضعيات غير الصحية.

كما تحدث فيه أيضاً عن تدبير الإنسان في كل فصل من فصول السنة، وتحدث عن فوائد وأصول التطيب بالطيب، واستخدام السواك، وأفضلية الملابس لكل سن وكل فصل، كما ذكر أصول المجالسة وانتقاء الجليس، والمنادمة.

وبقية الأبواب تحدث فيها عن معالجة الأمراض كلها من الرأس إلى القدم، حيث عرّف في كل باب المرض الذي يريد علاجه بتعريف مختصر ودقيق، ووضع فيه تراكيب الأدوية لعلاج تلك الأمراض، كما ذكر علاجات من سبقه من الأطباء الأوائل أمثال (جالينوس) والمحدثين، فتكرر عنده عبارة (ذكروا.. وقال بعضهم..) وأشار إلى الكتب التي استقى منها (كالموجز، والدستور، والإرشاد)، وجرّب المعالجات بنفسه، وهذا ما يشير إليه في الباب الثامن عشر مثلاً بقوله: (وقد جربت ذلك مراراً.. جربناه أيضاً فصحّ)، وكذلك يقول في غير مكان..

ومما شهدت التجربة له (في الباب الخامس)، بالمقابل نرى أنه ترك المعالجات الصعبة للأطباء؛ فلقد أحال بعض المرضى إلى غيره.. ففي الباب الثالث والعشرين يقول: (أما المزمن فعلاجه إلى الأطباء..)، ويقول أيضا في الباب نفسه:

(اعلم أن ما كان من هذه العلل قريب العهد فنحن نذكر علاجه، وما كان له الأمد الطويل فعلاجه إلى الأطباء)، وفي الباب الثلاثين يقول: (..نذكر منها ما يمكن علاجه مع عدم الطبيب)، ويقول في الباب الرابع والعشرين في نهايته (فما لها إلا الدواء وطبيب حاذق)، وفي الباب الثالث والثلاثين يقول: (ونذكر منها الذي يَسهُل علاجه لنا).

كما ذكر فيه شرحاً للمفردات الدوائية التي يرى أنها بحاجة إلى الشرح، ويعطي صفات النبات حين اللزوم، وشبه فيه الجنين بثمرة النبات في مراحله، ووضع

أساليب سهلة في العلاج، فمثلاً في (الباب العشرين) استخدم أسلوب معرفة العلاج بربطه بالألوان في الحالة المرضية، حيث قال: (الأحمر للدم والأصفر للصفراء..) أي بلون العلاج، ثم نلحظ في الكتاب أنه كان يضع رأيه في معالجة الأمراض كلها.

ومن الأشياء التي شرحها وهي جديرة بالاهتمام ما جاء في الباب التاسع والعشرين، قوله: (..وأصل السوسن الأسمانجوني، وهو قرفة البنفسج الذي يطيّب به، وهو أبيض اللون، يجلب من الروم..) فهذا الشرح لا يضعه إلا من له خبرة عالية في الأدوية والنباتات، وهذا الشرح لم يذكر إلا في نسخة (أوبسالا). ولعلّ تسمية قرفة البنفسج هي في هذا الكتاب فقط، حيث لم نعثر في المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها على هذه التسمية.

ومن المسمّيات التي ظهرت في هذا الكتاب (طين القطاط، أو القطقاط)، ولم ترد في المعاجم الطبية وكتب المفردات، إلا في كتاب «تسهيل المنافع في الطب والحكمة» للأزرق، وتكرّر ذكره في عدة مواضع، وفصّلنا ذلك في موضعه.

لقد وضع المؤلف التشخيص التفريقي بين الموت والسكتة، ووصف وعرّف حالة الموت بشكل دقيق ومذهل (في الباب الأوّل وفي الباب السابع والسبعين).

تكلّم في الكتاب عن الوراثة في آلام الظهر والمفاصل وعرق النسا؛ وهو مما أكّد عليه الطب الحديث (في الباب السابع والخمسين).

تحدث عن الأمراض الوبائية وسبل الوقاية منها بشكل علميّ ودقيق (الباب الثالث والستون).

تحدث عن الاحتراز من طعام العدو خوف وجود السم فيه وطريقة كشف السم، وطريقة شرب الماء الصحيحة (في الباب الخامس والسبعين).

وفي الباب الثامن والسبعين يذكر المؤلف المسائل التي يجب أن يمتحن بها الطبيب وأجوبتها، وفيها إرساء لقاعدة وجوب امتحان كل طبيب قبل أن يمارس مهنة التطبّب.

جنون البقر: في إحدى النسخ التي استخدمناها في تحقيق الكتاب؛ وهي نسخة (بغدادلي وهبي) في المكتبة السليمانية بإستانبول، وجدنا على الصفحة ١٩ من المخطوط، وبخط الناسخ، الذي يعود تاريخ نسخه إلى القرن الحادي عشر هجري، في الحاشية المقابلة لمرض (المالنخوليا أو السوداوية Melancholy) كتب كلمة (جنون البقر)، فلعل هذا التعبير كان مستخدماً في حينه على مرض السوداوية عند الإنسان، والله أعلم.

تسمية الكتاب: يتضح من اسم الكتاب «الرسالة الشهابية في الصناعة الطبيّة» ومما جاء في مقدمته، أنه قد تمّ تأليفه بناء على طلب رجل ذي شأن، أو قدّم له، وهو شهاب الدين أحمد بن عيسى، وتضاربت النسخ في تعريفه؛ حيث يقول:

«فهذه رسالة في صناعة الطب، أمرني بتأليفها المَقَر الكريم، العالي المعظمي، الملاذي الزخري ملك الأمر؛ أحمد بن عيسى، عفا الله عنه وعنّا والمسلمين». وفي نسخ: «فهذه رسالة في الصناعة الطبية ألّفت برسم الخزانة العالية المولوية الأجلية المحترمية خزانة مولانا وسيدنا شهاب الدين أحمد بن عيسى صاحب حلي (وقيل: حلي حلب، وقيل حلب المحروسة، وقيل: جدة) أدام الله دولته بالتخليد وأقام دعائم أمره بالبقاء والتمهيد، وهي تشتمل على نكت ونوادر من المعالجات مع الإيجاز والاختصار من أقوال المتقدمين والمشهور من المتأخرين، وسميتها بالرسالة الشهابية في الصناعة الطبية».

وبالبحث الجاد والطويل لم نعثر على أحد من الولاة في تلك الأماكن، وبهذا الاسم، في تلك الفترة التي عاش فيها المؤلف، مع أن محمد بن إبراهيم المارديني، كما ذكر السخاوي، عاش في مصر، وسافر في بعض التجاريد أيضاً، فمع الأسف لم نستطع الوصول بشكل صحيح لشخصية شهاب الدين أحمد بن عيسى هذا، اللهم إلا من معاصريه، القاضي شهاب الدين أحمد بن عيسى الحنبلي، أحد نواب الحكم بالقاهرة، توفي سنة (٨٤٤هـ/١٤٤٠م)، إذا كان من أصحاب جدّه، والله أعلم.(١٩)

والجدير بالذكر أن أحمد بن عيسى، الذي قيل في أحد نسخ المخطوطات بأنه صاحب حلي (باليمن)، وفي الكتاب أيضاً استخدم المؤلف كلمة (طين القطاط أو القطقاط)، والمفردة نفسها استخدمها الأزرق في كتابه «تسهيل النافع»، وهو من اليمن، ويوجد أكثر من نسخة للمخطوط كتبت في اليمن، فكل هذا يوجهنا إلى الحدس بأن هذا الكتاب قد يكون تمّ تأليفه في اليمن، والله أعلم.

نسبة المخطوط إلى مؤلفه

هنا كانت المعضلة الكبيرة في صحة نسب هذا المخطوط إلى مؤلفه جمال الدين محمد بن إبراهيم الماردين، حيث نسب هذا المخطوط أيضاً إلى ابن البيطار، وسبط الماردين، وفخر الدين الماردين، وابن نباتة.

- ابن البيطار: نقطة الانطلاق كانت بالحقيقة من مخطوط باسم ميزان الطبيب لابن البيطار، العشّاب المشهور، ضياء الدين

أبي محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي (٥٩٣-٦٤٦هـ/١١٩٦-١٢٤٨م) صاحب كتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» و«المغني في الأدوية المفردة» وغيره، ولم تذكر أي من المصادر في التراجم التي تحدثت عن ابن البيطار هذا الكتاب الموسوم باسم «ميزان الطبيب»، إلا ما ورد في صفحة غلاف المخطوط المودع في مكتبة جامعة أوبسالا بالسويد، برقم جديد (O.Vet ٥٨) (٣٦٤/٧٢٠)، والرقم القديم لها (٣٥١) حسب بروكلمان؛ وهذا ما ورد عن Bo Jaensson من مكتبة أوبسالا، وذلك بعد سؤالي عن محتوى الرقمين، فكان الجواب بأنهما للنسخة نفسها. وقد كتب على صفحة الغلاف لهذه النسخة (كتاب ميزان الطبيب لابن البيطار العشاب)، ثم ترجمة فرنسية: (TRAITE ، sur la Balance de la Medecine Par Beitar achab).

وهذه الكتابة كانت بخط حديث ومغاير لخط الناسخ، ويوجد صورة عن هذه النسخة في قسم التراث العربي. بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، تحت رقم متسلسل (٢٤٩).

ذكرت هذه النسخة في تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، وفي الأعلام للزركلي، وفي أعلام الحضارة لزهير حميدان، وفي مجلة تاريخ العلوم العربية، وفي فهرس المخطوطات الطبية المصورة بقسم التراث العربي بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، لهيا الدوسري. ويلحظ أن كل ما ذكر في هذه المراجع كان اعتماداً على ما جاء في صفحة غلاف المخطوط.[٢٠]

وما يجعلنا نستبعد كون المخطوط لابن البيطار باسم ميزان الطبيب، بأنه لم يُذكَر بين مؤلفاته في المصادر التي تحدثت عن ابن البيطار، ثم إن الخط الذي كتب فيه على غلاف مخطوط نسخة أوبسالا كان حديثاً وبغير خط الناسخ، ولا ندري كيف كتب.

ثم إننا نلحظ شيئاً قد يكون مهماً في متن المخطوط وحين الحديث عن مرض البرص والبهق، في الباب السابع والستين، لم يذكر المؤلف هنا نبات الأطريلال[٢١] Carum ammioides الذي ذكره ابن البيطار في المغني في الأدوية المفردة، وفي الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، لمعالجة البرص، ولا سيما أن هذا العقار يعتبر من مآثر ابن البيطار في اكتشاف هذا العلاج، الذي اكتشف مؤخراً وأصبح الدواء الناجع الوحيد لمرض البرص، ويسمى في عصرنا Psoralen..

وهذا مما يبعد احتمال كون المؤلف هنا هو ابن البيطار كما جاء في نسخة أوبسالا. كما أنّ ابن البيطار قد صنّف كتاب «المغني»

قبل كتاب «الجامع» وذلك بين سنتي (٦٣٥- ٦٣٦هـ/١٢٣٧-١٢٣٨م). وهناك ثمة ملاحظة وهي أن ابن البيطار لم يذكر في كتابه الجامع لمفردات الأدوية أي من كتابي الموجز لابن النفيس (توفي ٦٨٧هـ/١٢٨٨م)، أو الدستور لابن أبي البيان (توفي ٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، وهذان الكتابان ذكرا في الرسالة الشهابية، أو نسخة أوبسالا باسم ميزان الطبيب لابن البيطار، بينما نراه ذكر في جامع المفردات كتاب الإرشاد لابن جميع (توفي ٥٩٤هـ/١١٩٧م) الذي هو أقدم، وذكر أيضاً في الرسالة.[٢٢]

ولكن من توفيق الله وإلهامه أن هذه النسخة كانت مفتاح البحث عن النسخ الأخرى للمخطوط، والتي كانت كلها تحمل اسم الرسالة الشهابية في الصناعة الطبيّة، وبالمحتوى ذاته الذي في ميزان الطبيب، حيث أشارت هيا الدوسري، مشكورة، في فهرسها المذكور سابقاً بقولها:

انظر مخطوطات الطب في مكتبة المتحف العراقي ص: ١٥١ حيث أهدى الماردينى كتابه لشهاب الدين أحمد بن عيسى أيضاً» وتقصد بذلك الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية.

وحين تمت مقارنة محتوى ميزان الطبيب مع بقية النسخ التي تحمل اسم الرسالة الشهابية، تأكدنا بأنه المحتوى نفسه.

أما عنوان الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية فقد نسب لعدة مؤلفين، نعتقد بأنهم أيضاً بعيدون عن المؤلف الحقيقي، ومن هؤلاء ما توصل بحثنا إليهم بما وجدناه في كتب التراث والفهارس، ولكن لم يرد اسم أي منهم في أي من المخطوطات التي تعرّفنا عليها وهم:

- سبط المارديني:[٢٣] ذكر في فهرس الظاهرية، وفي بطاقة تعريف المخطوط، المحفوظ في مكتبة الأسد بدمشق برقم (٧١٤٨)، والذي لا يحمل اسماً لمؤلف، وزهير حميدان ذكره في «أعلام الحضارة» اعتماداً على ذلك، ولم يُذكر في أي من المصادر أو المراجع الأخرى، ولعل سامي حمارنة في فهرس الظاهرية اعتمد على ما ورد في تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، حين علّق على مؤلفات سبط المارديني، فذكر محمد بن إبراهيم المارديني في مؤلفه الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، فقال حمارنة:

«الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية لشمس الدين محمد أبي عبد الله (بدر الدين) محمد بن أحمد سبط المارديني الشافعي الدمشقي (١٤٢٢-١٥٠٦م/٨٢٦-٩١٢هـ)، شرح وتعليق جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني في القرن السابع عشر،

ألّفت برسم خزانة شهاب الدين أحمد بن عيسى صاحب حلب المحروسة».

لكن بالرجوع إلى جمال الدين محمد ابن إبراهيم المارديني نرى أنه عاش بين (٨٣٣هـ/١٤٢٩م-٨٨٦هـ/١٤٨١م) أي في القرن الخامس عشر ميلادي.[٢٤]

- فخر الدين الماريني (٥١٢- ٥٩٤ هـ /١١١٨-١١٩٧م):[٢٥] هو الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر الأنصاري، عربي من أنصار الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كان أوحد زمانه وعلامة وقته في العلوم الحكمية، جيد المعرفة بصناعة الطب، مولده في ماردين وأجداده من القدس، قرأ كتاب القانون لابن سينا على أمين الدولة ابن التلميذ كما قرأ عليه الطب، وأقام فخر الدين بن عبد السلام الماريني في مدينة حيني (في ديار بكر) وكان في خدمة نجم الدين بن أرتق، ثم سافر إلى دمشق ولازمه في مدة إقامته فيها الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي وقرأ عليه الشيخ مهذب الدين بعض كتاب القانون لابن سينا وصححه معه، ولمّا سافر فخر الدين الماريني من دمشق إلى حلب استحضره الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين، وبقي في خدمته نحو سنتين، ثم سافر إلى ماردين، وتوفي في آمد. آثاره متعددة أوقفها بماردين لمشهد حسام الدين أرتق (وهي مفقودة)، منها شرح قصيدة ابن سينا في النفس.

ولم يذكر أي من المصادر والمراجع الرسالة الشهابية، سوى فهرس مخطوطات المكتبة المركزية بجامعة الملك عبد العزيز، عن فهرس مخطوطات صنعاء/ ٥٥٠. حيث تحدّث عن صورة مصورة في المكتبة المركزية، جامعة الملك عبد العزيز برقم (٣٠٩٨): **الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، المؤلف: محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر، فخر الدين الأنصاري** (٥١٢- ٥٩٤هـ/١١١٨-١١٩٧م). تاريخ النسخ ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، الناسخ: حسن علي عبد الرحمن. المخطوطة نسخة مصورة - في ملك عبد الواسع الواسعي ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.[٢٦]

وإنني أستبعد هذا الكتاب لمحمد بن عبد السلام الماريني لسببين:

أولهما: ما ورد ذكره في المخطوط من ترك بعض المعالجات للأطباء، وتكرر ذلك عدة مرات، كما ذكرنا سابقاً، ومعروف أن فخر الدين محمد بن عبد السلام الماريني كان من الأطباء المشهورين والمتميزين كما ورد، ويستبعد أن يحيل لغيره، فقد ذكر في المخطوط مثلاً قوله: «ونترك معالجة ذلك للأطباء».

الثاني: ورد ذكر كتاب «الموجز» لابن النفيس، مرتين في المخطوط، ومعلوم أن ابن النفيس عاش بين (٦٠٧- ٦٨٧هـ/ ١٢١٠-١٢٨٨م)، أي تمَّ تأليف كتاب الموجز بعد وفاة فخر الدين المارديني، وهذا ما يؤكد عدم صحة هذا النسب. إضافة إلى أنه لم تذكر أي من المصادر أو المراجع هذا الكتاب لفخر الدين المارديني.

- ابن نباتة: نسب البباني في «هدية العارفين أسماء المؤلفين» هذا الكتاب أيضاً إلى ابن نباتة، فيقول في ترجمته: «محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن الحسين بن صالح بن علي بن نباتة، جمال الدين أبو بكر الفارقي المعروف بابن نباتة المصري، ولد سنة (٦٨٦هـ/١٢٨٧م) وتوفي بالقاهرة سنة (٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، له من التصانيف: أبرار الأخبار والاكتفاء من تاريخ الخلفاء، تلطيف المزاج من شعر ابن الحجاج... الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، الزهر المنثور سجع المطوق في التراجم..».

وبمتابعة البحث في كتب التراجم مثل الدُّرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، وشذرات الذهب، ومعجم المؤلفين، والأعلام للزركلي، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان، لم يذكر منهم هذا المؤلَف بين مؤلفات ابن نباتة هذا، كما لم تحمل أي نسخة خطية اسمه.[٢٧]

والغريب أن البباني ذاته ذكر في (إيضاح المكنون)، كما سنرى، بقوله: «الشهابية: رسالة في الطب من تأليف جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني المتوفى..»، ويعود هنا فينسبه إلى ابن نباتة.

- جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني:

إنَّ ما يرجح، بل ويؤكد، نسب هذا الكتاب لمؤلفه هذا، ثلاثة أسس:

١- إنَّ الرسالة الشهابية في الصناعة الطبيّة ذكر عنوانها هذا في كل النسخ، التي تعرّفنا عليها وتعد ١٧ نسخة، غير «ميزان الطبيب»، ومنها ١٣ نسخة ذكر في غلافها اسم المؤلف جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني، وهذا دليل كبير على أن هذا المخطوط هو لهذا المؤلف، والبقية لم يذكر فيها اسم المؤلف، وسوف نفصّل ذلك لاحقاً في وصف المخطوطات.

٢- ومن المصادر المتأخرة التي ذكرت كتاب «الرسالة الشهابية» هذا لمؤلفه المارديني، كتاب إيضاح المكنون (وهو ذيل كشف الظنون) للبباني المتوفى سنة (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م)، حيث يقول: «الشهابية: رسالة في الطب لجمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني المتوفى سنة..».[٢٨]

٣- ومما يزيد الثقة بكون الكتاب هو للمارديني، أن هذا الكتاب «الرسالة» قد ذُكر، مع مؤلفه «المارديني»، في عدة أماكن من كتاب «**تسهيل المنافع في الطب والحكمة**، لمؤلفه إبراهيم بن عبد الرحمن الأزرق، من علماء اليمن، المتوفى بعد (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) وبعد وفاة المارديني، وقد نوهنا لذلك سابقاً، والأقوال كانت مطابقة لما ورد في (الرسالة الشهابية للمارديني)؛ منها:

- في الصفحة السابعة قوله: «وقال الماردينـي في الرسالة: اعلم أن الطبيب لا يلزمه إبقاء الشباب على حاله..»
- في الصفحة ١٦٠، «قال المارديني: أمّا بياض الأظفار..».
- في الصفحة:١٦٩ (علاج الجدري والحصبة) قوله: «قال المارديني في الرسالة اعلم أن هذه العلة..».
- في الصفحة ١٨٤، في الحديث عن العشق: «قال المارديني..».
- وردت كلمة (طين القطاط، أو القطقاط) في عدة أماكن من الكتاب، فهذه الكلمة وردت أيضاً في كتاب (تسهيل المنافع) في مكانين ص: ٤٠، ١٤٩، ولم نجد لتلك المرادفة وجوداً في أي من كتب التراث الطبي، فقد تكون مأخوذة أيضاً عن «الرسالة الشهابية»، والله أعلم.

نخلص من ذلك إلى القول بأن الكتاب اسمه «الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية» لمؤلفه جمال الدين محمد بن إبراهيم الماردينـي، وهو ما يغلب ترجيحه، والله أعلم.

وأخيراً وأيّاً كان عنوان المخطوط، وأياً كان مؤلفه، فيبقى من تراثنا العربي الإسلامي الأصيل، الذي يضم بين دفّتيه كنوزاً، توجب علينا استخلاصها، وإظهارها للعالم بحلّة جديدة، فيها الفائدة والمتعة للباحث والقارئ.

النسخ الخطّيّة لكتاب الرسالة الشهابية في الصناعة الطبّيّة

لقد استطعنا أن نحصي عدد النسخ الخطية لكتاب «الرسالة الشهابية في الصناعة الطبّيّة» لمؤلفه جمال الدين محمد ابن إبراهيم الماردينـي، وكان ١٨نسخة موزعة في مكتبات العالم على الشكل التالي:

١- نسخة أوبسالا- السويد، تحمل الرقم (O. Vet 58) وهو الرقم الجديد، والرقم القديم لها (٣٥١)؛ وهي الموسومة باسم (ميزان الطبيب لابن البيطار العشّاب)، عدد أوراقها ٥١ ورقة، لا يوجد تاريخ النسخ واسم الناسخ.[٣٩]

٢- نسخة مكتبة الجامع الكبير الغربية بصنعاء، من دون رقم، بعنوان (الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية)، مجهولة المؤلف، كتبها لنفسه علي بن عبد الله المسوري الملقب بالبوهمي، عدد أوراقها ٢٨ ورقة، مصورة بمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية سنة ١٩٧٤م، (ف٥٨)، (كتاب٣٥٣).[٣٠]

٣- نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، برقم (٧١٤٨)، والمحفوظة في مكتبة الأسد الوطنية، عنوان المخطوط: «الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية»، لمؤلف مجهول، تاريخ النسخ: ١٠٩٢هـ/١٦٨١م، عدد الأوراق (٣٨) ورقة.[٣١]

– نسخة مكتبة برلين بألمانية، تحمل الرقم (٦٣٣٣) Glaser ١٦٠، لم يذكر اسم للمؤلف في هذه النسخة، تاريخ النسخ سنة (١٠٧٦هـ/١٦٦٥م)، بخط علي بن محمد بن عواص المرتضى، عدد أوراقها ١٩ ورقة.[٣٢]

٥- نسخة ثانية من مكتبة برلين برقم (٦٣٣٤) Glass ١٢٦.

صفحة الغلاف كتب عليها: كتاب الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، تأليف الشيخ الأجلّ الأوحد جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني لا يوجد اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، وهذا المخطوط مرمم من مخطوطين حيث الأوراق الأولى بخط مغاير لباقي المخطوط، فيمكننا اعتباره مخطوطين في نسخة واحدة، عدد الأوراق ٣٢ ورقة.[٣٣]

٦- نسخة بغدادلي وهبي أفندي، مكتبة السليمانية بإستانبول، برقم (١٤١٠/١)، كتبت في القرن الحادي عشر هجري، عدد صفحاتها ٨٤ صفحة، صفحة الغلاف كتب عليها في الوجه بالمداد الأسود العريض: رسالة الشهابية في الصناعة الطبية مؤلف المارديني، ثم صفحة غلاف ثانية كتب على وجهها: هذا كتاب الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، مما عني بجمعه وتأليفه الشيخ الأجل الأوحد الأكمل قطب العارفين جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني.[٣٤]

٧- نسخة أخرى بغدادلي وهبي أفندي، في مكتبة السليمانية بإستانبول، برقم (١٤٧٩)، لجمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني، الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، ألفه برسم خزانة شهاب الدين أحمد بن عيسى صاحب حلب، كتبه عبد الدائم بن عبد الله بن أحمد بن خلف الله القادوسي البحيري في ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٣هـ/١٦١٤م.[٣٥]

- نسخة مكتبة ميونخ برقم (Cod. Arab. ٨٣٢): لم يذكر فيها اسم المؤلف، كتبها محمد شلبي الدلجموني المالكي سنة ١١٥٥هـ/١٧٤٢م، عدد أوراقها (٥٣) ورقة ضمن مجموع.(٣٦)

٩- نسخة المتحف العراقي ببغداد، برقم (٢٢٤٣٧-٦): الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، لقطب العارفين جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني من علماء القرن السابع الهجري القرن الثالث عشر الميلادي.(٣٧) أوله:

«.. أما بعد فهذه رسالة في الصناعة الطبية ألفتها بالعناية العالية المؤيدة الجليلة المحترمة من مولانا شهاب الدين أحمد بن عيسى أدام الله دولته». كتبت سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م.

وذكر في حاشية النقشبندي في فهرس مخطوطات الطب والصيدلة في المتحف العراقي «نسبت الرسالة في صفحة العنوان من هذه النسخة للشيخ أحمد ابن رسلان الدمشقي.(٣٨)

وقد ذكر صاحب الذريعة أن المارديني وضعها لشهاب الدين أحمد بن عيسى صاحب جدة وقال: «وكما مبين في ديباجة المخطوطات كذلك». والقول هو تحت الرقم (٢٤٥٢): الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، لقطب العارفين جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني، ألفه باسم شهاب الدين أحمد بن عيسى صاحب جدة، رأيته في مكتبات النجف الأشرف».(٣٩)

١٠- نسخة أخرى في مكتبة المتحف العراقي، برقم (٨٠٣٥-١)، ترقى للقرن الحادي عشر الهجري، وقيل في أولها أن المؤلف من علماء القرن السابع الهجري.(٤٠)

١١- نسخة ثالثة أيضاً برقم (٢٠٦٧) كتبت سنة ١٢١٥هـ/١٨٠٠م.(٤١)

١٢- نسخة بانكبور (في فهرس بانكبور، ٣: ١٢٣): أشار إليها النقشبندي في فهرس مخطوطات المتحف العراقي.(٤٢)

١٣- نسخة النجف الأشرف: في الذريعة تحت رقم (٢٤٥٢).(٤٣)

١٤- نسخة الأزهرية بالقاهرة برقم (٥٩٠) ٥٣٦١، الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية للمارديني؛ وهو جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني.(٤٤)

١٥- نسخة مكتبة غوتا برقم (Ms. Orient A٧٢)، ٢٢ب- ١٥٢أ، ألفت من قبل المارديني؛ الذي هو من الأطباء الذين ذكروا في (Wustenfeld) تحت رقم ١٨٩، وبالرجوع إلى هذا المرجع، وبالاستفسار من مكتبة غوتا مباشرة (Hans stein)، تبين أن المترجَم هو فخر الدين محمد بن عبد السلام

المارديني، وليس جمال الدين محمد ابن إبراهيم، ولم يذكر هذا الكتاب من تأليفه. وذكر في التقديم بأنها كانت بناء على طلب أحمد بن عيسى. وهي نسخة غير كاملة، بل قسم من المخطوط.[٤٥]

١٦- نسخة أمبروزيانا بميلانو برقم ١٦٩، ذكرها بروكلمان.[٤٦]

١٧- صورة مصورة في المكتبة المركزية، جامعة الملك عبد العزيز برقم (٣٠٩٨): الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، المؤلف: محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر، فخر الدين الأنصاري (٥١٢-٥٩٤هـ/١١١٨م-١١٩٧م)[٤٧].

تاريخ النسخ ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، الناسخ: حسن علي عبد الرحمن. المخطوطة نسخة مصورة - في ملك عبد الواسع الواسعي ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.[٤٨]

- نسخة ذكرها الباباني في هدية العارفين (وهو كشف الظنون ج٦) الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية منسوبة إلى ابن نباتة، لم يذكرها أي مصدر أو مرجع آخر، سبق الحديث عنها، وهي غير موجودة.[٤٩]

النسخ المستخدمة في التحقيق

استخدمت في تحقيق هذا الكتاب سبع نسخ خطيّة، اعتمدت على نسخة أوبسالا التي كانت بعنوان (ميزان الطبيب) وقابلت عليها بقية النسخ التي كان عنوانها (الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية) وهي نسخة صنعاء، نسخة الظاهرية، نسختين مختلفتين من برلين، نسخة السليمانية، ونسخة ميونخ.

١- مخطوط مكتبة جامعة أوبسالا - Uppsala رقم O.Vet 58 جديد- ٣٥١ قديم[٥٠]- أوبسالا- السويد:

يقع في ٥١ ورقة، وهو بين صفحتي (١/و) و(٥١/ظ). وكل صفحة تحتوي على ١٩ سطراً، وكل سطر على ٩ كلمات وسطياً، النسخة غير مؤرخة.

المخطوط مصنف باسم كتاب ميزان الطبيب لابن البيطار العشاب،

TRAITE , sur la Balance de la Medecine Par Beitar achab

وبخط حديث مغاير لخط الناسخ.

أوله: «الحمد لله الذي خلق المخلوقات بقدرته، وعلّم الإنسان ما لم يعلم بحكمته..».

وآخره: «.. ثم بعد ذلك يداوم على دهن الشمع مع النيل نافع جداً فاعرف ذلك. تمّ الكتاب بحمد الله ولطفه والحمد لله على كل حال من الأحوال وصلواته على سيدنا محمد وآله خير آل».



صفحة غلاف مخطوط ميزان الطبيب (الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية) نسخة أوبسالا.

٢- مخطوط مكتبة الجامع الكبير الغربية، من دون رقم- صنعاء- اليمن، (مصورة بمعهد المخطوطات جامعة الدول العربية سنة ١٩٧٤م، ف٥٨، كتاب٣٥٣):(٥١)

يقع ضمن مجموعة (الكتاب السابع) في ٢٨ ورقة، طول كل منها ٢٧ سنتيمتراً وعرضها ٢٠ سنتيمتراً، وهو بين صفحتي (١٨٢/و) و(٢٠٨/ظ)، وكل صفحة تحتوي ١٩ سطراً، وكل سطر على ١٦ كلمة وسطياً.

الخط نسخي بقلم حديث، كتبها لنفسه علي بن عبد الله المسوري الملقب بالبوهمي. النسخة غير مؤرّخة، ولم يذكر اسم المؤلف.

المخطوط كتبت عناوينه بالأحمر، وبه آثار رطوبة وترميم.

المخطوط مصنف باسم كتاب الرسالة الشهابية في الصناعة الطبّيّة.

أوله: «الحمد لله الذي خلق المخلوقات بقدرته، وعلّم الإنسان ما لم يعلم بحكمته وبعد، فهذه رسالة مباركة في صناعة الطب....».

وآخره: مبتور، والمبتور منه مقدار بابين، وآخر الموجود منه أثناء الباب الثامن والسبعين؛ قوله: «... المسألة الثالثة عشرة، كم هي أقسام القوى؟ الجواب: ثلاثة... وهي في القلب، وطبيعية وهي في الكبد. المسألة الرابعة عشرة...».

٣- مخطوط المكتبة الظاهرية - محفوظة في مكتبة الأسد الوطنية- رقم ٧١٤٨- دمشق- سورية:

في ٣٨ ورقة، طول كل منها ٢٠ سنتيمتراً وعرضها ١٤،٥ سنتيمتراً، يقع ضمن مجموع بين صفحتي (٤٣/ظ) و(٨٠/و)، وكل صفحة تحتوي على ١٩ سطراً، وكل سطر على ١١ كلمة وسطياً.

وقد تمّ إنجاز النسخ في ٢ ربيع الأول سنة ١٠٩٢هـ/١٦٨١م، ولا يوجد اسم الناسخ، ولا اسم المؤلف.

صنف المخطوط بعنوان الرسالة الشهابية في الصناعة الطبّيّة، ونسب خطأً إلى سبط المارديني.(٥٢)

أولـه: «الحمـد لله الـذي خلـق المخلوقات بقدرته، وعلّم الإنسـان ما لم يعلم بحكمته..».

آخـره: «.. ثـم بعد ذلك يـداوم على دهن الشـمع مثل النيل نافـع جداً فاعرف ذلك، والله سـبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب. تمّت الرسـالة المباركة الشـهابية، بحمد الله تعالى وعونه وحسـن توفيقـه، في ثـاني ربيع الأول سـنة ١٠٩٢، وحسبنا الله ونعم الوكيل».


بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
الحمد لله الذي خلق المخلوقات بقدرته وعلم الانسان ما لم يعلم
بحكمته واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له [illegible] ولا
ند له واشهد ان محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وبعد
فهذه رسالة في الصناعة الطبية الفت برسم الخزانة العالية المولوية
المحتمية خزانة سيدنا ومولانا شهاب الدين احمد ابن عيسى صاحب
حلب المحروسة ادام الله تعالى دولته بالتخليد ما قام دعايم امره بالبقا
والتمجيد وهي تشتمل على نكت ونوادر من المعالجات مع الايجاز
والاختصار وهي من اقوال المتقدمين والمشهورين من الاطبا المتاخرين
وسميتها بالرسالة الشهابية في الصناعة الطبية وفهرست ابوابها
ثمانون بابا الباب الاول في معرفة حفظ صحة الانسان في
حال الصحة الباب الثاني في صحة مداوات الشعر وامراض
اعلم الباب الثالث في مداوات الصداع وانواعه في الاشيا
النافعة للدماغ الباب الرابع في علاج الشقيقة الباب
الخامس في علاج النسيان وقلة الحفظ وذكر الاشيا الباب
السادس في علاج المالنخوليا الباب السابع في مداوات
العشق الباب الثامن في علاج النوم المفرط الباب
التاسع في علاج السهر المفرط الباب العاشر في علاج
السدر والدوار الباب الحادي عشر في علاج الكابوس

الصفحة الأولى من مخطوط الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية نسخة الظاهرية ٧١٤٨.

٤- مخطـوط مكتبة برلـين - رقم ٦٣٣٣ Glaser 160 - ألمانية:(٥٣)

يقـع ضـمن مجمـوع في ١٩ ورقة، بين صـفحتي (٢٤/ظ) و(٤١/ظ)، وكل صفحة تحتوي على ٣٥ سـطراً، وكل سطر على ١٧ كلمة وسطياً.

وقد تمَّ إنجاز النسـخ وقت الضحى في يوم الاثنين ٩ جمادى الأولى سـنة ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م، مـن قبَل علي بن محمد بن عواص المرتضى.

صنف المخطوط باسم الرسالة الشهابية في الصنـاعة الطبيـة، ولا يوجـد اسـم للمؤلف.

أولـه: «الحمد لله الذي خلق المخلوقات بقدرتـه، وعلّـم الإنسان مـا لم يعلـم بحكمته...».

وآخره: «.. ثم بعد ذلك يداوم على دهن الشـمع ومثل النيل نافع جداً إن شـاء الله تعالى. تمّ الكتـاب بحمد الله ومنّه وتوفيقه وحسـن رعايتـه، والحمـد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطنـاً، والحمد لله على كل حال وحده».

٥- مخطوط مكتبة برلين - رقم ٦٣٣٤ Glaser 126- ألمانية:[٥٤]

في ٣٢ ورقة، طول كل منها ١٦ سنتيمتراً وعرضها ١٠ سنتيمترات، يقع بين صفحتي (١/و) و(٣٢/ظ)، وكل صفحة تحتوي على ٢٧ سطراً، وكل سطر يحتوي على ١٤ كلمة وسطياً، وذلك في الصفحات الثلاث الأولى، ثم باقي الصفحات تحتوي كل صفحة منها على ١٧ سطراً، وكل سطر يحتوي على ٩ كلمات وسطياً.

النسخة غير مؤرخة، ولا يوجد اسم الناسخ.

المخطوط مصنف، بخط الناسخ، بعنوان الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية تأليف الشيخ الأجلّ الأوحد جمال الدين محمد بن إبراهيم الماردينى. لذلك تعتبر هذه النسخة من النسخ ذات الأهمية.

أولــه: «الحمد لله الذي خلق المخلوقات بقدرته وعلم الإنسان ما لم يعلم بحكمته..».

وآخره: «.. الشعير بارد رطب وطبيخه نافع من الحميات الحارة بلا سكر والباردة مع السكر».

٦- مخطوط مكتبة بغدادلي وهبي أفندي - رقم ١٤١٠/١- السليمانية- إستانبول- تركيا:[٥٥]

ضمن مجموع، في ٨٤ صفحة و٤٢ ورقة، فهو مرقم بالأوراق والصفحات، طول كل منها ١٩.٧ سنتيمتراً وعرضها ١٤.٣ سنتيمتراً، بين صفحتي (١) و(٨٤) أو (ما قبل الصفحة الأولى) و(٤٢/و)، وطول المساحة المكتوبة ١٥ سنتيمتراً وعرضها ٨.٤ سنتيمتراً، وكل صفحة تحتوي على ٢١ سطراً، وكل سطر على ١٠ كلمات وسطياً.

النسخة غير مؤرخة، ولعل تاريخ النسخ يعود للقرن الحادي عشر هجري/ السابع عشر ميلادي - حسب تقدير فهرس مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا-، ولا يوجد اسم الناسخ.

وهي نسخة كاملة، ومن النسخ المهمة لأنها تحمل اسم المخطوط واسم المؤلف.

صنف المخطوط باسم كتاب الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية، مما عني بجمعه وتأليفه الشيخ الأجل الأوحد الأكمل قطب العارفين جمال الدين محمد بن إبراهيم الماردينى.

أولـه: «الحمد لله الذي خلق المخلوقات بقدرته، وعلم الإنسان ما لم يعلم بحكمته..».

وآخره: «.. ثم بعد ذلك يداوم على دهن الشمع مثل النيل نافع جداً فاعرف ذلك والله سبحانه أعلم وأحكم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».


صفحة غلاف الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية نسخة بغدادلي وهبي ١٤١٠.

٧- مخطوط مكتبة ميونخ- رقم Cod. Arab. 832- ميونخ- ألمانية:(٥١)

ضمن مجموع في ٢٩ ورقة، طول كل منها ٢٠ سنتيمتراً وعرضها ١٤،٥ سنتيمتراً، يقع بين صفحتي (٢٤/ظ) و(٥٣/ظ). وكل صفحة تحتوي على ٢٣ سطراً، وكل سطر على ١٠ كلمات وسطياً.

تمَّ إنجاز النسخ يوم الأربعاء ١٣ صفر سنة ١١٥٥هـ (١٨ نيسان سنة ١٧٤٢م)، على يد محمد شلبي الدلجموني المالكي.

أوله: «الحمد لله الذي خلق المخلوقات بقدرتـه، وعلـم الإنسـان ما لم يكـن يعلم بحكمته..».

وآخره: «يقرص أقراص في الظل يصير أفيـون رومي مجـرّب صـحيح، والله أعلم وأحكم. تم الكتاب المبارك يوم الأربع المبارك لثلاثة عشر خلت من صفر سنة ١١٥٥ على يد كاتبـه الفقير محمد شـلبي الدلجموني المالكـي، غفر الله له ولوالديه وللمسـلمين والمسلمات آمين».

• • •

الهوامش

١- المارداني: نسبة إلى جامع ماردان بالقاهرة، ويقال المارديني نسبة إلى أصوله المهاجرة من مدينة ماردين شمالي سورية. (أعلام الحضارة، ٤: ٣٠٦).

٢- هو عبد الله بن خليل، وسنورد التعريف به لاحقاً.

٣- أخوه عبد الرحمن سنورد التعريف به لاحقاً. ويقصد بالماضيين: أي الذين مضت ترجمتهم عنده.

٤- بالرجوع إلى شيوخ السخاوي تبين أنه ابن حجر العسقلاني، وسوف ترد ترجمته لاحقاً.

٥- العلاء القلقشندي: هو علي بن أحمد بن إسماعيل بن علي، العلاء أبو الفتوح، ابن القطب القرشي، القلقشندي الأصل، القاهري. وسوف ترد ترجمته لاحقاً.

٦- أي ترك حضور الدروس عند الشيوخ، وبدأ يهتم باختصاصه والمتفوق به في علم الميقات وما شابهه من العلوم، ودرّسه لتلاميذه.

٧- التجريدة: جماعة من الجند.

٨- السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٦: ٢٥٥.

٩- كشف الظنون، ٤: ٤٣.

١٠- الضوء اللامع، ١: ٧١.

١١- الضوء اللامع، ٤: ٤٣.

١٢- معرب زه وهي مسطارة البنائين التي يقال لها القانون باليونانية. وقيل خيط البناء، وقال الأصمعي لا أدري أعربي هو أم معرب. فكما أنه يقوم البناء به كذلك الزيج يقوم به الكواكب ويعدلها. (كشف الظنون، ٢: ١٧).

١٣- الضوء اللامع، ٥: ١٩. كشف الظنون، ٥: ٣٨٢. أعلام الحضارة، ٤: ٥٨. شذرات الذهب، ٩: ١٢٥. الأعلام، ٤: ٨٥. معجم المؤلفين، ٢: ٢٤١.

١٤- الضوء اللامع، ٩: ٣٥. كشف الظنون، ٦:

١٥- شذرات الذهب، ١٠: ٢٣.

١٦- شذرات الذهب، ٩: ٣٩٥. الأعلام، ١: ١٧٨.

١٧- شذرات الذهب، ٩: ٤٢٢. الضوء اللامع، ٥: ١٦١.

١٨- الأزرق، إبراهيم بن عبد الرحمن، تسهيل المنافع، ص: ٧، ١٦٠، ١٦٩، ١٨٤.

١٩- Ahlwardt catalogue. p: ٥٨٣، فهرس مخطوطات مكتبة برلين. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ١: ٢٥١، ٢: ٢٩٧. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٣/٤: ١٢٣٢.

٢٠- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٦٠١. السيوطي، حسن المحاضرة، ١: ٥٤٢. زهير حميدان، أعلام الحضارة، ٥: ٢٨٦. الأعلام للزركلي، ٤: ٦٧.

Brocklmann 1: ٦٤٨. أعلام الحضارة لزهير حميدان، ٥: ٢٩٢. فهرس المخطوطات المصورة بالكويت لهيا الدوسري، ص: ٢٣١. لولح، علاء الدين، وموالدي، مصطفى، «دراسة لمخطوطات ابن البيطار في المكتبات العالمية»، مجلة تاريخ العلوم العربية بمعهد التراث بحلب، م١٣، ع ١، ٢، عام ٢٠٠٥م، ص:١٠٠.

٢١- أاطريلال: اسم بربري وتأويله رجل الطائر أوله ألفان الأولى منهما مهموزة ممدودة... وهذا النبت يعرف بالديار المصرية برجل الغراب. (ابن البيطار، الجامع، ١: ٦. معجم النبات: ١٨/٤٠. فهرس المخطوطات في مكتبة سامي حداد، ص: ٨٧).

٢٢- مجلة تاريخ العلوم العربية المذكورة سابقاً. الجامع، ١: ٦. ٢: ٤٦. الورقة ١٠٤ من كتاب «المغني في الأدوية المفردة» نسخة مكتبة سامي حداد. فهرس مخطوطات مكتبة سامي حداد، ص: ٨٧. ينظر الأبواب: ٢٩، ٦٧، ٧٩ من كتاب الرسالة الشهابية في الصناعة الطبية.

٢٣- هو ابن عمة محمد بن إبراهيم المارديني، وقد وردت ترجمته.

٢٤- حمارنة، سامي، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية الطب والصيدلة، ص: ٤٨٢-٤٨٤. (٤٩: ط م) (الرقم القديم ٧١٤٨)، ضمن مجموع.. د-. أعلام الحضارة، ٤: ٣٠٦. كشف الظنون، ٦: ١٧٤. الضوء اللامع، ٩: ٣٥. معجم المؤلفين، ٣: ٦٢٤. الأعلام ٤: ٨٥، ٧: ٥٤. شذرات الذهب، ٩: ١٢٥.
Brockelmann 2: 166-167. suppl. 2: 215-216.

٢٥- عيون الأنباء ص ٤٠٢-٤٠٣. كشف الظنون، ٤: ١٦١، ٦: ٨٣. الأعلام، ٦: ٢٠٥. معجم المؤلفين، ٣: ٤١٢. أعلام الحضارة، ٤: ٢٤٧.

٢٦- افحيل، محمد يحيى أحمد، فهرس المخطوطات الموجودة بالمكتبة المركزية، جامعة الملك عبد العزيز، إعداد سنة ١٩٩٧م، ج١٢، ص: ١٣٩، رقم ٤٥٢٨.

٢٧- هدية العارفين (كشف الظنون)، ٤: ٤٣، ٦: ١٣١. الدرر الكامنة، ٤: ٣٣٩. شذرات الذهب، ٨: ٣٦٤. الأعلام، ٧: ٣٨. معجم المؤلفين، ٣: ٦٧٦.
Brockelmann 2: 10-12. suppl. 2: 47.

٢٨- كشف الظنون، ٤: ٤٣. Brockelmann 2: 168. suppl 2: 216

٢٩- سبق ذكر المراجع لها.

٣٠- الخطاط، قاسم، فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة. ج٢، ص: ١٠٢.

٣١- نسبت في فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية الطب والصيدلة، ص: ٤٨٢-٤٨٤. (٤٩: ط م) (الرقم القديم ٧١٤٨)، إلى سبط المارديني، وقد نفينا ذلك سابقاً. بروكلمن ملحق ٢: ٢١٥-٢١٦. أعلام الحضارة لزهير حميدان، ٤: ٣٠٦.

كشف الظنون، ٦: ١٧٤. الضوء اللامع للسخاوي، ٩: ٣٥. معجم المؤلفين، ٣: ٦٢٤، الأعلام، ٧: ٥٤، ٤: ٨٥. شذرات الذهب، ٩: ١٢٥. أعلام الحضارة، ٤: ٣٠٦. Brockelmann ٢: ١٦٦-١٦٧. suppl.٢: ٢١٥-٢١٦.

٣٢- Ahlwardt catalogue, p: ٥٨٣.

٣٣- Ahlwardt catalogue, p: ٥٨٣، فهرس مخطوطات مكتبة برلين.

٣٤- ششن، رمضان، فهرس مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا، ص: ٣٣٩.

٣٥- المرجع السابق، ص: ٣٣٩.

٣٦- Brockelmann suppl.2, p216. فهرس ميونخ Josef Aumer, Catalogus codicum manuscriptorum Bibliothecae Regiae Monacensis, T.1m2, p: 365-366.

٣٧- كذا في فهرس مخطوطات الطب والصيدلة في مكتبة المتحف العراقي لأسامة نقشبندي، ص: ٣٣٩، بينما جمال الدين محمد بن إبراهيم المارديني عاش بين (٨٣٣-٨٨٦هـ/١٤٢٩-١٤٨١م) أي في القرن التاسع (السخاوي، الضوء اللامع: ٦: ٢٥٥).

٣٨- لم نعثر بنتيجة البحث على هذا الاسم في كتب التراجم.

٣٩- نقشبندي، فهرس مخطوطات الطب والصيدلة في المتحف العراقي، ص: ١٥١، تحت الرقم (٢٩٥). الطهراني، أقابرزك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ١٤: ٢٥٦.

٤٠- نقشبندي، فهرس مخطوطات الطب في المتحف العراقي، ص: ١٥٢. لكن محمد بن إبراهيم المارديني عاش في القرن التاسع الهجري.

٤١- المرجع السابق: ١٥٢.

٤٢- المرجع السابق، ١٥١.

٤٣- المرجع السابق، ١٥١. الطهراني: الذريعة، ١٤: ٢٥٦. ولا ندري إذا كانت هذه النسخة هي نسخة مكتبة المتحف العراقي السابقة الذكر.

٤٤- كتاب المكتبة الأزهرية، مطبعة الأزهر ١٩٥٠م، ج٦ ص: ١١٤.

٤٥- Brocklmann suppl 2: ٢١٦. فهرس المخطوطات العربية في مكتبة غوتا في ألمانية الشرقية، م١، يصدرها فؤاد سيزكين ١٩٨٧م، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت- جمهورية ألمانية الاتحادية، ص: ١٣٤. Geschichte der Arabischen Aerzte und Naturforscher. Nach den Quellen bearbitet von Ferdinand Wustenfeld. Georg Olmas ١٩٧٨ Verlag Hildesheim. New York, p: 104, No: 189.

٤٦- Brocklmann suppl 2: ٢١٦.

٤٧- سبقت ترجمته.

٤٨- افحيل، محمد يحيى أحمد، فهرس المخطوطات الموجودة بالمكتبة المركزية، جامعة الملك عبد العزيز، إعداد سنة ١٩٩٧م، ج١٢، ص: ١٣٩، رقم ٤٥٢٨.

٤٩- كشف الظنون، ٤: ٤٣، ٦: ١٣١. الدرر الكامنة، ٤: ٣٣٩. شذرات الذهب، ٨: ٣٦٤. الأعلام للزركلي، ٧: ٣٨. معجم المؤلفين، ٣: ٦٧٦. Brockelmann 2: ١٠-١٢. suppl ٢: ٤٧.

٥٠- كذا وردنا بالاستفسار من مكتبة أوبسالا، وسبق التنويه لذلك.

٥١- الخطاط، فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة، ج٣، ص: ١٠٢.

٥٢- حمارنة، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية الطب والصيدلة، ص: ٤٨٢-٤٨٤. (٤٩: ط م) (الرقم القديم ٧١٤٨). بروكلمان، ملحق ٢: ٢١٥-٢١٦.

٥٣- Ahlwardt catalogue, p: 583، فهرس مخطوطات مكتبة برلين.

٥٤- Ahlwardt catalogue, p: 583، فهرس مخطوطات مكتبة برلين.

٥٥- شثن، رمضان، فهرس مخطوطات الطب الإسلامي، ص: ٣٣٩.
. Brocklmann 2: 167. suppl. 2: 216

56-Brockelmann suppl.2, p216
Josef Aumer, Catalogus codicum manuscriptorum Bibliothecae Regiae Monacensis, T.1m2, p: 365- 366

المصادر والمراجع

١- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٩٦٥م.

٢- ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٩٩٢م. مجلدان.

٣- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (المتوفى سنة ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ١٩٩٣م. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، (١١ مجلد).

٤- الأزرق، إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي أبكر: تسهيل المنافع في الطب والحكمة، مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٤٨م.

٥- أفحيل، محمد يحيى أحمد: فهرس المخطوطات الموجودة بالمكتبة المركزية، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٩٧م.

٦- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الحلبي والمعروف بحاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ٦ مجلدات، دار الفكر، بيروت- لبنان ١٩٩٢م.

المجلدان الثالث والرابع هما (إيضاح المكنون للبغدادي)، والمجلدان الخامس والسادس هما (هدية العارفين أسماء المؤلفين للبغدادي).
٧- حداد، فريد سامي، وبيترفيلد، هانس هيزش، فهرس المخطوطات الطبية العربية في مكتبة الدكتور سامي إبراهيم حداد، منشورات جامعة حلب- معهد التراث العلمي العربي، ١٩٨٤م.
٨- حمارنة، سامي خلف: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، الطب والصيدلة، دمشق ١٩٦٩م.
٩- الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م، ٧ مجلدات.
١٠- حميدان، زهير: أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩٥م، ٦مجلدات.
١١- الخطاط، قاسم: فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة.
١٢- الدوسري، هيا: فهرس المخطوطات الطبية المصورة بقسم التراث العربي، إصدار قسم التراث العربي بالمجلس الوطني للثقافة والآداب بالكويت، ١٩٨٤م.
١٣- الزركلي، خير الدين: الأعلام، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٩م، دار العلم للملايين بيروت. ٩ مجلدات.
١٤- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (٨٣١- ٩٠٢هـ/١٤٢٧-١٤٩٦م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة- بيروت.
١٥- سزكين، فؤاد: فهرس المخطوطات العربية في مكتبة غوتا في ألمانيا الشرقية، ١٩٨٧م، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت- جمهورية ألمانيا الاتحادية.
١٦- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٧م.
١٧- شَشن، رمضان، وآقيكار جميل، وايزكي جواد، فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا، إشراف أكمل الدين إحسان أوغلي، ١٤٠٤- ١٩٨٤م.
١٨- الطهراني، آقابزرك: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، الطبعة الثانية، بيروت، دار الأضواء.
١٩- العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن حجر، (توفي ٨٥٢هـ/١٤٤٨م): الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، حققه محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٦م.
٢٠- عيسى، أحمد، معجم أسماء النبات، دار الرائد العربي، ١٩٨١م.
٢١- كتاب المكتبة الأزهرية، مطبعة الأزهر ١٩٥٠م.
٢٢- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣م، (٤ مجلدات).
٢٣- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، حققه سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب بالقاهرة، ١٩٧٣م.

٢٤- موالدي، مصطفى. لولح، علاء الدين: «دراسة لمخطوطات ابن البيطار في المكتبات العالمية»، مجلة تاريخ العلوم العربية، جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، م ١٣ ع ١-٢، ٢٠٠٥م.

٢٥- نقشبندي، أسامة ناصر: فهرس مخطوطات الطب والصيدلة والبيطرة في مكتبة المتحف العراقي.

26- AHLWARDT (W.), verzeichniss der Arabischen Handschriften der koniglichen Bibliothek zu Berlin, A. Asher & C, Berlin 1893.

27- BROCKELMANN (C.), *GESCHTE DER ARABISCHEN LITTERATUR*, Leiden, GI (1943), SI (1937).

28- JOSEF AUMER, Catalogus codicum manuscriptorum Bibliothecae Regiae Monacensis.

29- WUSTENFELD, Ferdinand: der Arabischen Aerzte und Naturforscher. Nach den Quellen bearbitet von. 1978 Georg Olmas Verlag Hildesheim. New York.

السمات الشخصية لدى التوائم

د. سلوى مرتضى ✿



يعيشان معًا في رحم واحد قد يتشابهان، وقد يختلفان، وقد يزيد عددهما عن اثنين،قد يكونان ذكراً وأنثى، وربما ذكرين أو أنثيين أو ما اشتملت عليه الأرحام من الذكور والإناث، وعندما يخرجان للحياة ولاسيما إذا كانا من النوع المتماثل فإنَّهما يلفتان النظر ويكونان محط أنظار الجميع.

هما التوءم اللذان أذهلا الناس لقرون عدّة،حيث كثرت الدراسات التي قارنت بين التوائم المتماثلة وغير المتماثلة، والتي سجلت اختلافاً في الطباع والشخصية ولاسيما عند التوائم غير المتماثلة فعلى الرغم من أنهما خلقا معاً إلا أنَّ كل طفل ينشأ من بيضة ملقحة منفصلة عن الأخرى فيختلفان في جميع السمات الجسمية والنفسية والعقلية والاجتماعية على عكس التوائم المتماثلة والتي يكون من الصعب التمييز بينهما

✿ رئيسة قسم تربية الطفل في كلية التربية-جامعة دمشق.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

أحياناً ويكونان حتما من الجنس نفسه، فما سر هذا التشابه؟ هل البيئة أم الوراثة التي تؤثر أكثر في التوءم لتجعلهما مختلفين أو متشابهين في الشخصية.

إنَّ وجود توءم في الأسرة معناه مضاعفة مسؤولية الوالدين، بسبب وجود ضرورة حتمية للعمل التربوي المزدوج، فكل ما تقوم به الأسرة لابد أن تقوم به لطفلين، فالتغذية لطفلين والعناية بالنظافة لطفلين.....إلخ ويجب أن نتذكر دائماً أن التوءم ليس وحيداً فهو يعيش مع أخ أو أخت، فإذا نادينا أحدهما يحضران سوية ربما لشعورهم بالتضامن القوي، فعالم التوائم مليء بالأسرار التي تثير الكثير من التساؤلات، والكثير من علامات الاستفهام.

مفهوم الشخصية:

البعض يقول: هذه شخصية قوية وأخرى جذابة وأخرى منفردة وعندما نستعرض الملحوظ بين الناس حول مفهوم الشخصية نجد تعريفات جزئية، ففي الجانب الجسمي الشخصية هي ذلك الرجل الطويل العريض، وفي الجانب العقلي الشخصية هي الشخص الذكي، وفي الجانب الاجتماعي الشخصية هي الشخص الذي له علاقات اجتماعية وقدرة على حل المشاكل بين الناس، وفي الجانب الانفعالي الشخصية هي الشخص المتزن الثابت – الهادئ انفعالياً ولكن حقيقة الأمر الشخصية ليست مجزأة، وإنّما هي كل متكامل.

وقد وجد هذا المفهوم لدى بعض علماء النفس، وعدّوا الشخصية هي المظهر الخارجي للفرد كما يتمثل في سلوكه الظاهري، ثم نظر آخرون إلى جوهر الشخصية، فتحدثوا عن الأعماق في النفس البشرية، ثم جاء ألبورت وجمع خمسين تعريفاً للشخصية من الفلاسفة وعلماء النفس ورجال الدين في أوروبة وصنفها في تصنيفين:

الأول: تصنيف داخلي يتمثل بتعريف مورتن برنس الذي يعد الشخصية هي: الكمية الكلية من الاستعدادات والميول والغرائز والواقع والقوى البيولوجية الفطرية والموروثة وكذلك الصفات والاستعدادات والميول المكتسبة من الخبرة.

الثاني: تصنيف خارجي يتمثل بتعريف واطسن للشخصية بأنّها جميع أنواع النشاط الملحوظ عند الفرد عن طريق ملاحظته ملاحظة فعلية خارجية لفترة طويلة من الزمن تسمح لنا بالتعرف عليه.

إنّ هذين التعريفين قاصران لأنهما يصوران جانباً واحداً من الشخصية ولا

يندمج أحدهما في الآخر فالأوّل خارجي يهتم بالسلوك الناتج عن الفرد كما يراه غيره والثاني يهتم بالمكونات الداخلية للفرد التي توجهه وتحدد سلوكه، ومن التعاريف التي تجمع الاتجاهين مايلي:

يعرف مكنون الشخصية: بأنّها التنظيم الثابت لحد ما لخلق الفرد وصفاته المزاجية وصفاته الجسمية، حيث تتحدد باندماجها توافقه مع البيئة.

السمات الشخصية

السمات إمّا أن تتوقف على عوامل وراثية مثل الجهاز العصبي. إلخ، وهي لا تحتاج إلى تعليم أو تدريب،وإمّا أن تكون السمات مكتسبة متعلمة عن طريق الارتباط الشرطي والتعميم والتدعيم والتوحيد والتقليد... إلخ، والسمات وحدات أساسية في تنظيم الشخصية لا نستطيع رؤيتها ولكن نستنتج وجودها من خلال السلوك، ومن النادر أن يشك أي فرد في وجود السمات كوحدات جوهرية في بناء الشخصية. فالكلام العام والإدراك الشائع يحمل في طياته ذلك ضمنياً.

وبما أنّ السمات هي جملة الصفات الجسمية والعقلية والانفعالية التي تميز الشخص عن غيره فيقصد بهذه الصفات ما يلي:

١- **السمات الجسمية**: وهي التي تتعلق بالشكل العام، الصحة، الجمال، القامة، الصوت، سلامة الحواس، الرشاقة وسرعة الحركة، المظهر العام للشخص وغير ذلك مما يلزم في أوجه النشاط الوظيفية.

٢- **السمات العقلية**: ويقصد بها الوظائف العقلية كالذكاء العام، والقدرات العقلية الخاصة، والمعارف المهنية، وفكرة الفرد عن نفسه، وفكرة الفرد عن الآخرين، ونظرة الفرد وإدراكه للواقع المحيط به إلا أنّ أغلب العلماء يرون الانصراف عن الحكم على الشخصية.

٣- **السمات النفسية**: ويقصد بها السمات التي تتضمن أساليب النشاط المتعلقة بالانفعالات المختلفة مثال الحالة المزاجية، والثبات والاستقرار الانفعالي، وضبط النفس، وسرعة التهيّج، والاندفاعية...إلخ، وترتبط بعض هذه السمات ارتباطًا وثيقًا بتكوين الجهاز العصبي والغدد بينما يتأثر البعض الآخر بعملية التطبيع الاجتماعي للفرد كمستوى القلق والخوف والعدوان، والندم... وكذلك الرغبات والميول والاتجاهات والعواطف والمعتقدات والقيم

والمبادئ... إلخ، وقد تكون هذه السمات شعورية أو لا شعورية.

٤- السمات الاجتماعية: أما هذه الطائفة من السمات فتمثل الحساسية للمشكلات، والاشتراك في النشاط الاجتماعي، وموقف الفرد من القيم الاجتماعية، وميل الفرد إلى السيطرة أو الخضوع، التعاون أو التزاحم، المسالمة أو العدوان، الاكتفاء الذاتي أو الاعتماد على الغير... وكذلك الصدق، والكذب، والأمانة، والغدر، والخداع...

السمات الشخصية للتوءم:

سجلت كثير من الدراسات بعضاً من الملاحظات على حياة التوائم المتطابقة فهما يحبان الأشياء نفسها، وهوايتهما واحدة ونسبة ذكائهما واحدة، يقسمان كل شيء بينهما بالتساوي، ويفهمان بعمق ويجيدان التحدث بالعيون حيث يفهمان بعضهما من دون كلام، وإذا مرض أحدهما يصاب الآخر بالاكتئاب حتى يشفى توءمه، وإذا سقط أحدهما لأي سبب فإنَّ الآخر ربما سرعان مايتجاوب معه بالسقوط مغشياً عليه لأي سبب.

إذن، فما السر في التشابه الكبير بين التوائم المتطابقة عموماً؟ إنَّ التوائم المتطابقة (المتماثلة والمتشابهة) تنشأ من خلية واحدة هي البويضة المخصّبة التي أساس تكوينها حيوان منوي واحد وبويضة واحدة وبالتالي فإنَّ أساس المادة الوراثية واحد فعند الانقسام الأوّل أو الثاني للبويضة المخصّبة ينتج عن ذلك خلايا مستنسخة وهي صورة طبق الأصل عن البويضة المخصّبة ومن هنا يمكن اعتبار حالة التوائم المتماثلة صورة من صور الاستنساخ بطريقة فصل الخلايا وهي طريقة قد تمَّ تطبيقها في حالات بشرية ونجحت حيث نتج عنها أنة متماثلة، لكن السؤال يبقى حول (الخواطر) والتطابق في (السلوك) هل هو مرتبط بالناحية الوراثية أم أنَّ للبيئة والمجتمع دوراً في توجيه السلوك وتغيره؟

منذ فترة طويلة والدراسات والأبحاث تدور حول سلوك التوائم المتماثلة وأشهر دراسة عملت ما قام به عالم النفس توماس ج بوشارد في جامعة مينسوتا في الثمانينيات لمعرفة تأثير كل من الجينات والبيئات على سلوك التوائم المتشابهة التي تم عزلها عن بعضها ومن أغرب الحالات التي سجلها حالة التوائم أوسكار ستور وجاك يوف.

ولد الشقيقان في ترينداد من أب يهودي وأم مسيحية ألمانية وبعد طلاق وانفصال أبويهما وذلك بعد ولادتهما مباشرة تفرق

على أثره التوءمان وانتقل أوسكار إلى ألمانيا مع والدته حيث نشأ هناك على الدين المسيحي الكاثوليكي وأصبح نازياً متعصباً وعضواً في الشبيبة الهتلرية بينما ظل جاك في مدينته التي ولد فيها حيث تبنته عائلة يهودية وانتقل معها إلى أمريكا، وكان يدين بالديانة اليهودية، ولم يلتق الشقيقان إلّا في مختبر أبحاث جامعة مينسوتا ولكل منهما لغته المختلفة عن الآخر.

كما أنّ هناك دراسة علمية في معهد علم النفس العام والمعهد التربوي في روسيا تؤكد أن المؤشرات الأساسية للنشاط البيوكهربائي لدماغ التوائم المتشابهة تكون متشابهة بعكس الحال في التوائم الأخوية حيث تكون متباينة.

والعلماء مع أنهم يؤكدون على أن تكوين الجهاز العصبي للتوائم المتماثلة يكون متشابهاً في مواصفاته إلا أن تأثير الظروف البيئية المحيطة بكل توءم تؤخذ في الاعتبار وذلك ما أشارت إليه دراسة مينسوتا لأسر التوائم تحت عنوان (ما هي الأمور التي تربط التوائم بالعلوم) حيث ركزت الدراسة على التوائم المتشابهة وأسرهم ومن خلال هذه الدراسة تمّ توضيح كيفية تفاعل الجينات والبيئة من أجل التأثير على الشخصية ونقاط القوة والضعف والقيم).

هناك الكثير من الأشياء المشتركة بين التوءمين بدءاً من الحيز المشترك الذي كانا يشغلانه في مرحلة كونهما أجنة إلى مراحل التغيرات الشعورية والجسمية التي شهدا تطورها عليهما سوياً، ولكن على الرغم من ذلك تبدو في سماتهما الشخصية وهي:

- **دور الوالدين:** عادة مايقوم الوالدان بتقسيم العمل الناشئ عن رعاية التوءمين ونظراً لارتباط التوءم بأبيه أو أمه فإنه يكتسب منهما بعض السمات الشخصية غير الوراثية، ومن هنا تنشأ بعض الاختلافات بين شخصيتي التوءم وتعزى أساساً إلى اختلاف سمات شخصية والديهما.

- **المنافسة بين التوءم:** تكون ملابس التوءم بلون وشكل واحد أو يقوم الناس بتشجيعهما على القيام بأشياء متماثلة، وهذا من شأنه أن يجعلهما يميلان إلى التفرد ومحاولة التميز عن بعضهما بعضاً ومن هنا تبرز المنافسة بين التوائم مبكراً ولتفادي المنافسة يختار التوءمان هوايات أو اهتمامات مختلفة لأنّ هذا التنافس يوجد الاحتكاكات غير المحبذة بينهما، وتظهر روح المنافسة أكثر في المدرسة وبسبب ذلك يوصي التربويون بفصل التوءم عن بعضهما حتى لا تتطور هذه الروح وتصبح نوع من الكراهية بينهما، إضافة إلى ما يسببه تشابههما

من ارتباك وحيرة للمعلمين ولزملائهما، ويمكن أن يتطور الأمر إلى تبني أنماط من سلوكيات الغش والمخادعة مستفيدين من هذا التشابه.

مفهوم الحمل التوءمي:

إنَّ تعدد المواليد (تعدد الأجنة) مرتبط بتعدد البويضات التي تفرز من المبيض، وبعدد هذه البويضات يكون عدد الأجنة المتكونة حيث يتم إخصاب كل بويضة بحيوان منوي وتتحرك هذه البويضات المخصّبة إلى أن تصل إلى الرحم حيث إنها تتوزع على جدار الرحم بانتظار التلقيح وعلى مسافات متساوية عن بعضها، وعندما تضع المرأة أكثر من جنين (مولود) خلال فترة حمل واحد فإنَّ هذه الظاهرة تعرف بالحمل التوءمي.

نسبة حدوث الحمل التوءمي:

إنَّ نسبة حدوث التوائم في بريطانيا ١/٨٧ تقريباً للثنائي، وللثلاثي ١/٨٧، وللرباعي ١/٨٧، وهذه الأرقام تتغير لأسباب مختلفة منها تناول محرضات الإباضة، وجغرافياً في نيجيريا تزداد حوالي ١٠,١٪ حمول متعددة الأجنة وعرقيا، تكون النسبة أعلى لدى الزنوج في التوائم غير الحقيقية وفي اليابان تقل تلك النسبة.

تزداد النسبة للتوءم غير الحقيقي بعد الحمل الثاني وبتقدم عمر الأم، وبانخفاض المستوى الاجتماعي، وبحدوث قصة عائلية للحمل التوءمي لاعتقاد وجود وراثة مقهورة لتوريث كل ذلك في التوءم غير الحقيقي،وبعد التوقف عن استخدام الحبوب مانعة الحمل وذلك بعد استخدامها لأكثر من ٦أشهر،كما تزداد نسبة التوءم السيامي (الملتصق) في جنوب أفريقيا.

العوامل التي تساعد على حدوث الحمل التوءمي:

١- إن من أهم العوامل التي تساعد على الحمل بتوءم هو استعمال الأدوية والعقاقير المنشطة للمبيض، خاصة في حالات العقم التي يتم فيها استعمال الأدوية لتحريض المبيض على إنتاج أكثر من بويضة في الدورة الواحدة.

٢- هناك أيضاً عامل الوراثة حيث ثبت أن الفتيات يرثن القدرة على ولادة توائم من أمهاتهن، حيث نجد بعض العائلات تكثر فيها ولادة التوائم أكثر من غيرها، والسيدة التي سبق وأن أنجبت توءماً تكون عرضة للحمل بتوءم آخر.

٣- كما أن سن المرأة له دور أيضاً حيث يكثر في النساء مابين ٣٥- ٣٩ سنة.

٤- ومن الغريب أنَّ بعض الباحثين قد وجدوا علاقة بين طول ووزن المرأة وولادة التوائم فكلما ازداد طول المرأة أو وزنها ازداد احتمال حدوث حالة حمل توائم غير متشابهة.

٥- ويحدث إنجاب التوائم أيضاً في حالات أطفال الأنابيب بكثرة، وذلك لأن الأطباء ينشّطون مبيض المرأة بإعطاء المرأة الأدوية المخصصة لإنتاج العديد من البويضات القابلة للتخصيب، ويميل الأطباء إلى مثل هذا الإجراء ضماناً لحصول انغراس البويضات المخصبة في جدار الرحم من خلال تكثير أعدادها، حيث إن الرحم يرفضها لأنها أجسام غريبة، فإذا فشل بعضها فإنَّ بعضها الآخر يحتمل أن ينغرس، ومن ثم تكوُّن حالة التوائم غير المتشابهة.

أنواع التوائم وكيفية تكوُّن كل منها:

١- التوائم غير المتشابهة: هذا النوع من التوائم لاتظهر عليه ظاهرة التشابه التام التي تكون في التوائم المتطابقة، ويكفي أن يكون القاسم المشترك في التشابه ماهو موجود بين الإخوة بعضهم بعضاً، لذلك تعرف بالتوائم الأخوية، كما أنها تعرف أيضاً بالتوائم ثنائية البويضة، حيث إنَّ المبيض يفرز بويضتين فيلقح كل بويضة حيوان منوي واحد، وينتج عنها جينان مختلفان في الجينات الوراثية، وقد يكونان من الجنس ذاته أو من جنسين مختلفين، وحيث إنَّ بعض السيدات المصابات بالعقم استخدمن بعض الأدوية الخاصة بتنشيط المبيض مثلاً فسبب ذلك لهن إفراز أكثر من بويضة خلال الدورة الواحدة، فأدّى ذلك إلى حدوث الحمل بأكثر من جنين، وفي هذا النوع من التوائم تكون المشيمتان منفصلتين حيث تكون لكل جنين مشيمة خاصة به.

٢- التوائم المتشابهة أو المتطابقة: وتعرف هذه التوائم أيضاً بالتوائم أحادية البويضة حيث إن سبب تكوينها هو انقسام البويضة المخصّبة إلى خليتين خلال الأيام الاثني عشر الأولى من الحمل، ثم تواصل كل خلية نموها إلى أن يتكوّن الجنين الكامل، ولما كانت التوائم هنا تتكوّن من بويضة واحدة وحيوان منوي واحد، فإنَّ هذه التوائم تتشابه من جميع الوجوه في الشكل والصفات الوراثية حتى على مستوى جنس التوائم فهي إمَّا ذكوراً أو إناثاً. وقد يكون لكل من التوائم مشيمة خاصة به ويحدث ذلك عندما تنقسم البيضة الملقحة قبل تكوُّن كيس البويضة، أمَّا إذا انقسمت بعد يوم أو يومين

من تكوّن كيس المشيمة فالتوءمان يتشاركان في المشيمة والغشاء المشيمي، لكن لكل واحد سائله الجنيني المنفصل.

٣- التوائم الملتصقة (السيامية): هي توائم تنشأ من بويضة ملقحة واحدة، ومشيمة واحدة، وتعد متطابقة أو متشابهة ولكن لم يكتمل انقسامها. وتولد متصلة ببعضها في منطقة أو أكثر من الجسم، وهي متطابقة الجنس والصفات الوراثية وقد سميت بالتوائم السيامية نسبة إلى التوءمين السياميين وهما إينج وتشانج بنكر بمدينة سيام (تايلند حالياً) في جنوب شرق آسيا، وقد وُلدا عام ١٨١١م لأبوين صينيين، وكانا ملتصقين من جهة الصدر (القص أو عظم الصدر) إلى السُرّة، وقد جالا كثيراً من الأماكن بعد أن كبرا يعرضان نفسيهما في السيرك إلى أن استقر بهما القرار في مزرعة بولاية كارولينا الشمالية، وتزوجا من شقيقتين إنجليزيتين، وأنجبا اثنين وعشرين طفلاً وقد توفيا عام ١٨٧٤م، ولم يكن زمن الوفاة بينهما كبيراً حيث توفي أحدهما بنحو ساعتين قبل الآخر عن عمر يناهز ثلاثة وستين عاماً.

كيف تحدث ولادة التوائم:

في حالة الحمل التي ينتج عنها مولود واحد يطلق أحد مبيضي الأم بيضة تتحد مع نطفة من الأب، وتنمو البيضة المخصبة التي تسمى اللاقحة (الزيجوت) حتى تصبح جنيناً، وفي حالة ولادة التوائم تختلف عملية النمو إلى حد ما، ففي حالة الحمل الذي ينتج عنه توءمان شقيقان (غير متطابقين) على سبيل المثال، ينتج مبيض الأم بيضتين في الوقت نفسه تقريباً، وتخصب كل بيضة بنطفة مستقلة، وينتج عنهما لاقحتان لكل منهما خصائص وراثية مختلفة، وبالتالي فإنَّ التوائم غير المتطابقة قد لا تتشابه فيما بينها أكثر من التشابه بين الأخوة غير التوءم، وتنتج التوائم المتطابقة التي تسمى أيضاً التوائم أحادية اللاقحة من بيضة واحدة تنقسم في بداية حمل الأم إلى جزأين، ثم ينمو الجزءان ويكونان فردين منفصلين لهما التكوين الوراثي نفسه، ويعتقد العلماء أن التوائم السيامية التي تعرف أيضاً باسم التوائم المتلاصقة تنتج عن لاقحة فشلت في الانقسام بصورة كلية.

شخصيتا التوءم:

يلاحظ الجميع اختلاف الشخصيتين عند التوءم، وذلك منذ الولادة فالعديد من أهالي التوائم يؤكدون هذا الاختلاف بالملاحظات:

- «مختلفان نعم،لكن متضامنان إلى حد عميق جداً»: يعيش التوءمان إجمالاً في عالم منغلق على ذاته،فهما يكتفيان ببعضهما ولا يحتاجان لأحد حتى إنهما أحياناً يستغنيان عن وجود أمهما لدرجة أنها تشعر وكأنها غير مرغوبة منهما، إنَّ ميزة هذا التضامن هي قدرة التوءم على تنظيم الأمور بينهما بشكل دقيق جداً، فهما يتوزعان المسؤوليات فيما بينهما بمهارة مدهشة، ويستثمران مواهبهما الخاصة بشكل يتحلى الثاني بدرجة عالية من الفضول الفكري، مما يجعله يتفوق على أقرانه بثقافته العامة وتطلعاته العلمية، فيهتم الأول ببناء العلاقات مع المحيط الخارجي ويؤمن الصداقات والرفاق، بينما ينهمك الثاني في ترتيب الأمور الداخلية للعلاقة،فهو الذي يرتب الألعاب في الغرفة ويتفقدها، وهو الذي يهتم بتقسيم أموال الخرجية فيما بينهما وأيضاً هو الذي يخطط للنشاطات بينما يتولى الآخر مسؤولية تنفيذها وفي بعض الأحيان، قد يصل هذا التضامن إلى درجة تقاسم العقاب.

- صعوبة الانفصال: إنَّ هذا التضامن التوءمي قد يبدو ظريفاً جداً عند الصغر ولكن مع مرور الزمن وخاصة عند مرحلة المراهقة، يثور التوءمان ضد هذه الازدواجية، وهذا الانغلاق على العالم الخارجي ويبحثان عن تحرر أحدهما عن الآخر ويعتبر الخبراء أن هذه الانتفاضة علامة تطورية سليمة في حياة التوءم، وإشارة إلى البحث عن هوية مستقلة، وإنَّ عدم حصول هذه الانتفاضة قد يسيء لمستقبل التوءم، فعلاقتهما تختلف عمَّا كانت عليه في الماضي وينبغي على الأهل أن يدركوا أهمية التأكيد على فردية واستقلالية كل من الولدين منذ الصغر، وذلك بغية التحضير لانفصال أحدهما عن الآخر.

مشكلة التوائم والطريقة التربوية السليمة في التعامل معها:

لن نتطرق إلى موضوع التوائم من الناحية الفيزيولوجية أو البيولوجية على الرغم من أهميتها وتأثيرها في الجانبين التربوي والنفسي، لكننا سنتحدث عمَّا يجب أن يفعله المربون ضمن الأسرة لهذين التوءمين، حتى لا يشعر أحدهما بالتمييز والتفريق، فنراهم يوحدون اللباس والألعاب إضافة إلى الطعام والنقود (أي المصروف اليومي) والمعاملة و........ بينما الحقيقة غير ذلك إنَّ كل توءم (حتى لو كان التوءمان حقيقيين أي من بويضة واحدة أو كانا متشابهين) يمتلك مواصفات تختلف في الأمور الموروثة عن توءمه الآخر.

ثم تأتي البيئة والظروف المحيطة والتربية الموجَّهة في البيت والروضة والمدرسة لتقوم بتوضيح أكثر لشخصية الطفل، وهكذا تبدأ الفوارق بالاتساع بين التوءمين مع مرور الزمن لنرى أنفسنا أمام شخصيتين لكل منهما سمات ومواصفات تختلف قليلاً أو كثيراً عن الأخرى.

لذلك ينصح أهل التوائم بعدم المبالغة في افتعال المساواة بين التوءمين، لأن الخوف كل الخوف هو من ارتطام شخصية التوءم بالواقع الذي يخبئه له المستقبل.

هل سيكون النجاح واحداً لكليهما في مجالات الدراسة والحياة الاجتماعية والعمل والتفوق والامتلاك والزواج والأولاد والصحة والسعادة.... وعشرات الأمور الهامة؟

حتماً ستكون هناك فوارق بينهما يخبئها القدر، عندها ماذا سيكون موقف هذا التوءم الذي كان ينام في فراش واحد، ويأكل طعاماً واحداً بل يلبس لباساً واحداً، كل شيء متطابق تماماً مع توءمه ماذا سيكون موقفه عندما يرى توءمه عالماً أو طبيباً مشهوراً أو تاجراً كبيراً أو ذا رتبة عسكرية عالية؟ بينما هو فاشل في الدراسة مثلاً أو غير موفق في عمله أو ابتلاه الله بزوجة لا تُحتمل أو رزقه أولاداً جعلوا حياته لا تطاق أو....إلخ ولذلك على أهل التوائم ألا يركزوا كثيراً على العدالة المطلقة، أو المبالغ فيها فيصلوا إلى عكس النتيجة التي كانوا يتوقعون.

لماذا هذا التوحيد المطلق في اللباس والألعاب والطعام... ألا يمكن أن نراعي ذوق الطفل ورغباته بشكل لا يجعل الآخر يشعر بالغيرة،كما أنه لابد من حوار مفتوح بين الوالدين والتوءمين وقد يأخذ هذا وقتاً وجهداً غير قليلين عند اختيار اللباس أو الطعام أو الألعاب،ولا مانع من تعويدهما تبادل الألبسة وكذلك الألعاب مما يعمق الحب والتعاون بينهما، ويبعد عنهما الشعور بالتميز والتفريق في المعاملة.

أمَّا في مجال العطف والحنان فإنَّ ما في القلب لا يعلمه إلا الله،وقد يكنّ أحد الوالدين لأحدهما حباً يزيد عن حبه للآخر لأسباب كثيرة منها ما قد يتعلق بشكله أو برقته أو جاذبيته... إلى غير ذلك من مواصفات تشد أحد الوالدين أو كليهما.

أمَّا المشاعر الظاهرة في مجال العاطفة: إن كانت قبلة أو مسحة على رأس الطفل، أو اصطحاباً لزيارة أو نزهة أو عبارة عن استحسان أو تشجيع،أو مكافأة مادية فهنا

يجب على الوالدين وكذلك باقي أفراد الأسرة أن يكونوا حذرين جداً فيها، لأنَّ لها آثاراً خطيرة في نفس الطفل إذا شعر أن هناك تفضيلاً للآخر عليه، وهنا تتكون عقدة نفسية خطيرة (علماً أن هذا ينطبق على الأولاد من غير التوائم أيضاً لكنه يكون أكثر خطورة في مجال التوائم حيث يكون التبرير صعباً للتوءم الذي يشعر بالغبن في المعاملة) والمعاملة الظاهرية يمكن أن تكون أكثر سهولة عندما يكون التوءمان مختلفين في الجنس أي ذكر وأنثى حيث يمتلك كل منهما أفكاره المستقلة والمنفصلة ليختلف عن الآخر في طباعه وشخصيته. كما تكون أكثر صعوبة عندما يكونان من جنس واحد.

بعض الإرشادات للأهالي الذين ينجبون توائم:

١- منذ البدء، من الأفضل اختيار أسماء مختلفة جداً للولدين عكس ما يجري في العادة، وننصح بالأخص تجنب الأسماء المقرونة ببعض الشخصيات البارزة في التاريخ الأدبي أو السياسي.

٢- من الأفضل مناداة التوءم باسميهما لا (بالتوءم) ومثلما نلاحظ في معظم الأحيان.

٣- اختيار ملابس مختلفة لكل واحد منهما، مما يساعد على التمييز بينهما.

٤- لكل واحد ألعابه، منذ الصغر، علينا تشجيع وتعزيز خصوصية الولد، فلا داعي لشراء ألعاب متشابهة للاثنين، ومن الأفضل ترتيب الألعاب في موقعين مختلفين.

٥- تهيئة التوءم منذ الصغر لانفصال أحدهما عن الآخر حيث يمضي أحدهما بعض الوقت عند جدته، أو خالته ويبقى الآخر في المنزل مع والديه على أن يبدل الوضع في المرة القادمة، مما يساعد أولاً في الاعتياد على فكرة الانفصال، وثانياً يسمح في المرة القادمة أن يتمتعا بكل من التوءمين على حدة،كما أن ذلك مهم جداً لمساعدة الولد على التعبير الذاتي بعيداً عن أخيه أو أخته.

٦- على الأهل أن يساعدوا التوءم على بناء صداقات مختلفة، فوضع كل من الولدين في شعبة مختلفة في الصف يسهل عملية اختيار أصدقاء جدد.

٧- هناك وضع يجب تجنبه وهو أن يتقاسم الوالدان المسؤوليات بشكل ثابت، فيهتم الأب بأحد الولدين على أن تهتم الأم بالآخر، إنَّ مثل هذه الممارسة خاطئة لأنّ كل واحد من التوءمين بحاجة ماسة إلى كلا والديه.

المراجع

١- حسن، فريد، (٢٠٠١م)، المشكلات النفسية للطفل من سن ٣-٦ سنوات، حلب، دار ربيع للنشر.

٢- الربيعة، عبد الله، (٢٠٠٩م)، تجربتي مع التوائم السيامية، شركة العبيكان للأبحاث والتطوير، الرياض.

٣- سفيان، نبيل، (٢٠٠٤م)، المختصر في الشخصية والإرشاد النفسي، أيترك للنشر والتوزيع، القاهرة.

٤- شايب، محمد سعد، (٢٠١٢م)، التوائم، أخبار الطب، العدد ٥٢، ١٠-٣-٢٠١٢م، ص١٠.

٥- الشيرازي، حافظ، (٢٠٠٣م)، الموسوعة العربية، مجلد٧، دمشق، هيئة الموسوعة العربية، ط١.

٦- شفيق، محمد، (١٩٩٢م)، البحث العلمي والخطوات المنهجية لإعداد البحوث الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.

٧- عباس، فيصل، (١٩٨٧م)، الشخصية في ضوء التحليل النفسي، بيروت، دار المسيرة، ط٢.

٨- المليجي، حلمي، (٢٠٠٠م)، علم النفس المعاصر، بيروت، دار النهضة العربية، ط٨.

٩- مرهج، ريتا، (٢٠٠١م)، أولادنا من الولادة حتى المراهقة، بيروت، أكاديميا للنشر والطباعة.

١٠- ناصف، مصطفى، (١٩٨٦م)، الوراثة والإنسان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

١١- يوسف، رنا، (٢٠٠٤م)، التوائم: الحدوث والاختلاطات، دمشق، منشورات جامعة دمشق.

١٢- http://bafree.net/arabneuropsych/bio4.htm

١٣- http://www.nabanews.net/2009/45.html

١٤- http://www.nooran.org/O/13/13-2.htm

١٥- http://www.al-jazirah.com/magazine/html

الحدس هو إحدى العمليات المعرفية-النفسية المعقدة التي تظهر لدينا جميعا ولكن بنسب متفاوتة كغيرها من القدرات والعمليات المعرفية والعقلية الأخرى التي تخضع للفروق الفردية (كالذاكرة، والذكاء، والانتباه...). إنّها تظهر لدى الناس العاديين كل في مجال عمله، مثلما تظهر لدى المبدعين والعلماء والشعراء.

قوة الحدس وانتشاره

على الرغم من أن الحدس Intuition والاستبصار Insight مصطلحان نفسيان، إلا أنّهما مركز اهتمام العديد من المجالات العلمية. ومع أن كل منهما خبرة عامة وشائعة لدى البشر، إلا أنه لم يتم فهمهما والتعرف عليهما بدقة، وهناك جهود كثيرة لمحاولة التعرف هذه. وكثيراً ما ينظر إلى الحدس من منظور الظواهر الروحية والخارقة، أو أنه ملكة غير قابلة للدراسة والتقييم.

ومع أن البدايات العلمية لدراسة الحدس تعود إلى الروّاد الأوائل من علماء نفس الغشطالت، والذين استخدموا مصطلح التبصر أو الاستبصار Insight، إلا أن علماء النفس السلوكيين الأكثر شهرة والذين يؤمنون فقط بدراسة ما هو ظاهر من السلوك، لم يهتموا بهذه العملية في دراستهم للتعلم، بل واعتبروها واحدة من محاولات التعلم « one trial learning » وهذا ما أدى إلى الكثير من النزاعات العلمية. وقد أصبح مصطلح «الحدس» أقرب إلى المفاهيم ذات الصلة بالانفعالات emotionsمنه إلى مفاهيم العمليات المعرفية cognitions في علم النفس، ويبقى ذا أهمية كبيرة.

وعلى الرغم من أننا نجد مصطلحي «الحدس» و«الاستبصار» بشكل متزايد في الدراسات النفسية في الآونة الأخيرة، إلا أنّهما بقيا «لغزين لغويين». وإذا كان بالإمكان لهذه الخبرة العامة أن تفهم ويتم التعرف عليها، وإذا كان بالإمكان تنميتها وتطويرها لدى الأفراد، فإن بإمكان كل شخص أن يملك مصدر قوة للإبداع والفهم والابتكار.

إن الحدس ملكة إنسانية قوية، ويمكن أن تكون أكثر القدرات الطبيعية عمومية وانتشاراً ونقوم بها كعملية prossess. نيوتن وسقوط التفاحة، وأرخميدس في الحمام، وفيثاغورث وعبقريته وغيرها من القصص القديمة المتعلقة بالحدس والاستبصار، توضح بشكل ظاهر أهمية هذه القدرة. وكثيراً ما اعتبرت القدرات التالية: التخيل، والحدس، والاستكشاف، من أهم القدرات «الملكات» التي تميز العلماء والمبدعين.

يعتبر الحدس واحدة من أهم القدرات المعرفية cognitive والعقلية mental

لدى الإنسان. إنَّ ملايين العمليات الحدسية وأكثرها شهرة هي التي كانت مسؤولة عن الإبداع والابتكار، وعن نشوء الحضارة التي نعيشها بمنجزاتها المختلفة. ولا نبالغ إذا قلنا أنها جميعها كان الحدس هو المسؤول عنها. ربما يقول البعض «إنَّ المسؤول عن هذه الحضارة ومنجزاتها وإبداعاتها، هو الاستدلال والمحاكمة»، إلا أنَّ جميع عمليات المحاكمة والاستدلال لم تَقُدْ كلها إلى إبداع وابتكار، ويقول الفلاسفة أيضاً أن هذا مجرد «وهم Illusion» المنطق المحض والصوري لم يقد إطلاقا إلى تحليل أو إبداع. ومن المعروف أنه لم يؤد أبدا إلى جديد. وقد قال الرياضي المبدع هنري بوانكاريه «بالمنطق يمكننا أن نثبت ونبرهن، وبالحدس فإننا نكتشف ونبدع»، «By intuition we discever». في الواقع يعتبر الحدس أساس العقل intellect والتذهن (Bahm، 1985، Williams & Irving 1996).

ويمكننا القول بأن الحدس يخترق «ويدخل» كل تصرف من تصرفاتنا .ولكنه يختلف عادة من شخص لآخر. فالحدس عند العالم يظهر على شكل إلهام وحل فجائي، ولكنه يظهر لدى غيره على شكل دعم ومساعدة من يوم لآخر أو على شكل مشاعر توجه تصرفاتنا وسلوكياتنا اليومية.

إنَّ العلماء المبدعين الذين يكون الحدس وراء إلهامهم وحلهم المفاجئ للمشكل قد يغير هذا الحدس كامل حياتهم. بل إنه يقصر عليهم الطريق والمسافات ويوضح لهم الطريق إلى أستراليا lights on our road to Australia كما قال ويليامس منذ ما يزيد عن أربعة قرون مضت (Williams، 1986).

إنَّ حالات الحدس التي تظهر في سلوكياتنا وتصرفاتنا يوما بعد يوم كثيرة وشائعة. وقد وضع أحد الباحثين مقياسا لقياس هذه القدرة مستنداً في ذلك إلى مفهوم يونغ عن أنماط الشخصية: التفكير «النمط المفكر» مقابل الشعور «النمط الانفعالي العاطفي»، وذلك لتقدير هذه الخبرة لدى الفرد. وهناك وظيفتان محددتان تقابل كل واحدة منهما الأخرى، هي: الإحساس مقابل الحدس، sensation & intuition. وقد تبين أن أكثر من ٢٥٪ من الناس عموما يحصلون على درجات عالية في مقياس الحدس، وأن حالات الحدس التي تظهر لديهم يوما بعد يوم تشمل حالات وظواهر كحالات الحدس لدى النساء woman intuition. إنَّ العمليات العقلية لمثل هذا النوع من الحدس «حدس النساء» يبدو شائعاً ومنتشراً في الكثير من المواقف التي تبدو معقدة أمام

التحليل المنطقي أو التي يعجز عنها التحليل المنطقي الآني.

إنَّنا جميعنا تربينا على الظن والتخمين guesses عندما لاتكون المعلومات التي في متناول أيدينا كافية insufficient، أو حين تكون معقدة complicated، أو حين لانعي not aware الخصائص أو طبيعة المعلومات التي يجب علينا تقديمها في مثل هذه المواقف. مثلاً في حالة حكم الناس في التعرف والإخبار، وعندما نشهد أو نخبر رجال التحري يطلب منا أن نحكم حول قضايا معقدة. في مثل هذه المواقف نحن بحاجة إلى ما يشبه التخمين حتى نقترب من اتخاذ قرار سريع، من أجل عملية تعريف المعطيات وإجراء التحليل المنطقي اللازم. هذه واحدة من المواقف التي يتدخل فيها الحدس بسلوكنا وتصرفاتنا وقراراتنا اليومية.

إنَّ الأشكال المختلفة للإبداع التي ميزت حضارتنا قد بدأت بالحدس الذي هو المسبب الأساسي للإبداع، بل والقوة الكامنة ورائه. إنَّ هذه العملية التي تقف خلف الحدس تسمى «كيف نعرف how we know»: ليس فقط كيف نعرف الحدس، بل كيف نوجه استدلالنا ومحاكمتنا نحو الإبداع.

هناك الكثير من البحوث والدراسات المتعلقة بالإبداع creativity، وكيف نعرف. وقد قال أديسون إن الإبداع هو ١٪ إلهام (حل مفاجئ) و٩٩٪ ما قبل الإلهام، ولكن ليس كل ١٪ من آداب الإبداع هي المتركزة على الحدس.

إنَّ أحد أشكال العمليات المعرفية العظيمة، هو الحدس. فالاستكشاف والإبداع يتضمن اختياراً حدسياً تبصرياً للمتشابهات، كما أنه يخطط للتجارب الأصلية والمناسبة، وحتى لاختيار وتوجيه آليات التحليل المعرفي، فهذه جميعها تتضمن عملية الحدس، ولذلك نقول إنه عملية منتشرة pervasive.

يخبرنا علماء اللغة، أنَّ لغة العقل ليست شفافة أو واضحة. وقد بين جودل Godel أنَّ المنظومة المتناسقة للتفكير والاستنتاج والمحاكمة ليست كافية للعقل حتى يقوم بالتفكير والمحاكمة. فالحدس ضروري جداً من أجل توجيه الخطوات العمياء للعمليات المنطقية، ومن أجل توجيهها نحو هدف واضح ومحدد.

الخصائص والصفات التي تميز «الحدس» و«التبصر»

من خلال بحث تعريفات الحدس و«التبصر»، والبحوث التي ركزت على تفسيرهما وكشف خصائصهما، تبين أنَّ الحدس، والتبصر يتصفان بالخصائص العامة والمشتركة التالية:

١- السرعة quick، والآنية، والظهور المفاجئ sudden appearance.

٢- تتضمن حالة انفعالية emotional.

٣- عملية تصور مسبق preconscious process في مستوى ماقبل الشعور.

٤- إنَّها على عكس الاستنتاج المجرد، أو التفكير التحليل والمنطقي analytic and logic thought.

٥- الحدس عملية تتأثر بالخبرة والتجربة الذاتية.

٦- يمكن فهمها عن طريق المشاعر والانفعالات feelings and emotions وليس عن طريق اللمس.

٧- الحدس يرتبط بالإبداع creativity.

٨- يرتبط بالتمركز حول الذات egocentricity.

٩- ليس بالضرورة أن تكون نتيجة الحدس صحيحة.

١٠- يستعمل الحدس الموثوقية والتأكد الذاتي Intuition uses subjective certainity.

١١- مرتبط بالتعاطف الوجداني والتفهم والمشاركة الانفعالية.

١٢- إنَّه قدرة ومعرفة ability & Knowledge فطرية وغريزية innate & instinctive.

١٣- إنَّه معرفة عامة وكلية global.

١٤- إنَّه معرفة غير مكتملة incomplete.

١٥- يرتبط بشرود الذهن.

١٦- الإحساس بوجود العلاقات ومعرفتها relations.

١٧- يعتمد على البيئة dependence on environment.

١٨- يتصف بتغيير الوضع، والتنقل transfer & transposition.

معنى الحدس:

إذا نظرنا في قاموس وبستر الجديد Webster Third New International Dictionary فإنَّه يعرف الحدس بأنه «وحي أو إظهار revelation عن طريق التبصر، وأنَّه معرفة فطرية، وقريب من الغريزة ومن التعاطف الوجداني، ويقدم تبصراً مباشراً.

إنه تبصر سريع وآني. إنَّه إجراء أو فعل act وعملية process نحصل من خلالها على معرفة مباشرة أو تأكيد من دون محاكمة واستنتاج واستقراء

يؤكد على الخصائص رقم ١، ٤، ١٢، ١٣ (المذكورة أعلاه). أمَّا قاموس أكسفورد فيؤكد على الخصائص رقم: ١، ٤، ١٥، حين يعرفه بأنَّه «تفهم أو قدرة حدسية، إنَّه استبصار. معرفة وإدراك عقلي mental perception يتضمن تفهماً آنياً وسريعاً من دون تدخل عمليات الاستدلال والاستنتاج المعروف». من جهة أخرى يعرفه أوكهام بأنه «يقدم لنا معرفة عن الشيء سواء كان هذا الشيء موجوداً أم غير موجود» كما أنَّه يعتبر الحدس «مقابلا للمعرفة التجريدية، إنَّه التفكير بشيء رغم غياب هذا الشيء» ولذلك فقد ميز بين الحدس المكتمل perfect intuition (الذي يتشكل عن طريق الخبرة الآنية) وبين الحدس غير المكتمل imperfect intuition (الذي يستعمل الخبرات السابقة)، (Bastick، 1982).

أمَّا بالنسبة للخاصية الثالثة القائلة بأن الحدس «عملية تحدث على مستوى ما قبل الشعور أو تصور مسبق» ومصطلح مباشر تعني أننا نملك المعرفة من دون وعي أننا نملكها أو أنَّها تخصنا. أمَّا العملية ما قبل الشعورية فتعني أننا نملك المعرفة التي كانت خارج نطاق وعينا الحالي.

أمَّا يونغ (jung، 1969) فقد عرفه بأنه «إدراك بطريقة هادفة غير منطقية ولاشعورية». في حين عرفه ميّسر (Messer، 1967) على أنَّه «وظيفة غير منطقية، إنَّه إدراك للوقائع غير المعروفة، وذلك على مستوى اللاشعور، وبالتالي فهو إدراك يأتينا عن طريق اللاشعور». وهو عملية إبداع نشطة تأتي عندما تصدر الأحكام من دون وجود قرار شعوري.

أمَّا بياجيه فيفسر أخطاء الأطفال في الحكم من وجهة نظر الآخر على أنَّها حدس حقيقي وتمركز على الذات. فالحدسية هي التمركز حول الذات «كما في مرحلة الطفولة الأولى». ولكن شارين يعتبر الحدس عمليات استنتاجيه تشبه الإدراك العادي (Emery، 1994 أمَّا وليمز وأيرفنغ (Williams & Irving، 1996) فيعتبران الحدس «نوع خاص من المعرفة A special kind of knowing».

ومن خلال استعراض هذه التعريفات وغيرها كثير، نرى أنَّها جميعها تعتبر الحدس «طريقة تفكير ومعرفة سريعة وآنية مرتبطة بالخبرات السابقة للشخص، وبالقدرة على التعاطف الوجداني، وأنها توصل إلى حل

المشكلات والإبداع من دون استخدام طرق التفكير المعروفة مثل الاستقراء والاستنتاج والتحليل والمحاكمة، وإن دوافعه كثيراً ما تكون لا شعورية وعلى شكل تصور مسبق أو ما قبل شعورية. إنَّه عملية معالجة جديدة للمعلومات التي تدخل في منظومتنا المعرفية وإظهار سريع ومفاجئ لها بطريقة فيها حداثة وإبداع ويكون فيها الشخص في حالة تمركز حول الذات».

التفكير الحدسي يساعد الفرد على الوصول إلى فروض سريعة، أو إلى مجموعات فكرية قبل أن تتحدد قيمتها، ويؤدي هذا التفكير إلى الترتيب الاختباري لمجموعة من المعلومات التي تولد شعوراً بأن ترتيب الحقائق واضح وضوحا ذاتيا، ويهيئ السير والتقدم في اختبار الحقيقة.

يرادف التفكير الحدسي، التفكير الإلهامي، حيث يصل الطفل أو الفرد إلى هذا التفكير عن طريق القفز التدريجي للخطوات والمراحل للوصول إلى حل المشكلة التي تعرض له في موقف تعلمي أو موقف حياتي عادي (قطامي، ١٩٩٠، Emery، 1996).

معنى الاستبصار:

هناك تعريفات كثيرة للاستبصار أو التبصر. وقد صنف هارتمان منذ أكثر من نصف قرن (Hartman، 1931) هذه التعريفات في ثلاث فئات:

١- التبصر هو أحد أشكال المعرفة الحدسية لموقف معقد. والتبصر هنا على علاقة مهمة بالتعاطف الوجداني.

٢- قدرة الشخص على تقييم موافقته للآخرين. والتبصر هنا ذو مرجعية متعلقة بالتمركز على الذات.

٣- أحد أشكال التعلم الذي يقدم حلولا جديدة لموقف معقد. وهو بذلك على علاقة بالتعلم الشكلي والغشتالطي.

وقد درس هارتمان عدداً من المعايير التي تميز التبصر. وقد تساءل: ما إذا كانت لحظة التبصر مشحونة انفعاليا؟ وقد لاحظ بشكل طبيعي أن معيار التبصر هو حدوث الحلول المتكاملة من خلال عملية إعادة تنظيم كلي للمجال أو الموقف الذي يوجد فيه.

وقد وضع واطسون أربعة شروط يحدث من خلالها التبصر. فقال «خبرة التعلم بطريق التبصر المفاجئ لموقف معقد أو مشكل يحدث حين:

١- يكون هناك خلفية كافية وإعداد كاف للموقف.

٢- يكون الانتباه مركّزاً على إدراك العلاقات القائمة بين عناصر الموقف وأجزائه.

٣- حين تكون المهمة ذات مغزى بالنسبة للشخص، مع تميزه بقدرات كبيرة».

إنَّ مصطلح «إعادة التنظيم المعرفي» يطبق في خبرة التعلم هذه (Watson، 1964). أمَّا نيسر (Neisser، 1963) فيقول إنَّ التفكير التبصري للموقف هو نظرة نقدية كلية للموقف من دون إهمال لأي عنصر من عناصر هذا الموقف في لحظة واحدة. و«الاستبصار» يتضمن بناءً هرمياً جديداً أو تشكيلاً جديداً للعمليات الموجودة. أما بيج وهانت (Bigge & Hunt، 1965) فقد قالا «إنَّ التبصر يعتمد ليس فقط على طبيعة البيئة، أو شكل الموقف، ولكن على تأثير خبرة الشخص وهدفه في وقت محدد» وقد استخدما المصطلح بالسياق نفسه الذي استخدمه علماء نفس الغشطالت، وأنه معرفة شعورية للنمط وللعلاقات، ولكن هذه المعرفة ليس بالضرورة أن تكون صادقة.

أمَّا كوهلر أحد علماء النفس الغشطالتيين البارزين فقد قدم أمثلة شخصية عديدة لحالات التبصر، ولاحظ أن «الرجل العادي يعتقد أنه يشعر بشكل مباشر لماذا يريد أن يفعل شيئا محدداً في الموقف الأول». وقد لاحظ كيف أن الشخص يفهم بشكل جيد عن طريق مشاعره، وكيف أنَّ الخبرة المباشرة تكون أكثر فعالية وتكاملية من الحلول التي تأتي عن طريق «الاستنتاج العلمي».

ويقول أيضاً «لقد قالت لي خبرتي أكثر مما قاله لي الاستنتاج المنطقي والعلمي». وقد ذكر أن بعض الباحثين استخدم التبصر للإشارة إلى أنَّه تفهم واستيعاب غريزي للخبرة، إنَّه فهم عن طريق التقييم الانفعالي (Imiller، 1992).

كما عرفه إنجلش (English، 1958) بأنه «وعي مفاجئ للعلاقات القائمة بين العناصر المختلفة للموقف، وهذه الفكرة المفاجئة لا يكون الشعور بها طويلا» وقد ربط عدد من الباحثين بين التبصر والتفكير الإبداعي أيضاً وأنَّ لحظة الإشراق التبصري تظهر حين يكون العقل في حالة استرخاء، وأن هذه الحالة العقلية الهادئة تفترض مفهوم بياجيه عن المرونة بين العمليات العقلية في التمثل والمواءمة (Green، 1970).

وهكذا يتبين لنا من هذه التعريفات أن التبصر هو «طريقة في التفكير والتعلم، تعتمد على الإدراك العقلي الكلي والشامل لعناصر الموقف، وإعادة ترتيبها بشكل جديد. وتتصف بالإدراك الكلي للعلاقات بين عناصر الأشياء، تلعب فيه خبرة الشخص ومشاعره، وعناصر البيئة أو الموقف دوراً هاماً فيه حتى يصل إلى حل جديد ومتميز فيه».

تجارب على الحدس والتبصر وميادين تطبيقهما

لقد أجريت العديد من التجارب على الحدس، منها تجارب في مجال الرياضيات، والعلوم، والإحصاء، وإدراك المتشابهات والاختلافات بين الأشياء، كما استخدم في مجال التقييم للدخول في بعض الكليات العلمية، وفي حل المشكلات.

أمّا التبصر فكانت التجارب متركزة فيه على التعلم (بشكليه الإنساني، والحيواني وخاصة القرود، والفئران، والأرانب)، ومعالجة المواقف اليومية، وحل المشكلات، وتقييم القدرة على تضمين العناصر في الموقف، وإعادة تعديل الموقف، وكشف العلاقات المنطقية.

كما درس التبصر في مجال العلاج النفسي، والطب النفسي، وفي العلاقة الإرشادية بين المرشد والمسترشد، وفي الإرشاد المدرسي.

الافتراضات العلمية (والتربوية) حول التفكير الحدسي:

يمكننا أن نضع الافتراضات العلمية التي تمّ التوصل إليها حول التفكير الحدسي وطبيعته:

١- التفكير الحدسي- من وجهة نظر علم النفس التجريبي- هو مفهوم افتراضي يستدل عليه من آثاره عن طريق النتاجات التي يصل إليها الطفل أو المتعلم في حل الموقف.

٢- والمقصود بأنّ الحدس مفهوم افتراضي، هو أنّه كأية عملية معرفية أو وظيفة نفسية (مثل الذكاء، الذاكرة، الانتباه، الانفعال..) جميعها نستدل عليها من آثارها السلوكية.

٣- التفكير الحدسي، يشجع التخمين ويصل إليه الطفل عن طريق التخمينات الذكية.

٤- إنّ الموقف الصفي المنظم تنظيما محكماً هو الذي تقيم فيه إجابات الأطفال بالإجابة الصحيحة والإجابة الخاطئة، وهذا يحد من فرص تطوير التفكير الحدسي.

٥- إنّ سعي المربيات والمعلمين والمعلمات للحصول على الإجابات الصحيحة ونبذ الإجابات الخاطئة لدى الأطفال يعيق محاولات الأطفال واستخدامهم لإستراتيجية التفكير الحدسي.

٦- تتساوى تخمينات الصواب وتخمينات الخطأ في قيمتها من حيث تهيئة الظروف التي تسمح بتشجيع الحدس.

٧- الظروف التعليمية التي يهيئها المعلم والثقافة السائدة في المجتمع تعتبر ذات أثر واضح في تشجيع الحدس والتفكير الحدسي لدى المتعلمين.

٨- التفكير الحدسي عملية معرفية يمارس فيها الطفل تراكيب وبناءات معرفية متطورة تتجمع في وقت واحد وقصير، حتى توصل إلى أحداس ونتاجات حدسية (أحكام، قرارات).

٩- التفكير الحدسي عملية تتطلب عمليات عقلية ومعرفية متطورة، وراقية (مثل الإدراك، والفهم، والانتباه، ومعالجة المعلومات، وترميزها، وتنظيمها واسترجاعها..) وتتحقق فيها أهداف من نوع الأهداف التركيبية المعرفية (المعرفة الكلية، والإدراك الكلي)، وهي بحد ذاتها أهداف إبداعية، ابتكارية.

١٠- يسبق التفكير الحدسي -بفترة ليست قصيرة- الوصول إلى دليل وبرهان على صحة مايتم الوصول إليه، أو خطأه ذلك.

١١- ينمو التفكير الحدسي لدى الأطفال إذا كان مربوهم يفكرون تفكيراً حدسياً.

١٢- إنَّ تنظيم وبناء المنهاج تنظيما يقوم على التنظيم البنائي المعرفي وترابطه لدى الأطفال، يزيد من استخدام التفكير الحدسي.

١٣- كما أنَّ استخدام أسلوب التدريس الاستكشافي يسهم في تدريب الأطفال على التفكير الحدسي.

الحدس مختلف عن المنطق:

إنَّ اختلاف الحدس عن المنطق والفكر التحليلي، هو أحد الخصائص التي تميزه. وقد كانت هذه الخاصية موضوعا للعديد من الدراسات (Keith، 1987; Kitchener، 1986). فالتفكير الحدسي يختلف تماماً عن التفكير التحليلي .فالحدس يتضمن عناصر انفعالية emotional involvement في حين أنَّ التفكير التحليلي خال من الانفعالات free of emotion بل «وبارد، cold». والتفكير الحدسي يعتمد على الخبرات السابقة past experience وعلى الموقف الحالي للشخص، في حين أن التفكير التحليلي يعتمد على الخبرة الشخصية personal experience ولكنه مستقل عن البيئة الحالية والموقف الحالي.

من جهة أخرى فإنَّ الحدس تحت مستوى الشعور أو ما قبل شعوري preconscious عكس التفكير التحليلي الذي يكون شعوريا conscious، كما أنَّ التفكير التحليلي الخالص والمجرد يتجنب المشاعر، ولا تتدخل فيه المشاعر الذاتية التي تظهر في الحدس.

والتفكير التحليلي يسير بخطا مستقيمة واضحة خطوة بخطوة step-by-step

عكس الحدس الذي يحصل فجأة suden وكأنه على شكل قفز (أو احتراق للمراحل)، من هنا نقول عنه إنَّه غير خطي. وأخيراً وليس آخراً، فإنَّ التفكير التحليلي يستخدم عنصراً أو عنصرين فقط في لحظة واحدة حين معالجته لموضوع ما، عكس الحدس الذي يستخدم عناصر الموقف كاملة ويعتمد على معالجة متوازية للمجال الإدراكي الكامل.

لقد قال بير (Beyer، 1984) أن الاختلاف بين التفكير الحدسي والتفكير التحليلي يظهر بشكل واضح في منتصف العمر. فهذه المرحلة العمرية يمكنها أن تظهر بوضوح الفرق بين التفكيرين حيث يكون الذهن منفتحا على التفهم الداخلي. وقد شدد بوانكاريه حين ميز بين الحدس والمنطق، أنَّ المنطق وحده غير كاف في العلم.

وفي كتابه المعنون «طبيعة الحدس» الصادر منذ أكثر من نصف قرن، ذكر الباحثان براسفرود وستين (Bransford، & Stein، 1984) أنَّ الفكر التحليلي يدخل في الفكر الحدسي، وخاصة سمة الحدس المميزة وهي الفجائية suddenness. وعلى العكس من العملية التحليلية في الاستدلال، فإن الحدس ليس منطقياً، فإنه يتضمن فئات مترابطة من المشاعر والحالات الانفعالية أكثر مما يضمنه من عناصر منطقية.

التفكير الحدسي يختلف عن التفكير التحليلي:

الاختلاف بين التفكير التحليلي والحدسي، يفسر على أن الأوَّل (التحليل) علاقات محدودة ضمنية ومتعاقبة من التعقل والتمييز discrete consecutive binary relations، في حين أنَّ الثاني (الحدس) علاقات كثيرة ومتنوعة متزامنة الحدوث ومستمرة continuous simultaneous multirelations.

فالتفكير التحليلي كما قلنا يسير خطوة بخطوة ويستخدم عنصرين لأكثر من الموقف في اللحظة نفسها، هذه الخاصية للتفكير التحليلي تجعله بعيدا عن استعمال التغذية الراجعة القادمة من المشاعر والانفعالات الخاصة بالموقف الكلي والمعرفة الكلية لعناصر الموقف التي يتميز بها الحدس. هذه الخاصية التي يتصف بها الحدس إحدى الفروق المميزة له والتي تصفه بسرعة المعالجة.

لقد قدم ثورسلاند (Thorsland، 1971) المعايير التالية للتمييز، مستخدما طريقة المقابلة، للتمييز بين طريقتي التحليل والحدس

في حل المشكلات التي يعتمدها عينة من الطلبة:

الطريقة التحليلية analytic approach: يكمل الطالب خطوة في وقت محدد. والخطوات جميعها واضحة ومحددة منطقيا يستخدم الطالب عادة الرياضيات، المعادلات، أو الخطوات المنطقية، وخطة معينة لبلوغ الهدف.

الطريقة الحدسية intuitive approach: يميل الطالب لاستعمال إدراكه الضمني وعملياته المعرفية في حل المشكلة. فقد لا يكون قادرا على تقديم تقييم دقيق لكيفية حصوله على الإجابة، ولكنه يسعى لسد الفجوة في معارفه عن الموقف المشكل وإعطائه معنى من خلال نظرته الكلية لعناصره دون اتباع خطوات محددة.

لقد قام ثورسلاند بإجراء مقابلات لدراسة فئات الاستجابات التي صدرت عن الطلبة في حلهم لأربعة مشكلات، تبين له عدم وجود علاقة ارتباطيه بين التقييمات التحليلية والحدسية لكل مشكلة. إن التفكير الحدسي، حتى لو كان صحيحا ودقيقا، لا يمكنه أن يقدم تفصيلات دقيقة، وقد شدد بعضهم على أن ذلك مرتبط بالمشاعر الانفعالية للشخص أثناء التفكير الحدسي.

إنَّ العلاقات المنطقية تظهر بوضوح حين حل المشكلة بالطريقة الحدسية، ولكن مثل هذه العلاقات المنطقية لا تظهر إذا كان حل المشكلة غير صحيح. وحقيقة كون الشخص الحدسي «أكثر صبراً وتحملا more tolerant للأفكار الغامضة»، وجدت أيضاً في التفكير الإبداعي. ولكن في المزاج الحدسي توجد علاقات واضحة «غير غامضة» في المشاعر الانفعالية للشخص. وقد رجع هذا الباحث إلى النمط المعرفي التحليلي مقابل النمط المعرفي الكلي global غير التحليلي، والذي يوازي ما أسماه النمط المستقل عن المجال field-dependent مقابل النمط المعتمد على المجال field-independent. ويبدو ذلك واضحا من طريقتي التفكير، فالتفكير الحدسي يعتمد على المجال وسياق الموقف (لأنه يتطلب إدراكا كليا لعناصره)، في حين أنَّ التفكير التحليلي مستقل عن هذا المجال وسياق الموقف (لأنه مرتبط بخطوات محددة سلفاً). فالتفكير التحليلي هو تجميع لموضوعات متشابهة استناداً إلى العناصر الموضوعية للمثيرات أكثر منه استنادا للعناصر الذاتية الذي يميز الحدسي. والنمط المعرفي cognitive type هو «تصنيف وتبويب واسع أو ضيق، بسيط أو متعدد الأبعاد». وهناك تصنيفات عديدة للأنماط المعرفية.

ويشدد بوانكاريه على أنه، ليس النمط المعرفي فقط هو الذي يجعل عالم الرياضيات تحليلياً أم حدسياً ولكن طريقته المعتمدة وأسلوب معالجته التي تتصف بأنها فطرية «من طبيعة العقل لديهم أن يجعلهم منطقيين أو حدسيين، ولكن ليس بإمكانهم أن يضعوا جانبا طريقة تعاملهم مع الموضوع».

الحدسي والتحليلي على خط متصل (متصلان):

في المرحلة الثانية من مراحل الإبداع (مراحل الإبداع الأربعة: الإعداد والتحضير، الاحتضان والبزوغ، الإلهام أو الإشراق، ومرحلة التحقيق)، يظهر التفكير الحدسي مع التفكير التحليلي، وفيه يساعد الحدس التحليل على بزوغ الجديد وتوجيهه من هنا يمكن اعتبارهما على خط متصل one continum، مع أنَّ البعض يرفض ذلك، ويعتبرهما تفكيرين مختلفين تماماً. ومن الباحثين الذين اعتبروهما على خط متصل برنسويك (Brunswik، 1966)، وقد عبر عن فكرته هذه في النقاط التالية:

١- هناك اتصال بين الوظائف المعرفية تمتد من التفكير الحدسي حتى التفكير التحليلي. وأكثر أنواع التفكير لدينا يتضمن بعضا من التحليلي والحدسي معا، بدرجة ما quasirational.

٢- التفكير باتجاه الحدس على الطرف الأوّل من الخط المتصل يشبه الإدراك like perception وهو وحده لا يساعد التفكير. والعمل بالطريقة الحدسية وحدها يكون تحت سيطرة ما قبل الشعور أو اللاشعور، بدلاً من الشعور أو الوعي.

٣- التفكير باتجاه التحليل على النهاية الأخرى للخط المتصل لا تساعد التفكير. والعمل بالطريقة التحليلية وحدها يكون تحت سيطرة الوعي أو الشعور فقط (ونحن نعرف أن الإبداع وحلول المشكلات تلعب فيها الدوافع اللاشعورية دوراً هاماً).

٤- واستنادا إلى النقاط الثلاث السابقة، يمكننا القول بأن:

أ- التفكير بالطريقة الحدسية يكون إشراقيا وسريعا fast ويستعمل الكثير من المعلومات، ويكون على درجة قليلة من الوعي أو الشعور low degree of awareness، ونادراً ما يكون دقيقاً.

ب- التفكير بالطريقة التحليلية، يتصف بأنه بطيئاً slow، ويستعمل القليل من المعلومات، ولكنه على درجة كبيرة من الوعي والشعور، وحين يخطئ

فإنَّه ينتج الكثير من الأخطاء اللاحقة produces large errors.

من جهة أخرى فإنَّ حل المشكلات بالطريقة الحدسية والتبصرية يختلف عن حلها بالطريقة التحليلية. فالمشكلة في التبصر، يكون الحل متطرفاً، إمَّا صحيح بشكل كامل أو خاطئ بشكل كامل، ولاوسط بينهما. إنَّ الفكرة القائلة بأن التبصر تنتج نسبة ١٠٠٪ من الاستجابات الصحيحة، قد استعمله هارتمان في تصميمه التجريبي، حين بحث معيار التعرف على الحلول بطريقة الاستبصار مقابل طريقة المحاولة والخطأ، وكانت المهمة والموقف المشكل متعلق بالمتاهات (دافيدوف، ١٩٨٠م).

يعتمد الحدس على المشاعر dependent on feelings أمَّا العقل والاستدلال فلا يعتمد عليها:

إنَّ أحد الفروق الرئيسية بين الحدس والعقل أو الاستدلال هو أن العقل المحض والاستدلال المجرد لا يعتمد على المشاعر والانطباعات، إنَّه يشبه الآلة machine-like كما أنه غير مشحون بانفعالاتنا، على عكس الحدس الذي يعتمد على المشاعر في كل مراحله، منذ الإدراك الأولي حيث تكون الانطباعات والمشاعر المتعلقة بالمعلومات قد انبثقت وأبدعت. فأثناء المعالجة الحدسية تكون المشاعر متبدلة (لأنها خاضعة لمستوى أولي primary level نسميه مستوى تفكير العمليات الأولية، المرتبط بما تحت الشعور وما فيه من مصادر عميقة).

وفي نهاية الحدس تكون المشاعر المرافقة ثابتة ومحددة (حين تخرج إلى حيِّز الوجود، وذلك لخضوعها للمستوى الثاني secondary level وهو مستوى تفكير العمليات الثانوية). والمشاعر تدخل في جميع خصائص الحدس أيضاً.

إن الاحتمالية الموضوعية أو الذاتية في طريقة المعالجة تعتمد على القرار الذي يتخذه الشخص في الموقف.

من جهة أخرى، فإنَّ الآليات الفيزيولوجية لعملية التكيف يمكنها أن تعدل الحكم الشخصي الذاتي. ويمكن استعمال نظرية التوقع من أجل فحص الأثر الفيزيولوجي على الاستدلال، وخاصة دراسة النتائج الفيزيولوجية على التقييمات الذاتية للشخص.

ففي الحكم الذي يستند إلى الحدس يتوقع المفحوص أن يكون صحيحاً ودقيقاً.

في الواقع فإن تقييمه للموقف يستند إلى خبرة وحيدة وجديدة.

وحين يكون هناك تشابه في المواقف التي تحتاج إلى حل أو اتخاذ حكم، فإنّه يستند لخبراته السابقة في توقعه للحل الناجح أو عدمه. فإذا قال «إنني اعتدت على الخطأ في هذا النوع من المشكلات، فإنني أتوقع أن أخطئ ثانية».

وهناك طرق أخرى لمعالجة المعلومات تختلف عن طريقة الاستدلال والتفكير التحليلي (التي لا تتدخل فيه المشاعر)، والحدس هو واحد من طرق المعالجة هذه والذي تتدخل فيه المشاعر، والتعاطف الوجداني.

الإدراك بطريقة الفراسة يجعلنا ندرك العلاقات حدسياً

إنّ إدراك العلاقات، بين العنصر أو الشيء وغيره وعلاقاتها جميعا بالكل، في الفكر الحدسي، يبدو أنه قدم إلينا من علم الفراسة (الإدراك والتعرف عن طريق ملامح الوجه وأساريره). وتبين تقارير العلماء والفنانين وعلماء الرياضيات، هذه الحالة بوضوح.كما أنّ آداب الفراسة حول الإدراك الفراسي (حس الفراسة)، تظهر أنّ هذه الظاهرة مرتبطة بالفكر الحدسي. فالإدراك الفراسي يشبه الحدس من حيث هو عملية أولية تتضمن المجال الكلي للمعرفة whole field of knowledge من جهة أخرى فإنّ كلا منهما يتضمن حالة ما قبل الشعور، والمشاعر والانفعالات المرتبطة بالتعاطف الوجداني والتوحد العاطفي.

إنّ إدراك العلاقات يختلف بشكل واضح عن المعرفة العقلية للعلاقات. إنّه وعي ينشأ من الحالة الانفعالية للفرد حيث يستجيب الشخص بشكل ذاتي للعلاقات القائمة بين عناصر الموضوع أو الشيء. وتظهر هذه العملية بين الناس أثناء تعبيراتهم، وفي أعمال الفنانين وعند العلماء خلال دراستهم للأشياء المادية.

فالإدراك الفراسي «هو أن نعتمد على خبراتنا الديناميكية وأفكارنا المتحركة بأن تنتج وتشكل».كما أننا نعزو إليها ما نقوم به من إحداث تجانس، وتوجه وثقة، ومشاعر وحدس. مثلا «يمكن لصوت الآلة نفسه أن يمثل تعبيرا قويا عن الشخصية». إنّ الكثير من الأشياء التي نواجهها ندركها حدسيا استناداً لما تحمله من علاقات مرتبطة بخبراتنا وتجاربنا السابقة.

لقد لاحظ العلماء الذين قاموا بدراسة لغة الطفل أنّ الكلمات المبكرة لديه تكون محملة بالمعاني العاطفية والانفعالية أكثر من

تحميلها بالمعاني العقلية، وقد فسر فيرنر Verner ذلك خلال أربعينيات القرن الماضي من خلال قوله بأنَّ ذلك يحدث نتيجة الخاصية الفراسية لإدراك الطفل وتصوراته، فالشكل الفراسي للإدراك يفترض أنَّه يستخدم بكثرة بوساطة الحيوانات والأطفال البدائيين، كما يستثار من خلال الحقيقة القائلة بأنَّ الموضوعات تدرك أولا بشكل جوهري من خلال الاتجاهات الحركية الانفعالية للقائم بالملاحظة أو الإدراك والذي يقوم بإسقاط حالته الحركية والبصرية على هذه الموضوعات، وحيث أنَّ الطفل يستخدم غالبا اللغة المعبرة عن مشاعره وحالاته الحركية لوصف الأشياء، وهي في حالة حركة، يقال إن تفكيره إحيائي Animistic وقد أرجع فيرنر ميل الأطفال إلى تشخيص الموضوعات والأشياء «أي شخصنتها» والنظر إليها كأشخاص أحياء، على ذلك الشكل الفراسي للإدراك والمعرفة، كما أنه نظر إلى «الإحيائية» باعتبارها شكلا متطوراً وأكثر تفصيلا لهذه النزعة (عبد الحميد، ٢٠٠٠م).

أمثلة عن إدراك العلاقات الرياضياتية والفنية والعلمية حدسياً بطريقة الفراسة:

هناك الكثير من الدلائل في الرياضيات والفنون والعلوم عن حس الفراسة، والإدراك الذي يعتمد الفراسة (الذي يستند إلى ملامح الوجه والظاهرة). وتظهر مثل هذه الدلائل أنَّ حس الفراسة شائع ومنتشر بكثرة في خصائص الحدس. ففي المثال التالي من الرياضيات، تمَّ دراسة وظيفة التخيل البصري في الرياضيات الأولية، وبينت أنه عندما يتم عرض البطاقة التالية (الشكل ١) بشكل ومضي وسريع، فإنَّ أحد المفحوصين قال «إنَّ عليه أن يتنقل بين الأشياء remove والعناصر حتى يسهل عليه بلوغ رموزها ومعناها» وقال آخر «إنَّ عليه أن يتقيد constrained، ويشعر بالتقييد والكبح ليتوصل إلى رموزها ومعناها»، من جهة أخرى فقد قال مفحوص آخر «لا أستطيع أن أرجع شيئاً أو أتنقل ضمنها، لأنها لاتعني لي شيئاً».

$$5 + Z = 9$$

الشكل (١): بطاقة تعرض بشكل ومضي وسريع لعلاقات رياضياتية وحسابية يتم إدراكها بشكل فراسي وحدسي.

إن إدراك المواقف بطريق الفراسة يعتبر ذاتيا وشخصيًا personal & subjective، لذلك تختلف عند الشخص نفسه من لحظة لأخرى ومن موقف لآخر،

كما تختلف أيضاً من شخص لآخر فهي نسبية مرتبطة بمزاج الشخص وحالته الانفعالية. من هنا تخضع للفروق الفردية.

لقد لوحظ أنَّ الأوصاف الذاتية للفنانين تظهر أن من الطبيعي لهم إدراك الأشياء على شكل فراسة، وأنَّه جزء من عملية إبداع. ولدى الراشدين المبدعين تعتبر العودة لطريقة الإدراك الحدسي و«الفراسي» بمثابة نكوص regression، ولكنها في هذا السياق تعتبر طريقة تفكير إبداعي. وكثيراً ما يظهر مثل هذا التفكير لدى رسومات الأطفال.

لقد ذكر أحد الباحثين (Bastick، 1982) أنَّ أهمية إدراك العلاقات في التفكير الذي يعتمد الفراسة، تبدو من خلال النقاط التالية:

١- إدراك العلاقات الذي يستند إلى حس الفراسة ضروري من أجل فهم العلاقات الرياضياتية.

٢- لهذا النوع من الإدراك تأثير مباشر في المعالجة المستمرة لعناصر الموقف الإدراكي ومعرفته.

٣- هذا النوع من الإدراك يحمل الكثير من الأفكار المترابطة والكلية، وخاصة لارتباطها بالمشاعر والشحنة الانفعالية التي تميزها، كما في الحدس.

٤- هذا النوع من التفكير دينامي، إنَّه يتصف بالتغير والتنقل على الرغم من أنَّ المثير الإدراكي نفسه ثابت.

خطوات الدليل والبرهان	الصورة العقلية المرافقة
لننظر في الأرقام من ٢ حتى ١١ ولنقل مثلا: ٢، ٣، ٥، ٧، ١١	أرى مقادير وكميات مربكة
لنقم بحساب ناتج هذه الأرقام: ٢ × ٣ × ٥ × ٧ × ١١ = ن (كم معين)	ن (النتيجة) رقم كبير، وبغض النظر عنه، فإنني أتخيل درجة وحجماً، ولا أتخيل ضآلة (حجم قليل) من هذه الأرقام التي كانت «مربكة» سابقاً.
يمكن أن أزيد الناتج عن طريق إضافة الرقم ١ إلى ن (ن +١)	فإنني أرى نتيجة وكمية أخرى تزيد عن الكمية السابقة.
إذا لم تكن هذه الأعداد أولية فسيسلم بالقاسم الأولي، باعتباره الرقم المطلوب	أرى حيزاً في مكان ما بين الكميات المربكة والنتيجة.

دعنا ننظر في دليل أولي في الحساب، والقضية التي بحاجة لإثبات هي: «إنَّ سلسلة الأعداد الأولية غير محدودة» يجب أن نعيد الخطوات الناجحة للبرهان الكلاسيكي على هذه القضية، وما يقابلها من صورة عقلية في الذهن.

ماذا عن الشاعر وحس الفراسة لديه؟

من الوسائل التي يستطيع الشاعر أن يعطي من خلالها تعبيراً واقعياً عيانياً للأفكار والظواهر الطبيعية أو النفسية هناك ما يسمى باللغة البدائية، فالشاعر لا تتكون مهمته فقط في تحديد الأشياء والوقائع، بل عليه أن ينقل الخبرة الحية الخاصة بالقوى المتفاعلة من مجاله بشكل صحيح ولكن بطريقة غير شعرية، والتكرار المستمر لحركة موجات البحر يوحي بالزمن بشكل مختلف عما توحي بـه حركة العمل والكدح اليومية للإنسان.

إنَّ خبرات الشاعر الأولية تشتمل على شعور دقيق بالخصائص الإدراكية التي تحمل التعبير الحاسم، ومع ذلك فإنه من خلال بحثه عن المكافئ المقابل لهذه الخبرة في شكل وسيط من الكلمات، غالبا ما يميل إلى استخدام الأسماء الأكثر تجريداً من الناحية الواقعية، وهي الأسماء التي يمكن أن تستدعي إلى الذهن أشياء، ولكنها لاتحمل الخصائص المميزة المحملة بالتعبير والانفعال. نتيجة لذلك يلجأ الشاعر خاصة – والمبدع عموماً– إلى الحركة فيما وراء الأفكار والمفاهيم، هذه الحركة غالباً ما تعود به إلى واقع الأشياء، والواقع الحركي والانفعالي لها.

إنَّ الشاعر هو الذي يتكئ على نمط من العلاقة الإدراكية (التشاكل insomorphism) لم يوضع بعد في تصورنا العلمي الحديث للعالم ونادراً ما نستخدمه أو نعبر عنه في لغتنا العلمية. فالحدسي والمبدع كلاهما لا يستطيعان أن يعبران عن منتجاتهما بالألفاظ في أغلب الأحيان. ولكن يستخدمان من دون تردد تعبيرات مثل «نغمة ناعمة». فقد يطبق الشاعر خاصية لمسية على الصوت كأن يقول «لون بارد» فيربط بين الحرارة والظواهر البصرية. ولكننا لانفعل ذلك على كل حال لأننا نعرف بشكل واع (على مستوى الخبرة الواعية الشعورية conscious experience) بوجود مظاهر تشابه بين عمليات الإدراك المشتقة من الحواس المختلفة، ولكن كلمات مثل: بارد، حار، مرتفع، مظلم، قد فقدت دلالتها الإدراكية النوعية المحددة بالنسبة لنا وأصبحت تستخدم الآن لتحديد قيم تعبيرية أكثر عمومية. إنَّ هذه الظواهر

اللغوية ذاتها تكشف لنا عن حقيقة أنه من الطبيعي بالنسبة للإنسان أن يعتمد على الخصائص المشتركة بين حواس مختلفة، لأنَّ هذه الخصائص والمظاهر المشتركة من الأمور الجوهرية لكشف العلاقات بين الظواهر والعناصر المختلفة في الطبيعية، وهي أساس عملية الحدس.

إنَّ المكونات التي لم تزل منفصلة على المستوى الواقعي، يتم التأليف والتوحيد بينها على مستوى الخصائص الفراسية، ثم تقوم الاستعارة والمجاز بتقطير أعمق ما في الواقع: الجوانب الأساسية من الحياة، والجوانب التي يقوم الفن والإبداع بالتعبير عنها، من خلال عملية يمكن للمجاز والاستعارات أن تعبر عن عملية التأليف والتوحيد وإثارة القوة الخاصة لاستكشاف العناصر وعالم الخصائص المشتركة والكلية.

التعاطف الوجداني والإسقاط يقدمان للفراسة ضرورة إدراك العلاقات الحدسية:

تبين لنا من خلال الاستعراض السابق، أنَّ هناك خصائص مشتركة بين الفراسة والحدس، وسوف نؤكد هنا هذا الافتراض، من خلال تقديم الدليل الذي يبين أنَّ التعاطف الوجداني أو التوحد العاطفي empathy، والإسقاط projection أمران جوهريان في الحدس، والتي تسمح بحس الفراسة.

وقد تبين أنَّ العلاقة بين إدراك الفراسة والتوحد العاطفي من خلال إعادة تنظيم العناصر السلوكية. ولدى المريض الذي يضعف لديه هذا الحس، يظهر عنده ضعفا في التعاطف والتوحد الوجداني وهذا يدعو للقول بأن التوحد العاطفي ضروري من أجل التواصل الانفعالي بين الأشخاص. من هنا يجب أن تصيبنا الدهشة حين نرى فقرا انفعاليا (بلادة انفعالية) لدى المريض النفسي.

إنَّ كلاً من إدراك أو حس الفراسة والتعاطف الوجداني يقدمان لنا إدراكا للعلاقات، يبدو على شكل شعور بالعلاقات، وهذا الشعور من أهم خصائص الحدس.

الخلاصة:

إنَّ القدرة الأساسية على إدراك أو حس الفراسة يمكّن الشخص من الربط بين انفعالاته «ومشاعره» وبين ما يدركه موضوعياً، وهذا يتيح له أن يتخيل العناصر ويتذكرها. إنَّ هذه القدرة تتضمن كلا من التعاطف الوجداني والإسقاط الذي يظهر في الإدراك perception وفي الانفعال emotion بشكل مترابط ومتكامل مما

يتيح لنا التخيل والتصور الدقيق لعناصر الموقف الإدراكي والمعرفي.

إنّ المشاعر المترابطة هي التي تبين كيف تدخل الخبرة الحدسية في مدركات الشخص. هذه المشاعر مستقلة عن المزاج، ولكنها مترابطة بالبيئة والمجال وبإحساسات الشخص الذاتية. لنرجع إلى مثالنا الذي سبق شرحه في الشكل (٣/٢). حين ندرك خطاً معيناً على أنّه بارد، فإنَّ هذا يستدعي مشاعر مترابطة عن الإحساس بالبرودة، وحين ندرك خطاً آخر على أنه حديد، فإنه يستدعي مشاعر وتصورات عقلية عن الصلابة، وهكذا. وهذا كله مستندٌ إلى قدرة الشخص على التعاطف الوجداني وإسقاطه لمحتوى مشاعره الذاتية.

ماذا عن تأثير القلق؟

من المعروف أن القلق «شعور غامض بوجود خطر وتهديد غير معروف مصدره ويخشى وقوعه، ويرافقه تغيرات عضوية ونفسية كبيرة». والبيئة الخارجية تضم العديد من المثيرات التي تساعد في إحداث درجات مختلفة من القلق. بعض حالات القلق يمكنها أن تشجع encourage عمليات الحدس لدى الشخص، في حين أن بعضها الآخر قد يكف inhibit عمليات الحدس.

إن القلق يسبب تهديداً موجها نحو الذات «وهذا التهديد قد يكون أولياً (الحاجة إلى الطعام، صدمة كهربائية) وقد يكون ثانويا .ومن القلق الذي يكف الحدس ما أسماه «مانسو Manso» القلق الموهن والمضعف».

متطلبات التفكير الحدسي:

من أهم متطلبات الحدس:

- القدرات المكانية والنموذج المعرفي في عملية الحدس
- التصور المسبق «ماقبل الشعور»، وعملية خفض القلق
- الحدس هو حالة ما تحت شعورية أو تصور مسبق.
- دور مرحلة الاحتضان ما قبل الشعوري في التبصر.

تستخدم مرحلة الاحتضان للإشارة إلى الزمن الذي ينمو فيه الحدس، إنَّه الفترة الفاصلة بين التحقق من المشكلة وبين الحل الحدسي لها. ويتضمن مصطلح الاحتضان incubation المعالجة الحدسية التي تجري خارج نطاق وعي الشخص، ونتيجة للمعالجة الضمنية المخفية hidden processing التي تتيح للحل فيما بعد أن يظهر كالشعاع المنير.

وتجدر الإشارة إلى أن طول فترة الاحتضان هذه تختلف من شخص لآخر حسب حالة التأهب الانفعالي لديه، كما تختلف لدى الشخص نفسه من وقت لآخر. وسنتحدث الآن عن فترة الاحتضان الأوّل التي تنتج عن تفاعل حالة التأهب الانفعالي Emotional set مع إعادة الصياغة ودرجة التركيز recentring.

يسبق خبرة التبصر فترة من الاحتضان. وفيها يكون الشخص منشغلاً بنفسه ومنغلقا على ذاته في المشكلة ولكنه غير قادر على أن يجد الحل شعوريا، ولا أن ينسى المشكلة بالوقت نفسه. فتمر ساعات، وأيام، وشهور وأحياناً سنوات، وفجأة يصل للحل، ونراه يعي الحل الذي ظهر لديه.

وقد دفعت مرحلة الاحتضان هذه الكثير من الكتاب للقول بأن العقل ما قبل الشعوري يملك نوعا من «الاستدلال والمحاكمة» reasoning أو يعمل في المعلومات بالطريقة نفسها التي يعمل فيها الشعور.

من جهة ثانية، فإنّ مراحل الفكر الحدس ليس مرسومة بوضوح وبشكل محدد، كما هو الحال في مناقشة العقل الرياضياتي أيضاً، كما يقول بارتليت. فالحدس استدلال أو «محاكمة» سريعة جدّاً، وبسبب سرعتها هذه، فإنّها تتميز عن المحاكمة المنطقية الصريحة والشعورية.

فالحدس، هو محاكمة سريعة جدّاً تحدث على مستوى ما قبل الشعور، ومن دون وعي صاحبها، ولها مرحلة مهمة جدّاً، هي مرحلة الاحتضان، التي قد تطول فترتها وقد تقصر. ولكن الأحداس (جمع حدس) التي تحدث بعد فترة احتضان مطولة، تتضمن عادة تركيزاً وإعادة صياغة صارمة drastic recentring، ويحدث هذا عندما تكون الاستجابات التي أشرطت مسبقا وارتبطت بحالتين متشابهتين من حالات التأهب الانفعالي، ولكنها اجتمعت معا على شكل علاقات انفعالية أكثر تعقيداً.

إنّ هذا التفسير لاجتماع وترابط الحالات الانفعالية في عملية الحدس، هو الذي يهدف أصلاً إلى خفض حالة التوتر المستمرة الناتجة عن الحالة الانفعالية السابقة والأصلية المرتبطة بالمشكلة. وخلال مرحلة الاحتضان، تتعرض استجابات جديدة للاشتراط والاقتران بهذه الحالات الانفعالية المعقدة. وبازدياد الاستجابات المشرطة مع هذه الحالة الانفعالية تزداد إعادة الصياغة والتركيز لدى الشخص الحدسي، وبالتالي فإنّ المعالجة وإعادة الصياغة والتركيز تزداد جميعها بازدياد انغماس الشخص

بحالة التأهب الانفعالي، مما يثير الكثير من الاستجابات، التي تخدم جميعها بلوغ الهدف النهائي (Wescott،1986).

لماذا نثق بالحدس ونواتجه؟

إنَّ الثقة بما يقدمه لنا الحدس من حلول وأحكام، هي محصلة لخفض القلق الذي كان يعانيه الشخص أثناء مراحل الحدس المختلفة التي كانت مشبعة بحالات انفعالية متنوعة.

إنَّ الحالة الانفعالية قد تكون متناقضة، وذلك لأنَّ مثيراً معيناً قد يستدعي حالة انفعالية مختلفة عن السابقة، مما يخلق تنوّعاً في الاستجابات وتصارعاً فيما بينها. مثلا، في الوقت أو الموقف الحالي قد يكون هناك استجابة مناسبة لهذا الموقف، ولكن تحت ظروف أخرى قد لاتتناسب هذه الاستجابة عناصر الموقف الجديد، مما يستدعي كف هذه الاستجابة.

فهذا التصارع بين المثيرات/ الاستجابات، يرافقه ضعف ثقة فيها، لأنَّه غير متأكد منها مما يستدعي كف بعضها. ولكن كلما خف هذا الصراع يخف القلق والمشاعر المتناقضة، ويعطي مزيداً من الثقة بما تبقى من استجابات تنحصر في الحكم النهائي للحدس وحلوله. ثم إنَّ الحالة الانفعالية التي تنهي عملية الحدس، تملك مستوى مناسباً من القلق، الذي يعزى إلى العناصر التي خفضت الاستجابات المتصارعة. فالعناصر غير المتشابهة التي تملك استجابات متصارعة، قد يتم خفضها بالطرق التالية التي تبدل حالات الإشراط المرافقة للحالة الانفعالية:

١- التعلم الأدائي أو الوسيلي instumental learning. إنَّ العناصر غير المتشابهة تكون مشروطة (مقترنة) بالحالة الانفعالية الحالية، وتستجر استجابات لبلوغ الهدف.

٢- المعنى والمغزى الذي يعطى لاجتماع هذه الحالات الانفعالية.

٣- التركيز وإعادة الصياغة. عندما يتم التركيز على حالات انفعالية وسلوكية، بحيث يتم إعادة معالجة لها وصياغة حتى تصبح متكاملة integrated، وكأنَّها حالة واحدة.

٤- التعميم gneralization. حيث تكثر العناصر التي تدخل في عملية الحدث، بعضها متشابه وبعضها مختلف عن الآخر. وفي كل الحالات يتم تعميم الاستجابات الصادرة عنها، لمواقف جديدة. وهذا التعميم مبدأ من مبادئ التعلم (عبد الله، ٢٠٠٠) م.

الثقة الذاتية التي ترافق المرحلة الحدسية من مراحل الإبداع:

لقد ذكرنا أنَّ خفض القلق الذي يرافق المرحلة الحدسية من مراحل الإبداع، تعطي المبدع ثقة بنفسه ورضا.

إنَّ الحالات الانفعالية، تحملها المكونات الوجدانية للإحباط affective elements of fruaration والمكونات المعرفية للمنظومة cognitive elements of system للأفكار التي تتبدل مع الحالة الانفعالية.

إنَّ عملية الحدس، بسبب طبيعتها المعقدة، هي عملية غير واضحة تماما، ولكن ما نعرفه عنها يدفعنا للتفكير بالتبصر -والحدس- ليس على أنَّه أفكار منفردة single ideas تصل من مستوى ما قبل الشعور، بل يتألف من منظومة متكاملة من الأفكار wole system of ideas ومعقدة. والتي تنشأ بوساطة إحباطات الموقف المشكل. ففي المرحلة الحدسية من مراحل الإبداع تتجمع المشاعر الانفعالية بحيث تكون نتيجة ذلك خفض الإحباط والتوتر.

عند إعادة التركيز والصياغة، فإنَّ تجمع عدد من الحالات الانفعالية المتناقضة، هي التي تدفع نحو خفض متزايد للقلق والتوتر. فقد تكون هذه المشاعر الانفعالية: المتعة، التوتر، القلق، الطاقة الانفعالية، مجتمعة لتشكل حالة من التأهبات (التهيؤ) الانفعالية. فالطاقة التي يعيشها المبدع، هي نتيجة تجمع هذه المشاعر الانفعالية المربكة في منظومة واحدة.

كما أنَّ الشعور بالمتعة والسرور التي يعيشها المبدع قد استند إليها تورنس Torrance في قياسه للتفكير الإبداعي. فقد استعمل مقياسا من عشر نقاط ليقيس مشاعر الإثارة والمتعة التي يعيشها المبدع. وتبين له أنَّ هناك سبع خصائص تميز الإبداع، ويمكن وضعها في حالة واحدة هي «فقدان القلق» الذي يدفع الشخص لمزيد من الثقة في إنتاجه الإبداعي.

من جهة ثانية فإنَّ المرحلة الحدسية من مراحل الإبداع هذه، تتضمن عدداً من العمليات والنواتج الحدسية: كالتعرف والتمييز، القبول والموافقة، الأحكام، الذكريات، الترابطات والعلاقات، والمتشابهات، التركيز وإعادة الصياغة، التعلم،.. (Torrance & Reyholds، 1980).

إنَّ مشاعر الثقة التي يشعر بها الحدسي، حين خفض القلق، قد حدثت عن طريق ما تحمله عناصر عملية الحدس من نزعة نسبية للتبدل، والتي استدعت استجابات متصارعة، إنَّ خفض هذه النزعة النسبية للتبدل والتغيير، قد تحصل بوساطة:

١- الإشراط الإضافي وخاصة «التعلم الوسيلي أو الأدائي.
٢- تعميم الاستجابات المرافقة للحالات الانفعالية.
٣- المعنى والمغزى الذي يعطى لهذه الحالات.
٤- التركيز وإعادة الصياغة.

تستعمل هذه الطرق عادة بسبب قدرتها على خفض النزعة للاستجابات المتصارعة، ويكون التركيز وإعادة الصياغة من أهمها، بسبب دوره الهام في خفض القلق والتوتر مع مرور الوقت.

العوامل الشخصية المؤدية إلى ثقة الشخص بحدسه:

إنَّ هناك علاقات متبادلة بين عناصر عملية الحدس وصفاتها المختلفة وقد ركز علماء النفس على دراسة عوامل ومتغيرات الشخصية المرتبطة بثقة الشخص في حدسه. ومن هذه العوامل والمتغيرات التي تمَّ بحثها:

١- الإثارة الذاتية self-excitatioin، التي تبدو مع حالة القلق بدرجات عالية لدى الأشخاص الحدسيين.
٢- أنماط واستعدادات حدسية عالية بسبب الثقة المتزايدة بهذا الأسلوب، وخفضه لدرجات القلق العالية المرافقة للمواقف المشكلة.

وتنتج هذه الثقة بسبب فشل الأساليب المعرفية الأخرى في حل المشكلات، وخاصة التحليلية منها.

٣- حالات الإحباط تحدث في الإبداع العلمي أكثر مما تحدث في الإبداع الفني، لأنَّ الإنتاج العلمي الإبداعي يجب أن يكون متناسقا مع المعرفة العلمية.
٤- إنَّ الطاقة الانفعالية والمشاعر الشخصية التي تنتج الثقة لها تأثيراتها في الجسم، وخاصة التغيرات الخاصة بالجهاز العصبي السمبثاوي sympathetic nervous system. وهناك فروق فردية بين الأشخاص من حيث إثارة هذا الجهاز وما ينتج عنه من تغيرات عضوية وحشوية، وخاصة في إفراز الأدرينالين الذي تفرزه الغدد الكلوية.
٥- يلعب تحقيق الذات self-actualization دوراً هاماً لدى الشخصية الحدسية والإبداعية. هذه الشخصية تتصف بصفات هامة مثل: ارتقاء الذات self-development، خبرة الذروة peake-experience، الحكم والتقييم judgement وانخفاض دفاعات الأنا lack of ego defences. وقد أكد (ماسلو) من خلال دراساته للعديد من الشخصيات المبدعة

وعدد من المختصين في مجالات الخدمة الاجتماعية والطب النفسي، أنَّ مثل هذا الشخص يتمتع بالفطنة والحدس اللذين يساعدان الآخرين على العلاج والمساعدة واكتشاف الجوانب الإيجابية بداخلهم.

٦- قبل الحدس لابد من تفكير عميق، وقبل الجرأة يأتي الحذر، وقبل التهويم والخيال تأتي عمليات اختبار الواقع. بعدها الأدوار الهامة لعمليات المقارنة وإصدار الأحكام والتقييمات. فالعمل العظيم يحتاج ليس فقط إلى الإلهام والظهور المفاجئ، ولكنه يحتاج لجهد وعمل شاق وتدريب مستمر ونقد قاسٍ.

وأخيراً

الحدس عملية عقلية معرفية معقدة، تتدخل في أحد أهم أشكال التفكير وهو التفكير الحدسي، الذي يلعب فيه النصف الأيسر للمخ دوراً بارزاً، ويقف خلف الكثير من الإبداعات الفنية، والأدبية، والعلمية، حيث يكون لمرحلة الإلهام (المرحلة الثالثة للإبداع) دور مهم في ظهور الحلول المفاجئة. وتلعب العوامل الانفعالية والعضوية دوراً مهماً فيها، من هنا تختلف مستويات هذه العملية العقلية بين الأفراد كغيرها من الفروق مثل الذكاء، والتذكر، والقدرات الأخرى. وللآليات النفسية الدفاعية دور في تطورها، كما هو في خبرات الشخص السابقة، ومستويات الشعور والوعي لديه.

وداعاً لفيلسوف «القوة الهادئة» الفرنسي ستيفان هيسيل

إبراهيم سلوم *



في الصباح الباكر من يوم الأربعاء الواقع في ٢٧ شباط نعت فرنسا بكل أطيافها ومعها منظمة الأمم المتحدة وفاة الفيلسوف والدبلوماسي والناشط ستيفان هيسيل في منزله بباريس عن عمر ناهز الـ٩٥ سنة.

يشار إلى أنَّ هيسيل الذي وُلد في عام ١٩١٧م في برلين بألمانيا هو فرنسي ولكن من أصول ألمانية، فهو من أب بولوني يهودي يدعى فرانز هيسيل كان قد كرّس حياته للأدب الألماني ولترجمة الرسائل

والنصوص اليونانية القديمة، ومن أمٍّ مسيحية بروتستانتية تدعى هيلين غروند، وتهوى الرسم والموسيقى والكتابة، وتقيم علاقات قوية مع الأوساط الأدبية الفرنسية وخاصة بعد أن انتقلت العائلة إلى العيش في فرنسا في العام ١٩٢٤م، أي عندما بلغ ستيفان سن السابعة من العمر.

* مترجم وباحث سوري.

ويُحكى أنّها ارتبطت بعلاقة حب متينة مع الكاتب الفرنسي هنري بيير روشيه (Roché). وهذه العلاقة القائمة على الزنا قَبِل بها الزوج فرانز على كُرْهٍ منه. ثم سرعان ما تحولت إلى قصة حب جارفة دفعت بالكاتب العشيق روشيه إلى إصدار رواية عنها بعنوان: «جول وجيم». وقد تحولت هذه الرواية إلى فيلم سينمائي قام بإخراجه السينمائي الفرنسي فرانسوا تروفو (Truffaut) (١٩٣٢-١٩٨٤م) حيث لعبت فيه الممثلة الشهيرة جان مورو دور الزوجة هيلين، في حين جسّد شخصية جول الزوج فرانز، وجيم شخصية العاشق هنري بيير روشيه. وعلى هذا النحو يصبح ستيفان سليل عائلة من الأدباء والفنانين.

لقد كان من المفروض أن يؤثر وسطه العائلي في حياته ويحولها إلى حياة هادئة مكرسة للأدب والفكر إلا أن ستيفان اختار أن يكون إنساناً شجاعاً وملتزماً إلى أبعد الحدود بقضايا عصره ومدافعاً عنها. وقد تجلى ذلك إبان الحرب العالمية الثانية حين انتفض لمقاومة الاحتلال النازي وانضم إلى قوات «فرنسا الحرة» بزعامة الجنرال شارل ديغول. وفي أثنائها ألقي القبض عليه وأرسل إلى معسكر الاعتقال في بوشنوالد في ألمانيا وهناك تمكن من الهرب.

ومنذ ذلك الحين كرّس هيسيل حياته للكفاح في سبيل حقوق الإنسان كأساسٍ لثقافة السلام والاحترام المتبادل. كما كان من أشد المتحمسين لاستقلال الجزائر وحق الشعوب في تقرير مصيرها ونيل استقلالها.

ومؤخراً اعتُبر من أشد المدافعين عن القضية الفلسطينية، وقد جرّ له هذا الموقف الكثير من المشكلات وأدخله في قلب معركة شرسة ضد إسرائيل بعد أن كان أحد المصفقين لقيام دولتها في العام ١٩٤٨م بقوله: «في ذلك الوقت كنت على غرار كثيرين من الناس أجهل حقيقة ما يجري في فلسطين وما يحدث فيها من وقائع حقيقية». وقد وضعه موقفه هذا في مواجهة مع الإعلام الغربي الذي لم يتورع عن أن يفرض حوله سياجاً سميكاً، لبناته مكونة من تهمة «معاداة السامية» ليجد نفسه متهماً بها وليصبح بحاجة إلى الدفاع عن نفسه.

وفي جميع مؤلفاته نجد دعوةً للثورة والتصدي للهيمنة الاقتصادية الرأسمالية. والسبيل الذي ينبغي نهجه هو اللجوء إلى الغضب وإلى «القوة الهادئة» من خلال العصيان السلمي تنديداً بهذه الديكتاتورية المالية التي تجعل الغني يزداد غنىً والفقير

يزداد فقراً، وبالتالي خَلْق هوة عميقة بينهما يصعب ردمها.

وهــذه الهوة لا تكف عن التعاظم، وهذا من مبتكرات القرن الواحد والعشرين الذي نعيش فيه إذ إن أفقــر الناس في عالم اليوم لا يكاد يكســب دولاراً واحــداً في اليوم. لا يمكن ترك هذه الهوة تتسع وتتعمق بل علينا التعبــير عن الغضــب ولأن اللجوء إلى هذه «القوة الهادئة» يبدو أكثر اســتفزازاً للمحتل من الاحتكام للسلاح والعمل الحربي. يبقى الاســتمرار في المطالبة الســلمية وسيلة قد تؤدي إلى مزيد من التضــييق على المستعمر واســتنزافه اقتصــادياً ومعنوياً، وبالتالي تضعضع قوته العسكرية وتفككها على المدى الطويل.

إذن، فالحافز والأساس على المقاومة هو الغضب، أي تلك القوة النفسية الهادئة التي يجــب أن تدفع بالأجيال الشــابة إلى الثورة ضد الأوضاع السيئة بغية تحسينها وجعلها أكثر ملاءمة للعيش الكريم. وهذه الحالة من الغضب يجب ألا تكتســي طابعاً اقتصادياً فحسب بل طابعاً سياسياً كما هو الحال في القضية الفلســطينية حيث ينبغي الوقوف ضد تعنت إسرائيل حيال الاستجابة لمطالب الشعب الفلســطيني من أجل تحرير أرضه واستعادة حقوقه المغتصبة وبناء دولته على أرضه فلســطين. إنَّه غضب هادئ لجأ إليه كل من القســ مارتن لوثر كينغ في الولايات المتحدة الأمريكية من أجل الدفاع عن حقوق السود، ونيلســون مانديلا من أجل القضاء على الأبارتايد فأعطى ثماره. ليكنْ غضبــاً هادئاً ضــد الجشــع المالي للحكام وسيطرة المصارف التي تبدو مهتمة بأرباحها في المقام الأوّل وبالرواتب العالية جداً التي يتقاضاها مــدراء هذه المصــارف بدلاً مــن الاهتمام بالمصلحة العامة، وضد ديكتاتورية الأسواق المالية التــي تهدد الســلام والديمقراطية، وضــد سياسات تستهين وتســتخف بالناس وحقهم في الحياة الكريمة.

ولقد قدمنا عندما كنا في المقاومة ضد الاحتلال النازي تنظيماً عقلانياً للاقتصاد بحيث تتبع فيه المصــلحة الخاصة المصلحة العامــة، تنظيماً متحرراً مــن الديكتاتورية المميتــة التــي تؤســس على صــورة الدول الفاشية.

إن أســوأ المواقــف في هذه المســألة هو اللامبــالاة، كأن يقول المرء: ليس لي في اليد حيلــة. إنَّ موقفــاً كهذا يجعــل المرء يفقد أحــد أهم المكونات الجوهرية التي تصــنع الإنسان.

وضــمن هذا الســياق تــدرج مؤلفاته التــي أثارت جيل الشــباب بالأفكار الثورية

والمواقف الشجاعة التي اتخذها الكاتب على مدى مسيرة حياته الطويلة. ففي العقد الثامن من حياته كتب أوّل نتاجه فكان: «رقص مع القرن» (١٩٩٧م). ثم نشر «يا لذاكرتي» (٢٠٠٦م)، ثم «وداعاً للشجاعة» (٢٠٠٦م). كما كتب «مواطن بلا حدود» (٢٠٠٨م). أمَّا كتابه الأخير الذي شكل ثورة في عالم النشر فكان: «اغضبوا» (Indignez-vous) الصادر في العام ٢٠١٠م، والذي تزامن صدوره مع الأزمة الاقتصادية التي هزت الولايات المتحدة الأمريكية ومن ثم أوروبة، وبيع منه الملايين، وتُرجم إلى عدة لغات من بينها اللغة العربية، (ترجمة صالح الأشمر، دار النشر «الجمل» بيروت).

وقد أعطى هذا الكتاب دفعةً للمتظاهرين في كافة العواصم العالمية، وشكّل نواة لحركات احتجاجية في إسبانيا (ساحة بويرتا ديل سول) بمدريد، وفي اليونان، وبالتحديد في نيويورك حين قام «الساخطون» باحتلال وول ستريت تنديداً بالهيمنة الاقتصادية الرأسمالية، كما شكل ينبوعاً للوقوف في وجه الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين.

والجدير بالذكر أن الإحاطة بسيرة حياة هذا المؤلف المعاصر الذي ملأ الدنيا وشغل جيل الشباب بأفكاره الثورية في كافة أرجاء المعمورة تتم من خلال مطالعتنا لكتابه الخاص بسيرة حياته والمعنون: «رقص مع القرن»، ويقصد به القرن العشرين الذي كان حافلاً بالأحداث العالمية الكبيرة التي كان شاهداً عليها ومساهماً في بعضها.

وفي هذا الكتاب يتحدث عن طفل ولد في مطلع القرن العشرين، ثم التزم وهو في ريعان الشباب بقضايا عصره، وناضل من أجل الدفاع عنها حتى مطلع القرن الواحد والعشرين.

إنَّ قراءة الكتاب تعلمنا بأن هيسيل ولد في برلين في العام ١٩١٧م من أب بولوني وأم ألمانية. ثم رحلت العائلة في العام ١٩٢٤م إلى باريس بناءً على رغبة أمه التي كانت تهوى العيش في باريس، مدينة الأنوار. وعندما حصل على شهادة الثانوية في العام ١٩٣٤م انتسب إلى دار المعلمين العليا. وبعد تخرّجه منها في العام ١٩٣٩ حصل على الجنسية الفرنسية، وقد ساعده على ذلك اقترانه بفتاة فرنسية تدعى فيتيا.

ومع دخول القوات النازية إلى فرنسا في صيف العام ١٩٤٠م التحق ستيفان بصفوف المقاومة ضد الاحتلال النازي، لكنه ألقي القبض عليه وأودع في سجن للأسرى. وقد تمكن من الهرب ومن ثم الانضمام إلى قوات «فرنسا الحرة» حيث عمل في جهاز

الاستخبارات الفرنسية الخارجية. وخلال تكليفه بمهمة أمنية تقتضي منه أن يكون رجل اتصال بين جماعات المقاومة والمركز البريطاني في فرنسا المحتلة ألقى «الغيستابو» الألماني القبض عليه فقام بتعذيبه وإرساله إلى معسكر الاعتقال «بوشنوالد» بألمانيا.

وبعد محاكمة صورية صدر الحكم عليه بالإعدام. ولكن بفضل مساعدة ضابط ألماني كان يعطف عليه لتحدثه باللغة الألمانية وقام باستبدال هويته بهوية أسير فرنسي توفي بحمى التيفوس في المعسكر، نجا هيسيل من حبل المشنقة وهرب ثانيةً من معسكرات الاعتقال ثم عاد إلى باريس سليماً معافى ليلتقي بزوجته «فيتيا» أم أطفاله الثلاثة: صبيان وبنت، وليشهد عملية تحرير باريس في العام ١٩٤٤م.

وفي العام ١٩٤٦م أعلنت وزارة الخارجية الفرنسية عن إجراء مسابقة للقبول الدبلوماسي فاجتازها هيسيل بنجاح وأصبح بموجبها دبلوماسياً. وكان منصبه الأول في الأمم المتحدة عندما طلب منه هنري لوغييه الأمين العام المساعد للأمم المتحدة والأمين العام للجنة حقوق الإنسان أن يعمل في مكتبه بنيويورك. وبهذه الصفة انضم هيسيل إلى اللجنة المكلفة بصوغ ما تعارفنا على تسميته وثيقة «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» التي تتألف من ٤٠٠ صفحة. وقد تشكلت هذه اللجنة من ١٢ عضواً، ويُعدّ هيسيل من بين الأعضاء الستة الذين لعبوا دوراً جوهرياً فيها. فهناك رئيسة اللجنة إليانور روزفلت أرملة الرئيس الأمريكي الراحل فرانكلين روزفلت الذي توفي في العام ١٩٤٥ قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية ببضعة أشهر، وقد اشتهرت بدفاعها عن حقوق المرأة. ونائبها الصيني تشانغ كاي شيك، وشارل مالك من لبنان الذي عين متحدثاً رسمياً باسم اللجنة، والفرنسي رينيه كاسان، رجل القانون والدبلوماسي الفرنسي الذي كان رئيس اللجنة الاستشارية لحقوق الإنسان في وزارة الخارجية الفرنسية، كما وكان له الفضل في صوغ عدة مواد.

هذا وتدين فرنسا له بقدرته على استيعاب مخاوفها من أن ترى سيادتها الاستعمارية مهددة وفق هذا الإعلان الذي جلب لها الطمأنينة بالنسبة لمصالحها الاستعمارية عبر العالم. وجون همفري من كندا المحامي والدبلوماسي، وأخيراً ستيفان هيسيل الدبلوماسي الفرنسي والأصغر سناً بين أعضاء اللجنة. وفي يوم ١٠ كانون الأول ١٩٤٨م اعتمدت الأمم المتحدة وثيقة الإعلان عن حقوق الإنسان في قصر «شايو» بباريس لأنَّ روح «فرنسا الحرة» التي تزعمها

الجنرال شارل ديغول كانت طاغية على تلك اللجنة. ومع تدفق الموظفين الجدد الباحثين عن الرواتب العالية فقط ترك هيسيل الأمم المتحدة ليعود إلى باريس حيث عُيِّن في وزارة الخارجية لتمثيل فرنسا في المنظمات الدولية ويدافع عن استقلال الجزائر الذي نالته أخيراً في العام ١٩٦٢م. في العام ١٩٧٧م عرض عليه الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان منصب سفير فرنسا لدى الأمم المتحدة في جنيف. وسيعرف دوره كدبلوماسي لامع مع وصول فرانسوا ميتران إلى رئاسة فرنسا في ربيع عام ١٩٨١م حين صرح هيسيل قائلاً:

«جعلت حكومة ميتران مني دبلوماسياً مختصاً في التعاون المتعدد الأطراف في وقت وصلت فيه إلى سن التقاعد». ثم انتسب إلى الحزب الاشتراكي وأصيب بصدمة نفسية في العام ١٩٩٥م حين تم انتخاب جاك شيراك رئيساً لفرنسا، وأثناءها قال: «لم أكن أتوقع أن يكون الفرنسيون على هذا القدر من قلة الحذر ليدفعوا بشيراك إلى سدة الرئاسة».

وبما أنه أصبح يملك جواز سفر دبلوماسي فقد زار مع زوجته قطاع غزة في عامي ٢٠٠٨ و٢٠٠٩م. وعندما عاد إلى فرنسا قدّم شهادة عن حياة أهالي غزة المؤلمة:

«لقد كنت دوماً إلى جانب المضطهدين. وعندما ناضلت ضد النازية فلكي أحارب الأنظمة الشمولية كالنازية والفاشية التي أثقلت كاهل الشعوب. لقد كان هتلر يعتبر نفسه سيداً في بلده وله الحق في ارتكاب إبادة شعبه والشعوب الأخرى. ولهذا انخرطت في صفوف المقاومة لأنني كنت أشعر بأنه ينبغي الإسراع في الحفاظ على حق الشعوب في الحرية والكرامة استناداً إلى المادة (١٥) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تقول: «لكل إنسان حق التمتع بجنسيته». أما المادة (٢٢) فنصت مايلي: «لكل إنسان بصفته عضواً في المجتمع الحق في الضمان الاجتماعي، والضمان الاجتماعي هذا يقوم على أساس تمتع كل إنسان بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي لا بدّ منها للحفاظ على الكرامة والتطور الحر لشخصيته وذلك بفضل المجهود القومي والتعاون الدولي بما يتفق ونُظُم كل دولة ومواردها». وفي هذه الأثناء رأينا شعوباً محتلة تستند على هذا الإعلان في نضالها من أجل نيل استقلالها.

وبالفعل بذر هذا الإعلان بذوره في أذهان الناس خلال معركتهم من أجل الاستقلال والحرية. وهكذا شهدنا لاحقاً تطورات مهمة قد أنجزت: زوال الاستعمار، نهاية

الأبارتايد، سقوط جدار برلين خلال العقد الأخير من القرن العشرين. أمَّا في مطلع القرن الواحد والعشرين فقد شهدنا فترة نكوص بسبب رئاسة جورج بوش وهجمات الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١م، وما تبعها من آثار مدمرة على واشنطن جراء التدخل العسكري في العراق وتبعاته التي تجلت مؤخراً بنشوء أزمة اقتصادية لم يتم التوصل بعد إلى حلها.

كما لم نتوصل إلى مواجهة الاحتباس الحراري رغم انعقاد قمة كوبنهاغن التي لم تؤدِّ إلى نتيجة بشأن حماية كوكب الأرض من التلوث، علماً أنَّ القرن العشرين كان مصدراً لتطور كبير إذ استطاعت فيه الأمم المتحدة أن تدعو إلى مؤتمرات مثل: «مؤتمر الأرض» في ريو دي جانيرو (عام ١٩٩٢م). و«عام المرأة» في بكين (١٩٩٥م)، وفي عام ٢٠٠٠ وبمبادرة من الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان تبنت الدول الأعضاء البالغ عددها ١٩١ دولة الإعلان عن آفاق التطور للألفية الثالثة الجديدة من خلال تقليص معدل الفقر إلى النصف بحلول عام ٢٠١٥م. ولسوء الحظ لم نرَ الاتحاد الأوروبي ولا الولايات المتحدة الأمريكية يبذلان أي جهد في هذا الاتجاه».

وفي عام ١٩٩٣م أحيل هيسيل إلى التقاعد لكنه لم يرمِ بسلاحه، فبقي يدافع عن المضطهدين وبشكل خاص الفلسطينيين. وضمن هذا السياق جاء كتابه: «اغضبوا» الصادر في العام ٢٠١٠م لينتقد فيه هيمنة المال على العقل وليندد بالسياسات الإسرائيلية ويدعو للمساواة في التعامل بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

وهذا الكتاب يقع في ستة فصول وهي: الحافز على المقاومة هو الغضب، رؤيتان للتاريخ، اللامبالاة: هي أسوأ المواقف، غضبي بخصوص فلسطين، اللاعنف: هو السبيل الذي ينبغي علينا اتباعه، وأخيراً، من أجل عصيان سلمي.

والمراد من ذلك الحضّ على الإفصاح عن التأثر والانفعال رفضاً لامتهان الكرامة ولسياسة تستخف بالناس وحقهم في الحياة الكريمة مثلما نرى ذلك في فصول الكتاب الستة التالية:

أ) **الحافز على المقاومة هو الغضب:** في هذا الفصل يشرح هيسيل بأنه لما كان سلطان المال هو المهيمن على عصرنا، وأنانياً مع خدامه الذين يحتلون أعلى مراكز النفوذ في الدولة، ولا سيما في المصارف التي تبدو مهمة بأرباحها وبالرواتب العالية التي تعطيها للعاملين فيها لا

بالمصلحة العامة فعلينا ألا نستسلم لتأثير الديكتاتورية للأسواق المالية التي تهدد السلام والديمقراطية، وأن ندفع إلى المقاومة لأن هذه الديكتاتورية بدأت تثير غضبنا كما كنت أنا مغضباً من النازية. وهذا الغضب لا بد أن ينجح ويمضي نحو مزيد من العدالة ومزيد من الحرية.

ب) **رؤيتان للتاريخ:** وفي هذا الفصل يردنا هيسيل إلى الوراء إلى العصر النازي، والمحاكمات الستالينية الكبرى التي جرت في عام ١٩٣٥م، ويرى تطابقاً بينهما. فكلتاهما فرضت نظاماً شمولياً على شعوبها أذاقتها الأمرين وأزهقت الكثير من دمائها، ولكنها تلاشت كلها بفضل وعي الجماهير الذي لا يُقهر.

ج) **اللامبالاة:** أسوأ المواقف: يرى هيسيل أن أسوأ المواقف هو اللامبالاة عندما نرى أنَّ الهوة عميقة بين الأغنياء والفقراء، وحقوق الإنسان مهضومة. حيال ذلك أشعر بوجوب العمل سريعاً لجعل الإنسان يعيش حراً كريماً.

د) **غضبي بخصوص فلسطين:** يقول هيسيل في هذا الفصل: «اليوم ينصب غضبي الأكبر على ما يحدث في فلسطين (قطاع غزة والضفة الغربية)، إنَّ هذا النزاع هو منبع غضب في ذاته. ينبغي حتماً قراءة تقرير القاضي ريتشارد غولدستون حول الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة في عام ٢٠٠٩م. والذي اتهم فيه القاضي اليهودي من جنوب أفريقيا، الذي يعتبر نفسه صهيونياً، الجيش الإسرائيلي بـ «ارتكاب أعمال قد تعتبر جرائم حرب وربما أيضاً، في بعض الحالات، جرائم ضد الإنسانية» خلال العملية العسكرية المعروفة باسم «الرصاص المسكوب»، التي استمرت ثلاثة أسابيع. في عام ٢٠٠٩م، ذهبت بنفسي إلى قطاع غزة، حيث استطعت الدخول برفقة زوجتي بفضل جوازي سفرنا الدبلوماسيين.

أردت أن أعاين بأم عيني ما ورد في التقرير. لم يسمح للأشخاص الذين كانوا يرافقوننا بالعبور إلى قطاع غزة وكذلك كان الأمر في الضفة الغربية أيضاً. زرنا كذلك مخيمات اللاجئين الفلسطينيين التي أقامتها منظمة الأونروا منذ عام ١٩٤٨م، حيث يعيش أكثر من ثلاثة ملايين فلسطيني طردتهم إسرائيل من أرضهم وينتظرون العودة إلى ديارهم، عودة تزداد إشكالية يوماً بعد يوم. أما غزة، فهي أشبه بسجن ذي فسحة سماوية يعيش فيه أكثر من مليون ونصف

مليون فلسطيني. سجنٌ يتدبرون فيه أمرهم للبقاء على قيد الحياة.

ما يسكن ذاكرتنا اليوم، أكثر من الدمار الذي لحق بالمباني وأهمها مستشفى الصليب الأحمر الذي قصف في عملية «الرصاص المسكوب»، هو سلوك الغزاويين، وطنيتهم، حبهم للبحر والشواطئ، سهرهم المستمر على راحة أطفالهم، الكثيرين والضحوكين. بُهرنا بطرائقهم الخلاقة لتخطي كل ما فُرض عليهم من أسباب الحرمان.

رأيناهم يعدّون لَبنات يدوية، لقلة الإسمنت، كي يتمكنوا من بناء آلاف المنازل التي دمرتها الدبابات. وتأكد لنا موت ألف وأربعمئة شخص بين نساء وشيوخ وأطفال من الجانب الفلسطيني على إثر هذه العملية العسكرية، مقابل خمسين جريحاً فقط في الصفوف الإسرائيلية. وأنا أتفق مع القاضي غولدستون في خلاصاته. إنَّه لأمر لا يُحتمل أن يقدم اليهود على ارتكاب جرائم حرب. وآسفاه! فالتاريخ لا يقدم الكثير من الأمثلة عن شعوب تستخلص العبر من تاريخها الخاص.

أعرف حق المعرفة أن حركة «حماس» التي فازت في الانتخابات التشريعية الأخيرة لم تكن تستطيع تفادي إطلاق الصواريخ على المدن الإسرائيلية كرد على الحصار والعزلة الذي يعيشها الغزاويون. وأعلم طبعاً أن الإرهاب مرفوض، لكن لا بد لنا أن نقرّ بأنه حين نرزح تحت احتلال مزود بمعدات عسكرية تتخطى قدراتنا بأشواط، فإن رد الفعل الشعبي لا يمكنه أن يكون سلمياً حصراً. هل تستفيد حماس من إطلاق الصواريخ على مدينة سديروت؟ الجواب هو لا. هذا لا يخدم قضيتها، لكن يمكننا تفسير ذلك من باب أن الغزاويين سقطوا في باب اليأس.

هذا وعلينا أن نفهم أنّ العنف نتيجة مؤسفة لأوضاع غير محتملة للذين يرزحون تحتها. وبالتالي، يمكننا القول بأن الإرهاب هو شكل من أشكال اليأس. وأن اليأس هو مفردة سلبية. علينا ألا نيأس بل أن نأمل. اليأس بهذا الشكل هو إنكار للأمل. بهذا المعنى هو مفهوم، وأكاد أقول إنه طبيعي، ومع ذلك فهو غير مقبول لأنه لا يوصل إلى النتائج التي قد يحققها الأمل».

هـ) اللاعنف هو السبيل الذي ينبغي علينا اتباعه: وهنا يشرح هيسيل بأن المستقبل ينتمي إلى اللاعنف وإلى المصالحة بين الثقافات المختلفة وليس إلى صراع الحضارات.

أعترف بأن العنف تحت أي شكل كان إنَّما هو فشل إذ لا يمكن إعذار الإرهابيين

الذين يرمون بالقنابل ويفجرون السيارات. يجب علينا أن ندرس الأسباب التي أدت بالعنف إلى أن ينشأ لأن عالمنا هو بالفعل عالم رهيب، وأن نفسر لماذا كان عالم اليوم يقوم على العنف. حتماً إنه يسير على هذا النحو نتيجة تراكمات الأخطاء التي تسيء إلى كرامة الإنسان وحقه في الحياة. ولهذا السبب أشدد على الأمل لأنه إحدى القوى المهيمنة على الثورات والعصيانات، وهذا لا يُترجم إلا من خلال ولوج باب التفاوض والحوار لإزالة العنف والاضطهاد والعيش في جو يتميز باللاعنف. «لأن مواجهة العنف، كما قال الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، سيواجه بعنف مضاد، لذا يجب إيقافه من خلال إزالة أسباب الكراهية التي تؤدي إلى العنف».

و) من أجل عصيان مدني: يدعو هيسيل إلى عصيان سلمي حقيقي ضد القهر والاستعباد المادي والسياسي وضد وسائل الاتصال الجماهيرية التي لا تقترح للشبيبة المعاصرة سوى الاستهلاك الجماعي، واحتقار من هم أضعف، وازدراء الثقافة، والمنافسة الشرسة التي يخوضها الجميع ضد الجميع.

كما ويوجه نداء لهذه الشبيبة مفاده: الخَلْق هو المقاومة، والمقاومة هي الخلق، ويطالبها بأن تعمل على إحياء ونقل ميراث المقاومة بالقول: «تسلموا أيها الشباب الراية، وأعلنوا عن سخطكم إذ إنه لا يجدر بكم أن تستسلموا لتأثير الديكتاتورية الدولية للأسواق المالية وللأنظمة الشمولية الاستعمارية التي تهدد السلام والديمقراطية بل جددوا دوافعكم للغضب والتحقوا بمسار التاريخ الكبير».

ونتيجة لموقفه هذا لم تتورع إسرائيل والمنظمات الصهيونية في شن حملة إعلامية ضده والتضييق عليه إعلامياً واتهامه بالخرف لكبر سنه، والمطالبة بسحق لسانه باعتباره «أفعى سامة»، كما طالب ريشار براسكييه رئيس «المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية الفرنسي» بقوله: «يجب اتخاذ كل إجراءات الحيطة والحذر لدى الاقتراب من ستيفان هيسيل لأنَّه شخص يريد أن يجعل قطاع غزة «مقراً للظلم في العالم»، ومن حركة حماس حركة سلمية. ولهذا السبب كنا معارضين له وغير متعاطفين مع مواقفه لأنه كان ينظر إلى الأمور من خلال هذه الرؤية، القاتمة التي لا تنبئ بالخير».

وهنا يوضّح لنا الشاعر الفلسطيني الياس سنبر مواقف هيسيل عندما كتب يرثيه قائلاً: «من خلال حرصه على العدالة التي

كانت غالية على قلبه نال هيسيل غضب إسرائيل وانضم إلينا. وفي شهر تشرين الثاني ٢٠١٢م تمَّ منحه صفة مواطن شرف لدولة فلسطين. وتأتي وفاته بمثابة خسارة كبيرة للفلسطينيين».

وبدورها، تقول ليلى شهيد ممثلة فلسطين السابقة لدى دول الاتحاد الأوروبي عند سماعها نبأ وفاة هيسيل: «لقد خسرنا بغياب هيسيل صديقاً وفياً لفلسطين التي زارها عدة مرات، منذ الثمانينيات من القرن الفائت، مما جعله يحول قناعاته إلى أقوال وأفعال في آن واحد.

لقد عاد من هناك مشوش البال ومدفوعاً بالرغبة في أن يقول كل ما يجول في خاطره. لقد كان مقتنعاً بأن صورة إسرائيل التي تمثل في نظر الأوساط الفكرية الغربية واحة من الديمقراطية في منطقة مليئة بالظلم والطغيان هي صورة خاطئة وخداعة، نظراً لما تقوم به من أعمال إجرامية ضد الفلسطينيين. وفي أعوام الـ ٢٠٠٠م عاد من جديد ليزور مخيمات الفلسطينيين في جباليا وفي قطاع غزة فأنشأ رابطة أطلق عليها «صوت الطفل» في بلدة بيلين، هذه البلدة في الضفة الغربية التي هي اليوم رمز المقاومة ضد جدار الفصل العنصري. وهناك التقى بشباب إسرائيليين رفضوا أداء الخدمة الإلزامية حتى لا يظهروا وكأنهم جنود احتلال.

كما أنه كان يلبي دعوات من ممثلي فتح وحماس لعقد الندوات وتبادل الآراء، مما جرّ عليه ويلات من قبل «المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية» (كريف).

لكنّ ما هو رائع لديه هو أنه لم يكن ينظر إلى الحق وكأنه ليس مادة جامدة فحسب بل نهج وسلوك أخلاقي. لقد دافع عن المهجرين في فرنسا الذين ليس لديهم بطاقة إقامة وكانوا ينامون فوق فوهات الميترو درءاً للطقس البارد، وعن الفلسطينيين الذين هم بدون وطن: لم يكن إنساناً يهوى التنظير بل إنساناً عملياً يتفاعل مع محيطه ومع من يعيشون حوله. وفي عام ٢٠٠٩م ثار ضد عملية إسرائيل «الرصاص المسكوب» التي أودت بحياة الآلاف من سكان قطاع غزة. وأثناءها وصف ما تقوم به إسرائيل بأنه جريمة ضد الإنسانية.

ثم ناضل من أجل تحرير «صلاح حموري» الذي كانت تعتقله إسرائيل بحجة أنه كان يخطط لاغتيال أحد الحاخامات المتطرفين في إسرائيل.

ثم ناضل من أجل معاقبة إسرائيل مطالباً بمقاطعة البضائع والمواد التي تصدرها إسرائيل إلى أوروبة بدءاً من مستوطناتها

في الضفة الغربية. ولهذا السبب حاربته الدوائر المتعاطفة مع إسرائيل ومنعته يوماً من أن يلقي محاضرة في دار المعلمين العليا بباريس لصالح القضية الفلسطينية.

ومع ذلك لم تستطع كل هذه المحاولات الرامية إلى تلطيخ سمعته من أن تمنعه من متابعة مسيرته النضالية فبقي يدافع عن حق الفلسطينيين وعن حق الإسرائيليين في أن يعيشوا معاً حياة مشتركة مليئة بالكرامة.

لقد كان ينظر إلى الموضوع نظرة إنسانية بحتة. وهنا يقول هيسيل: «لقد كانت ليلى تطلب مني أن أخفف من حدة موقفي نظراً لكبر سني: إنها بحق أم عربية أصيلة». وتعود ليلى شهيد لتقول: لقد كان مصمماً على حضور ندوة تُعقد في منتصف آذار ٢٠١٣م من أجل رفع أسس لإقامة محكمة دولية تدين الانتهاكات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية على غرار المحكمة التي أنشأها في العام ١٩٦٦م كل من الفيلسوف البريطاني برتراند راسل والفيلسوف الفرنسي جان بول مارات من أجل إدانة السياسة الاستعمارية الأمريكية في فيتنام، وكان شعاره: يجب أن نقاتل على جبهة الحق دوماً. فإما الموت وإما النصر. والجدير بالذكر أنه حتى آخر أيام حياته بقي ملتزماً بكل أفكاره. وعندما أحس بالتعب الشديد في العام ٢٠١٢م دخل المشفى ليرتاح بعض الوقت. وهذا لم يمنعه من أن يوكل أحد المقربين لكي ينتخب عنه وهو في سريره في المستشفى الرئيس الجديد فرانسوا هولاند.

ويرى النقاد في فرنسا بشكل خاص أن توجهه الفكري هذا نابع من التجربة المريرة التي عاشها منذ أن كان يافعاً تحت ظل الاحتلال النازي الذي حارب بقية الشعوب غير الآرية، ما أورثه سخطاً وتبرماً بجميع أشكال الخنوع وأصبح لسان حال المستضعفين في فرنسا.

ففي العام ١٩٩٦م ساند هيسيل المهاجرين غير الشرعيين الذين جاؤوا إلى فرنسا بقصد العمل وتحسين ظروفهم الحياتية. وعندما حاولت السلطات الفرنسية منعهم من الإقامة في فرنسا وترحيلهم بعيداً عنها قام هؤلاء باحتلال كنيسة سان برنار في الدائرة (١٨) بباريس رافضين تنفيذ قرار الحكومة الفرنسية. الأمر الذي دفع بهيسيل إلى أن يتصل بآلان جوبيه الذي كان رئيساً في حكومة جاك شيراك طالباً منه تغليب لغة الحوار على القوة، فيما دعا في العام ١٩٩٧م ليونيل جوسبان إلى دراسة ملفات المهاجرين غير الشرعيين والاستجابة لمطالبهم لأسباب إنسانية وعائلية.

كما ساعد الفجر في أن يندمجوا بالحياة الاجتماعية للدول التي يعشون فيها.

وتكريما لهيسيل، وقف أعضاء مجلس حقوق الإنسان اليوم لمدة دقيقة حداداً عليه، أثناء انعقاد الدورة الثانية والعشرين للمجلس. المرة الأولى التي يتم فيها تكريم شخص بهذه الطريقة داخل المجلس. وقال رئيس الجلسة: «إنه يود قبل بدء الاجتماع اليوم، من الجميع الوقوف لحظة صمت لمدة دقيقة واحدة حداداً على وفاة ستيفان هيسيل الذي توفي مساء أمس. السيد هيسيل كان أحد وجوه حركة حقوق الإنسان البارزين، وأحد المشاركين في وضع مسودة حقوق الإنسان، وسوف تستمر حياته في إلهامنا في عملنا».

وفي السياق نفسه، أشارت المفوضة السامية لحقوق الإنسان، نافي بيلاي، إلى أن هيسيل كان شخصية مرموقة في عالم حقوق الإنسان، فقد كان على صلة وثيقة بالفريق الذي صاغ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الأمر الذي أكسبه مكان الشرف في التاريخ العالمي ولكنه مضى في القيام بأكثر من ذلك بكثير، وبقي يساهم في النهوض بحقوق الإنسان حتى التسعينيات من عمره.

المراجع

- موسوعة «لاروس الكبرى» الفرنسية.
- جريدة «لوموند»: «وداعاً للمفكر والدبلوماسي ستيفان هيسيل»، بقلم: بنيامين بارت، تاريخ ٢٠١٣/٢/٢٧م.
- جريدة «لوفيغارو»: «وفاة ستيفان هيسيل»، بقلم: فرانسواز دارجان، تاريخ ٢٠١٣/٢/٢٧م.
- تقرير إذاعي (القناة التلفزيونية الفضائية «فرنسا ٢٤»)، «رحيل الأديب والفيلسوف والدبلوماسي ستيفان هيسيل»، تاريخ ٢٠١٣/٢/٢٧م.
- موقع «مجموعة الجمهورية للدراسات» على الإنترنت، تاريخ ٢٠١٣/٣/١م.
- جريدة «الأخبار» اللبنانية، تاريخ ٢٠١٣/٢/٢٩م.

لِمــاذا لا نُغنّــي؟

سليمان العيسى ✿

يُباغتُنا.. يُحاصِرُنا الزَّمانُ
على أنفاسِنا.. جُدُرٌ دُخانُ
تُدمِّرُنا.. تُهشِّمُنا..
وتُحرَمُ من رَذاذِ الضوءِ أعيُنُنا
لِماذا لا نُفجِّرُ في رُواقِ الليل
بارقةً من الفَرَحِ؟
ونَقْنِصُها.. نُبدِّدها.. تُبدِّدُنا
بِلا غَمٍّ.. ولا تَرَحِ
على أنفاسِنا يَلتَفُّ..
-أينَ رمَيْتُ طَرفي- أفعُوانُ

لِماذا لا نُغنّي.. يا صديقي؟
ونَلتَهِمُ الهُنَيْهاتِ
ونَرقُصُ كالفَراشاتِ
ونسرِقُ منهُ.. من لَهَبِ الحَريقِ
ثُمالةَ نَشوةٍ خضراءَ حَرَّمها الزَّمانُ
على شَفَةِ العِطاشِ..
ودَمَّرتْ أشواقَنا الجُدُرُ الدُّخانُ

✿ ✿ ✿

لِماذا؟ مَنْ رَمانا في السَّوادِ؟
وأعلَنَ.. أنَّنا حَجَرُ

✿ شاعر العروبة والطفولة الكبير.

فلا نَبْضٌ.. ولا وَتَرُ

ولا لَيْلٌ.. ولا سَمَرُ

ومَنْ سَمَّاكِ قَبْراً يا بلادي؟

وأنْتِ الفَرْحَةُ البِكْرُ

وأنْتِ الحُبُّ والشِّعْرُ

وأنْتِ خُلاصَةُ الدُّنيا

إذا ما أرَّخَ الدَّهْرُ

لماذا لا نُغَنّي؟ لا نَعُومُ

على شُرُفاتِ لَيْلَتِنا

ونُغرِقُها بِنَشْوَتِنا

وتَضْحَكُ مِلءَ أعْيُنِنا النُّجومُ؟

لماذا؟ نحنُ نُدْمانُ السماءِ

وعِطْرُ اللهِ..

تَسفَحهُ قصائدنا الجميلةُ في الفَضاءِ

وما كُنّا سِوى شِعْرٍ وعِطْرِ

وسِفْرِ بَرَاءةٍ.. ونَقاءِ فجرِ

سأدْعُوهم إلى أفراحِ مَمْلَكَتي

سأشْرِكُهم بِوَهْجِ طُفولتي،

برحيقِ أُغْنِيَتي

نَدامَى الأمْسِ. أُنَبِّئُهُمْ بأنّي عائدٌ لَهُمُ

ودَعْنا في أغانينا.. يُحاصِرُنا الزَّمانُ

ونُحْرِقُهُ.. كَمَا نَهْوَى

ويَبْقَى العُودُ يَصْدَحُ.. والكَمَانُ

وطن بحجم الفرح..
وطنٌ بحجم الحزن

عفاف الخليل ✿

أن تُحِبَّ وطنَكَ..!!
هو أن تنسى أنَّه يباغتك
بالصهيل..!!
أن تغفر له
تورُّطَهُ
بشراء حفنة من الصمت
في ليال البرد

✿ ✿ ✿

أن تُحبَّ وطنَك
هو أن ترتِّلَ معه
أغاني الأمان وعبقرية
الذات وصراخ
النساء اللواتي يلدن الحياة..!!

✿ ✿ ✿

أن تحمل قافلةً من فرح في داخلك
لا قافلةً من حقد..!!

✿ ✿ ✿

أن تتبعثر بكومة من الحب والعطاء
وأنت تهديه مطراً يغتسل فيه ويبعد
بعض الغبار العالق عليه

✿ ✿ ✿

أن تهديه نجمةً
يضعُها في سمائك

✿ ✿ ✿

أن تُحِبَّ وطنَك
هو أن تُحِبَك..!!

✿ ✿ ✿

✿ شاعرة وأديبة سورية، لها أكثر من ديوان منشور: "نبضات عاشقة" و"أزمنة لصيف آخر".

أقرأ وطني في أشجار البيت
وزنابق الحديقة
أقرأ وطني في محفظات الأولاد
الذاهبين إلى المدرسة
وفي حافلة العاملين في الدولة
أقرأ وطني في عيني أمي
الدافنتين وهما تنظران إلى مستقبلي

• • •

غيومٌ عطشى تتسلل من الغرب
غيوم ممتلئة بالدخان بدلاً من المطر
أفاعٍ تفغر فمها وتتلقف
الحب والأمان..!!

• • •

هم قتلة
يحاولون اعتقال أحلامنا
هم خونة
يحاولون أن يدخلونا
من بوابات الجليد
ويهدونا قناديلَ من ديدان
لنهلل للشيطان بدلاً من الله

• • •

يحملون شعارات الماموث
ويقولون لنا اتركوا مدنَ الياسمين
يؤمنون بحرية الخفافيش
يهدوننا طعنات
من الخاصرة

• • •

خضراء أنت يا غابتي
رموشك قوارب النجاة
قولي لهم
هضابك عالية
سنابلك حقيقية

• • •

هذيان على حافة السرير
خفافيش أخرى
تخرج ليلاً
وأنا هنا عاجزة عن الكلام
أحدق بسقف المملكة
والذباب يغفو على قطعة
من الخبز الجاف

• • •

ورائحة الخراب
تسطع من بعيد
صوت حاستي السابعة
يستيقظ
أنه بعض من خوف وعناء

• • •

شجرة الكستناء في الحديقة
تغفو على دالية العنب
وياسمينة الدار تحدق بالمارة....
وقليل من الترقب
يهدي جدتي سنابلاً
وهي تحيك علماً للوطن..!!!

• • •

آه يا أمي ماذا يفعلون بمنديل رأسك
إلى أين يأخذونك في آخر الليل
هل لترين أخي المقطع
عند حافة النهر

• • •

رعب أنت أيها
الإعصار
حافيةُ تلك الزاوية
التي سأدسك فيها
جروحنا هي الهاوية التي
ستتعلم السقوط فيها
وعويلك لن يوقظ
حتى أخي الصغير
وشعر أختي المنثور على حافة
الصلاة....

* * *

لا تزدحم في قافلة الإعلانات
ولا تحلم أنك تستطيع
أن تهدينا الخوف
حتى نتمسك بردائك..!!
وصوتك لن يرعب طفلاً
يرتب النجوم
ويوقظ النهار
المتدلي من غابات
الظلام...!!
أنت أيتها
الفجيعة
سأركض خلفك
حافية بلا حذاء
وسأطلب من
جارنا الحداد
أن يساعدني قليلاً
لصنع سيف
يقطع رأسك

* * *

أيتها الفتنة
عيناك سراخس
لنساء مصلوبات
من شعرهن
ووجهك أسود
كطحالب قذرة من مستنقع ميت
بجدارة
وفي جبينك عظام
تخرج لتدلق
الجراد..!!

* * *

لا تراهن أيها البعبع
علينا
نحن أحفاد
صالح العلي
وإبراهيم هنانو
وسلطان الأطرش
وخولة بنت الأزور
ولا تتوقع أنه في قيلولة القرون
تستطيع أن تمضي
فديارنا
مُسيجة بالأقمار
ونهارنا
موزع في أرغفة الحب
بين أولادنا

بَـرَدَى يُعَاتِبُنِـي

عبد الكريم السعدي ٭



حاذيتـه ومشـيت معه حتـى واكبته،
حدجني، بطرف عينيه ذارفـاً منهما دَمْعاً سـخيناً وهو يعاتبني بحرقة المتألم في حزن تشبَّع بالمرارة والأسى.

فهمت ما عناه وما رمى إليه وكأنه يقول لي: افعل شـيئاً خير لك من أن تصـاحبني دون إيجابيـة يا صـديق الطفولـة القديم فكم صـادقني أمثالك من البشر ومشوا إلىَ جانبـي، وعاشـوا معي منذ آلاف السـنين ومـا فعلوا بي مثلما فعلت أنت وأمثالك من الغابرين لأعوام قليلة خلت.

٭ أديب وقاص وشاعر من فلسطين.
العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

كاد الاستغراب يستحوذ علي لأنني لم أفعل شيئاً يؤذيه، ويقض مضجعه ويؤلم إحساسه ويؤرق خاطره، ويوجعه إلى حد المرارة والأسى لكن والحق يقال لديه كل الأسباب التي تجعله حانقاً غاضباً تعيساً مما أصابه وألمّ به وعاناه.

كنت طفلاً صغيراً أسير مع والدي (رحمه الله) في الخمسينات عندما اصطحبني معه إلى العاصمة وأنا مندهش في تلك الأيام عندما فتحت عيني على حركة المدينة وزخمها والحافلات التي تمر فوق السكك الحديدية مخترقة الشوارع، التي يسمونها «الترومواي» والعربات البسيطة التي تجرها الجياد وغيرها، والناس في حركة دائبة طوال النهار، ولكن استغرابي ودهشتي، وعجبي تعاظمت خاصة عندما حاذيته ووالدي وأنا أرى صفحة الماء الرقراقة تتماوج متلاطمة بين جانبيه والزوارق تجتازه طولاً جيئة وذهاباً تحمل فوقها العديد من الركاب بالأجر استمتاعاً برحلة نهرية صغيرة ثم يهبطون على إحدى ضفتيه ليصعد آخرون في تناوب يستمر حتى الليل، والنهر يزخر بمائه الدفاق حتى أعلاه، سألت والدي هل هذا بحر يا أبي؟ وأنا أسمع عن النهر والبحر ولم أرهما في حياتي، ولم أبلغ يومها السادسة بعد- أجابني: هذا نهر بردى يمشي في دمشق المدينة الكبيرة الحلوة، إنها تاريخي يا بني ولكن البحر أكبر من النهر، نهر بردى عاصرته زمناً طويلاً قبل الآن أنا وجدك عندما كنا نأتي إلى دمشق زائرين بغرض شراء بضاعة، أو البسة، أو حاجيات، ثم نعود إلى صفد مسقط رأسينا، وما بين سورية وفلسطين رمية حجر، فلقرب صفد من الشام كان الذهاب إلى دمشق أسهل علينا من الذهاب إلى مدينة أخرى في فلسطين للتسوق كحيفا ويافا وعكا أحياناً، وهكذا كانت العلاقات متبادلة بيننا وبين إخواننا في الشام، والمصالح متشابكة والعلاقات والنسب متداخلة.

سألت والدي ثانية: ما معنى النسب؟ قال لي: «النسب هو التصاهر والزواج» فنحن أسرة واحدة وعائلة كبيرة تجمع الشام ولبنان وفلسطين، قلت له: أنا لا أفهم ماذا تقول.. فرد علي وهو ينحني فوقي، وقد جلسنا على مقعد بجانب ضفة النهر الشمالية سورية ولبنان وفلسطين والأردن كل هذه البلاد تسمى الشام. وثم قلت: وهل في فلسطين نهر؟! قال: نعم كنا نقطع نهر الشريعة اختصاراً للوصول إلى هنا، وهناك اليرموك ونهر الأردن وساحلٌ لبحرٍ كبير يجمع هذه البلاد مع بعضها في امتداد طويل من الشمال حتى الجنوب، تساءلت

أكثر عندما قلت لوالدي: ولماذا نحن هنا إذاً يا أبـي؟ هل نحن في زيارة قصيرة؟! قال: أتمنى ذلك من كل قلبي وإن كنَّا في ضيافة إخواننا وبين أهلنا ونحن على خير ما يرام والشام طفولتنا وشبابنا وحياتنا وسعادتنا ولكن جدك استشهد في صفد بعد أن أَوْدَعنا في بنت جبيل عند صديق له يسمى عقيل يونس وما كان ليترك صفد أبداً والحرب بيننا وبين اليهود مشتعلة، وهمه أن يبعد الأطفال والنساء ليتفرغ للجهاد مع رفاقه الثوار، قلت: وأنتم لماذا لم تبقوا هناك للدفاع والجهاد معه أيضاً؟ قال: أنا وعمك محمود وعمك محمد خرجنا لنوصلكم إلى صديق جدك وعدنا لنكمل مرحلة الجهاد مع جدك ورفاقه فقد كان لنا جميعاً دورٌ وكل واحدٍ منا كان له دورٌ أيضاً، فالبعض للحراسة، والآخرون للاستطلاع، وغيرهم للمساعدة في نقل الأخبار، ولكن عندما عدنا وجدنا جدك وجماعته قد استشهدوا في آخر معركة.

وقد سقطت صفد وفلسطين بيد اليهود، وما كان منا إلا أن تسللنا بكل حذر متجنبين رشقات الرصاص التي كانت تطال بعضنا إلى أقرب مكان آمن نستطيع معه مواراتهم بثيابهم في القبور التي حفرناها لهم جميعاً ونحن نقرأ آيات الجهاد والشهادة، (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) ونصيبهم إن شاء الله يكون في الجنة وهو الأجر والثواب يابني. فجدّك ما كان ليفارق الأرض أبداً وقد طلب الشهادة قبل مغادرتنا لنوصلكم وكانت هذه أمنيته الأخيرة (والحمد لله على كل حال، الله يرحمه ويرحم جميع الشهداء وأموات المسلمين) ثم أردف قائلاً: (وكم جلست أنا وجدك في هذا المكان الذي أجلس عليه أنا وأنت هذا اليوم...).

وسقطت عبرة على خده ثم انحدرت تلامس وجهي فقلت وهل تبكي أنت يا أبي؟ قال ومن لا يبكي يا بني؟ حتّى الرجال أيضاً يبكون ولكن بكاؤنا نحن يعني أشياء أخرى. زمان كنت وجدك يسامرنا هذا النهر الحبيب، ونحن بقربه نستمتع بخريره، ورذاذه، ومنظر مياهه، والزوارق التي تتجول فيه.

أمَّا اليوم ونحن بجانب هذا النهر الحبيب فقد افتقدت جدك وافتقدت الأرض وافتقدت صفد كذلك التي تستقبلنا متى عدنا وتباركنا متى مضينا... أفهمت يا بني؟ قلت: وأنا نصف غارق بشرود شدّني رغم أنني أتخيل شكل صفد التي يذكرها، نعم. نعم يا أبتي فهمت. الرجال لا يبكون مثل الأطفال على لُعَبِهم أو فقد شيء منهم،

ولكنهم يتأثرون على فقد ما هو عظيم وكبير وغالٍ...

وشدّني الشرود ثانية لأقارن ما بين منظر نهر بردى الذي أجاوره برفقة والدي، وما بين منظر شروق الصباح والشمس التي تبزغ كل يوم أمام عيني في الغرفة السماوية التي يسمونها العليّة.

وأجدني مأخوذاً بكلّيتي بين الاثنين ولا أدري لمَ أصحُ كل يوم مع الشروق، لأستمتع بمنظر بزوغ الشمس مراقباً حركتها كل صباح وكأنني أتأمل في هذا الملكوت الذي أراه من زاوية صغيرة فوق بيت في جبل قاسيون، وبين النهر الذي زاد في حصيلة معارفي المحدودة، ولكنه بالنسبة إليّ شيء أكبر مما كنت أتمنى خاصة أنَّ معرض دمشق الدولي قد تمَّ افتتاحه أوَّل مرة في ذاك العام، فعمّت البهجة، والأنوار الليلية، وبتوارد الناس وتوافدهم على المعرض لزيارته بأعداد فوق الحصر فهم من كل حَدَبٍ وصوب. والمعرض يمتد على طول ضفة نهر بردى الجنوبية بمساحة كبيرة والنهر يستمر بجريانه ملطفاً جو دمشق بتدفقه. والمعرض يتحفه بزهوه وأنواره حتى اتحّدا معاً، وصارا روحاً في جسد النهر الواحد.

توفي والدي، وقبله جدي، وطوت الخرساء أمماً تعاقبت عليه عبر كرّ السنين شهدت بهاءه وشبابه الذي لم يشخ أبداً قبل الآن، وهاأنا قد راقبته زمناً طويلاً لأربعين حولاً خلت، وصادقته محباً وفياً، أرعى خفقات قلبه وهمساته وتطاوله عبر الدهر بدءاً من منبعه ومجراه في الغوطة الغربية وحتى مصبه في الغوطة الشرقية في بحيرة (العتيبة) كان صديقي وموئل أسراري وبهجة نفسي وألَقَ دمشق وحياة الغوطتين.

تربّعَتْ فوق ضفتيه الغوطتان بمسافة تتجاوز الثمانين كيلو متراً تقريباً ما بين منبعه ومصبه كما أقامت على الضفتين في نزهات أسبوعية عائلات دمشق في يوم عطلتها خاصة في فصل الصيف فهو الرئة الغنية بالحياة والسعادة والانشراح وهو المتنفّس للبسطاء من القوم والأغنياء أيضاً فالبسطاء يفترشون المقصوراتِ الصغيرةَ ببسطهم وأمتعتهم حيث تبدو تلك المقصورات المصنوعة من القصب وهي تُعرِشُ فوقهم بأغصان الأشجار وجذوع الحور كغرف صغيرة عُلّقت فوق الماء تصدح فوقها الأطيار ببهجة الربيع وتتلاعب بها النسائم حتى نهاية الصيف.

لذا كان النهر دائم الجريان الذي لا ينقطع تدفقه. فالناس في فرح دائم. فبعضهم يهبط النهر متخذاً المسالك البسيطة من درج ترابي مُخدَّدٍ على شاطئيه

وعلى امتدادهما سبيلاً إلى مائه لوضع بعض الفاكهة ضمن سلال وقد ربطت بجذوع الأشجار لتبرد في أعماقه. وآخرون يضعون المناقل وأدوات الشواء لإنضاج اللحم المعدّ لذلك. والنساء تهتم بتحضير أطباق التبوّلة وأنواعاً مختلفةً من السلطات فيعبق الجو برائحة الشواء. ويتوارد الأطفال الصغار محاولين اختطافها ساخنة من فوق الجمر وهي مازالت بأسياخ اللحم المعدنية فتلذع أصابعهم وتؤلمهم ولكنهم لا يأبهون لذلك بإغراءاتها اللذيذة.

وفي مكان ليس ببعيد يمرح الشُّبّان متقاذفين الكرات المتنوعة ويغوص آخرون في الماء سباحة رغبة في الانتعاش والاستعراض أمام الحسان بقدرتهم البارعة على الغوص والخوض في تيار نهر بردى القويّ الهادر وفي الجهة الأخرى من النهر يجلس الأغنياء فوق المقاعد وأمام طاولات صفّت على نسق طويل ضمن المقاهي المتعاقبة واحدة تلو الأخرى دون انقطاع حتى النهاية.

وها أنا اليوم ومنذ سبعة أعوام أو ثمانية أراه على غير ما كان عليه، وقد تغيّر حاله وحالي. فقد جئته لأبثه أسراري كعادتي، وأنعم بقربه، وأهنأ بصفاء مائه وخرير تدفقه، فاستهجن قدومي، وقد حاذيته حتى تواكبنا متلاصقين، وقد شعرت بالدمعة التي سقطت من عين والدي حزناً على والده جدي فوق وجهي تشدني إلى بردى الذي دمعت عينه، وهو يرمقني يائساً حزيناً كئيباً حانياً هرماً لتسقط كالجمر في سويداء قلبي وهو يعاتبني:

...أجئتني لتبثني أسرارك؟ وقد غار مائي، ونضب خيري وجفّ عطائي، فأين أحفظ لك أمانتك؟ وأين أحتفظ لك بسرّك وقد صرتُ كما ترى وآل حالي إلى ما تشاهد؟!

فوا خيبة أملي فيك إن لم تسعفني بمن ينفض عني شُحّ السنين، وقذارة المثِين وقُمامة الحاقدين. أم أنك نسيت أحمد شوقي وقد قال عني:

«جرى وصفّق يلقانا بها بردى
كما تلقّاك دون الخلد رضوان»

فهل كان خُلدٌ في دمشق الفيحاء من دوني؟!.

قلت نعم... وأيم الحق لقد صدقت وأنشد فيك شوقي وغيره وقبله وبعده.

ومازالت القصائد تمتدح عطاءك.

ولا أظنك شخت إلى هذا الحدّ، فالسماء لن تنضب، وهاهو عطاؤها قادم، ولا بد للنبع أن يمتلئ وتسعد بما كنت عليه من حبور وانطلاق كعادتك.

قال: وكيف لي ذلك؟ وهذا الذي تراه في قعري ومجراي؟!. أهذا حق الوفاء يا خليلي أم تلك عقوبة عليّ تَحَمُّلُهَا من أناس لم ينعموا بما قدّمت؟ وهل جزاء الإحسان هو الجحود والنكران وأذية الجيران أيضاً؟!

قلت: نعم. أراك تحملت فوق المستطاع، وأصبحت مرتعاً للحشرات والبعوض، ومستودعاً للأوشال، ومكاناً للقمامة، ممن لم يأبه بك فحَسِبَكَ سلةَ مهملات، فألقى فضلاته في مجراك. وحقّك أن تعتب كثيراً وإن كانت الدولة قد جَرَّفَتْ تلك الفضلاتِ بسياراتها وأدواتها بعيداً عنك في كل مرة. لكن الناس لا ترعوي، وقد نسيت مجدَكَ أو تناسته لشُحّ المطر. لكن الله كريم وعطاءُ السماء قادمٌ فصبراً في هذا وتجمّل فإنَّ بعد العسر يسرا.

قال بردى: أجدك تقدم الموعظة وتنسى صحبتنا أهكذا تكون المعالجة وسداد الدين؟!

قلت: لا بأس ،لابأس انتظر فالأيام قادمة، وتذكر أننا في أوّل الشتاء، وقد باشر الخير المعطاء تهطاله فلا تستعجل سعدك يا حبيب الغوطتين.

حسنٌ أنا على الوعد إذاً حتى قابل الأيام وفيض الخير ورعاية الأحباء ولقاء العاشقين في وادي الجنان وعطر الرياحين وعبق الأزهار.

مصعد الساعة الرابعة

جرجس حوراني ✪



في هذه الغرفة تستقر الكرسي التي تحملني والتي ملت مني هي الأخرى. ينقلني ابني من غرفة إلى أخرى كي لا يهاجمني الملل. وماذا ينفع كل ذلك؟ الجدران تنظر إلي بسخرية وربما تضحك في سرها وتقول: يا لتفاهة الإنسان كيف يكون وكيف يصير، وربما تسأل نفسها بسخرية: لماذا لا يتعلم الإنسان مما يشاهد كي يتخلص من جبروته؟ ويعيش براحة بال وطمأنينة، وفرح داخلي.

ربما كان ما تفكر فيه هذه الحجارة صحيحا، فمن كان يظن أن الأستاذة أمل الحائزة على إجازة في الفلسفة والتي شغلت منصب مديرة أكبر مدرسة في المدينة والتي كانت تشكل حالة استثنائية بالنسبة للطلبة

✪ أديب وقاص سوري.
العمل الفني: الفنانة منى القداد.

والمدرسين. تتحول الآن إلى كومة لحم على هذه الكرسي تنتظر من يقدم لها الطعام والماء والزحافة كي تتخلص من سموم جسمها. آه، لقد جاءها المرض سراً، لكنه أتى عاصفاً وقبيحاً كالرذيلة.

ترفع رأسها ببطء وتستقر الدمعة في عينها: يبدو أن الموت، الذي سماه ذات يوم الشاعر البرازيلي مانويل بانديرا: الضيف غير المرغوب فيه، قد نسيني، وهذه هي عادته يأخذ من نحبهم ويترك من يحبوننا كي يخففوا جرحه.

له فلسفة خاصة في اختياراته حاولت كثيراً أن أعرفها فلم أقدر، لكنني في الأحوال كافة أعلن امتناني لصفاء، زوجة ابني رغيد، التي تحنو علي وتقدم لي الأدوية التي تغيرت كثيراً بعدد الأطباء الذين زرتهم، فكلما سمع ابني بطبيب جيد يحملني ويتوجه إلى عيادته، وهو يقول لي: إنَّه أشهر طبيب في البلد، ولقد شفى زوجة موظف في الشركة وعادت قوية مثل سنديانة.

ابني الآن يحاول أن يفي الدين لي كما قال، فبعد موت والده لم أتزوج على الرغم من أنني كنت ما أزال في الثلاثين من عمري، ورغم الضغوط الكثيرة التي واجهتها إلا أنني كنت قد اتخذت قراراً نهائياً وهو ألا يشغلني أي شيء عن هذا الصغير.

لقد قال لزوجته: هذه أمك يا امرأة.. وكان يقول لي دائماً: ذات يوم سنجد الطبيب الذي يضع يده على مرضك ويصف الدواء المناسب فلا تخافي. خاصة بعد أن أكد الكثير من الأطباء أن مرضي دهمني بوقت مبكر وهو يتطور بسرعة غير معهودة بالنسبة لهم. ستخفق كل الأدوية حتى التي جلبها عبود سائق التاكسي من بيروت.

كل الأدوية لن تحقق أي تقدم في حالتي بل ربما جعلتني أدخل في عالم من الأوهام والتخيلات جعلتهم يخافون علي أكثر ومرة نمت يوماً كاملاً وظنوا أنَّها النهاية.

وأمام إصرار زوجته طلب ابني من الكاهن أن يزورني ويصلي لي ويمسحني بالزيت المقدس ولقد فعل ذلك ثلاث مرات وأطعمني بيده وهو يقول لي: سيزول عنك المرض وتعودين قوية يا أم رغيد. وعندما سأله ابني: كيف جاءها هذا المرض وهي أنقى من ماء النبع. رد الكاهن مبتسماً: إنَّ الخطايا يا بني تحوم حولنا مثل البعوض في المساء.

ذات يوم كنت قوية، جميلة، رشيقة وكانوا يقولون وهم يلاحقون خطواتي الصلبة على الطريق وأنا متجهة إلى المدرسة: لم تلد مثلها النساء، وكنت أضحك في سري، وأشعر بالفخر، لأنني حطمت هذا الغرور

في داخلي وصمدت في وجه رياح الرجال الذين طلبوا الزواج مني بعد وفاة زوجي، ورهنت حياتي من أجل هذا الرجل الصغير الذي يحضنني كل يوم قبل أن ينام ويمسح وجهه بوجهي ويطلب مني أن أقبله وأصلي له، ولا ينسى أن يعدني أنه ذات يوم سيجد الطبيب الذي يفهم حالتي ويعالجني.

ترفع رأسها، تنظر عبر النافذة وتتنهد. ترى مصعداً زجاجياً في مواجهة النافذة، تبتسم، وتفكر كم هو مبدع من صممه على هذا الشكل. دائماً كانت تخاف من المصاعد وتعتبرها نعوشا مصفحة، لكن هذا المصعد له نوافذ من جميع جهاته لا تفيد التنفس فقط وإنَّما لرؤية المشهد الداخلي من البناية، وهكذا لا يصعد أحدهم وهو يحبس أنفاسه خشية انقطاع التيار الكهربائي، وإنَّما يعتبر نفسه في رحلة.

رأت امرأة وطفلها، لوح لها الطفل بيده، وابتسمت أمه، يا لوجهها، ما أجمله. تحاول أن ترفع يدها كي ترد التحية للصغير لكنه يختفي.

ذات يوم سألها ابنها: من هذه التي أشير إليها في هذه الصورة.

قالت له بصوت منخفض متقطع: إنَّها زوجة خالك.

ثم سألها ضاحكا: وهذه التي بجانبها؟ حدقت في الصورة جيداً، وهزت رأسها إلى الأعلى: لا أعرف.

ابتسم من جديد، وراح يداعب شعرها: بل تعرفينها يا أمي، انظري جيداً؟

زمت عينيها، فبدتا كعيني نسر يلاحق فريسته، ثم قالت: لم أعرفها.

حضنها وقال لها: إنَّها أنت.

«إنَّها أنت» يا لهذه الأكذوبة. تحدث نفسها بأسى: ابني يحاول أن يمتحن قوة إدراكي بعد أن هدني المرض الذي ينتهي بالخرف كما قال له الطبيب، وخاصة بعد أن أعلنت زوجته ضجرها مني. يظنني أنني لم أعرف ذلك الوجه الذي يشبه القناع.. آه لهذا الوجه! كيف أصدق إنه وجهي، هل يمكن أن يكذب حبيب قلبي، زوجي الغالي وهو الذي قال لي ذات يوم: لو اختفت الشمس من السماء فستبقى الأرض منيرة رغم ذلك، لأنَّه ليس بوسع أي ظلام أن يصمد أمام نور وجهك الذي لا يشبهه أي شيء إلا سنبلة قمح، أو قوس قزح.

تضحك بأسى: ربما أكون محظوظة أنك مت يا زوجي قبل أن ترى وجهي وهو يفقد كل تضاريسه الجميلة.

يطل المصعد مرة ثانية، كان فيه رجل أنيق، يحمل محفظته. ذكرها بزوجها الذي

لم يكن يغادر بيته إلا بكامل قيافته. كانت تقول له: كأنك ذاهب إلى عرس. وكان يبتسم: دائما أظن أنني ذاهب إلى موعد غرامي أنت طرفه الآخر.

تسأل نفسها الآن هل وجودها في هذه الغرفة محض صدفة، بقصد التغيير أم أن ابنها عرف بوجود هذا المصعد وأراد أن يسليها؟ في كل الأحوال، ما أجمل الصدف!، ألم يكن لقاؤها بزوجها صدفة جعلتها تقضي أجمل أيام حياتها حتى وفاته. موته كان نقطة فاصلة في طريقها فبعد وفاته بشهر بدأت تشعر بالضعف والتعب في جسمها، وبدأت تعاني من رجفة في يدها، ولم تعد تقدر أن تحمل أي شيء خوف أن يفلت منها وينكسر، وقد لا حظ عليها المدرسون أنها لم تعد تشرب القهوة في المدرسة، ولما لمحت الشفقة في نظرات المعلمين قدمت استقالتها، وتحولت إلى أسيرة في هذا البيت بعد أن أخفوا صور زوجها لأنهم عرفوا أنه مثلما كان سبب فرحها في حياته هاهو يغدو سبب حزنها في موته.

وتمر الأيام، تستيقظ نشيطة، فرحة، تتناول فطورها، وتمضي إلى غرفتها، ومصعدها، تتابعه بقلق ومحبة، لتطمئن على من فيه، بل صارت تحلم معهم، وتفكر بمشاكلهم. وتشعر بمتعة غريبة تتسلل إلى جسدها. ولعلَّ أجمل ما رأت فيه عاشقين، صارت تراهما كل يوم، ففي الساعة الرابعة ينطلق المصعد محلقا فيهما كعصفورين. إنَّهما يعرفان أن هذا الوقت هو وقت النوم بالنسبة لسكان هذه البيوت لكنه بالنسبة لهما هو وقت الحب.

كان أوّل لقاء لهما بهذه السيدة مضحكا لهما، فقد رأتهما وقد تعانقا وتاها في قبلة لكنها على ما يبدو طالت عكس ما كانا يتوقعان. لعلهما بدأا بها في الطابق الأرضي وقررا أن تنتهي في الطابق الثالث، لكنهما فوجئا بهذه الكرسي وعليها كومة اللحم هذه.

نظرا إليها وما زالا في عناق، لوحا لها، وتابعا قبلتهما.. أمن الحب. تتذكر أوّل قبلة. كان لها طعم الحريق، لم تنم بعدها لمدة عشرة أيام دائماً كانت شفتاها تبرقان، ترى لمعانهما مثل قمر يسهر معها طوال الليل، وبقيتا على هذه الحالة حتى القبلة الثانية. وصارت تنتظر هذين العاشقين كل يوم بالموعد نفسه. الساعة الرابعة من كل يوم، ساعة مرهونة للحب، وصارت شاهداً على حبهما.

لم تعد تترك هذه الغرفة على الرغم من إصرار ابنها وزوجته على تغييرها كي لا تمل، وذلك بناء عل توصية الطبيب الذي قال لابنها مرة: ليس المهم أن تشفى، بل المهم أن تبقى سعيدة.

وذات يوم دخل ابنها إلى الغرفة، فوجدها قد غادرت كرسيها والتصقت بالنافذة، تلوح بيدها لهذين العاشقين، وتبتسم. كان وجهها قد ارتسم على النافذة أشبه بأيقونة. لم يصدق أن هذا هو وجه أمه. ما أجمله. حمل جهازه والتقط صورة لهذا الوجه. فاستدارت أمه.

اقترب منها وسألها: هل تعرفين من صاحبة هذه الصورة يا أمي؟

وحضنها وهو يبكي.

قال لزوجته: لقد استفادت أمي كثيراً من اللقاء مع الوفد الطبي الفرنسي. إنَّها تقف من دون مساعدة، وتبتسم، وتتكلم كلاماً واضحاً، ووجهها صار نضراً.

قالت الزوجة: يبدو أن الطب لهم، والشعوذة لنا.

كانت الأم تسمع، وتبتسم، وكانت قد قررت عندما تنتهي من مراقبة عاشقيها الجميلين، أن تخبر ابنها أنَّ الدواء الذي وصفه لها الأطباء الفرنسيون لم تتناوله أبداً، بل كانت ترمي الحبة التي تعطيها لها كنتها صفاء في أصيص الورد الجالس قربها، كانت في حقيقة الأمر تحاول أن تستعجل موتها كي تريح أحبتها، لكنها تمتعت بالحياة التي كانت تصعد وتنزل في هذا المصعد، وهذه الحياة نفسها تسربت عبر زجاج المصعد وتغلغلت في شرايينها.

الحكاية في أدب العجيلي

ظهير الشعراني ✿

عبد السلام العجيلي .. طبيب وأديب من الرقة «درة الفرات» هذه المدينة التي تقع وسط سهل خصيب بين نهريّ الفرات والبليخ، في بقعة تاريخية ملأى بالآثار والأوابد الحضارية القديمة والكلاسيكية والعربية والإسلامية.

والرقة من أهم مدن الجزيرة الفراتية وحاضرة ديار مضر ... أحرزت منذ القديم أهمية دانت بها لحُسن موقعها الجغرافي على النهر العظيم في نقطة متوسطة منه، وموضع تقاطع الطرق التجارية المتجهة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، جعل منها محطة تجارية هامة بين الجزيرة والشام والعراق وأرمينية الصغرى، وحوض البحر المتوسط.

في هذه المدينة الصغيرة نشأ العجيلي ودرس مرحلة التعليم الابتدائي فيها ثم انتقل إلى مدينة حلب لإكمال دراسته الثانوية وتخرج في جامعة دمشق كطبيب عام. مارس الطب في بلدته الرقة، واستهواه الأدب، فشغل حيزاً كبيراً من حياته فكتب في القصة والرواية والمقالة والحكايات، تنقّل كثيراً في دول العالم شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً، وأكسبه ذلك اطلاعاً على ثقافات

✿ كاتب وناقد سوري.

الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم، وانعكس ذلك في كتاباته وثقافته وأدبه.

ومن كتابه «محطات في الحياة» نقتبس هذه الحكاية... «عداوة القط والفأر» يقول العجيلي:

أبو خليل صديق قديم من «بكفيا» في لبنان، كان يقيم في بيروت، ثم طوحته أحداث بلاده وحروبها بين بلاد العالم، فتنقّل ما بين مصر وكندا إلى أن استقر به المقام أخيراً في باريس.

قال لي هذا الصديق ونحن نتسامر، أثناء زيارتي الأخيرة لباريس، في الشوارع المحيطة بالأوبرا مشيراً إلى زاوية عند تقاطع شارعين:

- عندي حكاية حصلت في هذه الزاوية أريدك أن تعمل معي معروفاً وتكتبها في إحدى مقالاتك.

سألته: وما هي الحكاية؟

قال: أرويها لك.. بكرت في ذات يوم إلى منطقة الأوبرا فرأيت رجلاً يجلس في هذه الزاوية، وهو يحمل في حضنه قطاً أسود ما رأيت مثله في كبر الجسم، وفي سواد اللون، وفي الشراسة التي يتطاير شررها من عينيه، أقول لك الحقيقة، استوحشت من ذلك القط، حتى هممت بأن أغير الرصيف الذي كنت عليه لأبتعد عنه.

إلا أني ضحكت من نفسي وتابعت سيري حتى صرت على مقربة من الرجل، فوجدته ينهض من مجلسه كالمرحب بي، ثم رأيته يمد يده إلى جيبه واحداً بعد الآخر فيخرج منها ... أتعرف ماذا؟ رأيته يخرج من جيبه عدداً كبيراً من الفئران ... نعم الفئران .. عددتها فكانت ستة وذهب الخوف الذي اعتراني في البدء، وحل محله الاستغراب. قط بهذه الشراسة، وفئران بهذا العدد؟! ووقفت منتظراً ما سيحدث.. وما حدث هو أنَّ هذا الرجل أنزل القط الوحشي من حضنه إلى الأرض، ثم وضع الفئران الستة واحداً بعد الآخر على ظهر ذلك القط. ورأيت تلك الحيوانات الناعمة الدقيقة تتراكض مسرعة على ظهر القط وجانبيّ جسده، تتعلق تارة بأرجله الأربع، وتختفي تارة من دورانها حول بطنه، ثم لا تلبث أن تظهر لتتسلق عنقه وتقف على رأسه. كل هذا والقط يحرك ذيله في ابتهاج أو يمسح شاربيه باطمئنان، وأنه يهز عطفيه إذا أحسّ بأنَّ الفئران أثقلته بتجمعها على ظهره. بل خيّل لي أنه كان سعيداً بتواثبها على جسده مغتبطاً بدغدغتها لخاصرته، وأنه لو أمكنه الضحك لقهقه منبسطاً ومنشرحاً.

قلت لأبي خليل: منظر غريب. كيف تآلف القط والفأر؟

قال: هذا ما تساءلت أنا عنه، لم أكن وحدي الذي توقف عن سيره متطلعاً إلى هذا المنظر، إذ تجمع حول الرجل وحيواناته حلقة من الرجال والنساء، ألقى كل منهم بقطعة من النقود في القبعة التي وضعها الرجل على الأرض أمامه، وانصرف كلٌّ إلى سبيله. أمَّا أنا فقد مكثت بعد انفضاضهم وتقدمت إلى الرجل وبيدي ورقة نقود تفوق قيمتها ما اجتمع له في قبعته.

وقلت له: لي سؤال واحد عندك أيها السيد، أرجو أن تجيبني عليه.

قال: أي سؤال؟

قلت: كم من الزمن استغرق منك تدريب القط والفئران على هذه المعايشة بسلام، وهي ضد طباع هذه وذاك؟

فتطلع الرجل إلى ورقة الخمسين فرنكاً التي كنت ألوح بها وقال: إنَّه سر المهنة يا سيدي. ولكني أبوح لك به عن طيب خاطر. أخذ مني ذلك التدريب وقتاً طويلاً.. ستة أشهر كاملة أصبح بعدها القط والفار أخوين...

وسكت أبو خليل قبل أن يقول:

- أرجو أن تكتب هذه الحكاية.

ابتسمت لصديقي وقلت: حكاية مستغربة، ولكن ليس كل مستغرب صالحاً ليكون موضوعاً لمقال.

قال: تستطيع أن تجعله كذلك إذا أضفت إليه ما صنعته بنفسي بعد سماعي كلمات الرجل. لطمت وجهي بكفي آنذاك، وقرعت صدري بقبضة يدي، وقلت بصوت مسموع، ولكن بالعربية التي لا يفهمها ذلك الفرنسي: ستة أشهر من التعايش كفت أن يصبح القط والفار أخوين... ونحن في لبنان متعايشون منذ ستة قرون، لا بل منذ ستمئة قرن، ومازالت عداوة واحدنا لأخيه أدهى من عداوة القط والفار ...أيجوز هذا يا ربي.!

وهنا ضحكت أنا، ضحكت بمرارة الواقع، وقلت لصديقي:

- «الحق معك، سأكتب هذه الحكاية، على أني لن أقول كلمتك عن اللبنانيين وحدهم، بل عن العرب أجمعين!.

وها أنا أروي الحكاية لقرائي.. فهل تراني بلّغت يا أبا خليل؟».

وأنا أقول بدوري: مهما يكن من شأن هذه الحكاية وشخصية أبي خليل .. هل هي واقعية أم خيالية؟ فإنَّ الحكاية تصل بنا إلى نتيجة فحواها أنَّ العرب على الرغم مما يجمعهم من لغة وتاريخ وعادات وتقاليد... تفرقهم كلمة هنا، وخصومة هناك، وبغير الحب لا نستطيع أن نصل إلى ما نبتغيه من حضارة وتقدم. فالحب قوة روحية عظمى، تستقطب جميع قوى الحياة والنفس وتوجه

المرأة والرجل على السواء نحو أسمى المثل الإنسانية وتغذيهما بالمعرفة والإيمان، وتوقظ في كيان كل منهما شتى المعاني الغيرية التي تكمن وراء التضحية والبطولة، وتمكنهما من تمييز الشر من الخير، والباطل من الحق، والرذيلة من الفضيلة والوطن يتسع للجميع، رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً.

وكما قال أحدهم:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجال تضيق

فعالم الحب هو عالم النفس البشرية في جملته، فمن استطاع أن يتذوق جمالاته ويستمتع بأجوائه، ويصف ما أتيح له أن يعرف منه، كان حرياً بأن يدرك بعض أسرار النفس، وأن يخوض من وجوده أخطر وأرقى مغامرة عقلية ورياضية وبدنية - روحية، والشعور الأسمى بالوجود ضرب من المغامرة لا يملك أي كائن من الكائنات أن يمر به، أو يتعرف عليه، إلا إذا أتيح له أن يعاني تجربة الحب، على أعنف وأمر وأجمل وأذكى وأصفى ما يكون.

إذا نحن نظرنا بعين صافية إلى حب بعضنا بعضاً، وأخذنا رويداً رويداً في تقصّي أثره، واستقراء مظاهره، وتبيّن قيمته، تكشفت لنا مع الزمن آفاق جديدة، وهدانا البحث إلى سلوك جديد، وانبعث في نفوسنا أمل حلو رقيق بالسعادة وتحقيقها مقدار ما بلغت ظروفنا من الضيق، وأيامنا من الشدة والعسر.

المراجع

- كتاب محطات في الحياة- عبد السلام العجيلي- مطبعة وزارة الثقافة ١٩٩٥م.
- كتاب درة الفرات- تأليف نخبة من الباحثين ١٩٩٢م.

الرسالة..
من القول والخطابة إلى الكتابة والتدوين

سامر أنور الشمالي *

تتعدد معاني المفردة ذاتها أو تتبدل دلالاتها مع مرور الزمن واختلاف طرق وسائل المعيشة والتعبير، ونتيجة التطور الحضاري وما يرافقه من تباين في وجهات النظر إلى الشيء ذاته أو استعماله، ومن تلك المفردات: الرسالة بعد اختلاف دورها في حياة الفرد وهذا ما أدى إلى تغيير نظرتنا إلى الرسالة كمفهوم تقوم به عبر الصلات الاجتماعية.

• • •

في لسان العرب لابن منظور: (الإرْسال: التوجيه، وقد أرْسَل إليه، والاسم الرِّسالة والرَّسالة والرَّسُول) (والرَّسول: بمعنى الرِّسالة) أمَّا في أسس البلاغة (للزمخشري) فشرح أوفى وأدق: (راسله في كذا. وبينهما مكاتبات ومراسلات، وتراسلوا، وأرسلته برسالة وبرسول، وأرسلت إليه أن افعل كذا. وأرسل الله في الأمم رسلاً. وأرسل الفحل في الإبل. وأرسل كلبه وصقره إلى الصيد. وأرسل يده عن يده بعد المصافحة. ووجهت إليه رسلي أرسالاً متتابعة: رسلاً بعد رسل جماعة بعد جماعة. وهو رسله في الغناء والنضال وغير ذلك.

* كاتب وقاص سوري.

ورسله الغناء، وهذا رسيلك الذي يراسلك الغناء أي يباريك في إرساله) وفي كتاب (الصناعتين) أي صناعة الشعر والنثر لكاتبه (أبو هلال العسكري) نجد شروط الكتابة الناجحة ومن ضمنها الرسالة: (لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيّد، وآخر رديء، ولفظ حسن، وآخر قبيح، وشعر نادر، وآخر بارد، بان جهله، وظهر نقصه. وهو أيضاً إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو يُنشئ رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصّفو بالكدر، وخلط الغرر بالعرر، واستعمل الوحشي العكر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرةً للعاقل). هذا في المعاجم والقواميس.

«رسائل عبر العصور»

نادراً ما استخدم شعراء العربية في العصر الجاهلي الرسالة ووظفوها في قصائدهم بحسب مقتضى الحال، سواء كان المقصود من الرسالة الجانب المادي المحسوس، أم المفهوم الإشاري المعنوي، أمّا إذا ورد ذكرها في بيت ما فغالبا ما تكون الجملة بضمير المتكلم، وكثيراً ما يسبقها أحد مشتقات مفردة إبلاغ في صيغة الأمر على الأرجح، وقد يليها اسم شخص أو قبيلة لبيان الجهة المعينة التي تتجه إليها تلك الرسالة.

بل يمكن القول إن الرسالة في حقيقة الأمر موجهة إلى أي كان من دون تحديد، لأنَّ دورها عبر هذا التركيب اللغوي تعبير صريح عن وجهة نظر الشاعر، أو الموقف الذي يمثله في قبيلته- حيث كان الشعر وسيلة الإعلام والإعلان الأبرز آنذاك- ولا يغيب عنَّا أن مفردة الرسالة- في تلك الحقبة- لا تعني الرقعة المكتوبة حصراً، فثقافة ذلك العصر وأدبه اعتمدت على اللفظ والحفظ بشكل أساسي.

ومن جهة أخرى كانت الرسالة تعني الحاجة، فقد يسأل أحدهم الآخر: هل لك رسالة؟ أي هل لك طلب ما. وضمن هذه الرؤية المحددة إلى الرسالة قال الشاعر الجاهلي (النابغة الذبياني) الذي كان يقصده الشعراء في سوق عكاظ لعرض شعرهم عليه:

(ألا أبلغا ذُبيانَ عَنّي رِسالَةً
فَقَد أصبَحَت عَن مَنهَجِ الحَقِّ جائِرَه)

على قلة حضور الرسائل في نهايات العصر الجاهلي ومطلع العصر الإسلامي فطن قلة من الشعراء إلى دورها في توجيه الخطاب المباشر، ونجحوا في استخدامها في بعض قصائدهم، ومن أبرز الأدوار التي

أنيطت بها التمهيد والتوصل إلى موضوع القصيدة كتمهيد وتوطئة لإطراء الممدوح بنشر مناقبه، أو التشهير بالمهجو وتهديده- بغض النظر عن المصداقية في المدح والقدح- ومن الشعراء المخضرمين الذين ذكروا الرسائل في شعرهم الشاعر (العباس بن مرداس) بن الخنساء الشاعرة، وقد حمل رسالته قولا صريحا لا لبس فيه:

(أبلغ هوازنَ أعلاها وأسفلَها
مني رسالةَ نُصحٍ فيه تبيانُ)

لم تعد الرسالة في العصر الأموي تلك المقولة العفوية والمرتجلة التي يضمنها الشاعر في قصيدته وهو ينشدها على من حوله من مستمعين ورواة ينشرونها أينما حلوا، ففي ذلك العصر نشأ فن الخطاب النثري إلى جانب إنشاد الشعر عقب ظهور الدين الإسلامي واتساع رقعته الجغرافية وإنشاء الدواوين، والحاجة إلى فن أدبي يعتمد الحجج العقلية بالطريقة المباشرة عقب بروز الاتجاهات ذات الطابع الديني أو السياسي أو الاجتماعي التي كانت ترتكز على الأحلاف القبلية والأيديولوجية والمصالح الفردية أيضا، ورافق هذا ظهور شخصيات قيادية- أو موالية لها- لا تقول الشعر وتريد المجاهرة بخطابها ومشروعها - العام أو الخاص- أو البحث عن المؤيدين والمريدين لكسبهم إلى جانبها. وهذا عزز حضور فن نثري يعتمد الإيجاز والدقة، من دون أن يعني هذا غياب الجوانب الفنية عن فن الخطابة. ومن الشعراء المقربين من البلاط الأموي الشاعر (جرير) القائل:

(فمن مُبلغٌ عني تميماً رسالةً
علانيةً والنفسُ نُصحٌ ضميرُها)

بعد انتشار الكتابة وشيوعها بين شريحة بدأت تتسع باضطراد في العصر العباسي، صار يقصد من الرسالة تلك الرقعة المكتوبة، وذلك عقب الانتقال من الشفهية والقول إلى الكتابة والتدوين، حتى وجد الشاعر العباسي (مهيار الديلمي) نفسه مضطراً إلى التأكيد على أنه يريد إرسال رسالة غير مكتوبة، وذلك كيلا يختلط الأمر على السامع أو القارئ. ربما لأنه يجد أن الكتابة تخفف من الشحنة الانفعالية المصرح بها، أو أن المسموع أبلغ تأثيراً في نفس المتلقي باعتبار الصوت الحي أكثر قدرة على التأثير. وهذا يعود إلى الموروث الشفهي الطاغي الذي كان ما يزال حاضراً في وجدان أبناء ذلك العصر، وهذا ما يتضح بجلاء لدى هذا الشاعر،

وهو فارسي الأصل، لهذا قيل عنه إنه جمع فصاحة العرب ومعاني العجم. وقد أكثر الشاعر من ذكر الرسائل في شعره بالمقارنة مع من سبقه من شعراء:

(أم هل إليه رسالةٌ مسموعةٌ
عني فيُنصتَ للبليغ المُسمِعِ)

مع التطور الحضاري والأدبي وانحسار الأدب الشفهي لصالح الأدب المكتوب لم يعد الشعراء يكتفون بإنشاد قصائدهم، وأخذوا يكتبون أو يملون على من يكتب قصائدهم، ونتيجة لذلك تغيرت النظرة إلى الرسالة ودورها، ولم يعد الشعراء يتصورون الرسالة بمعزل عن أدوات الكتابة التي أصبحت ملازمة للرسائل، وهذا ما جعلهم يستغلون آلات الكتابة لصنع صور شعرية جديدة لم تكن مألوفة في الشعر العربي من قبل، مثل صورة الشاعر الأندلسي (لسان الدين الخطيب) الملقب بذي الوزارتين لإشغاله منصب الوزارة إضافة إلى إحرازه مركزاً أدبياً مرموقاً:

(وإنْ خطّ وجْدي منْ دُموعي رِسالَةً
على صفحِ خدّي فالنّسيمُ سَفيرُ)

● ● ●

حقق الأدب العربي في العصر العباسي نقلة نوعية على أكثر من صعيد، وتطورت بالنتيجة أساليب الخطاب، ومنها المتعلق بالرسالة وأصول كتابتها، فلم تعد الرقعة الواحدة التي تتضمن مقولة معينة من شخص لآخر، سواء من أمير إلى عامله أم من عاشق إلى محبوبته، وصارت تعني أيضا الكتب المؤلفة في مجال معين، ومن أشهر تلك الرسائل (رسالة الصحابة) لـ(ابن المقفع) التي تتاول فيها معاني الصداقة وصحبة الخلان، و(رسالة الغفران) لـ(المعري) التي تروي زيارة إلى العالم الآخر والالتقاء بالشعراء الذين انتقلوا إلى شقاوة الجحيم أو نعيم الفردوس، و(الرسائل) لـ(لجاحظ) وهي مجموعة رسائل في مجالات مختلفة، لا يخلو بعضها من الموضوعات الغريبة والطريفة. ومنها الرسائل الخمسون في مجال الفكر والفلسفة والشريعة والدين المعروفة بـ(رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء) التي كتبها مجموعة من مؤلفين لم يذكروا أسماءهم. إضافة إلى رسائل أخرى تنحو هذا النحو أو غيره.

«رسائل العشاق»

لا شك في أن فن الشعر الغنائي من أقرب الفنون الأدبية إلى طبيعة النفس، لهذا احتفى هذا الاتجاه من الشعر بالغزل وأنماطه أيما

احتفال، فلا تكاد تخلو القصائد- لاسيما الطويلة- من الغزل الذي قد يكون مدخلا إلى غرض الشاعر من مدح أو سواه.

واستخدم الشعراء الرسائل في قصائد الغزل، وصاروا يبعثون بأشواقهم ومناجاتهم عبرها، فكادت تطغى رسائل العشاق على ما عداها من رسائل متبادلة في الشعر العربي القديم، حتى تعب حاملوها من كثرتها بحسب تعبير الشاعر المملوكي (ابن نباتة المصري) الذي اشتغل على الصنعة اللفظية وبرع فيها في عصره الذي طغت فيه تلك الصنعة، إلا أنه أكثر منها حتى كثر في شعره زخرفات لا مبرر لها، وتكرار لا جديد فيه:

(لعلَّ الصبا تهدي إليَّ رسالةً
فقد تعبت ما بيننا ألسن الرسل)

من الطبيعي ألا يغيب العتاب في رسائل الحب التي تشرح أطواراً من العشق الجامح الذي قد يدفع صاحبه إلى إرسال رسالة كل يوم بحسب الشاعر المملوكي (صفي الدين الحلي) الذي كتب في مجالات عدة، ومن مؤلفاته (الأغلاطي) وهو كتاب عن الأخطاء اللغوية:

(فِي كُلِّ يَومٍ لي إِلَيكَ رَسائِلٌ
وَفي كُلِّ طَورٍ وَقفَةٌ وَعِتابُ)

من الجدير بالذكر أنَّ الرسالة في الشعر العربي كانت بصيغة المفرد- في العادة- وقليل ما وردت بصيغة الجمع، ربما لأنَّ إرسال الرسائل ليس بالأمر الميسر والمتاح لمن أراد فيما يبدو، وهذا ما جعل الحديث عن الرسالة في الحدود الدنيا في زمن لم تكن الرسالة فيه متداولة على نطاق واسع بين الناس. فضلا عن أن الرسائل ليست بكثرتها، بل بما تتضمنه وتقوله، لهذا قد يكفي إرسال رسالة واحدة لشرح حال المرء وبيان الوضع، ورغم ذلك فهناك شعراء أكثروا من ذكر الرسائل في قصائدهم، ومنهم الشاعر المملوكي (بهاء الدين زهير) ولكن هذا لا يعني أنه أكثر الشعراء إقبالا على الحياة وشغفا بها، فالغريب أنه اعتكف في بيته حتى مات عقب وفاة (الملك الصالح أيوب) الذي جعله من خواص كتابه. وقدم هذا الشاعر صورة جديدة ذات طابع سريالي تعكس مخيلة مدهشة، وإن لم تخلُ من حزن:

(رَسائِلُ الشَوقِ عِندي لَو بَعَثتُ بِها
إِلَيكُمُ لَم تَسَعها الطُرقُ وَالسُبُلُ)

يسترعي الانتباه في رسائل الغزل أن الشاعر العاشق قد لا يوجه رسالته إلى

المحبوبة مباشرة، بل يحمل تلك الرسائل إلى رسول ليقوم بهذه المهمة الحميمية، ومنهم الشاعر (قيس بن الملوح) الأموي، الشهير بلقبه (مجنون ليلى) وليلى هي معشوقته التي هام بها بعدما حجبها أهلها عنه حتى مات من شدة عشق بلا أمل، ورغم ذلك لا نجد في ديوانه غير رسائل ثلاث فقط، رغم شدة معاناته في فراق محبوبته ورحيلها عنه. لعلّ الشاعر يعرف أن نساء ذلك العصر يجهلن القراءة، وربما الشاعر نفسه يجهل الكتابة. بل ليس من الضروري في رسائل الأحبة الكتابة والتدوين، ويكفي أنّها تصف المعاناة الداخلية بعدما ضاق الصدر بنيران عشق لا تخمد، لهذا ليس من المحتم أن تكون تلك الرسائل المثقلة بلوعة الحب وعذاب الفراق محاطة بالكتمان بعدما ذاع صيت العاشق وافتضحت أسراره:

(فَمَن مُبلِغٌ عَنّي الحَبيبَ رِسالَةً
بِأَنَّ فُؤادي دائِمُ الخَفَقانِ)

بل تلك الرسائل المثقلة بشحنة انفعالية قوية هي تفريغ لتلك الأحاسيس المتوقدة والمشاعر الجامحة، أكثر من كونها خطاباً شفهياً أو مكتوباً موجهاً إلى المحبوبة لا غير، لهذا لا نجد أهمية للردود على تلك الرسائل، ويكاد الشاعر العباسي (العباس ابن الأحنف) الذي أفرد شعره للغزل وفنونه ينفرد بطلبه من المحبوبة الرد على رسالته لأن في رسالتها الشفاء من داء الحب الذي ألمّ به، وهو الداء الذي يرغب العشاق في الشفاء منه. وبذلك أعطى الشاعر دوراً جديداً للرسالة لم يخطر في أذهان الكثير من الشعراء الذين تسربت الرسائل إلى شعرهم في مواطن عدة:

(رُدّي جَوابَ رِسالَتي وَاِستَيقِني
أَنَّ الرِسالَةَ مِنكُمُ عِندي شِفا)

وطلب الرد لا يشترط وصوله، فقد يتجاهل المرسل إليه تحقيق أمنية لا تعني له شيئاً، أو يتظاهر بأنه لا يأبه لرغبة لا تهمه.

أمّا إذا تمت الاستجابة فيحدث السرور الذي قد يبلغ من شدته حداً يهدد حياة صاحب الأمنية! ومن هذه الرسائل الخطيرة تلك التي تلقاها الشاعر العباسي (أبو نواس) الشهير بخمريات تعد من أجود شعره، وفيها تجلت مخيلته بصورها المبتكرة ومعانيها البعيدة، حتى طغت على ما كتبه في موضوعات أخرى:

(أَدَّت إِلَيَّ رِسالَةً
كادَت لَها نَفسي تَسيلُ)

«رسائل أخرى»

لا تغيب الرسائل عن ذهن المعري كوسيلة مناسبة للتعبير عن أفكاره المتشعبة والمضطربة، ولكن رسائل ذلك الأديب لا تشابه غيرها، إنه يكتفي بالحديث عن رسائل لا وجود لها في الواقع، فهي مجرد رسائل مفترضة لأقوام لا يكتبون لأحد لأنهم دفنوا تحت التراب منذ أزمان بعيدة. وهذا يؤكد الصلة المقطوعة بين رهين المحبسين والعالم من حوله، فحتى الرسائل مقطوعة بينه وبين الأحياء من حوله:

(أَسكَنَ الثرى لا يَبعَثونَ رِسالَةً
إِلَينا وَلَستُم سامِعي كَلِمِ الرُسلِ)

أمّا شاعر العرفان (المكزون السنجاري) الذي انصرف إلى التصوف والعبادة في قصائده، فله رسائل خاصة لا تشابه غيرها من الرسالات، فهي تتضمن معاني غير ميسرة الفهم بسهولة، ونفاستها لا تأتي من موضوعاتها وأفكارها فحسب، بل من طريقة الترتيب والتنسيق أيضاً، وهذا يدل على أن تلك الرسائل بالغة الإتقان على صعيد المضمون والشكل، لهذا تحتاج إلى قارئ من الصفوة لفهم المعاني الدقيقة غير الشائعة والمتداولة، وهذه صورة فريدة لرسائل ثمينة محفوظة عمن لا يستحق من العامة:

(بِرِسالَةٍ دَقَّت مَعاني لَفظِها
وَزَهَت لآلئُ عقدِها بِنظامِها)

وسيد قريش (أبو طالب) عم الرسول (صلى الله عليه وسلّم) وحاميه من المشركين كان مجيدا في الشعر والخطابة، وكان يرى أن الرسالة لا تنوب عن المرسل أو تقوم مقامه، فالرسالة قد تكون وسيلة من لا يقدر على مقابلة ومواجهة المرسل إليه بصفتها تفتقر إلى الكثير من عوامل التواصل الإنساني الحميم، وعاجزة عن نقل كل ما يريد صاحب الرسالة قوله والتعبير عنه من أفكار، فلا يستطيع المرسل محاورة المرسل إليه لأن الرسالة ذات اتجاه واحد:

(ألا أبلغا عنّي لُؤَيّاً رِسالَةً
بِحَقٍّ وَما تُغني رِسالَةُ مُرسِلِ)

إذا تساءل أحدهم إن كانت الرسالة لا تحقق وجودها إلا إذا تمّ فعل الإرسال؟ يجيبه (الشريف الرضي) الذي أجاد في قول الشعر، وصنف كتباً كثيرة في مجال الأدب، أشهرها (نهج البلاغة) الذي جمع فيه خطب وأقوال الخليفة الرابع (علي بن أبي طالب) كرم الله وجهه إن هذا غير ملزم، فقد تكون الرسالة رسالة حقاً وإن لم ترسل، وحجته أن لديه رسائل عدة لم يرسلها خشية

من الواشين. وهذه صورة مبتكرة وجملة تحدثنا عن الرسائل التي لم ترسل ورغم ذلك تظل تحمل صفة الرسائل:

(عِندي رَسائِلُ شَوقٍ لَستُ أذكُرُها
لَولا الرَقيبُ لَقَد بَلَّغتُها فاكِ)

• • •

في دراستنا الموجزة والمختصرة عن الرسالة في الشعر العربي القديم تحدثنا عن الرسائل التي يتبادلها البشر على الكرة الأرضية، ولم نتطرق إلى الرسائل المرسلة من السماء إلى الناس لهدايتهم؛ وهذا بحث آخر يحتاج إلى دراسة مستقلة ننجزها إن شاء الله.

قوة التركيز عند المرأة
كيف تعيشين الحياة التي تستحقينها؟؟

هبة الله الغلاييني ✽



المطلوب قراءة هذا المقال بوساطة النساء من كل الأعمار وكل المستويات، اللاتي يرغبن في عيش الحياة التي يتمنينها، حياة الإبداع، والإشباع، والعاطفة، والمتعة، فهذا المقال سيلهمك أن تكتشفي إمكانياتك كامرأة، ويمدّك بالأدوات التي تساعدك على الإيمان بذاتك، وشجاعة النظر إلى داخلك. فقوة التركيز هي التي ستحرّرك.

الدعم الداخلي:

تشعر العديد من النساء بتفاوت بين ما هن عليه وما يعتقدن أنه يجب أن يكنّ عليه، وهذا يظهر في سلوكهن. إنهن يتصنّعن، في محاولة لأن يبدين على الشاكلة التي يتخيلن أنّ العالم يريدهن عليها، وهذا ما يسبّب الاضطراب وعدم الارتياح الناتج عن خداع النفس، إنهن كثيراً ما يعتقدن أنّ الأمر يتعلق بالتحسن والتطوّر: في التعليم، وفي المظهر، وفي الملبس، وفي كل شيء. إلا أن هذا في حقيقته نوع من رفض الذات.

✽ كاتبة ومترجمة سورية.

ما إحساسك بذاتك؟ هل تكشفين عن ذاتك الحقيقية طوال الوقت أم أنك تمارسين لعبة الإيهام والخداع؟ يحدث الوهم والخداع فيما نظن أنَّ لا أحد يمكنه أن يلحظ تظاهرنا، والحقيقة أنَّ معظم الناس يشعرون بأنّك تمثّلين عليهم.

ولكن لأننا لا ندرك الحيل التي نمارسها، فإننا ننتهي إلى خداع أنفسنا وليس غيرنا.

فذاتك الحقيقية هي تلك الشخصية التي ولدتِ لتكوني بها، بما فيها من نقاط ضعف ونقاط قوة، وما فيها من مواهب وإحباطات، وعادات صغيرة ومرحة وحكمة جوهرية متأصلة. ذاتك الحقيقية هي التي كانت قبل أن تغيّرك مآسي وجراح وصدمات الحياة. فكل ما تحتاجينه هو أن تكوني على حقيقتك. كفّي عن محاولة انتحال شخصية أخرى هي ليست أنت حقاً.

إنَّ حياتك رحلة يؤثّر فيها والداك، ومدرسوك، وعائلتك، وعلاقاتك الأخرى المهمة. كل هؤلاء ساعدوا في تشكيلك لتكوني الشخص الذي أنت عليه اليوم، وللأسف فإنَّ بعض هذه المؤثرات قد تكون سلبية ويمكن لهذه المؤثرات السلبية أن تفسد شخصيتك الحقيقية.

لنعد إلى الطفولة المبكرة، ما الذي يرغب به ويحتاجه جميع الأطفال الصغار؟

إنَّ أكثر ما يحتاجون إليه هو الشعور بالحب، والأمان، والاهتمام، والأهمية، والتميز. الأطفال يتطلّعون إلى الأشخاص المهمّين في حياتهم التماساً للإرشاد والتوجيه. يتعلّم الأطفال الاقتداء بكل سلوك متوقع «كن طيباً»، «كن جيّداً»، «كن شجاعاً»، إنَّ عالم الأطفال يسيطر عليه كبار يعتمد الأطفال عليهم في حياتهم. عندما كنّا أطفالاً تعلمنا أننا لو أسأنا التصرف فقد يؤدي ذلك إلى أن يسحب الكبار حبّهم لنا أو حتى يهددونا بالهجر، وبالتدريج قمنا بقمع تلك الأجزاء من شخصيتنا الطبيعية التي يحكم عليها الكبار بأنها سيئة أو معيبة أو مخزية. وعندما نصل إلى سن المراهقة، نكون قد نبذنا بعض مهاراتنا الطبيعية كليّة، لأن الكبار اعتبروها غير مستحبّة أو لا نستحق أن نملكها.

إنَّ الأطفال يرون العالم من منظور فريد، إذا بدا لهم موقف ما يثير التهديد، فإنهم يتعلّمون كيف يتغلبون عليه، أو يتكيّفون معه،

أو يتفادونه، وما قد يكون بمثابة الصدمة بالنسبة لهم، قد لا يلاحظه الأب أو الأم المنشغلة أصلاً.

ومع تركهم لآليات التكيّف الخاصة بهم، يلجأ الأطفال إلى الخيال كوسيلة للتعامل مع مواقف الصدمات. وقد يصل بهم الأمر إلى صنع شخصيات جديدة وحتى الوصول إلى سن البلوغ، كثيراً ما تصنع الفتيات والصبية العديد من الشخصيات لإخفاء الشخصية الحقيقية، تلك الشخصيات تسمى بالأقنعة.

انزعي قناعك:

جزء من اكتشاف ذاتك الحقيقية هو أن تكتشفي ما ليس هو ذاتك الحقيقية، أحياناً تلتصق الأقنعة ببعض الناس لدرجة أنهم لا يدركون شخصيتهم الحقيقية وينسونها، ويصبح القناع بديلاً مريحاً.

قد يكون نزع القناع أمراً مخيفاً، إنَّك بحاجة إلى أن تسألي نفسك: «من أنا؟» وهذا السؤال خطير في الواقع، وهو من الخطورة والأهمية إلى حدّ يجعل العديد من النساء يتردّدن في نزع أقنعتهن. ولكن قبل أن تفكري في ترك الأمور على ما هي عليه، اعلمي أنَّ جميع الأقنعة تشترك في سمة واحدة، إنّها تمنعك من أن تظهري للآخرين أكثر ما تمتلكينه من قيمة وأهميّة، ذاتك الحقيقية. إنَّ النسخة الزائفة المحرّفة لا تستطيع ببساطة أن تحل محل شخصيتك الحقيقية.

لكي تصبحي صحيحة نفسياً وعاطفياً، ولكي تعمقي صلات أعمق مع نفسك ومع الآخرين، يجب أن تنزعي القناع. حينها عليك أن تسألي نفسك: «ما القناع الذي أرتديه بالتحديد؟ وكيف يعيقني هذا القناع؟».

فهناك العديد من الأقنعة، منها:

١- قناع البحث عن الاستحسان:

هل تفرطين في الحذر مما يقوله الآخرون عنك؟ وتفكرين دوماً في كيفية إرضائهم؟ هل تسعين للفوز باستحسانهم لقوامك، ورشاقتك، وملابسك، وحجم منزلك، والسيارة التي تقودينها، والمال الذي تكسبينه؟ كوني صادقة: هل أنت مستعدة لفعل أي شيء تنالين به استحسان الآخرين؟

فقناع البحث عن الاستحسان هو أحد أكثر الأقنعة شيوعاً، وراء هذا القناع تختبئ

امرأة مستعدة للإرضاء والقبول، إنَّها تجد صعوبة في وضع الحدود لأنَّ احتياجات جميع من عداها تبدو أهم من احتياجاتها الخاصة، وموقفها اللاواعي هو: «أنت مهم، أنا لا».

إنَّ التخلّي عن قناع السعي للإرضاء يحرّرك بشكل هائل، لكن القيام بهذا يتطلّب تحوّلاً كبيراً في التركيز.

فبدلاً من الاهتمام الدائم بالآخرين، أنت بحاجة إلى تحويل هذا الاهتمام إلى نفسك. وهذا لا يعني الأنانيّة، فالمطلوب هو إيجاد توازن سليم بين تلبية احتياجاتك الخاصة وخدمة الآخرين بصدق.

ستساعدك تلك النصائح على التخلّي عن قناع البحث عن الاستحسان:

- كوني على دراية بمشاعرك، احترمي مشاعرك، فهي تنتمي إليك، وهي مشاعر حقيقية لست بحاجة إلى الاعتذار عنها، تدرّبي على الكلام بصراحة وصدق وليعكس سلوكك هذا.
- دعي الآخرين يروك على حقيقتك، وليس كما تتصنعينه ليروك عليه.
- اعتني بنفسك أولاً، وقتها فقط ستكونين متاحة للآخرين، ويعني هذا أن تضعي حدوداً جديدة تسمح لك بفعل هذا بشكل دائم.

٢- قناع الضحيّة:

قد يؤدي هذا القناع القوي إلى واقع تعيس وحياة بائسة. تشعر المرأة التي تختفي وراء هذا القناع بأنَّ الحياة ظالمة، إنَّها تلعب دور الشهيدة، حيث تحبّ هذه المرأة اللوم والشكوى بدلاً من تحمّل المسؤولية، وغالباً ما تكون فريسة للتفكير في الماضي.

- كان من الممكن أن تكون حياتي مختلفة لو أمكنني الحصول على تعليم أفضل.
- فقط لو أنَّ مديري الذي أتعامل معه كان قد دعم فكرتي.
- كان على زوجي أن يشعرني بالسعادة، ولكنني الآن وحدي تماماً.

تعتقد المرأة التي ترتدي قناع الضحيّة أنّه لا خيار لديها، إنَّها تتخلّى عن قدراتها وتنظر لنفسها على أنها أدنى من غيرها، ويظهر ذلك في لغة العجز التي تستخدمها:

- لا أستطيع

- إني مضطرة
- يجب عليّ أن

إنّها تشعر بأنّ موقفها ميؤوس منه، ولا شيء بيدها لتغيّره، إذاً ما نوعية الطاقة التي تنطلق من هذه المرأة؟ أجل، أنت محقّ: سلبيّة. في الواقع، إذا قضيت الكثير من الوقت مع إنسانة كهذه، لشعرت بأنّ طاقتك أنت شخصياً قد استنفدت. إنّه أمر مرهق.

وعلى الرغم من ذلك، فإنّ بعض النساء يرتدين قناع الضحيّة، ويمتلكن القدرة على اجتذاب المنقذين، ومانحي الرعاية، وبعض هؤلاء يكنّ مرتديات قناع السعي وراء الاستحسان.

عندما يكون مثل هؤلاء موجودات، نجد لديهن ميلاً للحديث عن مشكلاتهن، ويبدو الأمر كما لو أنّ هموم الدنيا تجثم على كاهلهن.

إنّ الضحيّة تلوم الآخرين لتعاستها، وتنغمس في الرثاء لذاتها والشفقة عليها وكثيراً ما تستخدم مشاعر الذنب كميّزة تساعدها على نيل ما تريده، والأمهات المسنّات كثيراً ما تفعلن ذلك، وهو موقف يصعب على الأبناء إيجاد حلّ له.

نحن جميعاً نشعر أحياناً بأننا ضحايا، إلا أن من يرتدي هذا القناع قد اختار أن يحيا حياة الضحيّة على الدوام، والأمر الجيد هو أن بإمكانك خلع القناع وقتما تشائين، وإليك كيفية القيام بهذا:

- ابدئي بإحداث تغيير في موقفك، غيّري منظورك تجاه الحياة، لديك خيارات، كوني مبدعة، ضعي قائمة بعشرة خيارات لتحسين موقفك، اعملي على أن تدونيها جميعاً، قد لا تكون الخيارات الأولى هي الأفضل، كثيراً ما تأتي أفضل الخيارات في آخر القائمة، تخيّري منها واحداً واتخذي الخطوة الأولى.
- راقبي لغة حديثك بعناية، أوقفي حديث الذات السلبي، وعمّا يمكن وما يتوجّب وما لا يمكن. ابدلي ذلك بعبارات تأكيد: أنا ذات قيمة، أنا محبوبة، أستحقّ حياة أفضل، إنك لن تلاحظي تغييراً جذرياً ما بين يوم وليلة، إنّها عملية تأخذ وقتاً لإحداث تكامل بين هذه المعتقدات على المستوى الشعوري، قد تبدو في البداية خاطئة، قدّميها أول الأمر على أنها أفكار، ثم انطقيها.

أنصحك بأن تستخدمي بطاقات صغيرة لتدوين الأفكار ثم اقرئيها بصوت عالٍ كل يوم بكل ما تستطيعينه من مشاعر، بتكرار هذا، سوف تزرعين بذرة في عقلك الباطن. إن عقلك لا يعرف الفارق بين ما هو حقيقة وما هو خيال، إنه يقبل الرسالة ببساطة.

● ابحثي عن الإلهام، تمتعي بوضع خطة جديدة لحياتك، واعلمي أنَّ الآخرين قد حوّلوا مسار حياتهم بعد خوض تحديات صعبة، اعثري على شخص واحد لن يتحمّل موقف الضحيّة، واطلبي منه دعماً إيجابياً، إذا ما بيّنت أنك جادة في إحداث تغيير في ظروفك، فإنَّ الأشخاص المناسبين سيبدون تجاوباً. احذري الضحايا الآخرين الذين لا يرغبون في التغيير، إنك بحاجة إلى طاقة إيجابية لكي تحرّرك.

٣- قناع الانشغال الدائم:

هذا القناع هو الأكثر استخداماً من بين جميع الأقنعة. من ترتديه تجد نفسها في انشغال دائم. تلتقط هذا، وتلقي بذاك، وتعدّ قوائم المهام، وتتطوّع للقيام بالأعمال، وتنتج، وتكون دائماً في حركة دائبة.

أعلم ما تفكرين فيه: «تلك هي حياتي الآن، فهل أرتدي هذا القناع حقّاً؟»

ولمساعدتك على التمييز بين الانشغال الحقيقي وبين القناع، أجيبي عن هذين السؤالين:

● هل يمكنكِ الجلوس وحدك من دون أن تفعلي شيئاً؟

● إذا توقفتِ عن العمل، فهل ستظلين تشعرين بقيمتك؟

إنَّ «المشغولة دائماً» تمقت فكرة إضاعة الوقت بلا عمل، تلك المرأة لا تمنح نفسها وقت فراغ، وتخشى ألا تجد ما تفعله.

وقناع الانشغال الدائم هذا يعدّ آلية ماهرة للدفاع عن النفس تساعدها على تفادي مواجهة مشاعرها الحقيقية.

فإذا كنت ممن يرتدين هذا القناع، تمهّلي، وراجعي احتياجاتك لأن تكوني مشغولة. هناك ثلاثة احتمالات:

● أنت متحمسة لما تفعلينه، إنك تحبين عملك وهو يمنحك الطاقة، كما أنك تحصلين على أوقات راحة، وتفهمين أهمية التوازن.

- أنت ببساطة بحاجة إلى مزيد من المساعدة والدعم، قائمة مهامك حقيقية، وكل ما فيها يتطلّب اهتمامك، والمشكلة أنَّ لا أحد يشاركك هذا العبء.
- لديك دافع قهري غير صحي لأن تكوني منشغلة، تصفين كل من حولك بالجنون بينما تفرطين في إشغال نفسك بالأعمال.

فاليك عدّة خطوات يمكنك اتخاذها لنزع قناع المشغولة دائماً:

- تحدّي (بشكل يومي) الدافع القهري الذي يدفعك لأن تكوني مشغولة، سيفقد القناع قوّته المسيطرة عليك بالتدريب.
- خصّصي بعض الوقت الهادئ من أجل نفسك، ابدئي بعشر دقائق ثم زيدي المدة بالتدريج. اجلسي وحدك في خصوصية تامة، لا مشاهدة تلفزيون أو قراءة مجلة، ففيهما ما يشغلك أيضاً. نفّسي عن أية مشاعر تطفو على السطح، وفيما بعد، دوّني أفكارك في دفتر مذكرات أو حاولي أن تنطقيها بصوت عالٍ. أجل، لا غضاضة في أن تحدّثي نفسك بصوت عالٍ.
- تخلّصي من كل ما هو غير ضروري من قائمة مهامك.

٤- قناع التفكير العقلاني:

هل حدث ووجدت نفسك وسط مجموعة تخوض في نقاش فكري مليء بالحقائق والأرقام الغامضة، حديث مملّ بشكل لا يصدق، ويتصاعد إلى درجة لا تحتمل. وخلال العملية برمّتها، لا تظهر أدنى عاطفة شعورية، إذا حدث لك ذلك، فلقد كنت في جلسة من التفكير العقلاني.

مع أنني أظن أنَّ الرجال يرتدون قناع العقل بقدر يفوق النساء، إلا أنَّ بعض النساء يبالغن في هذا الدور ويستغللن جرأتهن الأكاديمية كستار يخفين به أشياء أخرى. المرأة التي تختبئ وراء هذا القناع تفضّل التفكير على الشعور. إنّها صارمة في تفكيرها، تحيط نفسها بالمفاهيم والتحليلات. ولأنّها تفتقد الصلة العاطفية، فإنّها تجد صعوبة في إقامة علاقات مع الآخرين في محيط العمل، خاصة إذا كانت تعمل كمديرة أو مشرفة.

كما أنّ خواءها العاطفي يسبّب لها مشكلات مع العائلة، التي تنظر إليها على أنها باردة لا تلقي بالاً لهم، فمن يرتدين قناع العقل لا يبدين الكثير من العاطفة.

هذه المرأة تحب أن تكون غاية في الموضوعية، وتعيش حياة تحكمها القواعد والنظم، ويمكنها أن تبرّر أي موقف للتعبير عن وجهة نظر معينة، وفي أثناء ذلك تحرص على ألا تطفو المشاعر المرتبطة على السطح. إنّها تؤمن بأن إظهار العاطفة أو المشاعر علامة على الضعف، ولذلك فلابد من السيطرة عليها.

إنّها تفضّل قاعة المحاضرات أو الفصل على الحياة الاجتماعية بما فيها من بشر ومشكلات. فإذا كنت تواجهين صعوبة في نزع مثل هذا القناع، نقترح عليكِ مايلي:

- تعرّفي على مشاعرك في محادثة عامة، كوني على ألفة مع كلمات المشاعر المهمة: أشعر بالسعادة، أشعر بالملل، إنني غاضبة. وبدلاً من أن تقولي: «إنّ الترقية الجديدة التي حصلت عليها تعدّ اعترافاً بقدراتي على تنفيذ البحث الدقيق»، قولي: «أشعر بالفخر لهذه الترقية لأنها تقرّ بقدراتي على تنفيذ البحث الدقيق».
- خلال المحادثات، استخدمي ذكاءك العقلي في استكشاف مشاعر الآخرين. لتكن لعبة، إذا كان هذا سيحفّز أفكارك. قدّمي ردوداً دقيقة تعكس فهمك لما يقوله الآخر. أجل، هذا يعني إبداء اهتمام حقيقي صادق، حتى لو كان هذا شعوراً جديداً بالنسبة لك.

٥- قناع الإنقاذ:

حينما تنطلق صرخة الاستغاثة، تكون المنقذة أوّل من يلبّي النداء. يُنظر إلى تلك المرأة على أنّها يد المساعدة بسبب احتياجها القهري إلى مساعدة الآخرين، فالمنقذة تبحث عمن تنقذه، معتقدة أنه لا نجاة لهم من دونها، لذا ترغب في تولّي مسؤوليتهم. شعارها هو: «إنّهم بحاجة إليّ». إلا أنّها، بينما تقدّم المساعدة، قد تكون متغطرسة، وهي لا تدرك أنّ احتياجها المتأصل لتقديم العون قد يسهم في إبقاء من تساعدهم في الورطة نفسها.

هل تمارسين تلك الألعاب أيضاً؟ هل تحكمين على ما هو أفضل لغيرك، بدلاً من أن تتركيهم يجرّبون؟ الأمهات المنقذات يبالغن في حماية أطفالهن، وهنّ عادة يتسببن في المستقبل في أن ينشأ هؤلاء الأطفال متمرّدي الطباع.

إذا أردتِ تفادي أن يكون لديك مراهقون متعبون، فخفّفي حمايتك لهم وهم صغار.

نشأت معظم النساء على الحساسية تجاه احتياجات الآخرين، نحن بحكم العادة من يرعى ويعتني، بينما الرجال هم الصيّادون ومن يوفّرون الطعام.

فهل شعرت يوماً بالغضب لقيامك بالكثير لأجل الآخرين؟ وتذكّري أننا نتحدث هنا عن السلوك المفرط وليس العادي والطبيعي الذي يقوم به الأشخاص المتوازنون.

إليكِ إذاً اقتراحين لمساعدتك على طرح هذا القناع جانباً:

- تفهّمي أنّ كل فعل تقومين به يحفزه غرض ما، لكل سلوك غرض.

اسألي نفسك: هل أقوم بذلك لإرضاء احتياج شخصي (أن أكون محبوبة) أم أنني أقوم به بدافع حب غير مشروط ولا أنتظر من ورائه مقابلاً؟ إذا أدركتِ أنكِ ستكونين محبوبة من دون القيام بذلك، هل ستواصلين لعب دور المنقذة؟

- حينما تقومين بدور المنقذة في المرة القادمة، تمهّلي واسألي نفسك: «هل يحتاج هذا الشخص إلى إنقاذ، وهل مسؤوليتي أن أنقذه؟».

اكشفي عن حقيقة ذاتك، وستسعدين بقيامك بذلك:

هناك خيط رفيع يفصل بين بعض هذه الأقنعة، خاصة قناع البحث عن الاستحسان وقناع الانشغال الدائم وقناع الإنقاذ. لقد ارتديت هذه الأقنعة لسنوات. لقد كانت تلبّي احتياجاتي لأن أكون محبوبة. لم أكن أعرف لوقت طويل ماذا تعني الحدود أو السلوك التمكيني. لقد نشأت لأكون مثالية (كانت لديّ مثل عالية ومقدسة) ولكنني لم أستطع الوصول لهذه الغاية، وسبّب لي هذا الكثير من الأسى والإحساس بالذنب، حتى تعلمت كيف أتغلّب عليه.

كنت أتمنى كثيراً لو أمكنني الرجوع بالزمن وإصلاح أجزاء من حياتي، إلا أن هذا لن يجدي نفعاً.

إنني أرفض التركيز على الألم والذنب فمن الأفضل المضي قدماً، وكلما راجعت أغراضي ونواياي، أصبح من الأسهل أن أكون صادقة من دون حاجة إلى أقنعة. واليوم أنا ممتنة لأني أعلم كيف أعطي بسعادة، وأخدم وأحبّ بلا شروط، إلا أنه مازال من الصعب عليّ تفادي الإفراط.

من الصعب نزع كل الأقنعة. كثيراً ما تكون برمجتنا متعمّقة بداخلنا، وقد تختلط مع بعض المعتقدات غير المفهومة بشكل صحيح، أو السلبيّة، أو الروحية.

- فمن الأنانية أن تفكّري في نفسك.
- الأيدي العاطلة من أدوات الشيطان.

إذا ما ارتدينا قناعاً، فإنّ هذا لا يعني أننا بحاجة إلى أن نعنّف أنفسنا عقلياً، إنّنا ببساطة نرتدي قناعاً حينما نريد إخفاء ألمنا. إنّها آلية دفاعية في المقام الأوّل، هناك أوقات قد يكون فيها من الأفضل كبت مشاعرنا، ويكون من المناسب ارتداء قناع مؤقت.

إنّ نزع الأقنعة هو الشيء الوحيد الذي يستطيع تحريرك من نفسك، من جدران سجنك التي شيّدتها بنفسك، ومن الحواجز التي أقمتها بكل جهد.

إنّ كونك صادقة يصبح أكثر أهمية عندما تشعرين بالتعاسة أو الحزن.

بحقّ، سيستطيع الأصدقاء التجاوب مع هذا الاحتياج حينما لا تستخدمين قناعاً تخفين وراءه مشاعرك، الأقنعة تصنع تجنّباً عاطفياً. ستتسبب في أن تفقدي فرصاً عديدة لإقامة علاقات حميمة.

تعهّدي لنفسك: من الآن فصاعداً، سأمتلك الشجاعة لأكون صادقة وحقيقية.

المصدر

من كتاب: «The Power of focus for woman» By: Fran Hewitt & Les Hewitt

مسرح سيروس (النبي هوري)

د. خليل المقداد ✿



قرأت كثيراً عن مسرح سيروس من خلال ما كتب عنه في العديد من الأبحاث العلمية التي نُشرت سواء عن المسارح الأثرية في سورية أو المسارح الأثرية في العالم القديم، وأكثر الأبحاث التي نشرت في هذا الخصوص وكانت تتناول المسارح في سورية كتبت من قبل العالم المختص أدمون فريزول الذي عمل في هذا الحقل منذ وقت مبكر من تأسيس المديرية العامة للآثار والمتاحف، وكان يعمل ميدانياً أثناء دراسته عن بعض المسارح ومنها مسرح مدينة فيليبوبولس (شهبا)(١) كما اكتسب خبرة جيدة من خلال عمله في

✿ أديب وآثاري سوري.

سـورية قادته لدراسـة العديد من المسارح بمـا فيهـا المسـارح العالمية، وضمـن هذه المنهجية فقد نشـر العديد من الأبحاث في هذا الخصـوص سواء في الحوليات الأثرية العربية السـورية أو الدوريـات الأثرية في معظم دول العالم مثل مجلة Syria (سـيريا) الفرنسية[٢] أو غيرها من المجلات، كما نشر العديد من الكتب بهذا الخصوص، كما كتب قبل وفاته بفترة قليلـة من الزمن بحثاً عن المسارح الأثرية السـورية نشر في مجلد من جزأين كتب بالفرنسية تحت عنوان «سورية تاريخ وحضـارة»، وضـمن هذا البحث تكلم بشكل مقتضب عن مسرح سيروس.

وقد تناول الباحثون الذين كتبوا في هذا المجلد العديد من الأبحـاث المتنوعة والتي شـملت العديد من المواضيع وكان معظمهم من العلماء الفرنسـيين الذين سـاهموا في العمل الأثري في سورية ومن ضمنها المسارح الأثرية في سورية[٣].

ولا بد من ذكر الأبحاث التي نشرت بهذا الخصوص من خلال المؤتمرات الأثرية التي عقدت في العالم والتـي كانت تتمحور حول المسارح السـورية أو الآثار في سورية ومنها المسارح.

ومن أهم هذه المؤتمرات المؤتمر الدولي التاسـع للآثـار الكلاسـيكية الـذي عقد في مدينـة دمشـق في الفـترة الواقعة بين ١١-٢٠ تشريـن الثاني من عام ١٩٦٩م. وتمّ نشر نتائج المؤتمر في العدد ٢١ من الحوليات الأثرية العربية السـورية الخاص بالأبحاث المتعلقة بالمؤتمر.

موقع مدينة سيروس: تقع مدينة سيروس على ضـفة وادي عفرين التـي تبتعد عنها نحو ٣٠كم شمالاً، وحسب ما ذكر عن القائد اليوناني بلوتارك فقد تمّ تأسيس المدينة من خلال النهضة العمرانية التي شملت تأسيس العديد من المدن في سـورية على أثر دخول قوات الإسـكندر المقدوني المنطقة الشرقية من البحر الأبيض المتوسـط، كما اسـتمر الأمر كذلك في تأسـيس المدن الجديدة من قبل خلفائه وخاصة سلوقس نيكاتور مؤسس المملكة السـلوقية في سـورية والتي امتدت حتى بلاد الهند وشـملت أراضـيها آسـيا الصغرى وبلاد الشام وكانت أوسع مملكة في العالم في العهد الهلّينستي حيث كانت مدينة أنطاكيا عاصمتها[٤].

وكمـا ذُكـر في المصـادر التاريخية أنّ القائـد اليوناني الإسـكندر الكبـير وأثناء حملته القصـيرة على سورية أسس أكثر من سبعين مدينة سميت باسمه إضافةً إلى المدن التي أُسسـت في مصر وعلى رأسـها مدينة الإسكندرية التي أصـبحت عاصمة المملكة البطلمية.

وكما ذكرنا فقد كانت إمبراطورية الإسكندر المقدوني الأكبر والأكثر انتشاراً جغرافياً في العالم حيث شملت أراضي آسيا الصغرى وكامل أراضي تركيا والقسم الكبير من أراضي القارة الآسيوية بما فيها الهند وبلاد الشام وشمال أفريقيا باستثناء منطقة الأنباط جنوب سورية والأردن وأراضي الجزيرة العربية بما فيها المنطقة الشمالية التي كانت تعرف باسم بلاد العرب حيث أسست على أراضيها المملكة النبطية التي كانت عاصمتها في البداية مدينة البتراء في جوف وادي موسى جنوب الأردن ثم تحولت إلى مدينة بصرى عندما تزايد الوجود البشري والنشاط الاقتصادي والاجتماعي للأنباط شمالاً.

وبعد وفاة الإسكندر المقدوني السريعة وتقسيم إمبراطوريته إلى ثلاثة أقسام وتأسيس ثلاث ممالك هي المملكة السلوقية والمملكة البطلمية والمملكة المكدونية فقد استأثر كل قائد من قواد الإسكندر بواحدة من هذه الممالك، ونتيجةً لذلك فقد اعتلى القائد سلوقس نيكاتور العرش على سورية وتمّ تأسيس المملكة السلوقية وعاصمتها أنطاكية كما ذكرنا قبل قليل.

وقام هذا القائد بدوره في تأسيس العديد من المدن الجديدة في بلاد الشام حيث أسس ست مدن على اسمه ومدينة أنطاكيا على اسم والده وخمس مدن على اسم أمه كما أسس تسع مدن خصصت له شخصياً وأربع مدن على اسم زوجته الأولى وثلاث مدن لزوجته الثانية أفاميا.

وتوزعت جميع هذه المدن على الساحل السوري مثل مدينة لاوديسة سور مير (اللاذقية) أو على ضفاف الأنهار مثل مدينة دورا أوروبس (الصالحية) على نهر الفرات بالقرب من مدينة دير الزور أو مدينة أفافيا (قلعة المضيق) على نهر العاصي أو مدينة سيروس (كورش – النبي هوري) على وادي عفرين. أو في المواقع الإستراتيجية الداخلية مثل مدينة أنطاكيا، كما شملت هذه الإستراتيجية توسيع المدن القائمة قبل ذلك التاريخ مثل مدن حلب – دمشق– الرستن– حماة – قنسرين شيزار– الرقة وغيرها[٥].

مسرح سيروس الأثري: بعد تأسيس المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية كان من أولوياتها ترميم وصيانة المواقع الأثرية في كامل الأراضي السورية ومن ثم التوثيق والتنقيب والتوثيق والتوثيق مرةً أخرى على ضوء المستجدات. كما شمل هذا الأمر الاهتمام بالمباني الأثرية التي ترجع إلى كامل الفترات التاريخية التي تمّ تحديدها بموجب قانون الآثار ومنها ترميم وصيانة المسارح الأثرية القائمة كلياً أو جزئياً أو الكشف عن المسارح الأخرى المغمورة.

وكان على رأس هذه المسارح كل من مسرح بصرى مع المحافظة على أقسام من القلعة المتداخلة مع المسرح وبشكل خاص الأبراج المحيطة به[٦] ومسرح جبلة ومسرح شهبا ومسرح سيروس الذي بدأ العمل فيه منذ بداية عام ١٩٥٣م واستمر حتى عام ١٩٧٦م.

وبعد هذه الأعمال الجبارة في الموقع تبين أنَّ مسرح سيروس من المسارح الأثرية الأكبر ليس في سورية فحسب بل في العالم القديم حيث جاء في المرتبة الثانية بعد مسرح أفاميا إذ يبلغ قطره ١١٥م. ومن هنا نجد أنَّ حجم المسرح ومعيار عدد المتفرجين داخله يدل على حجم المدينة وأهميتها في الوقت نفسه، كما لو أخذنا هذا الأمر مقياساً على ذلك ومن خلال المقارنة مع مدينة أفاميا التي بلغت نسبة عدد سكانها في العهد الهلّينستي وحسب التقديرات الأولية من خلال العديد من المعايير نصف مليون نسمة[٧]، نستخلص من ذلك أنَّ مدينة سيروس كانت بحجم هذه المدينة نفسها ونسبة السكان فيهما كانت متقاربة.

وجاء بناء المسرح من قسمين رئيسين هما مبنى المنصة بأقسامه وتفرعاته ومبنى المدرج بأقسامه وتفرعاته أيضاً كباقي المسارح التي دمجت بين منهج المسارح التي عرفت باسم المسرح اليوناني التقليدي والمسرح الروماني نصف المستند ولدينا منها في سورية العديد من النماذج أهمها مسرح مدينة جبلة ومسرح مدينة درعا ومسرح مدينة اللاذقية ومسرح مدينة جرش وغيرها من الأمثلة المتعددة.

وقد حافظ القسم السفلي من المدرج على بنائه حتى الآن، أمّا القسم العلوي من بناء مدرجات جلوس المتفرجين بما فيها الرواق العلوي فقد تهدم كلياً؛ والسبب في ذلك أنه بني مستنداً على ركائز معمارية ما زال قسم منها في موقعه باقياً حتى الآن حيث تمّ توظيف الحجر الكلسي في بناء الركائز كما هو الأمر في مدرجات القسم الأوسط التي بقي منها ١٤ درجة من أصل خمس وعشرين درجة.

وجاء بناء المدرج المخصص لجلوس المتفرجين (la cavea الكفيئة) من ثلاث طبقات هي الكفيئة السفلى (im cavea) والكفيئة الوسطى (media cavea) والكفيئة العليا (summa cavea) ويعلوها جميعاً الرواق العلوي. ولو نظرنا إلى تأسيس القسم السفلي من المدرج نجد أنه قد توافق كلياً مع مسرح مدينة بصرى، حيث ينطلق هذا القسم من الأسفل بوساطة جدار محيطي يحيط في بساحة الأوركسترا ومن الأعلى ممشى فاصل يفصل المقاعد ويسمح بمرور المتفرجين من الأسفل والنزول إلى

ساحة الأوركسترا أو الأروقة الجانبية عن طريق أدراج صغيرة، وقد بلغ ارتفاع الجدار المحيطي عن أرضية الساحة ٢,١م.(صورة رقم١)، ولهذا السبب تمّ اختراق الواجهة المحيطة بساحة الأوركسترا بالأدراج الشعاعية.

الرواق الحزامي (أمبولاكر ambullacre):

وبسبب هذا الحجم الكبير والهائل للمسرح، تمّ تنفيذ الرواق الحزامي في أسفل القسم الأوسط من المدرج على شكل دائري وله مداخل تفتح على داخل المدرج ومخارج تفتح على الواجهة الخارجية، وقد زود الرواق بعدد كبير من الممرات والمماشي الموزعة على كامل أقسام المسرح، ومن أجل ذلك فقد بنيت العديد من الركائز الضخمة والقوية وُزّعت بشكل دقيق ومنتظم، ومن ثم تمّ ربطها مع الجدران المستعرضة وجدران استعراضية أخرى تسير دائرياً بشكل يتناسب مع استدارات الأروقة الداخلية. وكان الربط يتم بوساطة القباب والقبوات والأقواس والقناطر، وجميع هذه التقسيمات تمت حسب التنظيم الهندسي المعماري للمدرج.

وبالطبع فهذه الإجراءات التي نفذت في هذا المسرح تمّ تنفيذها في العديد من المسارح الأثرية التي بنيت لاحقاً في سورية وخارجها مثل مسارح مدن (بصرى- جبلة- صبراتة)، وكانت في بعض الأحيان تقتصر على رواق واحد داخلي وآخر خارجي ملاصق إلى لواجهة المدرج الخارجية كما هو الحال في مسرح بصرى أو رواقين داخليين يسيران بالتوازي مع بعضهما البعض مع وجود أروقة مستعرضة تصل كل واحد بالآخر كما هو الحال في مسرح جبلة ومسرح صبراتة.

وبالطبع فهذا الأمر يتعلق بالمسارح المبنية من القاعدة إلى القمة، أما بالنسبة إلى المسارح المستندة جزئياً أو كلياً فكل مسرح كان يبنى له رواق داخلي يتناسب مع الموقع الذي يستند عليه المدرج، وبالطبع فهذه الخصوصية تميز بها مسرح أفاميا وغيره من المسارح الأخرى العديدة مثل مسرح عمّان ومسرح درعا ومسرح سيروس الذي نحن بصدد الحديث عنه.

المماشي الفاصلة بين أقسام المدرّج (بريزنكسيون presenction):

زُوّد المدرج بثلاثة مماشي كل واحد منها يفصل طبقة من المدرج عن الطبقة التي تعلوه، أمّا الممشى السفلي فقد جاء موقعه في أعلى الجبهة التي تفصل ساحة الأوركسترا عن أسفل الكفيئة السفلى التي نفذت على شكل جبهة شاقولية يعلوها ممشى صغير يتقدم أول درجة من درجات المدرج، وترتفع الواجهة عن مستوى أرضية ساحة الأوركسترا بعلو يبلغ ٢,١م وبروز

زينة يبلغ ٢٥سـم وعمق ٤٥سم، أمّا عرض المشى فيبلغ ٩٠سم مع الأخذ بعين الاعتبار التجويف المنفذ في أسفل مقاعد المتفرجين السفلى.

أمّا الممر الفاصل الثاني: فيفصل بين قسمي المدرج السفلي والأوسط، ويتقدم هذا المشى صف من المقاعد على شكل كنبات للجلوس لفصل المشاة عن المدرج، ويحيط بهذا المشى جبهة مرتفعة تكون مقدمة للقسم الثاني من المدرج التي تتخللها مداخل تقود إلى الرواق الحزامي الداخلي (أمبولاكر). أمّا المشى العلوي فهو مفقود كلياً كباقي أقسام المدرج كما هو واضح في الصورة المعروضة.

الأروقة الجانبية (بارادوس ومفرده بارادوي parodoi – Le parodos les):

من الطبيعي أن يكون هناك فاصل بين مبنى المنصة ومبنى المدرج، ولذلك نفذت في جميع المسارح أروقة لتقوم بهذه المهمة بحيث تكون موازية لمقدمة المنصة السفلية أو ما يُعرف حديثاً باسم خشبة المسرح، إلا أن أهمية هذه الأروقة تختلف بين المسارح المستندة والمسارح المبنية من القاعدة حيث نجد دورها هنا يكون مفصلياً ويلعب دوراً هاماً في حركة المسرح الداخلية والخارجية كما أنَّ لها دوراً هندسياً ومعمارياً أيضاً.

والسبب في ذلك أنها تكون محور الاتصال بين الكفيئة السفلى ومبنى المنصة والردهات الجانبية من الأسفل، كما أنها تشكل نقاط ارتباط مع الرواق الحزامي (أمبولاكر) والمشى المحيطي الخارجي وبالوقت نفسه تربطها مع بعضها البعض بوساطة السطوح حيث تبنى على شكل طوابق في مثل هذه المسارح بحيث يبلغ عددها ثلاثة طوابق، إلا أننا نجد في كثير من المسارح الهلّينستية وخاصة في تركيا أنَّ هذه الأروقة تبقى مكشوفة حتى المستويات العليا، كما نجدها في بعض الأحيان غير مستقيمة وإنّما موازية للمنصة وتبقى دائماً ملتصقة بمبنى المدرج وتأخذ مستوى الانحراف نفسه في الكثير من المسارح الهلّينستية.

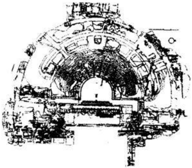
أمّا في مسرح سيروس فقد نفذت بشكل مستقيم ومواز لامتداد مبنى المنصة من الأطراف الجانبية، ولها مداخل متعددة وبذلك شذَّ منهج تلك المسارح التي ذكرت والتزم المهندسون في ذلك بالمنهج الهندسي المعماري نفسه للمسارح في سورية.

ونجد هنا أنَّ أهم شيء من الناحية الهندسية في هذه الحالات هو حل مشكلة فرق المستويات في قاعدة التأسيس للمسرح بحيث تحل مشكلة الربط بين المستويات المختلفة لأرضيات الردهات الجانبية والمنصة والعناصر الأخرى مثل الرواق الحزامي والمشى المحيط الخارجي مع

عدم الالتصاق المباشر لكل هذه العناصر حيث جاء كل قسم وله شخصيته المعمارية المميزة وكذلك عدم فصله في الوقت نفسه عن العناصر المعمارية الأخرى مع الاستفادة من الطوابق العليا.

القسم العلوي من المدرج:

بني القسم العلوي من المدرج على ركائز مازال بعض منها موجوداً في موقعه كما تمّ استعمال الحجر الكلسي المستخرج من صخور المنطقة وخاصة في القسم الأوسط. وقد فقدت عناصر القسم العلوي بما فيها الكفيئة العليا والرواق اللذين يتواجهان كلياً. ولو أخذنا مسرح مدينة عمّان كأنموذج لذلك من مدن المنطقة أو بعض مدن تركيا القريبة فمن المفترض أن يكون قد بني المعبد من ضمن منهج بناء الرواق العلوي مع الاستفادة من القناطر والأقواس التي تفتح على المدرج لتكون وسيلة دخول وخروج للمتفرجين والمتعبدين، إلا أن هذا الأمر ما زال مبكراً الحديث عنه مع الافتراض بنقل موقعه في مرحلة تنظيمية لاحقة، والسبب في ذلك هو الكشف أثناء الحفريات عن معبد بني بشكل سداسي، كما نفذ في الواجهات كوّات على شكل محاريب لإيواء تماثيل لشخصيات بشرية بشكل نصفي إلا أن شخصياتها مجهولة الهوية. (شكل رقم ٢)



ساحة الأوركسترا (L,orchestre):

نفذت ساحة الأوركسترا على شكل فسحة سماوية مستديرة وتأخذ مقياساً نصف دائري بدقة، وبذلك تكون قد شذت في مقاييسها عن المسارح التي تأخذ فيها الساحة شكل حذوة الحصان تقريباً، وظيفتها الفصل بين الجزء المخصص للمدرج بجميع أقسامه ومبنى المنصة بجميع أقسامه أيضاً، وبالطبع فقد جاءت مساحة الساحة بشكل يتناسب مع حجم المسرح، لذلك جاء قطرها متطابقاً مع طول قطر المسرح بعد حذف أبعاد ركائز المدرجات من الجهتين اليمنى ٤٥,٥م واليسرى ٤٥,٥م. وبذلك يكون قطر الساحة ٢٤م على اعتبار أن قطر المسرح الكامل يبلغ ١١٥م، أمّا العمق المستعرض فيساوي هذا المقياس أيضاً. وبذلك تكون مساحة الساحة وقطرها متوافقةً تقريباً مع نظيراتها في كل من مسارح مدن أفاميا في

سورية وأسبندوس وبيرجة في تركيا البالغة ٢٥م، ومسرح مدينة البتراء البالغة ٢٤،٥م.

وقد ارتكزت الساحة على أرضية صلبة وقوية وتمّ تبليطها ببلاط منتظم رُصف بشكل يأخذ ميلاناً بسيطاً حتى مقدمة المنصة السفلى من أجل سهولة تصريف المياه حيث وجد مصرف لهذا الغرض، كما نفذت شبكة أقنية وخزان مياه في أسفل البلاط خصص للمياه القادمة من الطبقات العليا في المسرح، كما تمّ العثور على أجزاء تمّ تبليطها بلوحات فسيفسائية خالية من الأشكال البشرية أو النباتية أو الصور الشخصية، وهذا الأمر يدل على قدم تنفيذ هذه اللوحات الفسيفسائية مجهولة التاريخ، ولكن على اعتبار أن تأسيس المدينة ومنهجها العمراني يعود إلى بداية العهد الهلنستي فهذا الأمر يقود للافتراض بأن بناء المسرح كان في بدايته يعود إلى هذا التاريخ وقبل إجراء عمليات التوسّع والتحسين وغيرها من الإجراءات التي تمت لاحقاً.

كما أنَّ هذا الأمر يدل على أن ساحة الأوركسترا في مسرح سيروس كان لها دور هام في المسرح وفي المسرح اليوناني أيضاً ولاسيما أن هذا المسرح جاء بناؤه مستنداً، لذلك لعبت الساحة دوراً هاماً: فهي إضافةً لكونها تفصل بين قسمي المسرح فقد كان لها دور في العروض المسرحية المتعددة بما فيها الرقصات والدبكات والألعاب البهلوانية مع الأخذ بعين الاعتبار عرض مشاهد للمصارعة البشرية، وهذا الأمر يؤكده الجدار الذي يحيط بالساحة من جهة المدرج على شكل جبهة مرتفعة بشكلٍ شاقولي يقع في مقدمة الكفيئة السفلى بارتفاع يتجاوز المتر ٢،١م، وربما كانت هذه الجبهة مكسية بصفائح إمَّا رخامية أو معدنية، كما كانت مزينة بلوحات أو منحوتات عليها أشكال بشرية وصور معبرة عن ملاحم ميثولوجية كما هو الحال في المسارح القريبة من المنطقة مثل مسارح مدن هييرابولس وميلة وميرا في تركيا.

تمديدات المياه: زود المسرح بتمديدات لتصريف المياه من أقسامه العلوية والسفلية، وتم استخدام القساطل المصنوعة من الآجر المشوي، وهذه التمديدات لها تفرعات عديدة علوية وسفلية مرتبطة في النهاية بشبكة التمديدات الموزعة على أحياء المدينة.

وقد ارتبطت التفرعات العلوية مع قسطل رئيس نفذ في القسم الأوسط من الكفيئة الوسطى (ميدي كفيئة) كما ارتبط توزيع هذه الشبكة مع الأدراج الشعاعية. وكان القصد من ذلك الأمر تسهيل تنظيف المدرجات وترطيب الجو أثناء العروض والمهرجانات، ثم تصب أخيراً في شبكة القساطل المنفذة في أسفل ساحة الأوركسترا

التي نفذت بطريقة الانحدار البسيط لتسهيل جريان المياه نحو القسطل الرئيس الذي يسير بشكل موازٍ إلى مقدمة الجبهة الأمامية السفلى لمنصة التمثيل ثم تربط فيه القساطل المنفذة في الحمامات ودورات المياه في الردهات الجانبية وبهو الكواليس، وأخيراً يربط القسطل العام الخارج من المسرح مع الشبكة العامة للصرف الصحي للمدينة.

وبالطبع فربما يكون هناك تمديد آخر من الجهة الأخرى من الردهات الجانبية، وهذا الخط إمّا أنه رُبط مع الخط الرئيس بعد مروره في أسفل بهو الكواليس أو أنه خرج مستقيماً إلى خارج المسرح وربط مع خط الصرف الصحي المنفذ أسفل الشارع المجاور للمسرح، وفي هذه الحالة يكون هذا الإجراء قد سهل على المنفذين التكلفة الكبيرة بمد قساطل طويلة إلى الجهة المعاكسة، كما أنّ الكميات الكبيرة من المياه المصرفة وخاصةً في مواسم الأمطار تكون كبيرة.

وبالطبع فهذا الأمر مرتبط مع نتائج الحفريات الأثرية المستقبلية من أجل الكشف عنه وتوضيح هذه المسألة التي تشابهها الكثير من الحالات المنفذة وخاصةً في مسرح بصرى.

الأدراج الشعاعية: وتعتبر الأدراج الشعاعية في هذا المسرح كما هو الحال في المسارح نصف المستدة من العناصر الهامة في المدرج حيث يكون دورها هاماً جداً بالنسبة إلى توزيع المتفرجين، ومن هنا ارتبط تنفيذها المعماري مع بناء مقاعد المتفرجين حيث يتم توزيعها على كامل طبقات المدرج وبشكلٍ متناسب ومتوازٍ مع أبعاد المقاعد وأحجامها. وقد تميزت هذه الأدراج بأن نفذت بحيث تكون وحدة البناء فيها محاطة أو ملتصقة، أو بمعنى آخر تكون جزءاً من الكتلة الصخرية نفسها في مجموعة من درجتين أو مقعدين من مقاعد المتفرجين بحيث يأتي موقعها في الوسط، وفي هذه الحالة فكل درجتين منها تتناسبان في ارتفاعهما ومقاييسهما مع درجة واحدة من المقعد ومن هنا نجدها تشكل صلة الوصل والترابط القوي بين المقاعد.

مبنى المنصة: جاء بناء المنصة في مسرح مدينة سيروس متطوراً عن بقية الأبنية المسرحية سواء في المسرح اليوناني أو المسرح الهلّينستي المعاصر له حيث جاء أكثر تطوراً وتعدداً في المهام، فنجد أنه إضافةً إلى الدور الأساسي والوظيفي الذي يقوم به فقد أضيفت على المبنى المسألة الجمالية بحيث جاء بناء المنصة كصورة معبرة عن المظهر الجمالي والمنهجية المتطورة في الديكور والزينة التي بلغت أجمل حليها.

كما أنَّ المنصة طورت دورها الوظيفي في العرض المسرحي واستقبال الجمهور وإعطائه فرصة للاحتكاك بالممثلين، وفوق ذلك كله يأتي الأسلوب الهندسي الرائع في اندماج مبنى المنصة مع مبنى المدرج. وهذا دليل على المحاولة الناجحة عند المهندس السوري في تطوير المخطط الهندسي الذي كان يفتقره المهندسون الذين كانوا يبنون المسارح اليونانية والهلّنستية في بقية المناطق المعاصرة والمحيطة بحوض البحر الأبيض المتوسط.

ومن هنا نجد أن مبنى المنصة جاء محتوياً على كامل العناصر وملحقاتها الأساسية مثل واجهة المنصة العليا والسفلى ومباني الألواج والردهات الجانبية وأماكن الملقنين والمداخل والأبواب الجانبية، بمعنى أن بناء المنصة زود بجميع العناصر البنائية الضرورية والتي زودت بها جميع المسارح التي جاء بناؤها في مرحلة تطور البناء المسرحي في منتصف القرن الثاني بعد الميلاد.

وقد بنيت جدران المنصة كاملةً بشكل شاقولي ومستقيم وزوايا قائمة تخللتها الأبواب الواسعة والمرتفعة بحيث شملت كامل الأقسام وخاصة الأبواب المطلة على المدرج والردهات الجانبية ورواق الكواليس والمداخل المشرفة على خارج المسرح، وقد زودت الأبواب بسواكف حجرية تعلوها نوافذ مقنطرة نفذت بشكل يشابه تلك المنفذة في مسارح آسيا الصغرى وسورية، وكان أجملها المداخل الرئيسة في المسرح وعلى رأسها المدخل المركزي الذي أحيط به إطار تزييني غني جداً بالزخرفة النحتية الدقيقة والرشيقة.

وقد زودت جميع أقسام المنصة وخاصةً الواجهة بالزينة والإكساءات الرخامية كما هو الحال في مسرح دفنة.

ولذلك جاء التنفيذ بطريقة جميلة حيث زودت هذه الواجهة بكوّات ونيشانات متعاقبة خصصت لإيواء التماثيل الرخامية والمعدنية لشخصيات نسائية ورجالية متعددة كانت تمثل شخصيات الآلهة والحسناوات والشخصيات المرموقة في المجتمع والتي كانت تذكر في التاريخ من خلال الملاحم الميثولوجية.

كما نفذ في مقدمة المنصة قناة من أجل حمل ستارة المنصة التي تحجب الممثلين عن جمهور المتفرجين في بعض الأوقات سواء في بداية العروض أو نهايتها أو بين مشهد وآخر منها.

جبهة المنصة السفلية: وقد أفاض على واجهة المنصة جمالاً الجبهة السفلى للمنصة والتي تشرف على ساحة الأوركسترا حيث جاءت على شكل مقدمة للجبهة الأمامية

السفلى لمنصة التمثيل أو خشبة المسرح والتي كانت تخفي وراءها رواق الملقنين في أسفل خشبة المسرح. وبالطبع فقد تشابه هذا التنفيذ مع الجبهة المنفذة في مسرح بصرى حيث بنيت بحجارة على شكل بلاط كبير على طول كامل واجهة المنصة ومن ثم تمّ إكساؤها بالألواح الرخامية بشكل يتناسب مع الديكور العام لزينة وإكساءات المنصة.

أمّا بالنسبة إلى الأروقة الداخلية وملحقاتها مثل الكواليس والألواح والردهات الجانبية وما يتبعها من حمامات ودورات مياه فهذه الأمور تحتاج إلى دراسة لاحقة ولاسيما أن الحفريات الأثرية مازالت غير مكتملة فيها.

وأخيراً لا بد من التذكير أن بناء المسرح في المدينة جاء متوافقاً في موقعه مع الموقع الطبوغرافي والمخطط العام للمدينة ومنهج التنظيم العمراني أسوةً بما نفذ في مدينة أفاميا مع الأخذ بعين الاعتبار مراعاة الجهات الطبيعية ومواقع التلال الطبيعية التي استند عليها بناء كل مدرج في كلا المدينتين.

الهوامش

1- P.Coupel et Ed. Frézouls.Le théâtrer de Philipopolis en Arabie, Paris 1956
2- Ed. Frézouls.Recherches sur les théâtrers de 1,Orient syrienn. SYRIA 36.1959 pp. 202- 228 et SYRIA 38. 1961. pp 5486-.
3- Archeologie et histoire de la Syrie II. 1989. Druckerei und Verlag 1989. pp. 385-406.
4- Ed. Frézouls.Cyrrhus et la Cyrrhestique jusqu,a la fin du haut-empire. ANRW,11,8 (Berlin , New-York 1977) pp 164197-.
5- E. Will. La Syrie a 1, époque hellénistique et romaine.. Archeologie et histoire de la Syrie II. 1989. Druckerei und Verlag 1989. pp. 568579-.
٦- خليل المقداد- مسرح بصرى الأثري (سورية)- دار عكرمة للطباعة والنشر- دمشق- ٢٠٠١م. ص ص ٢١ - ٢٧.
7- J. ch. Balty. Guide d,Apamée. Bruxelles 1981.

المصادر والمراجع

- خليل المقداد- مسرح بصرى الأثري (سورية)- دار عكرمة للطباعة والنشر- دمشق- ٢٠٠١م.
- J. ch. Balty. Guide d,Apamée. Bruxelles 1981.
- P.Coupel et Ed. Frézouls.Le théâtrer de Philipopolis en Arabie. Paris 1956.
- Ed. Frézouls.Cyrrhus et la Cyrrhestique jusqu,a la fin du haut-empire. ANRW.11.8 (Berlin. New-York 1977) pp 164197-.
- Ed. Frézouls. Les edifices des spectacles en Syrie. Archeologie et histoire de la Syrie II. 1989. Druckerei und Verlag 1989. pp. 385406-.
- Ed. Frézouls.Recherches sur les théâtrers de 1,Orient syrienn. SYRIA 36.1959 pp. 202228- et SYRIA 38. 1961. pp 5486-.
- E. Will. La Syrie a l. époque hellénistique et romaine.. Archeologie et
- histoire de la Syrie II. 1989. Druckerei und Verlag 1989. pp. 56.

الإبيغرافيا[1] والتحديات التي يواجهها العاملون بها

«تجربة شخصية»

م.ملاتيوس جبرائيل جغنون ✪

بتاريخ لم يعد بذاكرتي تحديده بدقة في أوائل صيف عام ٢٠٠٧م، تلقيت مكالمة هاتفية من السيد الدكتور الآثاري ميشيل مقدسي مدير التنقيب والدراسات في المديرية العامة للآثار والمتاحف آنذاك يخبرني بأن السيد بيير لوي غاتييه Pierre Louis GATIER يرغب بزيارتي في منزلي في مدينة حمص وأنه في طريقه إليّ وسيتصل بي لحظة وصوله إلى حمص لأصطحبه إلى منزلي!؟ فاجأني الأمر جداً وأفرحني هذا الخبر لأنّ الزائر هو أحد أهم العلماء القلائل العاملين في علم الإبيغرافيا في العالم حالياً وأستاذ الإبيغرافيا والآثار في جامعة ليون في فرنسا. وكان الأمر، واستقبلت ضيفي الكبير يخالجني شعور مختلط من الدهشة والهيبة والاعتزاز في آن معاً بزيارة هذا العالم لي بصورة غير متوقعة.

ودامت جلستنا معاً زهاء الساعات الثلاث أطلعته على ملفاتي للنقوش الأثرية باليونانية التي كان يرسلها لي علماء الآثار من أمثال باسكال كاستيلانا Pascal CASTELLANA وغيره لأقوم بقراءتها وترجمتها لهم استكمالاً لبحوثهم ودراساتهم الأثرية. وكان شديد الفضول والاهتمام بما أعرضه عليه.

وفي ختام جلستنا قال لي وهو يبتسم وعلائم الاستغراب على وجهه: «عجباً أنك الوحيد في سورية الذي يعمل على قراءة

✪ باحث وآثاري ولغوي سوري.

النقوش الأثرية اليونانية؟؟؟!!!» فأجبته «إنني أعمل أيضاً على النقوش الكتابية السريانية القديمة والتدمرية وعربيات الجنوب في اليمن بلهجاتها السبئية والمعينية والقتبانية والحضرمية».

ودّعني ضيفي ومضت فترة قاربت العامين ليتصل بي ذات يوم عالم فرنسي آخر حضر إلى المتحف الوطني بحمص يقول إنه جان كلود دوكور Jean-Claude DECOURT ويرغب بلقائي في المتحف، فلبيت رغبته والتقيت به. وكانت دهشتي كبيرة حين أخبرني أنَّ السيد غاتييه هو الذي أخبره عني وأنَّه سيتعاون وإياي في تغطية النقوش الأثرية في حمص المدينة وجوارها. ففعلت وقضينا معاً يومين من البحث والتصوير والنقاش.

عذراً من القارئ العزيز أنني لم أستهل حديثي عن موضوع الإبيغرافيا «من الأوَّل» بل «من الآخر» كما يقولون، قاصداً إثارة اهتمامه بموضوع قلّما تعرض له باحث من قبل.

أهمية الإبيغرافيا (أو علم قراءة النقوش الكتابية القديمة) كرافد لعلم الآثار:

عندما يعثر عالم الآثار الحقيقي، وأعني الباحث عن الحقيقة التاريخية (تمييزاً له عن الباحث عن الكنوز)، أقول عندما يعثر على رُقيم أو حجر يحمل نقوشاً كتابية inscriptions أو أي مادة مكتوبة أخرى، فإنَّ فرحته بهذه اللُّقى تتجاوز بأضعاف مضاعفة فرحتَهُ بالعثور على الكنوز الأخرى، على قيمة هذه الأخيرة وإغرائها، وخصوصاً إذا كانت النقوش الكتابية في حالة مقروءة وتحمل معلوماتٍ قَيِّمَةً أو مفيدةً من شأنها أن تسلط الضوء على الفترة التي تنتمي إليها. فهذه النقوش أو الكتابات هي، في الواقع، كنوزٌ حقيقيةٌ تفصح عن حياة الأسلاف وتدخل إلى عمقها: فمنها الرسائل والتشريعات والمعاهدات والتكريمات والعقائد والعقود والبيانات والحسابات والعلوم والأساطير وشتّى أنواع المعلومات التي تُغني معلوماتنا عن هؤلاء الأسلاف. ففي قراءتها واستنباط ما بين سطورها التعرفُ على تاريخنا وتاريخ غيرنا على حدٍّ سواء.

ولعلَّ أهم وأخطر ما قد ينطوي عليه جهلنا بقراءة النصوص والكتابات المكتَشَفَة وترجمتها هو تزوير الحقائق التاريخية من قبل القارئين المُغرضين، ولاسيما ما يتصل من تلك النصوص بالتاريخ السياسي للمنطقة. إذ ليس قليلاً ما نقرأ ونسمع بمحاولات جَرَت من هذا القارئ أو ذاك، لقراءة نصوص من مواقع ماري وإيبلا[٢]

وأوغاريت وغيرها قام بتزوير لترجماتها، ليبني على هذه الترجمات، هو وغيره، مزاعم تجافي الحقائق التاريخية، وتهدف من خلال حملات دعائية غير بريئة تنظمها وترعاها جهات أصبحت معروفة، لقلب الحقائق رأساً على عقب وتوظيفها في خدمة هذه الجهات.

ونذكر هنا كمثال ادعاء النمساوي الصهيوني أفراهام مالامات Avraham Malamat أنّ ملك وملكة مدينة ماري[٣] كانا يتخاطبان بالعبرية على أنها «لغتهما الأم» حين يختليان في بيتهما ضمن القصر الملكي أواخر الألف الثالثة ق.م. ؟؟!! وهذا الكلام هراء سافر ينطلي على عامة البشر من غير المتخصصين أو المتعمقين أو حتى المطلعين -وهنا تكمن خطورته- لأنّ كافة الدراسات العلمية الرصينة والنزيهة حول وجود «العبرانيين» لا تعود بهؤلاء الأقوام لأبعد من القرن الثاني عشر ق.م على أبعد تقدير، فكيف الأمر بلغتهم ؟؟!!!.

كما نذكر أيضاً ما حصل يوم اكتشف الآثاري الإيطالي باولو ماتييه من جامعة روما أرشيف الرُقم الإيبلائية وكيف قرأها «عالِم» الإبيغرافيا جيوفاني بيتيناتو[٤] وحاول استغلالها، لصالح مآرب منظمات صهيونية.

أشخاصٌ من أمثال دافيد نويل فريدمان David Noel Freedman رئيس «جمعية الكتاب المقدس» Holy Bible Society الأمريكية آنذاك وميتشيل داهود Mitchell Dahood عميد «الكلية الشرقية التابعة لمعهد الكتاب المقدس الحَبريّ» في روما Pontifical Biblical Institute's Oriental Faculty وما رافق ذلك من حملات دعائية محمومة ومشبوهة على مستوى العالم بأسره أثارت ضجة إعلامية لتوظيف هذه الرُقُم لمؤدى لا يُفهَم منه إلا العمق المكاني والعمق الزماني المزعومان «لدولة» إسرائيل المزعومة على الفرات أو قريباً منه في فترة موغلة في القدم تعود إلى أواخر الألف الثالثة السابقة للسيد المسيح.

مما تقدم، نُدرِكُ أهميةَ وخطورةَ هذا الفرع المعرفي. وإنه لمن المعيب والمستغرب حقاً، أن تخلو ساحة علمائنا ومثقفينا، سواء بالمطلق أم بالنسبي، من أولئك الذين يستطيعون قراءة تاريخهم بأنفسهم من دون الاستعانة بالغير من الأجانب أو اللجوء إليهم.

لا يُفتَرَضُ بعالِم الآثار، كمبدأ عام، وإن كان يفَضَّلُ، أن يكون قارئاً للنقوش القديمة، لأنَّ علم الآثار شيء، وقراءة النقوش شيء

آخر. وبديهي أن تكون لِعلم قراءة النقوش فروع وتشعبات على قدر تشعبات وتَنوُّع اللغات القديمة:

فمن يختص بالأكاديّات، مثلاً، لا يُشْتَرطُ فيه معرفة اللاتينية أو اليونانية أو العروبيات أو غيرها، والعكس صحيحٌ أيضاً.

غير أنَّ هناك بعض الاستثناءات: فالقلّةُ القليلةُ من علماء الآثار تَعْرِفُ بعض اللغات القديمة وتَنْشَطُ في هذا المضمار أيضاً.

أمّا الحالة الأعَمّ، فهي أن يُحيلَ عالِم الآثار ما يكتَشِفُهُ من رُقُم وكتابات إلى مختصين للقيام بقراءتها، ثم يعود إلى ترجمات هؤلاء المختصين ليدرسها ويستخلص منها النتائج أو يستمِدَّ القرائن عَلَّها تُعينُهُ في الوصول إلى الحقيقة المنشودة.

تجربتي الشخصية والتحدّي الكبير وبداية اهتمامي بعلم الإبيغرافيا:

منذ بدايات اهتمامي بالثقافة الآثارية، (وأنا لست آثارياً بل مهندساً مدنياً وحسب) افتُتِنْتُ بهذا الحقل المعرفي. وأذكر أني حين كنت أزور آثار تدمر العظيمة للمرات الأولى في الستينيات من القرن المنصرم، كنت أقف أمام عمود أو عتبة مدفن أو تمثال جنائزي يحمل نقوشاً كتابية بالآرامية أو باليونانية القديمة[٥] وأنظر شاخصاً إلى هذه النقوش وأشعر بالحسرة والتحدي في آن معاً، وكأني بأحدهم يحدثني: «ما عساها تقول هذه النقوش؟ وعمَّ تتحدث؟ ولماذا يعرفها فلان من العلماء وأنت لا تعرفها؟».

إنّها رسائل من أسلافنا تقول أشياء لا أستطيع فهمها، إنّها تنطق بأمور، هامة أو غير هامة لا فرق، لا أستطيع سماعها، هي أحجار صماء تنطق، وأنا الحي لا أقوى على سماعها أو فهمها!!

العِلّةُ معروفة، والحل بيدي، ولكن ما الحيلة؟

قلت لنفسي مرات ومرات: «إذن، عليك بتعلم هاتين اللغتين، ولكن كيف؟ ومن سيعلمني؟ إذ سرعان ما اكتشفت أنه لا سبيل لي إلى أحد ليعلمني، لأنه، وبكل بساطة، لا أحد». ولأنني مرتبط بمسؤوليات عملي وعائلتي أيضاً، حاولت الحصول على بعض المصادر التي قد تعينني في الوصول إلى غايتي، ولكن عبثاً، وأنا في بلدة جبلة الساحلية الصغيرة.

وأختصر قولي بأنني لاقيت مشقات كبيرة إلى أن بلغت حالتي المعرفية الراهنة، من دون معاهد أو معلمين، ومازلت أتقدم

وأتعلم المزيد، سواء فيما يتعلق باليونانية أو بالتدمرية التي حملتني على تعلم اللغة السريانية، لأن هذه الأخيرة هي لهجة حية شقيقة للتدمرية البائدة. وقد أعانتني كثيراً على فهم التدمرية وتعلمها.

الصعوبات التي يواجهها عالم قراءة الكتابات القديمة أو الإبيغرافيا:

أنّ يتعامل المرء مع كتابات قديمة مكتوبة ومطبوعة في مصادر حديثة بحروف واضحة ومشكولة هو شيء، وأن يتصدى لفكّ نص قديم منقوش على حجر مهترئ بحروف متواصلة لا تفصل بين كلماته مسافات أو فراغات وهي مشوهة في معظمها هو شيء آخر تماماً. وينطبق هذا الأمر على الآرامية التدمرية والنبطية وسواها من النقوش الكتابية القديمة. ولكي أضعكم في الصورة الحقيقية منذ البداية، أقول إنّ قراءة النقوش القديمة في مواضع وجودها لم تكن يوماً كمثل قراءة الصحف اليومية أو الكتب القصصية، فالأمر يختلف تماماً هنا. وقد يقتضي الأمر أن يبذل القارئ جهوداً مضنية على مدى شهور أو أعوام ليتمكن من «فكّ» ولا أقول «قراءة» نص معقد أو مشوه. وقد مررت بهذه التجربة بنفسي.

أمّا الصعوبات التي يصادفها قارئ الخطوط القديمة، فيمكن تلخيصها بما يلي:

١- النقوش المشوَّهة.

٢- النقوش الناقصة.

٣- الأخطاء اللغوية والإملائية، وخاصة في اللغة اليونانية التي تَعَذَّرَ إتقانُها على أهالي المنطقة من غير اليونانيين. وهذه الأخطاء شائعة جدّاً، وتضيف عبئاً جديداً وصعوبة إضافية على كاهل القارئ. فهو سيقوم بمهمة المصحح اللغوي والإملائي حين يشتبه بوجود هذه الأخطاء. وهذا ليس يسيراً إذا أدركنا صعوبة تصاريف اللغة اليونانية القديمة، الأمر الذي قد يوقعه بسوء فهم للنص الذي يحاول قراءته.

٤- النقوش اليونانية، ومثلها الآرامية التدمرية لم تكن تعرف الفراغات أو المسافات الفاصلة بين كلمة والتي تليها، فالحروف متواصلة تضيف صعوبة أخرى على كاهل القارئ غير المتمكن، مما يوقعه أيضاً في إشكالات في فهم النص وترجمته وتطيل المدة اللازمة للقراءة (الصورة١).



الصورة ١: انعدام الفراغات الفاصلة بين المفردات.

٥- ثمة كتابات منقوشة على الحجر نمت عليها الطحالب وتراكمت نمواتها لدرجة غشت معها معالم الكتابة وهذا ما يعقد العمل، فيلجأ القارئون في هذه الحالة إلى طريقة الاستمباج (l'estompage) أو أخذ طبعة (Embossment) وهي استخدام ورق حساس للضغط والطَّرْق من شأنه استعادة القسمات النافرة والغائرة للكتابة حسب الحال وتحريرها من التشويهات القتامية أو اللونية الطارئة (الصورة ٢).



الصورة ٢: الطحالب أيضاً تشوه النقوش.

٦- غياب أو قلة المرجعيات التي تعين القارئ حين تلتبس عليه بعض الكلمات أو الحروف أو العبارات أو الأسماء في نص ما. فليس أمامه إلا خبرته وبصيرته وحدسه حين تخيبه المرجعيات أو المصادر. وقد مررت بمثل هذه التجارب أيضاً.

أنواع النقوش الكتابية التي يمكن للقارئ أن يصادفها في سورية:

لعلَّ الكتابات الأكثر شيوعاً هي تلك المنقوشة على الأحجار، فهذا النوع يمكن لنا مصادفته في كل مكان من سورية: في الشمال والجنوب والشرق والغرب، في البادية والمدن والقرى وحيثما ذهبنا. وينطبق هذا الأمر على كافة بلدان حوض المتوسط من دون استثناء، ولاسيما ما يتصل بالكتابات اليونانية واللاتينية.

أمّا الكتابات الآرامية فنجدها بوفرة في تدمر، بينما نجد الكتابات النبطية في الجنوب: حوران والسويداء وبصرى. وكذلك الكتابات الصفائية (أو الصفوية) في منطقة الصفا شرقي حوران. وتغطي الكتابات على الحجر كافة العصور عملياً.

أمّا النوع الثاني من الكتابات فهو الموجود على الفسيفساء، وينتشر في كافة أرجاء العالم الكلاسيكي، وضمنه سورية. وقد انتشر في الأدوار الرومانية والبيزنطية على نحو خاص، ولدينا في متاحفنا عدد يصعب حصره من هذه الكتابات، ولاسيما في متحف معرة النعمان.

النوع الثالث، والأقدم، في الحقيقة إنّما هو الكتابات على الرُقم الطينية (الصورة٣) أو الطينية المشوية (الفخارية). وهذا النوع تجود به مواقعنا في ماري وإيبلا وأوغاريت وقطنة وتل البيعة والتلال الأثرية التي يعود تاريخها إلى ما قبل الألف الأولى قبل المسيح.

أمّا الأنواع الأخرى فهي المخطوطات القديمة (الصورة ٤) المحفوظة في المكتبات والمجموعات الخاصة. ولدينا أيضاً الكتابات الموجودة على جدرانيات الكنائس وأيقوناتها وغيرها.



الصورة ٣: الرقم الطينية أو من الصلصال المشوي.



الصورة ٤: المخطوطات.

أولى تجاربي الحقيقية في قراءة الكتابات القديمة:

فسيفساء تحتوي على ثلاث كتابات تكريسية (الصورة٥): الأولى مطولة باليونانية وتتكون من أربعة عشر سطراً تعلوها كتابة سريانية مكتوبة بالخط الإسطرنجيلي مكونة من أربعة عشر سطراً والثالثة كتابة سريانية مختصرة ضمن ميدالية مستديرة مكونة من ستة أسطر فقط. الكتابة لم يسبق وأن قرأها أحد بعد، فقمت بقراءة النصين اليوناني والسرياني.



الصورة ٥: أولى تجاربي في الإبيغرافيا.

الحواشي والمصادر

١- من اليونانية: epi- = فوق أو على + graphia= كتابة أو نقش. لفظ يستخدم للدلالة على علم قراءة النقوش الكتابية القديمة.

٢- انظر على سبيل المثال عدد كانون الأول (ديسمبر) للعام ١٩٧٨م من «مجلة الجمعية الجغرافية الوطنية» الأمريكية National Geographic Magazine التي كتبت بحثاً استطلاعياً عن مكتشفات إيبلا بعنوان «إيبلا القديمة تفتح فصلاً جديداً في التاريخ».

٣- انظر مجلة Biblical Archaeology Review العدد الصادر في (Jan/Feb 2003 VOL 29 NO. 1, pp.44)

٤- انظر المصدر (٢) أعلاه.

٥- هي ذاتها اليونانية التي أدخلها الإسكندر المقدوني إلى الشرق مع فتوحاته. وهي المعروفة بالـكيني» Koine Greek أي «الإغريقية العامة» بمعنى «التي عَمَّت المشرق»، وهي ذاتها التي كُتِبَت بها أناجيل يوحنا ومرقس ولوقا. وهي اللغة التي بقيت سائدة في شرقنا العربي كلغة رسمية مستخدمة في دواوين الدولة العربية الإسلامية حتى دور متأخر في صدر خلافة بني أمية إلى أن بدأ عبد الملك بن مروان بتعريبها كما هو معروف جيداً.

أوباما الثاني أمام التحديات

د. قحطان السيوفي ✪

نجح الرئيس الأمريكي أوباما في الانتخابات الرئاسية الثانية، على الرغم من الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تفرض الهزيمة، ليجد نفسه أمام تحد كبير، يتوقف تجاوزه على كيفية تعامل أوباما مع المشاكل والصعوبات الداخلية والخارجية؛ مستشار أوباما في حملته الانتخابية (السلرود) يقول إن (٥٦٪) من المعتدلين، و(٧٠٪) من ذوي الأصول الإسبانية، (٥٥٪) من النساء انتخبوا أوباما وفي رأيه أن هذه الأغلبية المعقولة تسمح لأوباما في ولايته الثانية مواجهة التحديات الاقتصادية والسياسية الكبيرة التي

تواجهه في الداخل والخارج: ففي الداخل يواجه أوباما مشاكل مستعصية تتعلق بعجز الميزانية، والدين العام الهائل.. إضافة لتراجع الدخل لجزء كبير من الطبقة الوسطى.

ويحذر رئيس الاحتياطي الفدرالي الأمريكي (برنانكي) من دخول الاقتصاد الأمريكي مرحلة الركود في حال لم يتمكن أوباما من عقد صفقة مع الكونجرس لتجنب الهاوية المالية (رفع الضرائب، خفض الإنفاق)، ويدعو إلى رفع سقف الدين لتجنب إفلاس الحكومة الأمريكية، ولضمان قدرة الحكومة على الوفاء بالتزاماتها إزاء سندات الدين وعدم التوصل إلى حل سيؤدي إلى المزيد من الركود في العام ٢٠١٣م.

وفي الخارج، اقتصاد عالمي هش في ظل أزمة اقتصادية، يواجه أوباما العملاق

✪ كاتب وخبير في الشؤون الاقتصادية، ووزير المالية الأسبق في سورية.

الصيني بقوته الاقتصادية والسياسية الصاعدة، وسقوط أوروبة في مستنقع الركود، وسيضاعف ذلك التأثير العالمي لحالة الكساد في الولايات المتحدة، ناهيك عن مشاكل الشرق الأوسط.. التي قد تهدد باستدراج الولايات المتحدة لصراع مسلح أو مغامرة عسكرية جديدة.

بالمقابل تشير مراكز الدراسات إلى أن الناخب الأمريكي منح صوته لأوباما، من أجل اتخاذ إجراءات حازمة لمصلحة المواطن الأمريكي وليس من أجل الميول السياسية كالعادة.

المقياس الحقيقي لنجاح أو فشل أوباما في الولاية الثانية سيكون في كيفية التعامل مع التحديات الخاصة بالميزانية، والدين العام.. بما في ذلك برامج شبكات الأمان الاجتماعي.. وسيكون ذلك موضوع المواجهة والمساومة مع الحزب الجمهوري حول (الهاوية أو المنحدر المالي).

وهذا يعني سلسلة من الإجراءات لزيادة الضرائب بشكل تلقائي (بعد انتهاء التخفيضات الضريبية التي أقرها الرئيس بوش الابن) في نهاية ٢٠١٢م، إضافة لتخفيض الإنفاق العام.

قبل الأزمة المالية العالمية كان العديد من الاقتصاديين يرون أن الغرب يمر بعصر (الاعتدال العظيم).. بعد تفجر الأزمة المالية حل (عصر الاضطراب) محل الاعتدال، وبعد فوز الرئيس أوباما بولاية ثانية ترسخت عبارة ثالثة (عصر سياسة حافة الهاوية الاقتصادية والسياسية) ويقال إن أوباما نجا من لعنة الأزمة المالية، بعد أن أطاحت الأزمة برئيسي وزراء إيطاليا وبريطانيا؛ (برلسكوني) و(براون)، ورئيس جمهورية فرنسا (ساركوزي) ويؤيد نجاح أوباما مقولة (آلان بيتي) في الفاينانشال تايمز أن (بين الاقتصاد والانتخابات علاقة غير دقيقة) وربما لم يحمل الناخب الأمريكي أوباما المسؤولية كاملة عن تدهور الوضع الاقتصادي الأمريكي.. خاصة وأن (٧٠٪) من الأمريكيين يحملون جورج بوش الابن مسؤولية مشاكل الولايات المتحدة الاقتصادية التي ورثها عنه أوباما. العديد من رجال الأعمال والناخبين الأمريكيين يشعرون بخيبة أمل كبيرة من مسار الوضع الاقتصادي (النمو أقل من ٢٪، مع ٢٥ مليون عاطل عن العمل) يخشون سقوط الولايات المتحدة في الهاوية المالية بداية ٢٠١٣م.

ويقال إن الساسة في الولايات المتحدة يمشون على رؤوس أصابعهم إلى حافة المنحدر أو الهاوية التي يقرب عمقها (٦٠٠) مليار دولار. وقد تطول لعبة الرقص على هذه الحافة.. وقد نشهد، بعد مخاض، عقد صفقة مالية بين أوباما والحزب الجمهوري

حول فتح سقف الدين العام، وحول الضرائب، والإنفاق العام وربما يرجعون من الكارثة على رؤوس أصابعهم، وقد يستمر الانقسام السياسي العنيف في واشنطن عام ٢٠١٣م حول كل أو بعض هذه المشاكل والصعوبات المالية والاقتصادية، وتبقى إدارة أوباما الثاني في وضع صعب وحرج ويستمر الرقص على حافة المنحدر المالي والاقتصادي مما سيؤثر سلباً على سياسات واشنطن الاقتصادية، والسياسية والعسكرية العدوانية في العالم..

ربما تكون مصادفة؛ إعادة انتخاب الرئيس أوباما، واختيار المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي الصيني قيادةً جديدةً. وسواء كان التوقيت مصادفة، أو غير ذلك، فإن التوقيت ذكر بالعلاقة بين القوتين اللتين تشكلان (النظام العالمي) للعقود المقبلة.

وعادة ما تشير عمليات انتقال الزعامة السياسية إلى تغير في الاتجاه أو الاستمرارية. ولكن الملاحظ أن انتقال الزعامة السياسية في الصين تتم من خلال مؤتمر للحزب الشيوعي كل عشر سنوات، والملاحظ أيضاً أن انتقال الزعامة الصينية كانت، سابقاً، مجرد حدث سياسي وثقافي ولا ينطوي على أبعاد اقتصادية مباشرة بالنسبة للقوى الكبرى في العالم.

ولكن هذا الزمن ولىّ منذ أمد. الصين اليوم ثاني أكبر اقتصاد في العالم، وتجاوزت بسهولة تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية مع نسبة نمو (١٠٪). وتعتبر الصين مركز التجمع الحيوي لسلسلة الإمداد العالمية للعديد من السلع المصنعة كأجهزة الكومبيوتر، والهواتف المحمولة.. المتاحة للاستهلاك في الأسواق العالمية، بأسعار أقل.

لدى الصين اليوم ما يعادل (٣،٣) تريليون دولار كاحتياطيات من النقد الأجنبي معظمها بالدولار الأمريكي، وهي أكبر دائن للولايات المتحدة الأمريكية (١،٢) تريليون دولار معظمها سندات خزينة أمريكية.

صناع السياسة في الصين يعملون لجعل العملة الوطنية (الرنمينبي) ذات موقع هام في التجارة الدولية وتحويله إلى عملة احتياطية، ووقعت الصين العديد من الاتفاقيات لتبادل العملة مع دول الجوار.. إضافة للسماح للشركات الأجنبية للاستثمار في الصين بالعملة الوطنية الصينية، وتشجيع تدفق الاستثمارات الأجنبية إلى الداخل الصيني، كما تشجع الاستثمارات الصينية في الخارج لتأمين الوصول إلى الطاقة والمواد الخام، وتعزيز قدراتها التنافسية، واكتساب تكنولوجيات، وعلامات تجارية، ومهارات إدارية جديدة.

ومن المتوقع أن تؤكد الصين على سياسات التحفيز المالي، لزيادة صادرات السلع المصنعة وتمويل الواردات من الطاقة والمنتجات المعدنية ضمن إجراءات عملية إعادة توازن للاقتصاد الصيني، كما يتوقع أن تستمر الصين في الإصلاحات الخاصة بالضمان الاجتماعي.. واستكمال نظام التأمين الصحي الشامل..

وستعمل بكين على طمأنة المستثمرين بالعملة الوطنية الصينية، وتعزيز حقوق الدائنين. بشكل عام سيستمر القادة الصينيون الجدد في سياسة التطوير الاقتصادي بقدر كبير من التأني عملاً بالمثل الصيني (عبور النهر بتحسس الصخور) للوصول بالصين إلى المزيد من القوة الاقتصادية، في إطار هندسة الحكم عالية المستوى. بالمقابل تعتبر الثقافتان السياسيتان في واشنطن وبكين مختلفتين تماماً، ولكن مصالح البلدين تتشابك على نحو متزايد، بأساليب بعضها عادي وبعضها الآخر خطير في آن معاً خلال فترة أوباما الثانية. الغرب (أمريكا، أوروبة) لايزال يشكك بغموض وديناميكية السياسة الاقتصادية الصينية المبهمة في رأيهم. وترى إدارة أوباما أن الصين ساهمت في الكثير من المتاعب الاقتصادية الأمريكية في أعقاب الانهيار المالي.

إن تركيز أوباما في حملته الانتخابية الثانية على ما سمي (محور آسيا) سيضع أوباما في ولايته الثانية أمام استحقاقات أقلها إحداث رد فعل معاكس في الصين على محاولات حلفاء أمريكا في شرق آسيا، ويتمثل في المزيد من التمسك بالثوابت الصينية الاقتصادية منها والسياسية.

ترى هل مقولة أوباما (محور آسيا) هي مجرد مصطلح وهمي لمحاولة عرقلة صعود الصين؟

وتأتي أول زيارة لأوباما الثاني إلى آسيا محاولةً لضبط صعود الصين اقتصادياً وعسكرياً. يثير تضييق الفجوة بين القوتين الأمريكية والصينية توترات بين البلدين، إذ من المتوقع أن تصبح الصين أكثر حزماً، بينما تدفع أمريكا الأمور إلى الوراء، وتتزايد مخاطر سوء التقدير والصراع. على الرغم من خطورة المواجهات المتوقعة بين إدارة أوباما الثاني والصين (الأعداء الأصدقاء) فإنَّ المؤشرات تدل على أن فريقي القيادة الجديدة في واشنطن وبكين، على حد سواء، سيحاولان اللعب بحذر وتؤدة على حافة الهاوية لتجنب المواجهات الحادة، ما أمكن، إلا إذا حصل سوء تقدير.

أزمةُ المصطلَح في الوطن العربي

بسام أحمد العلي ✪

لا تقلُّ أهميَّة «أزمة المصطلح» وخطرها في المشهد الثقافي العربيِّ الراهن عن سلك الأزمات الأخلاقية والثقافية والفكرية والاقتصادية؛ ذلك أنها جزء من هذا السلك، وعلى الأخصّ من الأزمة الثقافية المتفاقمة أمام «تسونامي المعرفة» ومعطيات العصر الراهن المتمثلة بالثورات الرقمية والمعلوماتية والتقانية بكل ما تفرزه من منجزات جديدة مشكِّلةً موجةً عاتيةً وجامحةً من المفاهيم العلمية والتقنية، والنظريات الإنسانية،

والفلسفية والاجتماعية التي تحتاج إلى تغطية أسمائية وبروز ما يسمى «مجتمع المعلومات العالمي»، أمام هذا الواقع العاصف لابدَّ من زرع مصدَّات رياح متينة الجذور ومرنة الجذوع لحماية حقل الهوية العربية من الزعزعة والانجراف، وفي ظل هذه الحالة يسطع نجم «المصطلح» بوصفه مكوِّناً رئيساً من مكوِّنات لوحة القومية العربية، فالمصطلحاتُ ظاهرةٌ إستراتيجية بامتياز؛ لأنها تندرج في قائمة القضايا القومية والوطنية للشعوب والدول، وتسهم في استقرار الأمن اللغوي الذي يُعَدُّ جزءاً من الأمن القومي للأمم عبر إحداث توازنات حضارية بين القوميات المتعدِّدة.

وتبدو أزمة المصطلح في الفراغ اللغوي وعدم القدرة على توفير المصطلحات، ولعله أهم ملامح هذه الأزمة، وتبدو أيضاً في كساد المصطلحات وسوء تخزينها وفسادها وفوضاها وترهُّلاتها في جوانب وضمورها وغيابها في أخرى.

✪ مدرّس اللغة العربية، مختص في علم اللسانيات التطبيقي.

ولو رمنا توخّي العوامل الأساسية المهيّجة لالتهاب الأزمة المصطلحية، لوجدنا أنّ العامل الأبرز هو بنية العقل العربيّ وطريقة تركيب شخصية الإنسان العربيّ الشرقيّ المعاصر، المبنيَّة أساساً على الشغف بالوافد من الغريب الغربي وتفضيله على القريب العربي، استناداً إلى محرِّكات سوسيو- ثقافيّة أو أيديولوجية.

لكن ماالأسباب العلمية الحقيقية لتشكل هذه الأزمة؟

وما مدى الوعي العربي لها؟

وهل ثمة طرق علاجية وآليات جدية لتنفيذ قرارات التخطيط المصطلحي؟

وإن كانت هذه الفرضيّة صحيحة فما مدى إثباتها وتعميلها على أرض الواقع في المجال التداولي التواصلي؟

لعلَّ هذه التساؤلات تمثل جوهر الأزمة المصطلحية، وتبني الجسور المؤدية إلى الحلول الشافية أو مسكّنات الألم، ومن ثم، بالإمكان مَحْوَرَة هذه التساؤلات والهواجس في النقاط الآتية:

١- التخطيط المصطلحي (Terminological planning):

إنَّ غياب التخطيط المصطلحي أو ضعفه، عامل من عوامل الأزمة بلا ريب. وقد استخدمت الأداة العاطفة «أو» فقلت: أو ضعفه؛ تجنباً لإجحاف دور المؤسسات والجمعيات والمجامع والجهات الراعية لشؤون المصطلحات في الوطن العربي؛ إذ لا جرم أنَّ ثمة تخطيطات وطنية وقومية عربية تسعى دائبة خلف غاية مهمة هي «توفير المصطلحات» لتغطية ما أمكن من تدفق المفاهيم العلمية والتقنية الحسية والمجردة.

هذا، ولا يعزب عن بالنا أن مفهوم «التخطيط المصطلحي» مولود من رحم «التخطيط اللغوي»، ويقضي التخطيط المصطلحي بوضع خطط إستراتيجية وديناميكية ونوعية فاعلة تراعي الثالوث الزمني «الماضي والحاضر والمستقبل»؛ فتأخذ من الماضي، وتنقّب في مناجم التراث بمعاول بنّاءة إصلاحية، وتنظر إلى الحاضر بوصفه ممثلاً شرعياً للواقع المعيش فيه، وتستشرف ملامح المستقبل ومعالمه بوصفه النتيجة الحتميَّة لحركيَّة الحاضر ومنجزاته وفواعله، وبوصفه الحاضنة الزمنيَّة للأجيال القادمة التي ستقرأ حاضرنا إثر تحوُّله إلى تراث تاريخي ومرآة لحضارتنا.

ومن دون الخوض في غمار فلسفة التخطيط المصطلحي، نستطيع التوقيع على بياض، والاعتقاد جازمين بحتمية وجوب تأثيل هذا التخطيط على أسس صُلبة متينة طويلة الأمد جدية واقعية غير خيالية، تتأمَّلُ الواقعَ وتعمل بمقتضاه، وترنو إلى المثال وتدأب لبلوغه بوصفه طموحاً.

إضافة إلى هذا يجب تفعيل آليات مضادة للتحديات الداخلية والخارجية، ونسج شبكة اتصالات معرفية معلوماتية بين جميع المؤسسات المهتمة والشركات الصناعية والزراعية والتجارية المستوردة والمصدرة ومختلف القطاعات العاملة داخل حدود الوطن وخارجه، بحيث تمثّل كل جهة من هذه الجهات على هذه الشبكة عقدةً ذات موقع وتمفصل مهم وأبعاد تواصلية عبر خيوط التعاون المتينة المحبوكة مع نظائرها.

لكن يبقى العنصر الأهم في التخطيط المصطلحي هو عنصر «السرعة» فأمام هذا التدفق الهائل لسيل المعلومات الحرّ، والحامل معه كميات مروّعةً من المفاهيم والتصوّرات العارية المولودة حديثاً، التي يجب أن نخلع عليها تسميات مُمَقيَسة مناسبة، وإلا تحوّلتْ إلى تيار عاتٍ لا يبقي ولا يذر.

أمام هذا كله لا يمكن صدُّ هذا التدفق إلا بتطبيق عمليات نوعية وسريعة، ففي لُجّة هذا الطوفان المعرفي الجارف يبدو في الساحة عنصر السرعة بوصفه العامل المنقذ والسدَّ المنيع. ومن زاوية فلسفية عقلية بالإمكان التدليل على أهمية عنصر السرعة بشخص مضطرٍّ إلى قطع طريق (أوتوستراد) مزدحم بالسيارات الضخمة المتدفقة السريعة، وخالٍ من إشارات المرور والمعابر والجسور والأنفاق، فأمامه خياران ثانيهما مرٌّ: إمّا الإسراع في العبور أو عبور المركبات فوقه.

أو بالإمكان التمثيل لعنصر السرعة بشبكات الرّيّ والسدود التي تمكّنُ الفلاحَ من التحكّم بتدفق التيّارات المائية العنيفة الجارفة وحسن ضبطها، وفتح المجال أمام الكمية المطلوبة لريِّ المساحة المطلوبة من الحقل المطلوب.

وأيضاً، وعوداً على بدء، لابدَّ للمؤسسات المصطلحية من أن تتَمتَّع باللّيونة في استقبال المصطلحات الوافدة، بشرط ألا تصل هذه الليونة إلى حد تمييع القضية وتسطيحها، وفي الوقت ذاته يجب أن تتَمتَّع بصلابة الجذور وعدم تقديم التنازلات في الأمور التي تمس الثوابت غير القابلة للمساومة، أي: أن تكون صلبة الجذور لينة الجذوع.

وأيضاً يجب إيلاء مسألة التوحيد المصطلحي ومَعْيَرة المصطلحات أهمية كبيرة، وتحسين نوعية المنتجات المصطلحية (المصطلحات)، لتسهيل رواجها والتسويق لها في المحافل وشتى الوسائل، وبذلك تسلم هذه المنتجات من آفة «الكسّاد المصطلحي»، وتتخلّصُ من الترهُّلات والفساد.

وتنبَّهَ بعضُ المترجمين بسبب معاناتهم في سد الفراغ اللغوي في أثناء الترجمة، إلى خطر غياب سياسات التنظيم اللغوي والمعيرة، وإلى ضرورة تدخل الحكومات لاستدراك هذا الوضع، وذلك من خلال اعتماد سياسات لغوية وإنشاء مراكز مصطلحية وأكاديميات تعنى بالشؤون اللغوية العربية ومن شأن التنظيم اللغوي بحسب بيار أوجي (Pierre

Auger) أن يلبي ست مهام أساسية هي: البحث والمعيرة والنشر والتأثيل والضبط واستيفاء المصطلحات حتى اليوم الجاري.(١)

٢- التدريب المصطلحي (Terminological practice):

والمقصود به إعداد المختصين العلميين والتقنيين واللسانيين والمترجمين وتهيئتهم وتدريبهم، وإكسابهم مهارات كافية، وأدوات محكَمة من أجل مواجهة المفاهيم والتصورات وتقييدها بالتسميات: لوضع وحدات مصطلحية محبوكة بإتقان ومتماسكة وغير هشَّة، بحيث لا يعتريها الوهن، وتقوى على الثبات أمام تحديات الذات والآخر. لكن أين الواقع العربي من هذا الكلام؟

لا ريب، والحق يقال، أن التدريب المصطلحي، بوصفه ورقة عمل فاعلة، يراوح في العالم العربي بين الهشاشة والغياب (الوجود النادر أو اللاوجود) مثله في ذلك مثل التخطيط المصطلحي. فالتدريب المصطلحي يتجلى في حملات التوعية والتثقيف اللغوي، وإقامة الندوات وإلقاء المحاضرات، وإعداد برامج منظَّمة وتنفيذ دورات متخصصة في المراكز الأكاديمية والجامعات والجمعيات.

٣- الإعلام:

يستطيع الإعلام ردم الفجوة، وملء الفراغ اللغوي، ورأب الخلل، فيما لو حصل في الميدان المصطلحي، وهنا يبرز دور الأطراف المشاركين في العملية الإعلامية (المتلقي بمستوياته العلمية والثقافية، كافة والمرسل من تلفاز ومذياع وصحف ومجلات..). وطبعاً يستند العنصر الإعلامي إلى عنصر التخطيط اللغوي، في الجانب الذي يقضي بضرورة تحسين نوعية المنتجات المصطلحية للحصول على مردوديَّة عالية الجودة والمستوى، ويمثِّل الإعلامُ اللافظةَ والناقلة والمستثمرة للإنتاج المصطلحي؛ فوسائل الإعلام - وهذا ممَّا لا يخفى على عاقل- تقوم بعدة عمليات ونشاطات كمية ونوعية تفرض تداعياتها وإفرازاتها على الوحدات المصطلحية، ومن هذه العمليات قدرتها على إذاعة المصطلح الذي تريده، وترسيخه في الأذهان والآذان وإشهاره، وإسهامها في تفعيل التوحيد المصطلحي حينما تتفق جميعها على تواتر مصطلح ما ونفي مرادفاته، لا أن تعتمد كل وسيلة إعلامية مصطلحاً مغايراً لسواها.

وأيضاً تنشيط مصطلحات الأفراد الذين يتكلمون عبرها وعبر شاشاتها، وتعهُّدها لها، وزيادة نسبة ترددها عبر الضخّ الإعلامي؛ فقد يستجدُّ حدث ما، ويقوم أحد المحلّلين بالحديث عنه عبر وسيلة إعلام ما، وفي أثناء ذلك يتلفَّظ- إن قصداً وإن عفواً- بمصطلح لمفهوم جديد في هذا الحدث لم

يُسَمَّ بعدُ، فإنْ كان هذا المصطلح مناسباً مطابقاً قياسياً موافقاً للقوانين والمعايير اللغوية العربية يمكن لوسيلة الإعلام التركيز عليه وزيادة نسبة تردُّده وتنشيطه وتعهُّده، ولو ظهر غيرُه.

وبذلك، بالإمكان مواكبةُ التدفُّق المفاهيميّ، ومدُّ يد العون للمشاركة في حل أزمة المصطلح في العالم العربي.

٤- المشروع الحضاري للأمة العربية:

في ظل غياب مشروع قوميّ عربيّ حضاريٍّ واضحِ المعالم ومحدَّد الملامح والاتجاه والمسار والهدف للأمة العربية، على عكس المسار الحضاري للأمم والشعوب ولا سيما المتقدمة، يبرز نتيجة حتمية لذلك غيابُ مشروع لغويّ أيضاً، فمن الصحّة بمكان أنَّ اللسان العربي يشغل مكانة مرموقة في قائمة اللغات الدولية الإحدى عشرة،

إلا أنَّ هذا لا يعني اكتناز الطموح وتحقيقه.

ومن دون الخوض في غمار أسباب هذا الواقع فالخيوط واضحة، والعوامل بادية للعيان بوضوح تامّ. فما يعيشه العالمُ العربيُّ اليومَ من انقسامات وصراعات وحروب ونزاعات، وانحطاط علمي وحضاري، وتخلُّف صناعي مروِّع، وتزعزع القيم النبيلة وتجزئتها، وتفتت المبادئ واجتثاث الأصول وغير ذلك، في عصر التقدُّم العلمي والتقني الذي تشهده الأمم الأخرى، كلُّ هذه العوامل تسهم في العزوف عن التفكير في رسم منهجية محبوكة ومنطقية للمشروع الحضاري العربي الذي يحمل- لو تحقق- رسالةَ الأمة العربية إلى أصقاع المعمورة، وتسهم أيضاً في تقليص الفضاء الزمني الذي يبدو في ضيق الوقت والاشتغال بالأساسيات (كالمأكل والمشرب والملبس..) فتكون النتيجة بالحتم طرحَ فرضيَّة منطقية تقضي بربط جزء كبير من أزمة المصطلح بالواقع العربي المعاصر، الذي يغيب في خضمه هذا المشروع الحضاري.

ولا يعزب عن بالنا أنَّ العوامل المانعة من تحقق المشروع الحضاري هي نفسها التي تسهم في تكوين أزمة المصطلح، فهي التي تتحكم في ترتيب قائمة الأولويات القومية، فتجعل التخطيط الاقتصادي وغيره من التخطيطات قبل التخطيط المصطلحي، الذي قد يصل تصنيفه في مرتبة الرفاهيات والكماليات.

٥- الوعي المصطلحي (Terminological consciousness):

والمقصود به هنا هو تحسُّسُ الذات لأهمية ذاتها، فالإنسان العربي يجب أن يعي جيداً أهميته وفاعليته ودوره الرياديّ والحضاريّ (العلمي والتاريخي واللغوي والثقافي..) بين الشعوب والأمم.

وهذه النقطة هي المنطلق الأول لعملية التحسُّس، ومن ثم يجب عليه أن يحوز قدراً كافياً من الثقة بالذات ومنجزاتها وتأثيراتها في الآخر؛ ذلك أن المصطلح جزء لا يتجزأ من اللغة أو الحدث اللساني، واللغة جزء من الذات، ومنه، فالمصطلح جزء من الذات حتماً، ومن ثم، فإن فقدان الثقة بالذات يؤدي بالضرورة إلى فقدان الثقة بأجزائها ومكوّناتها، ومن مجمل ذلك ينتج بالضرورة فقدان الثقة بالمصطلح العربي.

هذا، وإنَّ الوعي المصطلحي حلقة من مسلسل الأوعاء المختلفة كالوعي الصّحيّ والثقافيّ والاجتماعيّ والجماليّ.. ولعل من البديهي أن المبدأ الأساسي الذي تشترك فيه هذه الأوعاء هو قوة الإدراك (أو التعقّل وحسن الفهم ورهافة الإحساس) والمهم من مسرد هذا الحديث هو إدراك أن مسألة الوعي لشؤون المصطلحات وأهميتها تكون بمنزلة مضادٌ حيويٌ لأزمة المصطلحات، وليس بمنزلة مسكّنَ ألم فحسب، بل من الممكن عَدّه عنصراً فاعلاً في مكافحة هذه الأزمة للتخفيف من حدتها وهيجانها، ومن ثم القضاء عليها، وعلى آثارها نهائياً إن أمكن ذلك.

أو على الأقل، التمكن من التحكم بها وضبط تحركاتها، وتطويق امتداداتها واستطالاتها، وتأطير رؤوسها وخلجانها. ثم إنَّ الوعي المصطلحي يستلزم تحقيق عدة أمور، لعلَّ أهمَّها:

١- المحافظة على الأصالة اللغوية وعروبة الألفاظ، عبر ترسيخ الوحدات المصطلحية العربية ذات الطابع العربي الأصيل، والتسويق لها إعلامياً، وتنكُّب المصطلحات الأجنبية، ولا سيما الغربية جداً عن البيئة اللغوية العربية، وهذا يستلزم دعوة الشرائح الاجتماعية، ولاسيما شريحة المترفين (الطبقات الأرستقراطية) إلى نبذ التلافظ والتلاغي بالمصطلحات البعيدة عن المناخ العربي، والتي لا حاجة لتداولها، علماً بوجود بدائل فِصّاح لها في المخزون اللغوي العربي. ولعلّ الدافع وراء هذا التصرف هو التباهي والتفاخر ببضاعة ليست لنا؛ لاستعراض العضلات الثقافية، وظناً منهم أنّ هذا مدعاة لإظهار مستوى عالٍ من الرُّقي والكِياسة. وإن تعمُّد هذا السلوك المَرَضيّ يزيد الأزمة تعقيداً، ويحوّل الالتهاب إلى إنتان، ويولّد قلقاً في المجال التداوليّ التواصليّ.

وفي المقابل، فثمة شريحة العامة من الحرفيين وأصحاب الصنائع والمهن البسطاء (كالطيانين والبنّائين والنجارين والحدادين..) وهؤلاء يجب التوجُّه إلى توعيتهم وإرشادهم إلى المصطلح الصحيح

والمناسب، والعزوف عن المكروه المنبوذ.

وتمثّل هذه التوعية في دور المؤسسات الراعية الرسمية والخاصة التي تزودهم بآلاتهم ومعداتهم وأدواتهم وأغراضهم، التي يجب توعيتها هي الأخرى أولاً؛ بنشر مرفقات وقوائم تحتوي على المصطلحات الصحيحة، ولا ننسى أن استعمال هؤلاء للمصطلحات الأجنبية يكون غير قصديٍّ، بخلاف استعمال شريحة المترفين الذي يكون قصدياً.

٢- الإحساس بأهمية المصطلحات بوصفها «مفاتيح العلوم» ومن ثم إيلاء «علم المصطلح» بشقيه النظري (Terminology) والتطبيقي (Terminography) مكانة ملائمة بين علوم اللغة العربية المتنوعة ويبرز هذا الإحساس والإيلاء حينما يتقرر تدريس علم المصطلح في الجامعات والمعاهد العربية في فروعها المختلفة (اللغوية وغير اللغوية) من أجل تفعيل حل شاف للأزمة عبر مشاركة أطراف عديدة في طرح الرؤى والوسائل.

ويسهم غياب اختصاص المصطلحية في الجامعات العربية في تأجيج هذه الأزمة؛ إذ «يضطر المترجمون إلى تأدية دور علماء المصطلحات؛ لغياب هذا التخصّص، ويمكننا تسميتهم حينئذ بعلماء المصطلحات الظرفيين Terminologues occasionnels»[١].

وتجدر الإشارة إلى «ضرورة العمل على أن يصبح علم المصطلحات مهنةً قائمة بذاتها؛ لأن الجامعات العربية لا تزال تدرّس الترجمة لطلابها كمادة هي أقرب إلى أن تكون مدخلاً إلى تعلّم البحث المصطلحي بدلاً من أن تكون اختصاصاً مستقلاً يهدف إلى مساعدة المترجمين على تخطّي عقبة النقص في المصطلحات التقنية العربية المنتشرة أكثر فأكثر مع التقدم التقني والتكنولوجي العالمي، أمّا في الدول المتطورة فليس علم المصطلحات اختصاصاً مستقلاً وحسب، بل يجري العمل على إنشاء نقابات لعلماء المصطلحات».[٢]

ويتجلى الاهتمام بعلم المصطلح التطبيقي من خلال إنشاء بنوك المصطلحات ومراكز التوثيق، وإخراج المكانز والمسارد والمعاجم المتخصّصة إخراجاً حسناً؛ حتى يستطيع المصطلحيون الاشتغال بحذق واستيعاب المادة المصطلحية ووضع المصطلحات.

وفي النهاية من الممكن أن يكون الوعي فردياً غير رسمي، أو جماعياً رسمياً.

٦-الحل المثالي (الأنموذجي):

ومن ناحية مثالية قد تكون نائية عن الواقع، ولا سيما الواقع الحاضر، لكن ليست أسطورية ولا خيالية = يبقى الحل الأنموذجي لأزمة المصطلح، والصادّ

الأساسي لإعصارها هو النهوض بالواقع الحضاري العربي لنقله وترحيله من دائرة الاستهلاك إلى دائرة الإنتاج.

فلو كانت هذه المخترعات والمستحدثات عربية المنشأ والتصنيع؛ أي: لو كان العرب أُمّةَ الاختراع والإنتاج والتصدير، لا أمة الشراء والاستهلاك والاستيراد، لكان بوسعها وبكل يُسْرٍ وضعُ المصطلحات وتغطية المفاهيم والتصورات بالتسميات القياسية المطابقة. فهذا الأمر عامل فاعل من العوامل الدراماتيكية في وضع المصطلحات.

ولا نغالي لو اعتقدنا أن هذا الأمر يستلزم بالحتم انتفاء ما يسمى «أزمة مصطلحات»؛ إذ إنَّ من يقوم بعملية الاختراع أو الاكتشاف تصوّر معيَّن من المعقول والمنطقي أن يكون أهلاً لضبط تيّار المصطلحات، وماهراً في إلصاق التسمية القياسية على المفهوم القياسي في الوقت القياسي والمكان القياسي. وبذلك نحصل على الوحدة المصطلحية التي تُعَدُّ بحسب تعاليم فوستر (Eugen Wüster) إلصاق التسمية على المفهوم، ومن ثم يبدو عبر المضيّ في هذا المسار تحصيلٌ حاصل هو نشر ثقافة الذات ومنجزاتها على نطاق واسع، وعودة الحضارة العربية إلى اتسامها بالعالمية من جديد (ولا أعني العولمية). ومن ثم لا تكون الشخصية العربية عرضة للغزو الثقافي الذي يُعدُّ بمنزلة «فعل تعسُّفيّ يمارسه طرف قوي على طرف أضعف منه بقصد اختراق ثقافته كُلّيّاً أو جزئيّاً.. لإزالة الخصوصيّات الثقافية».[4]

هذا، وإنَّ ثمة عوامل غير هذه تسهم في تأجيج الأزمة المصطلحية، ووضع العَرَبة أمام الحصان، لكن ركِّز على ما يُظَنُّ أنه جوهر الأزمة وأسبابها البعيدة وما وراءها حرصاً على المصطلحات التي تملك لقب «مفاتيح العلوم»، والعلوم وسائل ودروب للحقيقة، والحقيقة غاية الإنسان وهدفه وطموحه.

الهوامش

١- انظر: هنري بيجوان وفيليب توارون، المعنى في علم المصطلحات، ترجمة: ريتا خاطر، مراجعة: سليم نكد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت -لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٩ مقدمة المترجمة.
٢- المرجع السابق. ص١٨، مقدمة المترجمة.
٣- المرجع السابق. ص١٨، مقدمة المترجمة.
٤- شحادة الخوري، أوراق ثقافية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة دمشق ٢٠١٢م، ص٥١ و ٥٢.

هل المسكوكات المعدنية (النقود) اختراع عربي؟!

نزار مصطفى كحلة ✽

النقود أو المسكوكات كما يسميها علماء الآثار في علم يسمى علم النميات NUMISMATICS، وكلمة النميات منبثقة من الإغريقية (نوميسما - NOMISMA) ومن اللاتينية (نوميسما NUMISMA) وهو علم يعالج وصف (النقود) وتاريخها وكذلك (الميداليات) هذه النقود هي التي نتعامل بها في حياتنا اليومية، أي هي الأموال، والمال هو أحد أهم العوامل التي تتأثر بحركة التاريخ وتغيراته وتوجهاته وتقلباته، كما أنه أيضاً من العوامل المؤثرة في التاريخ نفسه، فضلاً عن أنه وثيقة رسمية مؤكدة لا يمكن الشك بها أو الطعن فيها، عندما يتشكل في صورة عملات نقدية معدنية أو ورقية، وهذا ما جعل النقد من العوامل المساعدة على دراسة علم التاريخ.

فبوساطة المسكوكات نستطيع التعرف على الديانات والأساطير القديمة، كما أنّ الصورة المسكوكة على النقود مهمة في دراسة تطور الفن، على فرض أنّ النقود مواد مؤرَّخة يمكن ترتيبها، في معظمها، ترتيباً زمنياً، كذلك تفيدنا النقود في مجال التاريخ الاقتصادي، فدراسة نوع من العملة في أي عصر، يعطينا فكرة عن مدى الرخاء الاقتصادي أو التدهور الذي تمر به الدول، إضافة إلى امتداد نفوذها على

✽ باحث سوري.

مناطق الجوار، ناهيك عن معرفتنا لصور شخصية لحكّام قضوا منذ آلاف السنين، كما أنَّ النقود (المال) تعكس كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والأدبية والفنية، لذلك فقد حظيت بهذا الاهتمام من الدراسة والبحث، لمعرفة تاريخها وتأريخ أوّل سك لها.

لقد استخدم البشر عبر التاريخ القديم مواداً مختلفة كسلع للتبادل فيما بينهم، كالماشية والقمح واللبن والملح والتبغ والحديد والبرونز والنحاس والفضة والذهب وغيرها من المواد التي كانت تعمل عمل النقود، وهو ما يعرف بنظام المقايضة Barter أي تبادل السلع مقابل سلع، من دون توسط للنقود، وقد ارتبطت المقايضة بوجه عام باقتصاد الكفاف Subsistence أو الاقتصاد المعيشي أو الزراعة المعيشية، ولأنَّ اختراع النقود هو اختراع هام في تاريخ الحضارة الإنسانية، فقد سهّل اختراع النقود عملية التبادل التجاري سواء أكانت في التجارة الخارجية أم في التجارة الداخلية وعلى المستويات كافة.

ونظراً لأهمية هذا الاختراع، فقد بحث الآثاريون والمؤرخون عن أقدم نقد معروف في التاريخ، ومن كان أوّل من اخترعه، بغية معرفة الزمن الذي يعود إليه هذا الاختراع الهام، وقد أجمعت معظم الأبحاث على أنَّ أوّل من اخترع النقود كعملة قابلة للتداول، أي النقود المعدنية التي لها أوزان ثابتة ومضبوطة من قبل الدولة من حيث الوزن والقياس والدقة والنوعية والنقاء الجيد للمعدن، والممهورة من قبل السلطة، إنَّما يعود إلى منطقة ليديا أو أيونيا في آسيا الصغرى (تركيا) في بداية القرن السابع قبل الميلاد وبالتحديد عام ٦٣٠ق.م. وقد استعمل هيرودوت في ذكره أول ظهور للنقد الحكومي جملة يقول فيها: «كان الليديون أول من عَرِفنا أنهم سكّوا واستعملوا عملة من الذهب والفضة» ويعني ذلك أنهم سكّوا النقود من الذهب والفضة معاً، أي من خليط منهما يعرف باسم الذهب الأبيض أو الإلكتروم، ومازالت هذه النقود موجودة حتى الآن في بعض المتاحف العالمية.

كما سُكّت في بلاد الإغريق أوّل عملة إغريقية في جزيرة إيجينة الدورية (AEGINA) في القرن السابع قبل الميلاد، أمَّا عن طريقة الصناعة والنقش، ففي البداية استخدمت علامة بسيطة مثل مربع غائر لهذا الغرض، ولكن المعروف أن هذه العلامات سرعان ما تحولت إلى شعارات فنية في بلاد اليونان، واختارت كل مدينة رسماً مناسباً كان في البداية رمز

آلهتها المحلية، مثل حيوان أو نبات أو أي موضوع آخر. ثم تحول هذا الشعار إلى رأس أو شكل للآلهة نفسها أو صورة لبطل مفضل أو مجموعة أسطورية....إلخ.

هذا ما تحدثت عنه كتب التاريخ حول اختراع النقود، لكن المكتشفات الأثرية والدراسات الحديثة، إضافة إلى نظرة عميقة وشمولية وعقلانية أكثر لموضوع البحث، قد تغير هذه النظرة.

فنحن لا نحاول سرقة اختراع من منطقة ما ونسبه إلى بلادنا، وفق نظرة لا تقبل للآخر أن يساهم في إنجاز الحضارة الإنسانية، لكننا في هذه الدراسة نحاول أن نعطي كل ذي حق حقه، فطالما غيرت المكتشفات الأثرية الكثير من الأفكار والمعتقدات، وغيرت مصير شعوب ودول!!.

لذلك لا بد من تقصي الحقائق والمعطيات الأثرية والتاريخية، والتي ربما تعيد اختراع النقود كمنجز هام في تاريخ البشرية إلى زمن أبعد من ذلك الزمن الذي تُنسب إليه بكثير، وقد تكون على أيد عربية في المشرق العربي القديم، والذي ربما يكون قد استخدم العملة المعدنية بشكل أو بآخر في زمن أقدم من زمن اختراع ليديا لها.

ففكرة استخدام البدل المعدني الموزون كوسيلة للتبادل قديمة جداً، وهي التي استكملت وضعها على شكل مسكوكات فيما بعد، وقد بدأت في النصف الأوّل من الألف الأوّل قبل الميلاد، وبكل تأكيد قبل عام ٦٣٠ ق.م.

تبدأ القصة من إيبلا ٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ق.م حيث دلت المكتشفات الأثرية على وجود أوزان ومقاييس حجمية ربما كانت تستخدم كبدل نقدي!! هي:

- المينا: وهو يعادل ما يقارب ٤٧٠ غ وهذا هو الوزن الفعلي للمينا المستخدم في أوغاريت خلال الألف الثاني قبل الميلاد.
- المثقال: والذي يعادل ٧،٧٥ غ حيث أن المينا تساوي ٦٠ مثقالاً، ٧،٧٥ × ٦٠= ٤٧٠غ.
- المثقال: والذي يساوي ٩،٤٠ غ وهو الذي أصبح المتبع في أوغاريت فيما بعد، ففي أوغاريت نجد أنَّ المينا تساوي خمسين مثقالاً أي ٩،٤٠×٥٠=٤٧٠غ، فيما نجد المثقال الرافدي يعادل ٨،٧٥ غ ولكنه لم يكن مستخدماً في إيبلا.
- الجوبار: وهو يشمل البرميل، أو جرة القياس.
- باريسو: وهو يساوي نصف جوبار.
- سيلا: وهي تساوي عشر ١/١٠ الباريسو.
- انزام: وهو يساوي سدس ١/٦ السيلا.

أمّا في بلاد الرافدين فقد ورد في القوانين القديمة ذكر بعض أنواع الأوزان التي استعملت كنوع من البدل النقدي بدلاً من التبادل البضائعي السلعي، ففي قوانين أورنمو ٢١١١- ٢٠٩٤ق.م وهو مؤسس سلالة أور الثالثة السومرية، ورد ذكر المينا من الفضة كوحدة نقد للدفع، وذكر أيضاً الشيقل من الفضة.

وفي قوانين مملكة أشنونا الآمورية ٢٠٢٠ - ١٧٦٠ ق.م ورد في المادة الثالثة: «تكون أجرة عربة نقل مع ثيرانها وحوذيها (باناً واحداً)[1] و(أربعة سوت) من الشعير، أمّا إذا كان الدفع بالفضة فتبلغ الأجرة ثلث شيقل. يقود الحوذي العربة مقابل ذلك يوماً كاملاً»، وفي المادة الرابعة نجد: إنّ أجرة سفينة ذات حمولة ٦٠ كوراً تكون ٢ قا[2]، وتكون أجرة الملاح ثلث قا (٣/١ قا) مقابل ذلك العمل يوماً كاملاً.

كما استخدم العراقيون القدماء مبدأ المقايضة كأول وأقدم شكل لتبادل السلع، ثم استعملوا المعادن (النحاس والفضة والذهب) واسطة للتعامل لقياس قيمة المواد الأخرى عليها، فاستعملوا الفضة مثلاً على صورة صفائح صغيرة أو حلقات أو أقراص مثقوبة ذات وزن محدد، وتدمغ لضمان نوعها وعيارها ووزنها، ويقال إنهم كانوا يدمغون (دمغة) مثل هذه القطع المعدنية أحياناً ضماناً لنوعها ووزنها، فلا يعيدون الوزن في كل معاملة، وهذه هي فكرة النقود وأصل النقود الحقيقية.

وقد اعتبر البعض أنّ الآشوريين (الدولة القديمة) في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد هم أوّل من استخدم المال المعدني (النقود) وأوّل من سك المعادن وشكّلها من الفضة، وذلك نحو سنة ٢١٠٠ ق.م، ولكن ذلك يحتاج إلى إثبات علمي أثري، غير أنه من الثابت أنّ الآشوريين هم أوّل من وضع الأسس والأنظمة المصرفية (البنكية) وكانت لديهم أنظمة تشبه أنظمة البنوك البدائية، وأنهم عرفوا ما يطلق عليه اليوم بالأسهم، ودفع فائدة القروض والديون، وقد كان الآشوريون فيما بعد وفي زمن الدولة الحديثة ٩١١ - ٦٠٩ق.م وخاصة في عهد «سنحريب» ٧٠٥ - ٦٨١ق.م قد استخدموا قطعاً معدنية ذات أوزان معلومة، وكان بعضها على شكل قضبان من الفضة، مقدار كل منها نصف شيقل كانت تسمى لديهم (رؤوس عشتار) وكانت المدفوعات تتم بوساطة وزن الفضة أو المعادن الأخرى التي تُتخذ أساساً للتبادل، وكانت هناك إدارة خاصة بشؤون الموازين والمكاييل، وكانت وحدات الموازين تُصنع على صورة البط أو الأسود، وفي المتحف العراقي

أنموذجات من هذه الأوزان الرسمية وهي منقوشة بالكتابة الرسمية التي تبين مقدار الوزن القياسي، كما يظهر عليها المهر الذي يحدد وزنها بشكل رسمي.

وكما استخدم الآشوريون أيضاً «المينا» مقياساً، وكان لها معيار خاص يسمى معيار كركميش، بسبب انتشار اقتصاد تلك المدينة حينئذ، وكان يساوي ٤٧٠غ وهو من الفضة التي أخذت الدور الرئيس في تمثيل دور النقد في المبادلات التجارية، وكذلك استخدم القصدير والنحاس أحياناً، وربما كان سنحريب قد سكَّ ما يمكن أن نطلق عليه نقوداً من النحاس.

وفي العصر البابلي القديم، قد تبدو الصورة أوضح، حيث ورد ذكر بعض أنواع النقد السلعي والنقد المعدني، وخاصة الفضة، وذلك من خلال قوانين حمورابي ١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م. وقد وردت باللغة الأكادية!!، وهذه الوحدات الفضية هي:

أطية: وتعني بالعربية حبة (حنطة)= ٠,٠٤٦غ ووردت في بعض المصادر ٤٤ ملغ، شيقل= ٨,٣٣ غ، منوم= ٥٠٠ غ، مينا= ٥٠٠ غ، بلة= ٣٠ كغ. إضافة إلى بعض الحجوم مثل: سيلا= ١ لتر، سوت= ١٠ لتر، بان= ٦٠ لتراً، كور= ٣٠٠ لتر، قا= ٦٠ مثقالاً. إضافة إلى الطالن والذي يبلغ ٣٠ كغ.

فقد كان لابد لبابل وأمام تطور تجاري ملفت للنظر، إذ وصلت تجارة بابل إلى مناطق دلمون (البحرين) وجزيرة كريت في المتوسط وغيرهما من المناطق المجاورة والبعيدة.

فبعد أن كان الشعير هو المادة الرئيسية كواسطة للتعامل، أخذت الفضة تدخل هذا المجال منذ الألف الثالث قبل الميلاد، إذ إنَّها مادة غير قابلة للتلف أو الفساد، وهي سهلة النقل والجمع والحفظ، كما كانت لها قيمة ثابتة نسبياً بالمقارنة مع الحبوب التي كانت قيمتها دائماً في تأرجح، ولم يكن لها في ذلك الزمن شكل العملة المسكوكة التي بدأ استخدامها في بلاد الرافدين بعد نهاية العصر البابلي القديم بحوالى الألف سنة، بل كانت تستخدم بأشكال مختلفة، فمنها قطع غير منتظمة ومنها سبائك ومنها أسلاك، وحتى الخواتم كانت تستخدم في المدفوعات، وكانت القطع الفضية تحمل أحياناً خاتم ضمانة رسمي يشهد على نقاوتها، لكن على الرغم من ذلك يبدو أنَّ الغش لم يكن أمراً نادراً، إلا أن الشيء المضمون كان دائماً هو الوزن.

ويوجد في الوثائق المسمارية الكثير مما يشير إلى أنه كان يُتخذ للقطع الفضية مقياس من أحد المعابد وبصورة خاصة معبد الإله

شمش في مدينة سيبار!! (وهو على ما يبدو أصل فكرة النقود الحالية) وفي بعض الأحيان يرد ذكر الذهب كوسيلة نقدية، إلا أنَّ دوره مقابل الفضة كان بسيطاً، ومن الغريب أنَّ استخدامه كان غالباً في التعاملات الاقتصادية للمعابد بشكل خاص.

وبشكل عام أصبحت الفضة هي الوسيلة النقدية الحقيقية وأساس كل الحسابات المالية، وبمرور الزمن أصبحت الوحدات الفضية المذكورة سابقاً تمثل شيئاً، قيمة عددية أي مبلغاً محدداً أكثر مما تمثل وزناً كما كان في السابق وهو بيت القصيد في موضوع أصل المسكوكات.

ففي بابل أصبحت الفضة هي مقياس ذلك العصر، وأصبح الناس غالباً يُعبِّرون عن القيمة بالفضة عندما يتعلق الأمر بصفقة تجارية طبيعية، وصارت هي المادة المرغوبة في تكوين الثروات والمادة المريحة في التعامل المالي عالمياً، وتنقل الأموال هنا وهناك، ولا نبالغ إذا قلنا أن ما نراه في أيامنا من تعاملات مصرفية وأرصدة وشيكات ليس من مبتكرات عصرنا الحالي بل إن أهل الرافدين كانوا قد عرفوا ما يشبه كل هذه الأمور، فمن أجل التخفيف من أعباء نقل الأموال، تم تطوير نوع من الشيك، وهو عبارة عن لوح فخاري يذكر فيه الرصيد واسم حامله، وقد وجدت أنموذجات من هذه النصوص، تمَّ تفسير محتواها بما معناه: «إنَّ المبلغ المنصوص عليه هو لصالح... فلان... في ذمة... فلان... ويجب دفعه لمن يبرز هذه الوثيقة - أي حامل اللوح...» وهو نفسه مبدأ الشيك (الحوالة) الحالي.

أمَّا في ماري المعاصرة لبابل والتي سقطت على يد حمورابي ١٧٥٩ق.م فقد دلت النصوص المكتشفة فيها حتى الآن وبشكل واضح على أنه كان ثمة نقود للتبادل كانت بين أيدي التجار، إذ استخدمت المعادن الثمينة كما في بابل بمثابة النقود في أعمال المبادلة التجارية، وخاصة الفضة والذهب.

وكانت الفضة المعادل الرئيس للتبادل، فقد كان هذا المعدن غالباً ما يخزن أو يحمل على شكل صحائف رقيقة أو حلقات من الأسلاك، أو عقود من اللفائف الطويلة، يؤخذ منها الوزن المناسب، مما جعل الفضة أكثر المعادن مناسبة لتقوم بدور النقد، وكان يجري تخزينها في الصندوق الملكي. ومن المقاييس النقدية في ماري نذكر: الحبة= ١/١٦غ، والمثقال= ٨ غ تقريباً، والمينا= ٥٠٠ غ تقريباً.

وقد عُرفت الخواتم (الحلقات) كأحد أشكال استخدام الفضة بمثابة النقود قبل العملة. كما تظهر بعض المدفوعات على

شكل فؤوس (مطارق) أو رؤوس فؤوس من الذهب والفضة، وتشمل الثروة أيضاً أشكال الزينات من اللازورد التي استخدمت بطريقة مشابهة لاستخدام النقد الحالي.

أمَّا في مملكة آلالاخ الأمورية[٣]، فقد ذكرت النصوص المكتشفة فيها عدداً من العقود، وذلك من أجل تدوين عمليات البيع والشراء لضمان حقوق الأطراف المتعاقدة. وقد كان السعر محدداً في كافة العقود، حيث كان السعر مُقيّماً بالفضة في حال الشراء العقاري وشراء البساتين والكروم، أمّا في باقي العقود، فإنَّ الأسعار لا تُعطى صيغة واضحة، ولكن بشكل عام استخدمت الفضة وأحياناً مواد عينية مثل القمح والشعير والخضار والحيوانات (ثيران - أحصنة) وكانت النقود عبارة عن أوزان من الفضة مُقاسة بدقة (مثقال أو غير ذلك).

وقد كانت المواد المستخدمة في صناعة الوزنات غالباً من مادة الهيماتيت على اعتبار أنّها مقاومة للعوامل الطبيعية والصدم، وكانت تعتبر أشياء ثمينة وتوضع عليها الأختام بدقة ومهارة، ومن هذه الأوزان المينا الثقيلة والمينا الخفيفة، ويساوي وزن المينا الخفيفة نصف وزن المينا الثقيلة.

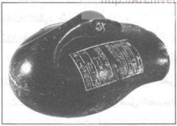
وكان المثقال في آلالاخ عادة ما يساوي ٨،٥ تقريباً، وهو قريب من المثقال البابلي الذي يساوي ٨،٤١٦ غ (وأحياناً ٨،٣٣) فيما كانت المينا تساوي ٥٠ شاقل ومنه فإن ٤٧٠ ÷ ٥٠=٩،٤ غ، وهو وزن الشاقل، وقد انتشر هذا الوزن حتى كيليكيا والساحل السوري وقبرص وأوغاريت[٤]، وسمِّيَ بالمثقال السوري.

وإذا ما تقدمنا بالزمن حتى الألف الأوَّل قبل الميلاد فإننا نجد الآراميين قد خطوا خطوات كبيرة في مجال اختراع النقد، والتي تعتبر حقيقة الدليل البارز الأول على أنَّ العرب كانوا السباقين في صناعة وسكّ المسكوكات قبل مملكة ليديا بما لا يقل عن قرن من الزمن، فقد وجد في زنجرلي سلسلة من القطع الفضية والكتل المعدنية المسبوكة، والتي مُهرت باسم (بر راكب) أي إنها تعود لبر راكب حاكم البلاد، وهو دليل جيد على الاتجاه والتحرك الأوّل باتجاه العملة النقدية الحقيقية، وقد كانت هذه السبائك الفضية الكبيرة دائرية الشكل والتي تبدو وكأنها أرغفة خبز، والمؤرخة حوالى ٧٣٠ ق.م تحمل كتابة آرامية، مؤشراً على الظهور المبكر للنقود من أجل التداول، وقد كانت رسمية، وكان أثقلها يزن ٤٩٧،٣٨ غ وهي مماثلة تقريباً للمينا البابلية الآشورية الخفيفة، وتساوي تقريباً المعيار الأساسي للنقود الأناضولية الخليطة في الربع الثاني من القرن السابع ق.م، كما اكتشفت سبيكة

أخرى مشابهة بلا نقوش وجدت أيضاً في زنجرلي وتزن ٤٥٠،٢٥غ وربما كانت من معيار كركميش البالغ ٤٧٠غ، وقد وجدت مثلها أيضاً في أوغاريت وتساوي ٤٧٠غ، وهي تماثل المينا.

كما اكتشفت واحدة في وادي الفرات جنوبي كركميش وهي مينا واحدة تساوي ٤٧٢،٢غ، وكذلك كانت هناك مينا شلمانصر وهي تطابق المينا الثقيلة في كركميش والتي تبناها تغلات بلاصر وشاروكين وسنحريب الآشوريون. وفي مملكة حماة الآرامية وُجِدَ الشاقل من البرونز ويساوي ١٢،٦٥غ، وهو المعروف بشاقل حماة.

وهكذا نرى أنَّ هذه الوحدة النقدية في بلاد الشام والرافدين، وخاصة من حيث الوزن والصناعة (فضة، ذهب، نحاس، برونز)[٥] والتي استعملت كوحدات وزن لمعدن مقابل مادة سلعية، وخاصة في العصر الآرامي (نقود زنجرلي) تؤكد على أنَّ العرب الآراميين كانوا السبَّاقين في سكّ العملة المعدنية قبل ليديا بحوالي مئة عام على الأقل، وربما تأتينا المكتشفات الأثرية القادمة بالكثير من المفاجآت السارة التي تعزز ما قلناه في هذا المجال، وقد يقول قائل: إنَّ ما قدمناه لا يعدو كونه تلميحات على فكرة صناعة سك النقود، لكنها لا ترتقي حقيقة إليها، وهنا نقول: إن ما قدمناه من حقائق يؤكد على أنَّ العرب: إن لم يكونوا السبَّاقين في سك النقود بمفهومها الحديث فعلاً، فإنهم بكل تأكيد ومن خلال هذه الحقائق هم أصحاب الفكرة الأساسية في سك النقود المعدنية، وهذا ليس بالغريب على أرض طالما عودتنا على المزيد والمزيد من المكتشفات الأثرية التي تميط اللثام عن الكثير من الحقائق الغائبة عنّا، علّها تعيد لهذه الأرض ألقها وحقها في إعادة ما أنجزته من إبداعات خلّاقة، كانت قد نُسِبت للآخرين، وعلى أقل تقدير إثبات الوحدة الحضارية لهذه الأرض الواحدة.



ثقل على شكل بطة من الحجر الأسود، يظهر عليها المهر الذي يحدد وزنها بشكل رسمي، وهو موجود في المتحف العراقي.

● ● ●

الهوامش

١- البان في الدولة البابلية القديمة، هو وحدة قياس حجم تساوي ٦٠ لتراً.
٢- قا= ٦٠مثقالاً، أي قا= ٩،٤×٦٠= ٥٦٤غ أي أكثر من ١ مينا بقليل.
٣- موقع تل العطشانة، في سهل العمق الذي يقع في منتصف المسافة بين حلب والبحر المتوسط في لواء أسكندرون السليب، وهي عاصمة مملكة موكيش الأمورية التي ازدهرت في الألف الثاني قبل الميلاد.
٤- تذكر بعض المصادر أن الفينيقيين كانوا أول من أوجد أوراقاً نقدية من جلود الحيوانات.
٥- على الرغم من هذا الخلاف البسيط في الوزن أحياناً ما بين منطقة وأخرى، إلا أنه لا يعدو كونه خلافاً بسيطاً لا يؤخذ بعين الاعتبار، قياساً إلى التوافق الغالب بين معظم المناطق، ولا ننسى أنه وفي عصرنا الحالي، ومع كل هذا التطور، فإننا نجد أحياناً خلافاً في الوزن ما بين منطقة وأخرى، فقد اقتضى التوضيح.

مراجع البحث

١- أكرم زيدان: سيكولوجيا المال، عالم المعرفة، العدد ٣٥١، الكويت، ٢٠٠٨م.
٢- باولو ماتييه والفونسو آركي وآخرون: إيبلا- عبلاء- الصخرة البيضاء، ت: قاسم طوير، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.
٣- برهان الدين دلو: حضارة مصر والعراق- التاريخ الاقتصادي- الاجتماعي- الثقافي والسياسي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م.
٤- جيزيلا ريختر: مقدمة في الفن الإغريقي، ت:جمال الحرامي، دار أماني للطباعة والنشر، طرطوس، سوريا، ١٩٨٧م.
٥- خليل سارة: تاريخ الإغريق، دمشق، ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧م.
٦- خليل سارة: دراسات في تاريخ الإغريق، مقدمة في التاريخ الحضاري والسياسي، دمشق، ٢٠٠١ - ٢٠٠٢م.
٧- خليل سارة: دراسات في الاقتصاد اليوناني- في القرنين الخامس والرابع ق.م، دمشق، ١٩٩٧- ١٩٩٨م.
٨- طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - القسم الحضاري، بغداد، ج١، ١٩٥٥م.
٩- علم الدين أبو عاصي: اقتصاد مملكة ماري- القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وزارة الثقافة، سلسلة الدراسات التاريخية، دمشق، ٢٠٠٢م.
١٠- عمار عبد الرحمن: مملكة آلالاخ- ألق التاريخ على العاصي، وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ٢٠٠٨م.
١١- عيد مرعي وفيصل عبدالله: تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الرافدين)، دمشق، ط٤، ٢٠٠١ - ٢٠٠٢م.
١٢- محمود حمود: الممالك الآرامية السورية، دار روافد للثقافة والفنون، دمشق، ط١، ٢٠٠٨م.
١٣- هورست كلينجل: العصر البابلي القديم ودولة حمورابي، ت: عبد الله الحلو، دار شمأل، ١٩٩٨م.

الطفيليات وفن التلاعب بالضحايا

ترجمة: محمد الدنيا ●

يعرف الباحثون منذ وقت طويل أنه توجد أنواع كائنات حية يمكنها التطفل على أخرى وتستعملها لمصلحتها. واليوم، يكتشفون آليات هذا التطفل التلاعبي الغريب والمتطرف. إنه عالم مرعب.

كائنات متطفلة تستعمل غيرها لمصلحتها بقسوة لا مثيل لها، ولا يكتفي بعضها باستغلال «مضيفها» والتعيّش عليه أو التكاثر فيه بل يعمل حتى على تغيير شكله وفيزيولوجيته وسلوكه أيضاً..

أنثى زنبور تحقن مواد سامة للأعصاب في دماغ صرصور كي تضع بيضها فيه وتجعله خزانة طعام حية ساكنة؛ وفُطْرٌ يستولي على الجهاز العصبي لنملة لينقل نفسه إلى موقع تكاثره المثالي.. ذاك بعض من أمثلة عن عالم شيطاني ساكنوه. تسيطر هذه الكائنات العجيبة، التي تسخر غيرها لمصلحتها بإسراف، وهي فيروساتٌ، وفطور، وحيوانات أوالي protozoaires[1] وحشرات وديدان.. على جسم من تحلّ فيه، وتخضعه، وتحوله إلى شبح بلا حراك أو تدفعه إلى الانتحار، فقط كي تسخره لمنفعتها.

التطور ثانياً

لم يكن وجود مثل هذه الكائنات الحية متوقعاً حتى منتصف خمسينيات القرن العشرين، ولكن لزم انتظار السبعينيات

● باحث ومترجم سوري.

لاكتشاف أوّل حالة موثقة: تمكن الباحث الكندي «جون هولمز» John Holmes من أن يثبت من خلال دراسة إحصائية وجود هذا الاستعمال الماكر الذي تمارسه الدودة مُشَوكةُ الرأس ver acanthocéphale على حيوان من قشريات المياه العذبة بغرض الوصول إلى مضيفها المستهدف، أي البط البري الذي يرد البرك والمستنقعات: عندما يتلوث الحيوان القشري بيَرَقَة هذه الدودة، يبدأ بتعريض نفسه للضوء بشكل خطير، مجتذباً بذلك مفترسيه.. بدءاً بالبط، بعد أن كان قبل الإصابة يتجنب الضوء كي لا ينكشف.

أخذت الطفيليات المتلاعبة بضحاياها تجتذب اهتمام العلماء منذ اكتشاف هذه الطريقة العملياتية السيئة والمدهشة، التي راحوا يتعرفون بصعوبة إلى آلياتها.

ليس لدى الحيوانات الطفيلية «إرادة» بالمعنى الدقيق للعبارة لاستعمال مضيفها، فسلوكياتها هذه كانت قد انتقتها إبان التطور لأنها تزيد من معدل انتقالها. ولكن كلما ازدادت المنافسة شدةً، تغدو طريقة التلاعب والاستعمال أذكى وأقسى.

يشكل الطفيلي والمضيف ثنائياً عالي التأهيل: كلما اكتسب أحدهما ميزةً بالانتقاء، يغير بيئةَ الآخر ويجبره على أن ينتقي ميزة معاوِضة. إنَّها فرضية «الملكة الحمراء»[٢] التي صاغها عالم الأحياء التطوري الأمريكي «ليغ فن فالن» Leigh Van Valen (١٩٣٥- ٢٠١٠م) بالاقتباس من «مغامرات أليس في بلاد العجائب» Aventures d`Alice au pays des merveilles، رواية «لويس كارول» Lewis Carroll: فبينما كانت «أليس» تركض مع «الملكة الحمراء»، استغربت أن ترى المشهد لا يتغير؛ وتشرح لها الملكة أنها تركض، في البيئة المتغيرة باستمرار، «كي تبقى في المكان نفسه». وهذا ما ينطبق على الحيوانات الطفيلية ومضيفيها:

تتطور معاً كي تبقى وجهاً لوجه. الطفيلي يهاجم، ويرد المضيف على الإصابة بصُنع مقاوِمات؛ لكن الطفيلي يتكيف معها بتحسين هجومه، وهكذا دواليك.. وليس في الأمر ما يدهش أن تصل العلاقات بينهما إلى هذه الدرجة من التعقيد بعد ملايين السنوات من التطور المشترَك.

يبقى أن نعرف ما تعنيه عبارة «التلاعب». نظرياً، الأمر بسيط: «يكون الطفيلي متلاعباً إذا غيَّر جزءٌ من جيناته سلوكَ مضيفه وإذا كان هذا التلاعب مؤاتياً للطفيلي»، يشرح «كلود كومب» Claude Combes، عضو أكاديمية العلوم الفرنسية واختصاصي التطفل parasitisme. للأسف! من الناحية العملية، من الصعب إظهار تسلسل الأحداث الذي يبدأ بجين الطفيلي ويوصل إلى سلوك المضيف المغيَّر. مع ذلك، لزم انتظار عام ٢٠١١م كي يضبط الباحثون جيناً فيروسياً في حالة تلاعب بيرقة.

تكمن إحدى الصعوبات في التمييز بين إستراتيجية يقوم بها الطفيلي عن معرفة ورد فعل دفاعي عادي يؤديه المضيف. هل العطس، عندما نكون مزكومين، ناجم عن تلاعب فيروسٍ بهدف جعل الزكام ينتقل إلى محيطنا؟

أم أنَّ الأمر يتعلق بالنسبة للمريض بوسيلة يتخلص بها من الفيروس المعني؟

لم يثبت أي عالم أنَّ العطس ينطوي على ميزة بالنسبة للطفيلي، ويبقى السؤال بلا إجابة. وهنا يطرح سؤال نفسه: هل تتلاعب الطفيليات بالبشر أيضاً؟ في الواقع، هناك شيء مؤكد: أنَّها قادرة على ذلك. وهكذا، عندما تحلّ المقوَّسة الغونديّة Toxoplasma gondii، هذا الحيوان الطفيلي المسبب لداء المقوَّسات،[٣] في الجرذان فإنَّها تجعلها أقل تفاعلاً إزاء الأخطار وبالتالي تدفعها نحو أفواه القطط، هدفها النهائي، حيث يمكنها أن تتكاثر جنسياً. إلا أن هذا الطفيلي موجود أيضاً عند أكثر من كائن بشري من كل اثنين.. حيث له التأثيرات نفسها الموجودة عند الجرذ. من المؤكد أنَّنا لسنا معرضين لخطر أن تأكلنا القطط، غير أن إستراتيجية هذا الطفيلي تبقى موجودة لتفعل فعلها.

أمثلة:

ذبابة تجبر النحل على ترك الخلية

هل يكون النحل في حالة انصياع لذبابة صغيرة جداً عندما يترك خليته ليلاً ليموت في ريف مقفر؟

منذ بضع سنوات، خصوصاً في أمريكا الشمالية، كانت خلايا نحل كاملة ضحية لـ «متلازمة انهيار المستعمرة» هذه. نهض المربون في الصباح فوجدوا خلاياهم شبه

خالية، من دون وجود أية نحلة نافقة. اشتبهوا بأن سبب هذه المجازر هو مبيدات أعشاب، أو مضادات حيوية، أو فيروسات، أو فطور، أو مفترسات أخرى.. وجهدوا جميعاً ليعرفوا السبب، ولكن من دون جدوى. ولكن، في كانون الثاني ٢٠١٢م، وجه الاتهام في ذلك إلى عدو آخر: الذبابة المسماة Apocephalus borealis. وتمّ اكتشاف هذا الطفيلي، الذي يغزو الحشرة الطنانة bourdon (من فصيلة النحليات، ذات شعر لامع وكثيف) وبعض الزنابير، لدى نحل «كاليفورنيا» و«داكوتا الجنوبية» أيضاً. تنتقل هذه الذبابة بسهولة، من دون أن تلاحَظ: تحط في جوف مضيفها وتضع فيه بيضها خلال ثانيتين إلى أربع ثوان، مما يؤدي إلى تغير في سلوكه.

وتأكد باحثو فريق «أندريو كور» Andrew Core و«جون هفرنيك» John Hafernick من فرضيتهم في المختبر: تضلّ النحلة التي تصاب بالطفيلي طريقها، وتترنح نحو الضوء وتترك خليتها في عز الليل. وبعد ذلك بسبعة أيام وسطياً، يمكن أن تخرج حتى ثلاث عشرة يرقة من صدر النحلة بعد نفوقها. فهل الذبابة هي المسؤولة الرئيسية عن اختفاء النحل؟ لماذا تهاجم هذا المضيف الجديد، وكيف تتمكن من طرده؟ هذا ما سيتوجب على الباحثين معرفته.

جراثيم تعطل تكاثر الحشرات

تعتبر الجرثومة المسماة «الوَلْبَخِيّة» Wolbachia نجماً في فن التلاعب بتكاثر مضيفها. تنتقل هذه الجرثومة، التي تصيب الحشرات بشكل خاص، حيث تعيش في خلاياها، من الإناث إلى الصغار. وبذلك، كلما كانت ذرّيّة الحشرة كبيرة تصبح فرص تكاثر الطفيلي أكبر.

وكان الباحثون يعرفون منذ وقت مضى أنه بإمكان «الوَلْبَخِيّة»، بنتيجة تأثير بعض هرموناتها، أن تجعل إناث الحشرات غير المصابة عقيمة إذا ما اتصلت بذكور مصابة أو أيضاً جعل هذه الذكور ذات خواص أنثوية. وقد اكتُشف أنها قادرة على زيادة نسل مضيفها! ففي تشرين الأول ٢٠١١م، أعلن فريق «إيفا فاست» Eva Fast، من جامعة بوسطن، أن إناث ذبابة الخلّ Drosophila mouritiana (mouche

du vinaigre) المصابة بالجرثومة تنتج قدراً من البيض هو أكبر بأربع مرات بالقياس إلى الأخرى غير المصابة بها!

لم يتمكن العلماء من كشف سر ذلك حتى الآن، غير أنّهم اكتشفوا آليتين لدى «الوَلْبَخِيّة»: ازدياد عدد الانقسامات في خلاياها الأرومية cellules souches المنتجة لخلايا التناسل (الخلايا المُنْتِشة germinales) والموت المبرمج الذي يتضاءل في البيض النامي.

أخيراً، ربما تكون الجرثومة قد طورت قدرةً خاصة على استهداف البيئة حول الخلايا المنتشة. إلا أن كائنات حية كثيرة مضيفة لهذه الذبابة تعتبر ناقلة لأمراض خمجية خطيرة، من بينها الدودة المسوودة nématode التي تسبب داء الخيطيات filariose[4] الذي يصيب أكثر من ١٢٠ مليون شخص في العالم. ويمكن أن يتيح فهم فعْل الجرثومة بشكل أفضل التقليلَ من قدرة ناقلاتها على التكاثر وبالتالي من انتشار هذه الأمراض.

يرقة تشلّ دعسوقةً لتجعلها ترساً حياً

يمارس الزنبور المسمى Dinocampus coccinellae تلاعباً شديد التعقيد للتكاثر وحماية ذريته في الوقت نفسه. تبيض الأنثى في الواقع بيضتها الوحيدة في جوف دعسوقة مبقّعة تعيش في أمريكا الشمالية اسمها Caleomegilla maculate. تنمو يرقة الزنبور بعد ذلك في داخل الدعسوقة وتأكل نُسُجَها، ولكن من دون أن تقتلها أبداً. وبعد عشرين يوماً، وحينما تكون قد وصلت إلى حجم مضيفتها تقريباً، تنسحب من جوفها تاركةً فيه إفرازات تشلها. ثم تنسج شرنقةً بين قوائم ضحيتها مما يوفر لها ملاذاً كاملاً.

ووفقاً للفريق الفرنسي – الكندي، برئاسة «فريدريك توماس» Frédéric Thomas، من «مختبر أمراض معْدية ونواقل» بجامعة «مونبلييه» بفرنسا، فإنَّ هذه الإستراتيجية ليست بلا مخاطر بالنسبة للزنبور، الذي يتوجب عليه باستمرار «الاختيار» بين تكاثر وحماية. فمن جهة، يحتاج إلى موارد الدعسوقة لإطعام يرقته، ولكن عليه من جهة أخرى أن لا يستنفدها كي يترك لها احتياطيات لفترة «الحراسة والمراقبة» خلال الفترة التي لا تعود الدعسوقة تتغذى خلالها بعد شللها.

هذا التلاعب الدقيق مفاجئ مرتين، أولاً لأن اليرقة تعمل على التحكم بجسم مضيفتها بعد انسحابها منه بعد أن أودعت فيه إفرازاتها؛ وثانياً لأنه قابل للانعكاس: في الوقت الذي لا توفر الغالبية العظمى من الزنابير مضيفها، تبقى الدعاسيق التي يحتلها هذا النوع من الزنابير على قيد الحياة؛ والأغرب أن ربعها يستعيد السلوك المعتاد بعد استخدامها بهذا الشكل الغريب.

فُطر يوجه النملة كأنها روبوت

من الصعب بالنسبة لفطر من الفطور أن يصل بوسائله الخاصة إلى مكان ملائم للتكاثر.. لكن الفطر المسمى Ophiocordyceps unilateralis وجد الحل: يستخدم نملةً كناقلة له. وكي يقودها حيث يشاء، يذهب إلى حد قرصنة دماغها! في غابات «البرازيل» و«تايلاند» الاستوائية، تعيش النملة البناءة المسماة Camponotus leonardi في الأشجار، حيث تحفر عشها في الخشب. ولكن إذا ما تلوثت النملة بالفطر فإنها تغادر مأواها الخشبي وتهبط ليلاً إلى مكان محدد يبعد عن الأرض مسافة ٢٥سم تقريباً، ورطب بنسبة ٩٤ أو ٩٥٪ مع حرارة تتراوح بين ٢٠ و٢٥ درجة. والغريب أنها تبدأ هنا بقضم ورقة ثم.. تموت. يتمكن الفطر في الواقع من اجتياح جهازها العصبي كي يستخدم قدرته في الفعل والحركة، حسب تأكيد «ديفيد هوغ» David Hugues من جامعة ولاية «بنسلفانيا». وحين وصوله إلى موقعه المفضل، مستعيناً بهذا الجهاز العصبي، ينتج الطفيلي خيوطاً تلتف حول جثة النملة ويشكل سويقة pédoncule خلف رأسه لإنتاج الأبواغ(*) التي تنتشر وفق حركة الهواء في منطقة مساحتها ١متر مربع. أمَّا الحشرات التي تتحرك في الجوار الملوث فستلقى مصير النملة نفسه! هذا التلاعب مستمر منذ ٤٨ مليون سنة على الأقل، حيث عثر على أثر لقضم نملة في ورقة أحفورية في موقع «ميسيل» بألمانيا. مع ذلك، هناك جوانب غامضة عديدة في هذا التلاعب إذ لا يعرف الباحثون بعد كيف يتصرف الفطر بشكل دقيق ولا سبب موت النملة بعد أن تقضم ورقة.

زنبور يستعمر صرصوراً لإنماء ذريته

هذا السيناريو خليق بفيلم رعب. أنثى الزنبور الاستوائي المسمى Ampulex compressa صيادةُ صراصير مخيفة: تحولها بلا عناء إلى كائنات شبحية مطواعة وتجعلها مسْكناً لتغذية ذريتها. وكي تثبّت الصرصور، تمسكه أنثى الزنبور بفكيها، وتلسعه مرتين، مرة بصدره كي تشلّ قوائمه الأمامية لمدة دقيقة إلى دقيقتين، ومرة برأسه لتخفيف نشاط خلاياه العصبية التي تتحكم بالمشي.

تعود أنثى الزنبور بعد ذلك إلى وكرها بينما يبدأ الصرصور بتنظيف نفسه لمدة عشرين دقيقة تقريباً. وعند عودتها، تسدد ضربة إلى رأس الصرصور، كما لو أنها تتحقق مما حقنته فيه. ومع اكتمال مهمتها، لا يعود الصرصور سوى كائن يتأرجح بين الموت والحياة، وتصبح تحركاته رخوة ومختلة. عندئذ، يمكن لأنثى الزنبور الاستوائي أن تبتر قرون استشعاره وتستخدمها كقشة تتغذى بها من سوائل أحشاء ضحيتها، ثم تجره إلى وكرها وتضع بيضة على إحدى قوائمه. بعد ذلك بيومين، تفقس البيضة وتقوم اليرقة عقب ظهورها بالتهام أعضاء الصرصور من الداخل وهو حي. وتصبح اليرقة بعد التفقيس بأربعين يوماً حشرة بالغة وتخرج من باطن الصرصور الذي يكون قد جف جسمه وهمد نهائياً.

فيروس يميت يرقة في أعالي الأشجار

حالما تتطفل الفيروسة العصوية baculovirus على يرقة القزّية المتباينة bombyx dispsrate (Lymantria dispor)، تتخلى هذه عن عاداتها. وبعد أن كانت تنتقل من شجرة إلى أخرى ليلاً لأكل أوراقها، ومن ثم تختبئ في اللحاء أو في التراب هرباً من الطيور، تعود فجأةً لتبقى في أعالي الأشجار من دون أن تغادرها. وهنا تفارق الحياة سريعاً موجَّهةً من الداخل بخليط من الأنزيمات التي غرستها فيها الفيروسة، وتتحول بعد الموت إلى سائل ينشر في محيطه جسيمات مُعْدية.

وكان فريق «كلي هوفر» Kelli Hoover، من جامعة ولاية «بنسلفانيا»، قد أثبت أن أحد الجينات هو المسؤول عن هذه التحولات. في الواقع، تهبط اليرقة نحو الأسفل من أجل الانسلاخ، لكن الفيروسة

العصوية تحمل الجين المسمى «egt» الذي يثبط هرمون الانسلاخ عند اليرقة. وقد تمَّ التحقق من هذه الفرضية في المختبر حيث وضعت يرقات في زجاجات:

كانت تلك المصابة بفيروس يحمل الجين «egt» الناشط تذهب لتموت عند فم الزجاجة، بينما تلك التي تصاب بفيروس ذي جين «egt» خامل تبقى لتموت في قعرها. إذن، تحدث الفيروسة العصوية بالفعل، لمصلحتها فقط، تغييراً في تعبير جينات اليرقة..

حيوان أوالي يدفع الجرذ إلى فم الهر

جرذ يجتذب القطط. هل هذا موجود حقاً؟

في الواقع، هذا ما يحدث مع القوارض التي تأوي حيواناً من الأوالي اسمه Toxoplasma gondii! تشكل هذه الجاذبية المخالفة للطبيعة وسيلة مريحة لدفع الجرذ إلى فم الهر، حيث يسعى هذا الطفيلي وحيد الخلية من خلالها إلى إكمال دورة حياته تحديداً. وإذا كان يصيب عدداً من أنواع الثديّات، من بينها الجرذ، متكاثراً بطريقة لا جنسية لدى هؤلاء «المضيفين الوسطاء»، فإنه لا يستطيع التكاثر بطريقة جنسية إلا في الجهاز الهضمي للهر، «مُضيفه النهائي». وعندما يجعل الجرذ يستضيفه، تتوافر له الفرص كلها في أن يصل إلى هذا الهدف الأخير المناسب. مع ذلك، يتلاعب الطفيلي بسلوك القارض كي يصل بالشكل الأفضل إلى غايته. وهكذا، لاحظ فريق «باتريك هاوس» Patrick House، من جامعة «ستانفورد» بكاليفورنيا، أنَّ الطفيلي الأوالي المذكور لا يلغي الخوف من الهر وإنَّما يحجبه بجاذبية أقوى!.

• • •

المصدر

Science & Vie, juin 2012.

الهوامش

١- الحيوانات الأوالي شـعبة من المتعضّيات البسـيطة من مملكة الحيوانات تتألف من وحيدات خلية يختلف حجمها من المجهري إلى العياني.

٢- فرضية الملكة الحمراء هي من ميدان علم الأحياء التطوري ويمكن تلخيصها كما يلي: «تطور أحد الأنواع بشكل دائم ضروري للحفاظ على لياقته في أعقاب تطورات الأنواع التي يتعايش معها».

٣- داء المقوسـات toxoplsmose: مرض شائع، مزمن وحاد أحياناً، يؤدي إلى تشوهات في الأجنة، واليرقان وضخامة الطحال والكبد.

٤- داء الخيطيات filariose مرض ينتج عن الإصابة بأحد أنواع الطفيليات التي تنتمي إلى عائلة الخيطيات filarioidae قـد يتظاهر بذات رئة بالحمضـات لوجود الخيطيات في نسـيج الرئة مع تظاهرات أرجية وربوية.

٥- البَوْغ spore: جسـم وحيد الخلايا أو متعدد الخلايا لا جنسـي يمكن أن يكون هاجعاً أو نشيطاً تكاثرياً، وهو مقاوم للبيئة غير الملائمة، وينتج فرداً إعاشياً جديداً عندما تصبح الظروف المحيطة به ملائمة.

مع الناقد الدكتور عبد الله الشاهر

إعداد وحوار: محمد خالد الخضر *

في لقائه يضفي على الجو من هدوئه ما يشعرك بالاطمئنان، وفي نظرته ما يوحي إليك بقدرته وشموليته ومعرفته، وبصمته ما يشعرك بأنك أمام شاعر وناقد ومفكر بحديثه ما يشعرك بأنه محكوم بموضوعية الأديب المتوازن، يأسرك بلقائه ببساطة أفكاره وبإيجابية قراءاته.

له آراء محط احترام وتقدير وأفكار قلما تجانب الحقيقة إنّه الناقد الدكتور عبد الله الشاهر الذي عرفناه أديباً وشاعراً وناقداً ومفكراً سياسيّاً .. عاش حياته بين الدراسة والتدريس ، وهو لا يزال معلماً ومتعلماً ينشد المعرفة أينما كانت.

- ماهو النقد برأيك؟

• النقد هو قراءة للنص الإبداعي بصورة إبداعية بحيث يظهر مميزات النص الإبداعي بطريقة مبتكرة سلبية كانت أم إيجابية ويفترض أن يكون النقد موضوعياً لأن النص الإبداعي شعراً كان أم نثراً هو حالة ولادة لدى المبدع يقوم النقد بتحديد مواصفات وسمات هذه الولادة الإبداعية وهو أي النقد مجال رحب وواسع ويمكن أن يقرأ النص قراءات متعددة تبعا لأرضية الناقد الثقافية وخلفيته الفكرية ولذلك نلحظ اتجاهات عديدة في المجال النقدي

* شاعر وناقد سوري

ولا أقول مدارس نقدية وإنّما هي توجهات نقدية إذ لا يوجد نظرية نقدية عربية بمعناها المتكامل ونأمل أن يكون ذلك لضبط عوامل الفعل الإبداعي كي تكون أكثر قرباً من إحساس ومشاعر المبدع.

- هل أنت مع أن يكون الناقد مؤطراً مدرسياً أي أنه يتبع لمدرسة معينة؟

• بشكل عام النص الإبداعي له وهجه والذي يعطيه ذلك الإشعاع لدى المتلقي أحيانا فالنقد يشتت ذلك الإشعاع أو يكسف وهج النص الإبداعي ذلك لأنّ الناقد ينتمي إلى مدرسة نقدية ما قد لا يتفق مع النص الإبداعي ولذلك أنا لست مع أنّ يكون الناقد تابعاً لمدرسة نقدية وإنّما يفترض أن يكون الناقد موسوعي الثقافة شمولي المعرفة حتى يستطيع أن يحيط برؤية النص الإبداعي أو يشكل حالة مقاربة من النص علماً أنّ بعضهم يرى أن النقد يفسد النص الإبداعي حيث يقولون نحن لسنا مع تفسير الشعر لأنّ تفسير الشعر يفقده وهجه.. إذاً المدرسة بمعناها العام هي حالة تقليدية وتتبع لأسس وقواعد والإبداع هو حالة انفلات تعطي رؤية ربما هي حلم وربما هي تصور وربما هي واقع وربما تكون ومضة خارج إطار المعقول فعلى الناقد أن يلتقط هذه الحالة بحسه لا بمدرسته

- ألا ترى أن الناقد الذي يمتلك موهبة الشعر أو القصة هو أقدر على نقد الجنس الذي يمتلكه؟

• هو على وجه الخصوص لا يمكن أن يكون ناقداً إذا لم يكن يمتلك موهبة الإحساس بالنص فهو شاعر وإن لم يكتب الشعر وهو قاص وإن لم يكتب القصة وبالتالي لا أقول أن هناك حالة تطابق في الإحساس بين الشاعر والناقد أو القاص والناقد وإنّما هي حالة دوران حول الرؤية المشتركة بين المبدع والناقد لذلك يكون الناقد مبدعا والمبدع ناقداً من خلال الناقد أكثر إبداعاً لأنه يوسع رؤيته وينشر فكرته ويعطيها مسارات متعددة ربما لا يستطيع المبدع أن ينشرها لأن المبدع يعطي ومضة والناقد يوظف هذه الومضة باتجاهات مختلفة ويفسرها ومن هذا ليس الشاعر أو القاص الذي يملك الموهبة فقط وإنّما الناقد هو موهوب ومفسر وحالم ومحقق ومبدع ومحلل كل ذلك يأتي على خلفية النص الإبداعي الذي لو عرض على منتج النص الذي هو المبدع لما استطاع أن يقول ما قاله الناقد

- هل ترى أن النقد واحد لجميع الأجناس الأدبية أم لكل جنس نقده وناقده؟

• في الحقيقة للشعر خصوصيته وهذه الخصوصية تكمن في أن النص قد لا يفسر

من منتجه وقد لا يعرف الشاعر كيف أتته هذه الفكرة ومن أين هي أتت فهي حالة بين الواقع والخيال وهي ومضة تنزل على الورق لذلك أرى أن للشعر خصوصيته في النقد وقد يحتمل النص الشعري إملاءات متعددة في النقد.. لماذا؟

لأنَّ النص الشعري ليس مسؤولاً عن تحديد زمان ومكان وموقع فهو مسؤول عن كلمته وعن فكرته وبالتالي يحلق كثيراً وهنا تكمن قدرة الناقد على ملاحقة هذه الومضات الشعرية وكيف نزلت هذه الإيحاءات من عالم الفكر إلى ساحة الورق من ثم إلى أفواه الناس هذه الرؤية تختلف عن الأجناس الأدبية الأخرى فالقصة والرواية مثلاً هي شكل واقعي وحركة مجتمعة وبالتالي لها أرضية وزمان ومكان وأناس يتحركون والناقد هنا محكوم بشخوص هذه الرواية أو تلك القصة وهو يقيمها من خلال تداخلات الحدث الروائي أو القصصي إذا لديه مستندات أوجدها القاص أو الروائي وأسقط عليها ما يريد لكن الناقد لا يمكن أن يخرج عن هذه الأطر التي رسمها منتج الرواية أو القصة بينما الشعر فضاء واسع يستطيع الناقد كما الشاعر أن يحلق في عالم الشعر كما يحلق في عالم النقد وكذلك المسرح والفن التشكيلي ولكن يبقى لكل قراءته وفعله على الواقع وهذا يتسع لقدرة الناقد على قراءة النص واستطالاته.

- نرى الآن أن الشعر العربي قد تطور من الوقوف على الأطلال إلى السريالية مروراً بالواقعية والرومانسية فهل يجاري النقد حركة الشعر أم أن المدارس النقدية مازالت على ما بدأت به؟

• طبعا التطور الذي حصل على القصيدة تطور لافت وهام بالانتقال من القصيدة العمودية إلى القصيدة الحديثة أو قصيدة التفعيلة أو النثرية لها تداخلاتها الكثيرة ويجب على النقد أن يجاري هذه التداخلات وأن يقرأ أولاً ملامح تطور القصيدة ففي العمودية بناؤها وغرضها أصبح معروفا لدى الناقد وهو الوقوف على الأطلال ثم التغزل بالحبيبة وذكر مآثر الشاعر وعشيرته ثم يختم القصيدة برؤيته الخاصة.. هذا البناء لم يعد موجوداً في القصيدة الحديثة.. فالحديثة تداخلت فيها رؤى كثيرة وعالجت قضايا نفسية واجتماعية ووطنية وقومية وعالمية وطرحت هموما قد شارفت رؤى نظريات كبرى ومن هنا جاء تعقيد القصيدة الحديثة ورمزيتها

وبالتالي القصيدة الحديثة هي حالة تحدي للناقد إذ يتوجب على الناقد فك رموز هذه القصيدة لأنها قد تكون (شيفرات) وإشارات وعليه أن يكون مهندساً للكلمة يعرف كيف يوصل بين جمل هذا النص كي يصل إلى الفكرة التي يطرحها الشاعر والتي كللها إمَّا بالغموض أو بالرومانسية أو حتى بالسريالية وهنا أقول أن مهمة الناقد مهمة صعبة للقصيدة الحديثة وعلى الناقد أن يكون مسلحا بكل النظريات الفكرية والعلمية حتى يصل إلى كنه فكرة القصيدة بينما كانت القصيدة في السابق واضحة المعالم موزونة اللغة مفعمة أمَّا في القصيدة الحديثة فهي غالبا ما تكون غامضة اللغة مشتتة الوزن ملغمة وليست منغمة.

- القصيدة السريالية ما هي وأين مكانتها وماذا نريد من هذه القصيدة وهل لديها مقومات النص الإبداعي؟

• أولاً السريالية هي مدرسة فلسفية وهذه المدرسة في مجملها لا تعتمد الإيضاح وإنَّما تنحو إلى التلميح وعن بعد ولذلك كان الشعر السريالي صعب المنال بعيد الرؤى أقرب إلى الفلسفة وعمق الفكرة منه إلى رفاهية الكلمة ونغمتها وقد نتج عن هذه المدرسة السريالية في الشعر آراء كثيرة في مجملها لا ترى في إيضاح الصورة إلا تسطيحاتها وهي تغلب عمق الفكرة والإشارة أكثر من التصوير ولذلك ظهر ما يسمى بالبعد الثالث في الصورة الشعرية وهو يعمل إلى حد التعقيد أو ربما على الناقد أن يبحث عمَّا يريد الشاعر.. أنا لست مع الإغراق إلى هذا الحد فالشعر تحديداً إحساس يفترض أن ينتقل من الشاعر ليحقق شعوراً في المتلقي في تلقائية وانسجام أمَّا إذا احتاج الشعر في تفسيره إلى تأن وعمق في الفكرة وقواميس أصبح فلسفة وليس شعراً فالشعر حالة انسيابية وتلقائية قد لا يعرف الشاعر كيف يخرجها لكنها خرجت ولذلك زيادة الإغراق والإمعان في التسوية على الفكرة هو ابتعاد عن روح الشعر واقتراب من ضبابيته وقد لا يستطيع أن يحقق الشاعر الفكرة التي يريد فيلجأ إلى تلك السريالية

- قلت فلسفة أحياناً تدخل الفلسفة في الشعر وفي الأدب بشكل عام.. هل ترى أن هذا الأمر شكل حالة إبداعية عليا أم أنه كان عائقاً، أبو العلاء المعري أنموذجاً؟

• الفلسفة أم العلوم وبالتالي لا يمكن أن يكون المرء مثقفاً مبدعاً من دون أن يكون

فيلسوفاً أو يقترب من الفلسفة وهذا الأمر لا يعني أن الفلسفة مقتل الإبداع وإنّما هي توسع مدارك المبدع لكن الخلاف في المدارس الفلسفية له نتائجه. فالسريالية إغراقٌ في الإغراق وهي فلسفة الفلسفة والشعر فيها يحتاج إلى ترجمة بينما نرى فلسفة الشعر عند أبي العلاء واضحة المعالم مبنية على الحكمة وهي التي بقيت متداولة وحية بين الناس وهذا ما نريده من الفلسفة أن تمد الشاعر والمبدع بمنهجية رحبة تصل إلى الناس وتكون مؤثرة وإيجابية لا منفرة وسلبية وهذا هو الفرق بين المنهجين اللذين ينطويان تحت مسمى الفلسفة وهناك فرق بين أبي العلاء وأدونيس وكلاهما ينطلق من قاعدة فلسفية فشتان بين هذا وذاك فالأخير يعتمد في فلسفته البعد الثالث أمّا أبو العلاء ففلسفته تعتمد على الواقع.

- هناك من يقول أنّ الرواية كجنس أدبي أصبحت منافساً للشعر ترى هل توافقهم هذا الرأي أم أن الشعر ما يزال يحتفظ بمكانته المتقدمة لدى الشارع العربي

● لاشك أن الأمة العربية هي أمة الكلمة والكلمة لدى العرب فعل مؤثر صيغ بشكل شعري وهذا يؤكد على مكانة الشعر لدى العرب فالعرب تؤثر فيهم الكلمة المنمقة الموزونة وتدغدغ مشاعرهم والذي حصل أن هذه الفترة هي فترة نقاء الذات وصفاء الحياة والآن اختلطت الهموم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية فاختلطت الذائقة ولم يعد الشعور بذلك يمتلك القدرة ذاتها عند المتلقي بسبب ضغوطات الحياة وهنا برزت الرواية كجنس أدبي يتصدى للإشكاليات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وشخصها ولامس فيها مشاكل المجتمع فتقدمت الرواية لأنّها أصبحت صدى لحياتهم اليومية وتراجع الشعر لأنه شعور يحتاج إلى شيء من الصفاء والاستقرار والنقاء ولذلك حالة الرواية هي حالة قراءة لهموم اجتماعية وصورة لكل واحد منا أمّا الشعر وإن كان في بعضه حالة وخز وتأنيب للواقع لم يعد هو الحالة المثلى لمشاكل الحياة فبرزت الرواية لتوصيف وتوظيف ومطالبة أيضاً وربما في كثير من حالاتها طرح حلول لمشاكل اجتماعية أو أنها إيحاءات لحلول لتلك المشاكل فضغط الحياة والواقع بأنواعه غيّر من الذائقة الشعورية للمتلقي في ظل إغراق الشعر بالحداثة وهذا ما يؤكد أن الأدب انعكاس للواقع.

الدكتور عبد الله الشاهر

- شاعر وناقد من سورية عضو اتحاد كتّاب العرب.
- دكتوراه بالعلوم السياسية.
- له في الشعر: ديوانان:

الأوّل «تداعيات قلقة».

الثاني «بوح».

- في الدراسات: الاتجاهات الفكرية والسياسية في الوطن العربي.
- في النقد:

١- البعد الاجتماعي للحب العذري.

٢- مظفر النواب ملامح ومميزات.

٣- الأثر النفسي للون.

٤- أثر التدخين على جيل الشباب.

٥- العنف السياسي آثار ونتائج.

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ✽

لوحات ووثائق في معرض ذاكرة وطن:

افتتحت الدكتورة لبانة مشوّح وزيرة الثقافة معرض ذاكرة وطن الذي ضم أكثر من مئة لوحة تشكيلية زيتية وضوئية وعدد كبير من الوثائق التاريخية التي تضم إلى جانب الصور كتباً ونسخاً ورقية من صحفنا الرسمية فضلاً عن نسخة من القوانين التي كان معمولا بها في سورية منذ أكثر من مئة عام، وذلك بمشاركة ومساهمة عدد من الموثقين هم محمد حسان العظيم.. علي خلف.. حيان فرجاني.. يحيى ركاب والفنان محمود سالم، وبالتعاون مع سيدات سورية الخير.

وعبرت المعروضات التي تضمنها المعرض عن أهمية العمق التاريخي والبعد الحضاري لسورية باعتبارها نبعاً ثقافياً غزيراً استطاع عبر الزمن أن يواكب برجاله ونسائه المعطيات الجديدة للحضارة وأن يصهرها بحيث حافظ على بصمة سورية خاصة في جميع النواحي العلمية والثقافية والاقتصادية والفنية.

وأوضحت الدكتورة مشوّح أن أهمية المعرض تتجلى في الجهود المبذولة من قبل مجموعة سيدات سورية الخير اللواتي تركن بيوتهن وأعمالهن رغم مسؤولياتهن الكبيرة في المجتمع لجمع هذا التراث حباً بالوطن وحزناً على ما يحدث فيه ورغبة في الانتقال من هذه المرحلة الصعبة إلى أخرى بناءة.

وقالت وزيرة الثقافة: «إنَّ أهمية المعرض تأتي أيضاً من قدرته على إنعاش الذاكرة

✽ أديب وباحث في التراث العربي من (سورية).

فروّاده سيدركون عمق التاريخ الذي ينتمون إليه وأصالة حضارتهم وعظمة هذا الوطن وما بذل فيه من جهود للبناء ليعاودوا البناء من جديد».

من جهتها أوضحت السيدة سمر الحاج.. أن المعرض يحتوي على ملامح من مقومات سورية كبلد للحضارات والتاريخ وأرض الأديان وهناك من يحاول المساس بأهمية هذا العمق الثقافي السوري من دون أن تمتلك بلاده أي إرث حضاري يذكر.

وأضافت الحاج.. ثمة حسد كبير لهذا البلد العريق الذي على الرغم من مرور ما يقارب السنتين من الوجع والألم الكبير الذي يعانيه فإنَّ الثقافة فيه لا تتوقف وهذا دليل عافية وخير مبينة أنَّ سورية التي لا تنسى أبناءها ولا تاريخها ولا حضارتها دنت من ساعة النصر.

بدورها أوضحت نيللي ميرو من سيدات سورية الخير.. أنَّ سورية تمر بما هو أكبر من الحرب قائلة: «لهذا السبب ارتأينا عبر الجزء الثاني من معرض ذاكرة وطن أن نذكر بأنفسنا وحضارتنا وتاريخنا المجيد الذي نفتخر به من معطيات وأشخاصاً وقادة وعظماء مركزين على جماليات ذاك التاريخ ونقاط القوة فيه».

وعن كيفية اختيار المواد الفنية والتوثيقية المشاركة أوضحت ميرو.. كان لدينا حيرة كبيرة بسبب الغنى الكبير لتراثنا وتاريخنا لذلك ركزنا على ما يؤكد عظمة سورية ويعلل سبب صمودها أمام جميع الأزمات التي تعرضت لها منذ القدم وحتى الآن.

بدوره وعن مساهمة نادي أصدقاء الكاميرا أوضح الفنان محمود سالم أن مشاركتهم تمت بخمسين عملاً فوتوغرافياً لخمسين فناناً تعبر عن سورية التاريخ والإنسان والحضارة موضحاً أنهم يريدون من خلال تلك المشاركة التأكيد على جمال سورية وقدرتها على تجاوز المحن على مرّ التاريخ، وقال: «إنَّ سورية أقوى من جميع المحن وستبقى قادرة على قهر جميع الصعوبات والعقبات التي تقف في وجه تقدمها لأنها على مرّ الأزمان كانت منارة للحضارة وستبقى كذلك بجهود أبنائها ومبدعيها»(١).

مراكش تحتضن «الإرث العربي الأندلسي في الثقافة الأوروبية»:

مراكش (المغرب): شكل موضوع «الإرث العربي الأندلسي في الثقافة الأوروبية» شعار الدورة الثانية للقاء الأورو متوسطي الذي نظمته مدينة مراكش بمشاركة تلاميذ من منطقة بويي سانت بول (فرنسا) ونظرائهم بمعهد العمراني بالمدينة الحمراء.

وتهدف هذه التظاهرة المنظمة، على الخصوص، من قبل مركز الثقافة الأوروبية بسانت جون أنجيلي بفرنسا، إلى تثمين جميع ثقافات العالم وتشجيع الحوار الأورو متوسطي.

وحسب مدير المركز ألان أونونوالد، فإن الحوار الأور متوسطي وعلى غرار الحوار بين الديانات يعتبران أساسيين لمستقبل مجتمعات بلدان المنطقة وازدهارها وتطورها، مشيراً إلى أنه على امتداد ٢٥ سنة ومركز الثقافة الأوروبية يؤكد على أن التبادل وتقاسم الرؤى وتعزيز التفاهم لن يتم إلا من خلال اللقاءات المتبادلة بين الشباب من مختلف الثقافات.

وأضاف إن الروابط التي تنسج بين الأشخاص تعد وحدها الكفيلة بإرساء الآليات الضرورية لدحض الأحكام الجاهزة والمسبقة والهدامة المبنية على أسس غير سليمة وكذا التنافر والتصادم الناجمين بالأساس عن عدم معرفة الآخر.

وأشار إلى أن مركز الثقافة الأوروبية طور منذ سنة ١٩٨٩م أسلوب عمل غير مسبوق في أوروبة وبلدان حوض المتوسط يتوخى تشجيع والنهوض بمفهوم المواطنة المسؤولة والتعرف على الثقافات السائدة بدول المنطقة.

من جهتها، أوضحت المديرة المساعدة المكلفة بالتواصل بمركز الثقافة الأوروبية غيشلي ديدون، أن هذه المبادرة موجهة إلى الشباب بالسلك الثانوي التأهيلي الذين لم تتوافر لهم إمكانية متابعة دراسات عليا، مبرزة أن التربية على الوعي بالرهانات المتعلقة بمستقبل الحوار بين الثقافات وبلدان المنطقة تبقى ذات أولوية كبرى.

وذكرت أن المركز أسهم منذ ٢٠ سنة في إحداث شبكة مراكز للثقافة الأوروبية والأور متوسطية بألمانيا وإيطاليا ورومانيا وتونس، عملت على تنظيم لقاءات تتمحور حول الثقافة والمواطنة، مؤكدة أنه «من المهم بالنسبة لنا مواصلة هذا العمل الذي يتيح إمكانية النهوض ببناء مواطنة متعددة الجنسيات».

وخلال مقامهم بالمدينة الحمراء، سيقوم التلاميذ الفرنسيون بزيارة عدد من المرافق بالمدينة من بينها المدينة القديمة ومنطقة النخيل وحدائق المنارة وساحة جامع الفنا والأسواق، كما سيزورون وحدة لصنع الشاي ومنطقة أوريكة.

ويتضمن برنامج هذه الدورة، أيضا، تنظيم ورشات موضوعاتية حول تعدد الثقافات ولقاءات مع عائلات مراكشية ومع عميدة كلية الآداب بمراكش، فضلاً

عن إحياء حفل فني عربي أندلسي، وتسليم شواهد للمتدربين.(٢)

اكتشاف مدينة أثرية سودانية على الطراز المعماري النوبي:

الخرطوم - توصلت بعثة الآثار السويسرية بالتعاون مع هيئة الآثار السودانية إلى اكتشاف مدينة أثرية كاملة في شمال السودان بنيت على طراز معماري متفرد لا يوجد له مثيل في حضارات حوض النيل التي تمَّ اكتشافها ولم يعرض للعالم من قبل.

وقال بروفيسور شارلي بوني رئيس فريق التنقيب عن آثار كرمة، في تصريح لوكالة الأنباء السودانية سونا: «إنَّ المدينة تقع في منطقة «دوكي غيل» على بعد كيلو متر واحد من منطقة الدفوفة الأثرية وكانت عاصمة لمملكة كرمة النوبية».

وأضاف إن أهمية هذا الاكتشاف تكمن في أن الاكتشافات السابقة كانت أشبه بالأسلوب المعماري الفرعوني الذي يعتمد على المثلثات والمربعات.

أمَّا مدينة «دوكي غيل» فقد ظهر فيها الأسلوب النوبي الدائري لأوَّل مرة حيث بقيت آثاره واضحة في المعابد النوبية التي لم يحطمها الجيش الفرعوني الغازي خوفاً من الآلهة النوبية بينما قام بتدمير القصور فظهرت هذه الفوارق جنبا إلى جنب لأوَّل مرة.

وعبر بروفيسور بوني عن سعادته بهذا الاكتشاف قائلاً «هذا الاكتشاف أسعدني كثيراً فقد كنت أسعى لفهم الحضارة النوبية السودانية كحضارة أصيلة لكنها لم تجد ترويجاً مثل الحضارة الفرعونية في مصر».

وأوضح بروفيسور بوني للوكالة نفسها أن للاكتشاف أهمية أخرى إذ تبين «إن المدينة كانت مقصداً لزوَّار من مناطق بعيدة مثل البحر الأحمر ودارفور وكردفان الأمر الذي قد يعني تجمُّع ملوك تلك الحقبة التاريخية لإظهار القوة أمام الجيش المصري مما يجعل لهذا الاكتشاف أهمية للسودان ككل وليس شماله فحسب».

وأضاف إن الحصون التي تحيط بهذه المدينة ليس لها مثيل فقد بلغ حجمها ضعف حجم قلاع بوهين جنوب حلفا التي شيدها فراعنة الأسرة السابعة لحماية الحدود الجنوبية لدولتهم مما يشير أيضاً لقوة الدولة النوبية ولعزمها على الدفاع عن بلدها ضد الغزو الخارجي.(٣)

تاريخ اليمنيين البريطانيين في معرض:

افتتح في مركز القطان الثقافي غرب العاصمة البريطانية لندن معرض متعدد الأساليب والوسائط المرئية والمسموعة، يقدم من خلال فيلم وثائقي ومقابلات وصور، وبورتريهات، قصة آلاف البحارة

اليمنيين، الذين حطوا على مدى المئة عام الماضية في مدينة «ساوث شيلد» في شمال شرق انجلترا، ليتخذوا منها مستقراً.

ويهدف المعرض إلى تقديم تاريخ منسي، لم يسلط عليه الضوء سابقاً، من خلال قصة ١٤ بحاراً يمنياً هم آخر من بقي من الجيل الأوّل، الذي استقر في تلك المدينة الصغيرة.

وتروي أعمال المعرض قصصاً منسية عن ذلك الجيل، من أشهرها قصة نحو ٨٠٠ بحار يمني قتلوا في الحرب العالمية الثانية، وقصة احتجاجات العمال التي شاركوا فيها، وصولاً إلى قصة زواج أسطورة الملاكمة محمد علي كلاي في أوّل جامع بني في ساوث شيلدز.

وتشير الوثائق التاريخية إلى أن وجود اليمنيين في بريطانيا يعود إلى العام ١٨٦٠م، حيث بدأت وفود المهاجرين اليمنيّين من عمّال وبحّارة تستقرّ بمدينة ساوث شيلدز الواقعة على ضفّة نهر تاين، ومنذ مطلع العام ١٨٩٠م، تحشّد هؤلاء العمّال اليمنيّون وازدادت أعدادهم حتى راحت تتأسّس لهم تجمّعات اجتماعية في ساوث شيلدز وكارديف وليفربول، وكان البريطانيون آنذاك يطلقون عليهم تسمية «رجال القاموس» على اعتبار أن اليمن هو مهد لغة العرب.

وقد تعرّض هؤلاء اليمنيّون إلى كثير من المحن في البحث عن السكن، وعانوا من مظاهر التمييز العنصريّ رغم ما كان لهم من دور ومساهمة فاعلة في تنشيط أعمال الموانئ، إذ عملوا بحّارة وعمّالاً على سطح البواخر أو فنيّي تشغيل المحرّكات وبلغ عددهم مع نهاية الثلاثينيّات من القرن الماضي ما يزيد عن ٣٠٠٠ عامل.

وللتخفيف من شدّة أزمات هؤلاء العمال، أسّس اليمني علي سعيد عام ١٩٠٩م نادياً لهم يجتمعون فيه سمّاه BOARDING HOUSE في ضاحية هولبرون، وهو ما شجّع فيما بعد على ظهور تنامي عدد المآوي العربية حتى بلغ عددها ثمانية عام ١٩٢٠م.

ولمّا فرض J.B Fye وهو أحد المسؤولين بالموانئ البريطانية ضريبة بمقدار ٢ جنيه إسترليني على اليمنيين مقابل إبحارهم، وتحريض عمال الموانئ الأوروبيين ضدّهم، دخل هؤلاء المهاجرون في اشتباكات عنيفة عمّت شوارع هارلبون ساوث شيلدز، وطرد بعضهم من محلات عملهم وسكناهم، واستمرّت هذه الاضطرابات من ١٩١٩م وحتى ١٩٣٠م وعرفت بثورة اليمنيين في بريطانيا.

وتكشف الأعمال المعروضة تاريخ وتقاليد تلك الأقلية، بوسائل تخرج عن الأساليب الفنية التقليدية التي تتعامل عادة مع توثيق مثل ذلك التراث الاجتماعي، وتقدم الأعمال الفنية مجتمعة وثيقة تاريخية بأسلوب فني يعرض قصة هجرة نادرة تمتد من عصر الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية إلى ما بعد تلك المرحلة، وصولا إلى ما بقي من إرثهم اليوم.

وتضمن المعرض عرض فيلم «ملك ساوث شيلدز» الذي يروي قصة اليمنيين البريطانيين، وفيه يتحدثون عن لقائهم بالملاكم العالمي محمد علي كلاي حين زار المدينة وتمَّ عقد زواجه في جامع الأزهر، أوَّل جامع بني في بريطانيا.

وكان مشروع المعرض قد انطلق في عام ٢٠٠٥م بمبادرة من المخرجة السينمائية تينا غراوي، التي أسست وتدير مشروع «الجسر + النفق». درست غراوي في الولايات المتحدة وفرنسا وتدرس حالياً الإعلام الرقمي في مدينة نيوكاسل، التي تقع عند مصبّ نهر تاين قرب مدينة ساوث شيلد، وقد رشحت هذا العام لجائزة بافتا.(٤)

اكتشاف تابوت مغلق لطفل:

اكتشف علماء الآثار الإسبان في مصر تابوتاً لطفل بقي مغلقاً لأكثر من ٣٥٠٠ عاماً، إضافة إلى كثير من الآثار التي قد تكشف عن بعض النواحي المخفية من الحياة في مصر القديمة.

واكتشف التابوت في «ذراع أبو النجا» وهي مقبرة مصرية قديمة تقع في وادي الملوك على الضفة الغربية لنهر النيل في محافظة الأقصر جنوبي البلاد، حيث كانت البعثة الإسبانية تجري عمليات التنقيب برئاسة خوسيه مانويل غالان، ووجد بجوار التابوت مجموعة كبيرة من الأواني الفخارية، إلى جانب مجموعة من تماثيل الأوشابتي المصنوعة من الخشب والملفوفة بلفائف من الكتان..

ويقدر عمر التابوت أكثر من ٣٥٠٠ عام، ويبلغ طوله قرابة ٩٠ سنتيمتراً وعرضه ٢٨ سنتمتراً وارتفاعه ٢٠ سنتمتراً و تم طلاء خشبه باللون الأبيض، وهو خال من النقوش أو الرسوم، وكشفت معاينة محتوى التابوت بالأشعة أنه يحوي رفات طفل يقارب عمره الخمس سنوات.

وقال عالم الآثار غالان: «هذا اكتشاف هام جداً، لأن القضية تتعلق بتابوت غير ملموس، شأنه شأن الكثير من الأدوات المجاورة له والتي قد تضيف لنا الكثير من المعلومات حول هذه الفترة من تاريخ مصر القديمة والتي قلما نعرف عنها حتى الآن.» وأضاف غالان: «إن

اللقى المحيطة بالمقبرة تشير إلى أن المكان قد يكون مخصصاً لأفراد العائلة الحاكمة، إلا أننا لم نحدد بعد هوية الطفل المدفون لعدم وجود أي نقوش على التابوت».

وأوضح الدكتور محمد إبراهيم، وزير الدولة لشؤون الآثار في مصر أن البعثة الإسبانية وجدت التابوت أثناء أعمال التنظيف الجارية بالفناء المكشوف في مقبرة «جحوتي» والذي يعد من أهم كبار رجال الدولة في عصر الملكة «حتشبسوت».

وبدأ التنقيب في المنطقة منذ شتاء عام ٢٠٠٢م وخلال ١٢ موسماً من التنقيب تمَّ اكتشاف جداول للطلاب، وقبر المقاتل إيكير، غرفة مدفن «جيحوتي» التي زيِّنت جدرانها برموز هيروغليفية من «كتاب الأموات».(*)

فنانون في مهرجان النحت بدبي:

انطلقت في دبي فعاليات الدورة الأولى لسمبوزيوم «نحت دبي ٢٠١٣م» الذي نظمته ندوة الثقافة والعلوم بمشاركة فنانين يمثلون ١٣ دولة عربية، وهي جمهورية مصر العربية، لبنان، سلطنة عمان، المملكة العربية السعودية، السودان، ليبيا، البحرين، قطر، فلسطين، سورية، الكويت، وتونس، فضلاً عن دولة الإمارات العربية المتحدة البلد المنظم.

وقال سلطان صقر السويدي رئيس مجلس إدارة الندوة: «تهدف إقامة مثل هذه الفعاليات إلى تعزيز دور الدولة في مجال الفنون التشكيلية والإبداعية، وبيان قدرة الفن الإماراتي على مواكبة التطورات التي يشهدها العالم، وخلق حراك في مجال فن النحت، وتبادل الثقافات والخبرات الفنية، وبناء لبنة لهذا الفن في الدولة، إضافة إلى تفعيل دور دبي كإمارة رائدة في مجال الفنون ولاسيما فن النحت، والاحتكاك بأساليب فنية جديدة من خلال فنانيّ العالم العربي».

وندوة الثقافة والعلوم «حريصة على تنويع نشاطاتها لتشمل النحت ومواكبة اتجاهاته الجديدة وإضافة هذا اللون إلى الحركة الثقافية النشطة في الإمارات، كما تهدف الندوة إلى تجميل مدينة دبي بأعمال نحتية ذات قيمة فنية عالمية كجزء من الاستعداد لفعالية اكسبو ٢٠٢٠م».

وتضمن برنامج السمبوزيوم والفعاليات المصاحبة، ورش عمل يومية بحضور الفنانين المشاركين، وأخرى موازية خاصة بفئة الطلاب، وضمت قائمة الفنانين المشاركين في سمبوزيوم «نحت دبي ٢٠١٣» الفنانين عبد الرحيم سالم، ومطر بن لاحج من الإمارات العربية المتحدة، ومنصور المنسي من جمهورية مصر العربية، وأنطوان بصبوص

من لبنان، وأيوب البلوشي من عمان، وعلي الطخيس من السعودية، وخالد مرغني من السودان، ومحمد بن الأمين من ليبيا، وعلي المحميد من البحرين، وأحمد السبيعي من قطر، وأحمد كنعان من فلسطين، ونسرين الصالح وسهيل بدور من سورية، ومحرز اللوز من تونس. واختارت اللجنة التحضيرية الفنان سامي محمد من الكويت ضيفَ الشرف للدورة الأولى باعتباره أحد الفنانين الكويتيين والعرب المميزين ويعتبر جزءاً أساسياً من بدايات الحركة التشكيلية الكويتية، وأيضا لما يتمتع به الفنان من خبرة عريقة وإنجازات واسعة وعطاء مميز في هذا المجال الفني.(٦)

معرض رحلة بمتحف الشارقة:

استضاف متحف الشارقة للحضارة الإسلامية معرض «رحلة» الذي أقامته الفنانة الألمانية الهولندية الشهيرة «الفيرا فيرشيه»، وهو المعرض الأوّل من نوعه الذي يقام في الشرق الأوسط بإمارة الشارقة، ويجمع خلاصة خبرات وعمل أنجزتها فيرشيه تمتد إلى ١٠ سنوات.

وأشادت إدارة متاحف الشارقة بما قدمته فيرشيه من تصاميم فريدة مستوحاة من نماذج الهندسة الإسلامية، في معرضها الذي حمل عنوان «رحلة» وبما تضمنه من دلالات على أسفار البدو في الأزمنة القديمة لغرض اكتساب المعرفة المطلقة، بشكل يميزها عن الطرق المعاصرة المعتادة في الأسفار السياحية لزمننا الحالي.

من جهتها قالت الفنانة الفيرا فيرشيه: «أدركت من خلال العمل مع الرمال أنها ليست فقط مجرد تراب ومادة خامة فحسب، ولكنها تتغير جذريًا عند نخلها، فتتغير الألوان، وتتحرر الرمال من صفتها الشبيهة بالتراب، وتُشع بلمعان داخلي، إذ إن العينات تأتي من جميع أنحاء العالم، وتمثل أكثر من ألف مكان بينها أماكن مقدسة، وأماكن ذات أهمية تاريخية، ويسعدني أن أعرض أعمالي في الشارقة لما عرفت عن جمهورها من حب للمعرفة، ورغبة في الاطلاع على التنوع الفني الثقافي لمختلف أنحاء العالم».

هذا ووجهت فيرشيه الدعوة لمشاهديها لكي يتأملوا «الرحلة» بغير الطريقة النمطية المعتادة في الأسفار المصاحبة لعصرنا الحالي «عصر السرعة»، وأن يسيروا على خطا من

يسافرون من أجل السفر، لاسيما الذين تكون لرحلاتهم معانٍ روحية في منتهى المتعة والخيال، والنظر إلى العمل الفني باعتباره تجربة تأملية تطوف العين من خلالها بساحة النماذج المعروضة، وتستريح لفترة وجيزة للتفكير مليًا ثم تعاود الرحلة التي يجتاحها الفكر والتأمل لتكوين صورة حقيقية عن المادة المعروضة.(٧)

أعمال بيكاسو المنسية في طشقند:

عرضت في متحف طشقند بجمهورية أوزبكستان مجموعة من الأعمال الفنية النادرة المصنوعة من السيراميك للرسام والفنان التشكيلي الإسباني المعروف بيكاسو والتي لم تعرض منذ أربعين عاماً، حيث وصف العاملون في متحف طشقند للفنون الأعمال الاثني عشر بأنها تعتبر كلها قطعا فنية رائعة ونادرة.

وكانت تلك الأعمال الفنية قد عرضت في طشقند في الستينيات لكنها وضعت لاحقا في مخزن ولم يعرف لماذا امتنع المتحف كل هذه الفترة عن عرض تلك القطع الفنية، ويرى البعض أن السبب ربما لأنَّ المعنيين قد نسوا أنَّها موجودة أصلا. ولم يعلم معظم العاملين في المتحف أن القطع الفنية كانت بحوزة المتحف.

وقد كانت هذه القطع الفنية المصنوعة من السيراميك المعروضة في متحف طشقند الفني ملكاً لصديق بيكاسو، الرسام الفرنسي فرديناند ليغر وزوجته ناديا. وعندما توفي ليغر عام ١٩٥٥م فإن زوجته ورثت تلك القطع الفنية وقررت أن تهبها لمتاحف الاتحاد السوفييتي السابق، وكان إن بعض العاملين في المتحف اكتشف وجود القطع الفنية عام ٢٠٠٤م ولأن الاتحاد السوفيتي لم يكن قائماً حينها، لم يدَّعِ أحد ملكية تلك القطع الفنية النادرة. وتشتهر أوزبكستان بصناعة الفخار وأعمال السيراميك وهي معروفة بجمع الأعمال الفنية النادرة والتي كان يقتنيها في السابق الأغنياء الروس ويخزنونها هناك للحفاظ عليها خصوصا أثناء الحرب العالمية الثانية.(٨)

جامايكا تحيي عيد ميلاد بوب مارلي:

تحتفل جامايكا كل عام بذكرى ميلاد أسطورة غناء الريفي للعالم «بوب مارلي» وتعتبره عيداً وطنياً يحيي ذكراه الشعب كل عام.

ويعد «بوب مارلي» أسطورة جامايكا وأشهر أعلامها الذي أثار جدلاً كبيراً في حياته واعترف الذواقة الموسيقيون بعبقريته الموسيقية بعد وفاته، وهو أهم مطرب في تيار الريغي الموسيقي، وسر نجاح بوب مارلي الساحق في بساطة كلماته وأهمية الرسالة التي تنشرها: التمرد على الظلم، العدالة، الحرية، السلام، محاربة الفقر، والحب بكل أنواعه، حيث لم تكن أغانيه مجرد«كلام مقفى»، وإنما تحولت لأفعال ملموسة على أرض الواقع. فقد قال عنه رئيس منظمة العفو الدولية جاك هيلي «حيثما ذهبت، وجدت بوب مارلي رمزاً للحرية»، كما قال منتج أعماله كريس بلاكويل «لقد كان بوب، في وقت من الأوقات، مسؤولاً عن إطعام ٤٠٠٠ فقير تقريباً في جامايكا».

ولد مارلي في ٦ فبراير من عام ١٩٤٥م بقرية سانت آن شمالَ جامايكا، وفي طفولته كان يقضي كل وقت فراغه في الغناء والاستماع إلى الموسيقى، ولم يكن يملك مالاً ليشتري به أسطوانات، لذلك كان يستمع طوال الوقت إلى الموسيقى، التي تبثها الإذاعات الأمريكية، خاصة أغاني راي تشارلز، وترك بوب المدرسة مبكراً وعمل في ورشة لحام.

هاجر بوب إلى أمريكا حيث كان ينظف الأرض في فندق دوبونت، إضافة لعمله المسائي في مصنع سيارات مسخراً كل دخله لتحقيق أحلامه الموسيقية، وأغنت هذه التجارب حياته لأنها أتاحت له التعرف عن قرب على حركة المطالبة بالحقوق المدنية للسود في الولايات المتحدة، كما شاهد بعينيه المعاملة العنصرية القاسية التي يتعرض لها السود هناك، مما ترك أثراً عميقاً في نفسه انعكس على أغانيه لاحقاً.

وألف مارلي أغانيه التي لحنها وأداها ضمن فرقة سميت «ويلرز» التي لاقت رواجاً محلياً لبساطة كلماتها ودعوتها للتمرد على الظلم، العدالة، الحرية، السلام، محاربة الفقر، والحب بكل أنواعه. وفي صيف ١٩٧١م خطا مارلي على أرض أوروبة وأحيا حفلاً في لندن، تلتها عقود والبومات قدمته للعالمية.

وقد توفي بوب بعد إصابته بمرض سرطان الجلد عام ١٩٨١م، ودفن بجواره غيتار وكرة قدم وخاتمه في وطنه جامايكا.[٩]

معرض لصور مان راي:

ضم المعرض الوطني للتصوير، الذي افتتح مؤخرا في لندن، أكثر من ١٥٠ لوحة تصويرية من حصيلة إنتاج المصور الفوتوغرافي مان راي التقطت بين عامي ١٩١٦ حتى ١٩٦٨م وغالبيتها لم يسبق عرضها في لندن من قبل.

ولد مان راي في إيمانويل رادينيتسكي في ولاية فلاديلفيا بالولايات المتحدة عام ١٨٩٠م وقضى سنوات عمره المبكرة في نيويورك إذ كرس وقته للرسم بالطلاء، لكنه في الوقت ذاته كان يعلم نفسه التصوير وهو الجهد الذي مكنه من إنتاج أعمال فنية كثيرة.

وفي عام ١٩١٥م قابل راي الفنان الفرنسي مارسيل دوتشامب، وقاده هذا التعارف إلى باريس وتغيرت طبيعة عمله بعد تأثره بحركتي السريالية والدادائية (وهي حركة تحارب الفن الداعم للحرب) واللتين كانتا سائدتين هذا الوقت.

و قادت تجربة راي في مجال التصوير إلى إنتاج كاميرا لا تستخدم طريقة (ريوغراف)، كما استطاع بالتعاون مع المصور لي ميللر ابتكار أسلوب التشميس، ويقوم هذا الأسلوب على تسجيل الصورة على صورة مطبوعة على أساس أن تكون الألوان متعارضة تماما أو جزئياً مع لونها الأصلي حيث تظهر مناطق اللون الأبيض سوداء اللون وتظهر المناطق السوداء بيضاء اللون بدرجات متفاوتة.، وتطبع الصورة بشكل نهائي بألوانها الطبيعية، واستخدم هذا الأسلوب في إنتاج بورتريه ميللر الموجود في أعلى الصفحة.

وكتب دوتشامب: «كان هذا هو الإنجاز الذي حققه مان راي والذي استطاع من خلاله التعامل مع الكاميرا كما تعامل مع فرشاة الطلاء، ليحولها لمجرد أداة لخدمة العقل.»، ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية رحل إلى هوليوود وقضى معظم وقته في الرسم، وأنتج عدداً كبيراً جداً من اللوحات التصويرية للعديد من نجوم السينما.

ثم عاد راي إلى باريس عام ١٩٥١م وبقي هناك حتى وفاته عام ١٩٧٦م، وقام بتجريب إعادة رسم عدد من لوحاته الشهيرة بالألوان، وقد امتد تأثير راي إلى كل مكان وشمل مصورين مثل بيرنس آبوت وبيل برانديت،

وكلاهما تشكلت رؤيته من خلال مان راي، كما شهدت أعماله انتشاراً على نطاق واسع في المجلات المصورة الشهيرة واسعة الانتشار، مثل فو فوج وفانيتي فير.(١٠)

ذاكرة عُمان:

قامت هيئة الوثائق والمحفوظات العمانية في مطلع هذا العام بتدشين مشروع التاريخ الشفوي، وذلك سعياً منها لتوثيق وحفظ التاريخ الشفوي الذي يمثل جزءًا من الذاكرة الوطنية إلى جانب الوثيقة المكتوبة.

وتمَّ تشكيل فريق عمل متخصص ومدرب في مجال التاريخ الشفوي ومجهز بكل الأدوات الفنية والتقنية التي يحتاجها العمل، وقد باشر فريق العمل لإنجاز المهمة الموكلة إليه لحفظ جانب من الإرث والمخزون العلمي والثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري والأدبي الذي تختزنه الذاكرة البشرية وهي عرضة للفقدان للعديد من العوامل والمسببات.

ويأتي اهتمام الهيئة بهذا المشروع إيماناً بأهمية توثيق تاريخ عمان القديم من خلال حفظ الرواية الشفوية، ويمثل مشروع التاريخ الشفوي (المروي) إضافة جديدة ومركز إشعاع مهم للمعرفة البحثية، ويعد من الركائز الأساسية في توجه الهيئة لتكوين بيئة داعمة للبحث العلمي وقادرة على الإسهام الفاعل في حفظ ذاكرة الوطن، ولضمان بقائها كرصيد تاريخي حي للبلاد، من خلال إجراء المقابلات التوثيقية مع صناع الحدث أو المشاركين فيه أو مع أصحاب الفكرة والتجربة اليومية.

ويعتبر التاريخ الشفوي (المروي) من الوثائق الوطنية المهمة، التي لا تقل أهمية عن الوثائق المدوّنة، إذ إنَّ كليهما تحفظ جوانباً مهمة من ذاكرة الوطن يستشف من خلال مضمونها الذي يوحي إلى التوثيق الشفوي وهو جزء من الوثائق الأخرى التي تحفظ ذاكرة الوطن، والتي تبين للمواطنين والباحثين من داخل السلطنة وخارجها أن للوطن ذاكرة يجب أن تحفظ، فالرواة هم من لديهم المعلومة والدراية، ومن عايشوا الأحداث أو شاركوا فيها، أو سمعوا عنها، أو أولئك الذين انتقلت إليهم تلك المعلومات من جيل لآخر، ويبقى هؤلاء مرجعاً لهذه الوثائق الشفوية.

وتعدُّ الرواية الشفوية مصدرًا آخر لايقل أهمية عن مصادر كتابة التاريخ عند

المؤرخين، وإحدى طرق اكتشاف المعارف والحصول على العلوم، حيث إنّها تحتوي على معلومات -وأحداث وقراءات استقوها- من خلال مصادر شفوية، فينقلوها عبر كتاباتهم، بعد أن يقوموا بتمحيصها وتحليلها، وهو ما سلكه المؤرخون الذين تتميز أقلامهم بالموضوعية والنزاهة على سبيل الاختصار لا للحصر كأن يقول: حدثنا فلان عن فلان، وذكر فلان، وقال لي فلان وغيرها.

فالهدف من اعتماد الهيئة لمشروع التاريخ الشفوي (المروي) هو تحقيق غايات سامية، وأهداف نبيلة تتمثل في حفظ الذاكرة الوطنية الشفوية، ومن أهمها سرعة الوصول إلى الأشخاص الذين يمتلكون المعلومات والمعارف الشفوية التي تضيف رصيداً آخر للرصيد الوطني من الذاكرة المحفوظة.

ويرتكز المشروع على خصائص أساسية عدة؛ منها الإعداد؛ حيث يتم من خلال تدريب وتأهيل الكوادر البشرية والموظفين والمتعاونين من الباحثين المسجلين لدى الهيئة، وكذلك اقتناء الأدوات والمعدات من كاميرات وأدوات تصوير وصوت، وأجهزة الحاسب الآلي وأجهزة أخرى. كما ينبغي أيضاً إيجاد مكاتب وأماكن مخصصة لهذا الغرض تُجرى فيها المقابلات سواء أكانت داخل الهيئة أو خارجها، وتهيئة المخازن لاستقبال المواد وحفظها، وتجهيز الأدوات، والمكاتب المعدة لتفريغ المقابلات.

ويمثل مشروع التاريخ الشفوي نقلة كبيرة في عمل الهيئة، ويبرز سعيها الحثيث لحفظ الذاكرة الوطنية للبلاد، والمتمثلة في الاهتمام بالرواية الشفوية باعتبارها مصدراً لا غنى عنه في تعزيز الرصيد الوطني من الذاكرة، وليس غريباً إذا أطلقنا عبارة الوثيقة الشفوية على الرواية الشفوية، باعتبارها الوثيقة المدونة، فالوثيقة المدونة كانت وثيقة شفوية تتناقلها الألسن، وتحفظها العقول، وهي عرضة أكثر من الوثائق المدونة (المكتوبة) للتغيير، نظراً إلى حالة الإنسان، وما يعتريه من ضعف في الذاكرة لتقدمه في العمر، أو لأسباب أخرى صحية أو اجتماعية أو سياسية، تؤدي إلى فقدان الوثيقة الشفوية.

• • •

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG.

٢- موقع ميدل إيست أون لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO.

٣- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM

٤- موقع العرب أونلاين WW.ARABONLINE.CO.

٥- وكالة أنباء الشرق الأوسط WWW.MENA.ORG.EG,

٦- موقع ألف ياء WWW.ALEFYAA.COM.

٧- وكالة الأنباء الخليج WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET

٨- موقع إيلاف WWW.ELAPH.COM.

٩- أنباء موسكو /نوفوش AR.RIAN.RU.

١٠- موقع بي بي سي WWW.BBC.CO.UK/ARABIC

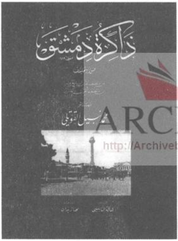
«ذاكرة دمشق»

رحلة في الصورة والتوثيق إلى الزمن القادم

د. إسماعيل مروة ✪

عن «دمشق» وهل مثل دمشق بين المدائن والأماكن؟ وعن «الذاكرة» وهل مثل ذاكرة دمشق الإنسان والمكان؟

في دمشق تأخذ الأشياء أشكالها، وفي دمشق يخلد الحدث ويتحول إلى ذكرى، وأي ذكرى؟! في دمشق للرصيف المكان الأرفع، وللبيت سكنى القلب، وللمعبد قداسة البوق، واحترام الخالق، وفي دمشق للإنسان التجول في الأرجاء الفسيحة حيث لا قيد يقيد، ولا مانع يمنع، ولا إشارات مرور للفكر أو عليه أو فيه.. دمشق التي اختارها الشيخ محي الدين مستراحاً ومقاماً ومستقراً لأنها الصبية الحرة التي لا قيد فيها، ولا قيد في معصمها، ولا قيد على ساكنها وعاشقها وناشد المعرفة الحقة.. دمشق عجيبة الأرض كما وصفها ياقوت، البستان الذي زرعه الله، ولم يزرعه إنسان..



عن دمشق يحلو الحديث، يستعذب المرء الكتابة، يستلذ المصور وهو يحمل آلة تصويره، ينتشي التشكيلي وهو يغمس ريشته بالحب، يعجز النحات عن إنشاء تمثال يشبه المدينة وحسنها وإنسانها.. عن الذكرى وما

✪ كاتب وأديب وشاعر وأستاذ جامعي.

أطيب الذكرى يتوه المـرء.. لكن مدينة بهذا الألق، وذكريات لاتتوقف عن التراكم بحاجة إلى تسجيل وتوثيق وأرشـفة، وهذا ما أقدم عليه الدمشقي النبيل المهندس نبيل القوتلي حين احتفى بدمشق، وقرن اسمه باسمها في سـجل هو من أمتع السجلات، ومن أكثرها دقة وتوصـيفاً وحباً (ذاكرة دمشـق -صور وتعليقات- من منتصـف القرن التاسع عشر إلى منتصـف القرن العشرين) فعلى مساحة قرن من الزمن يسجل الباحث الصديق المهندس نبيل القوتلي ذكريات دمشق، ويضع عباراته الرشيقة حتى لا يرهق جدار الذكرى..

عن دمشق والصورة والتاريخ:

كأي معشوقة وصلت مرتبة العرفان الصوفي الـذي لا يدانى يتحـدث نبيل القوتلي للشام فيدلـف إليها على مـرأى ومسـمع من الحياة كلها، ليتحدث عن صفاتها، ويحدد سماتها، تلك السـمات التي تفصل بينها وبين المدائن الأخرى من دون أن يغض ذلك من قيمة تلك المدائن:

«فما مـن باحث عن أمـان إلا وجد في الشام أماناً..

وما مـن باحث عن الـرزق إلا وجد في الشام بغيته..

ومـا من باحث عن الجمـال إلا كان في الشام كل الجمال..»

فالشـام عند مؤلفنا أمان وحياة وجمال، وهل تكون الحياة من دون اجتماع هذه الأشياء في معشـوق واحد، في معبود واحد؟ ويدرك المؤلف أنَّ المحب مهما بلغ في مراتب العشـق لن يسـتطيع أن يوفي الشام حقها، وهي التي كتـب فيها المؤرخون والمحدثـون، وتغزل بها الشعراء على مرّ العصور من حسان بن ثابت إلى نزار قباني، لذا اختار جانباً واحداً لا غير لسبب واحد عرضـه «ليس بوسعنا أن نقدم كل ما نشـعر به تجاه دمشـق، لذلك اخترنا جانباً واحداً يظهر قيمة دمشـق وتاريخها، ومحافظتها على عناصرها التي شكّلتها».

وفي هذا إجابة واضحة لا لبس فيها لمن يسأل عن خصوصـية الشام، وعن الأسباب التي حـدت إلى النظر إليهـا بعين التوقير والتبجيل.. وفي الوقت نفسـه تشرح لمن يعد المحافظة على الأشـياء نقيصـة، فالشـام تحافظ على عناصرها التي شـكّلتها، والتي أظهـرت جوهرها القائـم على الخروج من الداخل إلى الخـارج في رحلة البروز، ومن الخـارج إلى الداخل في رحلة الاسـتيعاب، والويـل لمن يعجز عن القراءة، أو عن الولوج إلى جوهر الحجر، وعظمة الإنسـان، وغنى التاريخ..!

مبهـوراً وقف المؤلف ابن دمشـق الذي خرج مـن زواريبهـا حـاملاً في جيوبه كل ذكرياته، وكل العبق الشـامي الأصيل الذي يحمل بخـور المعابد المترفـة، المترفعة عمّا يشـعره العابرون في تاريخها فهم لايدركون

فعل بخورها الذي يتجاوز أسمى أنواع العطور في الكون... تحت غرة الشام يقبع التاريخ والصورة والذكرى والذاكرة.

وعلى الرغم من العشق للشام إلا أنَّ المؤلف وضع منهجاً صارماً ألزم نفسه به، إذ اعتمد الصورة والتاريخ، ولم يترك العنان لنفسه في كتابة ما يريد كتابته «اخترنا أن نصنع ألبوماً من الصور يؤرخ لمدينة دمشق لأكثر من قرن من الزمن ويتناول هذا العمل عبر منهج تاريخي أبرز معالم دمشق وتاريخها، والعادات والصناعات، وذلك من خلال صور التقطها أبناء دمشق أو زائروها، أو من خلال لوحات فنية رسمها فنانون فتنوا بدمشق وسحرها».

فالعمل محدود بالصورة واللوحة، خلال قرن أو يزيد من الزمن، ولكن من يستعرض الصور يجد الندرة في هذه الصور، فهو لا يلتقط أي صورة تعنّ له أو تعرض عليه، وإنّما اختار من الصور أكثرها ندرة وتعبيراً. فكثير من هذه الصور قد لا نعثر عليها في مكان آخر، وعدد من الصور يشترك فيها الكتاب مع كتب أخرى أو مصادر أخرى، ولكن الصور كلها سواء أكانت نادرة أو معروفة تتمتع في الكتاب بالأصالة، فهو لا ينقل عن المصادر الأخرى، وإنّما يعتمد الصور الأصيلة التي يحتفظ بها في مكتبته الدمشقية الأرشيفية الأصيلة والغنية.

المنهج واحترام القارئ:

من حسن حظي وطالعي أنني كنت قريباً من المهندس القوتلي، فعرفت أسلوبه العلمي الهادئ والصارم، والقائم على الاقتصاد في الحديث والكتابة «حتى تكون هذه الصور ذات قيمة تاريخية وأدبية، فقد وثّقنا تاريخ التقاط الصورة، لما في هذا التاريخ من توثيق لدمشق وحالها. ولما فيه من فائدة للباحثين الذين يمكن أن يعدّوا دراسات عن التحولات التاريخية والاجتماعية في دمشق.. وفي النص حاولنا الابتعاد عن الأسلوب الجاف لتقريبها إلى القارئ والباحث، وتمت ترجمة هذه النصوص إلى لغات أخرى لإيماننا بضرورة وضع مثل هذا العمل بين أيدي جمهرة المهتمين بدمشق وتاريخها من العرب وغير العرب على السواء».

إذن، لم تكن الصورة وحدها غاية، بل التوثيق، لذلك كانت أهمية الإشارة إلى تاريخ التقاط الصورة، وقد وضع الباحث في حسبانه الدارسين لدمشق وتاريخها، وهم بأمس الحاجة للصورة الوثيقة، وليس الصورة الفنية التي لا تملك تاريخاً، وغير معلومة المصدر، ولو على وجه التقريب، ولكون المهندس القوتلي من الكتّاب والمؤلفين، وهو صاحب عشرات المؤلفات في الأنساب وعلم الأنساب، فقد أراد أن يضع عبارة هي أقرب ما تكون إلى أسلوبه الذي يحترم

القارئ، ولو شاء المؤلف لكان هذا الكتاب بمجلدات عدّة، ولكن الغاية النبيلة لديه في خدمة دمشق وتاريخها ومجتمعها كانت فوق كل غاية، ولم يشأ أن يرفع ذاته ومعرفته فوق دمشق وتكريمها، فكانت عبارته موجزة وكافية تفيد الباحث والقارئ على السواء.

ولعلّ من المفيد الإشادة بهذه اللغة الثلاثية في الكتاب، فالتعليق أو التعريف العربي نقل إلى الإنجليزية والفرنسية، وقليلة هي الكتب التي تعتمد هذه الثلاثية، فقد يتوجه كاتب إلى الإنجليزية وآخر إلى الفرنسية وثالث إلى العربية، وقد ينجز بعضهم أكثر من كتاب وكل كتاب بلغة مستقلة، وهنا تضيع الغاية والفائدة، لكن المؤلف اختار التعليق اللازم ليتمكن من إثبات ثلاثية اللغة في صفحة واحدة فتتم الفائدة التي يريدها، خاصة لدى الباحثين الذين يحملون أكثر من لغة في الوقت نفسه.

القائم والزائل والأطياف:

ركّز القوتلي في صوره المختارة من أرشيفه على جوانب عدّة، فهي تعطي صورة لما هو قائم حتى اليوم، وتغطي التطور الذي جرى، وذلك نجده في صور الجامع الأموي، وثرياته والإضاءة وتطورها من الزيت وحتى صارت في فترة متأخرة نوعاً ما إنارة بالكهرباء، وفي هذه الصور الكثير مما يستدعي الإعجاب والدهشة بهذا الإنسان الدمشقي الذي تطور بما يلائم العصور التي مرت به، وفي الوقت نفسه حافظ على الشكل العام والهيكل الذي وصل إلينا من أيام الأمويين وحتى اليوم. وأمّا الصور الأخرى فهي قد تتفوق في الأهمية، تلك التي تتعلق بأثر كان موجوداً ولكن الزمن أزاله، أو المستعمر في الحقب المتتالية نال منه في بعض أحياء دمشق، وصور الكتاب «ذاكرة دمشق» كانت جامعة، بحيث لم تأخذ جانباً واحداً أو طيفاً واحداً من أطياف المجتمع بل تنقلت بين أحياء دمشق العريقة داخل السور، والأحياء المستحدثة، وبين الآثار الإسلامية والأخرى المسيحية، ورصدت الصور تلك الحالة الحضارية في الصناعات والحرف، وتفاعل دمشق مع محيطها.

«أغلب الصور المختارة لشواهد لاتزال حاضرة إلى يومنا، وبعضها ينقل صورة أثر كان شامخاً، وأزالته يد الدهر، ودمرته يد العدوان، كما في حي «سيدي عامود» الحريقة حالياً. ونحن إذ نختار هذه الصور فإنّما نفعل ذلك للتاريخ والتوثيق، وبيان ما يقدم عليه المحتل من تدمير من أجل إطالة عمره وبقائه.

دمشق المدينة الحاضرة على الدوام، والمتعددة بثقافاتها ودياناتها وطوائفها لا تزال كما هي، وإن تبدلت بشكل تام».

فالكاتب يدرك التغيير الذي جرى ويجري، ولكنه يؤكد هوية دمشق، وبقاء

دمشق في حالة من الاستمرار، فإن أُحرق حي سيدي عامود، وفيه الكثير من ذكريات دمشق، وفيه درج الرئيس شكري القوتلي وغيره، إلا أن دمشق احتفظت للمستعمر بفعلته وأطلقت اسم فعلته «الحريقة» على الحي ليشهد التاريخ ما فعله هذا المستعمر لإطالة بقائه.. رحل المستعمر، بقيت دمشق، الحريقة شاهدة، والصورة تحكي للقادم عمّا كان، وتعطي العبرة لمن وجد مجالاً للاعتبار، وها هي تحفظ سيدي عامود في ذاكرة أبناء دمشق، وفي ذاكرة دمشق ذاكرة وكتاباً.

وفي هذا العمل كانت دمشق الغاية والهدف وهذا ما عبر عنه الكاتب «أردنا من هذا العمل إخراج أرشيف خاص من الصور النادرة واللوحات المفقودة لنقدمها بين يدي مدينة دمشق التي قدّمت للحضارة الكثير، وكانت عبر تاريخها الطويل منارة للتحضر، ونقدمها دليلاً على أنّ المدينة المتأصلة لا تؤثر فيها نوائب الدهر والسنوات بل تجعلها متوثبة دوماً نحو الخلود والبقاء».

الترتيب التاريخي:

الفصل الأول: ضمّ اللوحات والصور لدمشق في القرن التاسع عشر، وكانت فيه اللوحات التالية: الجامع الأموي لوحة حفر ١٨٠٠م، المئذنة الشرقية للأموي صورة ١٨٧٠م، المئذنة الغربية تصوير بونفنيس ١٨٧٥م، صورة قبة المال في الأموي ١٨٨٠م، مقام النبي يحيى والثريات المضاءة بالشموع ١٨٨٠م، الباحة الخارجية للأموي ١٨٨٠م، حرم الأموي الداخلي ١٨٩٠م، دمشق منظر عام ١٩٠٠م، الأموي منظر عام ١٩٠٠م، باب البريد ١٨٨٠م، الرواق الشمالي، مئذنة العروس ١٨٧٠م، المنبر والمحراب القديم ١٨٨٥م، ضريح صلاح الدين الأيوبي ١٨٩٨م، مئذنة جامع القلعي ١٨٥٠م، جامع الشيخ رسلان ١٨٥٠م، خان أسعد باشا، شوارع دمشق، البيوت المطلة على بردى ١٨٥٠م، الدور الدمشقية، المدرسة السليمانية، التكية السليمانية، تربة المهاجرين، بردى ١٨٧٠م، الطاحونة، باب كيسان، السوق التجاري، حارات دمشقية، المقاهي ومقاعدها، الليوان، صالة الاستقبال، سوق السروجية، حي الميدان، ومن المهن: الفلاحة، التزود بالماء، الصباغة، الحفر على النحاس، الإسكافي، الخيل، النول، الطحن، الحمّال، عصر الزيت...

نلاحظ التدرج في الحديث عن الأماكن من المقدس وجزئياته، إلى المعالم والبيوت، ومن ثم إلى الأحياء والحارات، وصولاً إلى المهن السائرة وخدمة الناس، وفي كل هذه الصور يقدم المؤلف الوثائق الهامة للمتخيل، والذي نقرأ عنه في الكتب والمدونات وحسب، ويكفي أن نقف عند صورة ثريات الأموي المضاءة بالشموع، أو بردى يوم كان بردى.

الفصل الثاني: ضمّ لوحات القرن العشرين فبدأ من دمشق والأموي بكل تفصيلاته والأضرحة والأسواق والساحات خاصة المرجة، وباب توما والباب الشرقي وباب السلام وقصر العظم وأهم المنازل، وبعض هذه الصور تحتفظ بآثار العدوان مثل بيت مراد القوتلي، وصورة نادرة تحتفظ بقصف الفرنسيين خريف ١٩٢٥م، لحي سيدي عامود «الحريقة» إضافة إلى صور من الحي قبل العدوان، وصورة لفندق فكتوريا الكبير، وصور للأسواق والقلاع والمعالم، وكنيسة حنانيا تحت الأرض ويصفها بعجيبة الكنائس وأكثرها شهرة ولها أكثر من صورة، وصورة لمقبرة باب الصغير...

الفصل الثالث: ضمّ لوحات منتصف القرن العشرين، وقدم المعالم الحضارية كالخط الحديدي ومحطة الحجاز والمكتبة العمومية، ونافذة القديس بولس وساحة المرجة والمجلس النيابي وأبي رمانة والمالكي وغيرها من الأحياء.

الفصل الرابع: ضمّ لوحات ملونة لدمشق وبساتينها والصالحية والمهاجرين وبردى وقصر العظم والمقاهي والأضرحة والساحات والمساجد.

بهذه الفصول الأربعة وثّق المهندس القوتلي لدمشق وصورها، وقد خصصت الأول بالتواريخ والصور لما في ذلك من ندرة وأهمية في وقت كانت الصورة فيه عزيزة وصعبة المنال، أمّا عن التعليق وأهميته، فقد حرص المؤلف على إضافة معلومات، وعدم الاكتفاء بالصورة، ففي تعليقه على صورة أخذت عام ١٨٨٠م، لمقعد عالٍ في مقهى جاء التعليق: (دخل التبغ -التوتن- إلى دمشق سنة ١٥٥٠م في العصر العثماني، وبدخوله رسمياً انتشرت المقاهي في دمشق... كذلك كانت المقاهي الدمشقية في القرن التاسع عشر تضم مقاعد عالية، وأخرى عادية) بهذا التعليق الموجز تحدث الكاتب عن تاريخ الصورة وتاريخ التبغ، وخصوصية مقاهي دمشق وانتشارها. وكان بإمكانه أن يكتب الكثير عن الموضوع، لكنه اكتفى بما يحقق الفائدة والمعلومة.

كتاب «ذاكرة دمشق» للمهندس نبيل القوتلي كتاب تذكاري وتوثيقي علمي لدمشق وتاريخها، قدمه هدية لدمشق التي لها علينا أفضال لا تحصى، ليقول: «إنّ دمشق زينة المدائن باقية دوماً، ولن تؤثر فيها عوادي الزمن، فقدم مع الناشر المثقف عادل عساف كتاباً يستحق أن يكون هدية دمشق على الدوام، ليعيش الإنسان في عبق هو منه، ومن واجبه أن يحافظ عليه دوماً، ويباهي به من دون أن يكترث لما يمكن أن يمزق الذاكرة والوعي بالتاريخ والمدينة والإنسان.

●●●

آخر الكلام

رئيس التحرير

إلياس الرحباني
فارس الموسيقى

الموسيقار اللبناني الصديق إلياس الرحباني، أدخل الفرحة والبهجة والسرور إلى قلوب عشاق فنّه الأصيل الرائع والمتجدد، عندما منحته الحكومة الفرنسية وسام الفنون والآداب من رتبة فارس، تقديراً لمجمل أعماله ومؤلفاته الموسيقية التي بلغ عددها /٦٥٠٠/ مقطوعة وأغنية، أداها أكثر من /٩٦/ مؤدياً ومغنياً، وهي متنوعة وموزّعة بين موسيقى وأناشيد وطنية ودينية وأعمال «أوبرا» و«أوبريت» ومسرحيّة وموسيقى أفلام.. قام بإنجازها على مدى أكثر من خمسين سنة من العمل المتواصل، والإبداع الذي لا حدود له، في عالم الموسيقى والنغم والتطور..

مسيرة عطاء إلياس الرحباني، بدأت منذ ستينيات القرن الماضي، وكان بحق ومازال شخصية فنية استثنائية في عالم الموسيقى العربية والعالمية، قام باستلهام روح عصره، وقد أحب الموسيقى بعد أن تعرّف عليها من خلال أخويه عاصي

ومنصور (الأخوين رحباني) اللذين كانا يكبرانه في السن، وتوزعت دراسته في «أنطلياس» ومعهد الرسل في جونيه ومدرسة الفرير في رأس بيروت وفي عام ١٩٥٤م انتسب إلى «الأكاديمية» اللبنانية لمدة أربع سنوات، حيث تمرّس بالعزف على البيانو، قبل أن ينتقل إلى «الكونسرفتوار» الوطني عام ١٩٥٥م، وفي الفترة الواقعة بين ١٩٦٢ و١٩٧٢م أسس ما يعرف بـ«الموجة العالمية للموسيقى والأغاني الفرنسية والإنكليزية»، ونال العديد من الجوائز المحليّة والعربية والعالمية..

يعود الفضل إلى إلياس الرحباني في إطلاق /٣٥/ مغنياً من أشهرهم: ماجدة الرومي، باسكال صقر، جوليا، مانويل، سامي حبيقة المعروف بسامي كلارك وغيرهم، وغنّى من ألحانه فيروز وصباح ونصري شمس الدين وهدى وملحم بركات وغسان صليبا ووديع الصافي، وعمل في المسرح الاستعراضي، وشارك في مهرجانات معرض دمشق الدولي، ومهرجانات بعلبك، ورافق فرق الفنون الشعبية والأخوين رحباني في جولات عالمية كثيرة، ووضع الموسيقى التصويرية للعديد من الأفلام السينمائية العربية أشهرها: «حبيبتي» و«أجمل أيام حياتي» و«دمي ودموعي وابتسامتي»، واستعانت فرق موسيقية لبنانية وعالمية عدّة بألحانه المميزة..

لقد حمل إلياس الرحباني إلى لبنان الشقيق والوطن العربي، ثورة فنية نبيلة، مطعّمة بالأصالة والجديّة والإبداع، وسلك درباً طويلاً أوصله إلى آفاق عالمية رحبة وواسعة الآفاق، قدّم من خلالها جيلاً بكامله إلى الشهرة والاستحقاقات الكبرى، حيث لم يقدّم إلياس الرحباني للجمهور العربي والعالمي مطرباً أو نجماً إلا وحصد النجاح والإعجاب منذ اللحظة الأولى لظهوره، مثلما فعل مع ملحم بركات في لحن «لاتهزي كبوش التوتة»، ومع صباح في لحن «هالي دبكة يابا أوف»..

حركته التجديدية في الموسيقى تجاوزت المألوف في زمن انهارت فيه القيم، وتحطّمت الآمال، وتقوقع الطموح.. مشهدية الأغنية تخرج من يديه كمنحوتة متكاملة، متوازنة، ثابتة ورصينة، فيها التزاوج السلس بين اللحن والصوت والكلمة، بين السمع والنظر والمشاعر.. تعشق الأذن ألحانه لما تحمله من دفء، وما تعبق به من رومانسية، وحيث ينثرها يستحضر الربيع، ويفوح العطر، وتتجدد الحياة..

إلياس الرحباني: باعتقادي أنّ التكريم الحقيقي للفنان والأديب والمبدع أن يحبه الناس، وأنت في قلوب الجماهير منذ عقود زمنية عدّة.. أنت مكرّم منذ أكثر من نصف قرن.. ألف مبروك وشكراً من القلب لأنك لم تبخل علينا، أعطيتنا أجمل الألحان والأغنيات، والأعمال الموسيقية الرائعة..